# فتح البيان في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه
خادم العلم
عبدالله بن ابراهيم الأنصاري

## الجزء السابع



المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

فتحُ البيان

في مقاصد القرآن



الجزء السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

أوله تفسير سورة الرعد وتبدأ بقوله تعالى :

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾

- سورة ابراهيم
- سورة الحجر
- سورة الاسراء الى آخرها.





# سورة الرعد

## ﴿وهي ثلاث وقيل أربع أو خمس أو ست وأربعون آية﴾

وقد وقع الخلاف هل هي مكيّة أو مدنيّة . وممن ذهب الى الاول سعيد بن جبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر وابن زيد . والى الثاني ابن الزبير والكلبي ومقاتل . والقول الثالث أنها مدنيّة الا آيتين فانهما نزلتا بمكة وهما قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ﴾ وقيل قوله : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ وقيل هو الذي يريكم البرق ـ الى قوله ـ له دعوة الحق . وعن جابر بن زيد كان يستحب اذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد فان ذلك يخفف عن الميت وأنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿المر﴾ قد تقدم الكلام في الحروف الواقعة في أوائل السور بما يغني عن الاعادة ، قال ابن عباس : المعنى أنا الله أرى ؛ وقال مجاهد فواتح يفتتح بها كلامه والحق أن الله تعالى أعلم بمراده أو هو اسم للسورة والتقدير هذه السورة اسمها هذا .

﴿تلك﴾ أي آيات هذه السورة ، وقيل إشارة إلى ما قص عليه من أنباء الرسل وقيل إلى آيات القرآن وعليه جرى الزمخشري وجمهور المفسرين ﴿آيات الكتاب﴾ والمراد بالكتاب السورة أي تلك آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن والإضافة بمعنى من ، وقال مجاهد : الكتاب التوراة والإنجيل .

﴿والذي أنزل اليك من ربك﴾ المراد به القرآن كله ، قال قتادة وغيره أي هو ﴿الحق﴾ البالغ في اتصافه بهذه الصفة لاشك فيه ﴿ولكن أكثر الناس﴾ يعني مشركي مكة ﴿لا يؤمنون﴾ بهذا الحق الذي أنزل الله إليك ، قال الزجاج : لما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال :

﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد﴾ العمد الأساطين والدعائم جمع عماد أي على غير قياس والقياس أن يجمع على عمد بضم العين والميم ، وقيل إن عمداً جمع عماد في المعنى أي أنه اسم جمع لا جمع صناعي وهو صادق بأن لا عماد أصلاً وهذا هو أصح القولين أي قائمات بغير عمد تعتمد عليها ، وقيل لها عمد ولكن لا نراها ، وهذا قول مجاهد وعكرمة ، قال الزجاج : العمد قدرته التي يمسك بها السموات وهي غير مرئية لنا ، وقرىء عمد على أنه جمع عمود يعمد به أي يسند اليه .

وجملة ﴿ترونها﴾ مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك ، وقيل هي صفة لعمد ، وهو أقرب مذكور ورجحه الزمخشري ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير رفع السموات ترونها بغير عمد ، ولا ملجىء إلى مثل هذا التكلف ، قال ابن عباس : وما يدريك لعلها بعمد لا ترونها وقال يقول لها عمد ، ولكن لا ترونها يعني الاعماد .

قال إياس بن معاوية : السماء مقببة على الأرض مثل القبة ، وبه قال الحسن وقتادة وجمهور المفسرين ، وعن ابن عباس قال : السماء على أربعة أملاك كل زاوية موكل بها ملك ، قال السمين في هذا الكلام وجهان :

**أحدهما**: انتفاء العمد والرؤية جميعاً أي لا عمد فلا رؤية يعني لا عمد لها فلا ترى ، وإليه ذهب الجمهور .

**والثاني** : أن لها عمداً ولكن غير مرئية .

﴿ثم﴾ هنا لمجرد العطف لا للترتيب لأن الاستواء عليه غير مرتب على رفع السموات ﴿استوى على العرش﴾ استواء يليق به هذا مذهب السلف ، وقال المعتزلة استولى عليه بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وأقبل على خلق العرش ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى ، والحق أن الاستواء على العرش صفة الله سبحانه بلا كيف كما هو مقرر في موضعه من علم الكلام ﴿وسخر

الشمس والقمر﴾ أي ذللهما لما يراد منهما من منافع الخلق ومصالح العباد فالحركة المستمرة على حد من السرعة تنفع في حدوث الكائنات وبقائها ﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجري لأجل مسمى﴾ أي إلى وقت معلوم معين وهو فناء الدنيا وزوالها وقيام الساعة التي تتكور عندها الشمس وينخسف القمر وتنكدر النجوم وتنتثر ، وقيل المراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتيهان اليها لا يجاوزانها وهي سنة للشمس وشهر للقمر لا يختلف جري واحد منهما قيل وهذا هو الحق في تفسير الآية .

﴿يدبر الأمر﴾ أي أمر العالم العلوي والسفلي يعني يقضيه ويمضيه وحده ، قاله مجاهد ، والمعنى يصرفه على ما يريد وهو أمر ملكوته وربوبيته يدبره على أكمل الأحوال وأتم الأفعال لا يشغله شأن عن شأن ، وقيل يدبر الأمر بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة، ولا وجه للتخصيص بشيء دون شيء فان اللفظ أوسع من ذلك ، قال الكرخي : وحمل التدبير على العموم أولى من حمله على نوع من أحوال العالم كما جرى عليه جمع من المفسرين ، وهذا التدبير والإنفاذ والإمضاء هو من فوق العرش وهو ظاهر نظم القرآن الكريم .

﴿يفصل﴾ أي يبين ﴿الآيات﴾ الدالة على كمال قدرته وربوبيته ومنها ما تقدم من رفع السماء بغير عمد وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى والمراد بهذا تنبيه العباد على أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة ولهذا قال ﴿لعلكم﴾ عند مشاهدة هذه الآيات ﴿بلقاء ربكم توقنون﴾ لا تشكون فيه ولا تمترون في صدقه .

ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ على وجه الماء ، قال الفراء : بسطها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام ويتقلب عليها الحيوان ، وقال الأصم : إن المدّ هو البسط إلى ما

لا يدرك منتهاه زاد الكرخي : فقوله مد الأرض يشعر بأنه تعالى جعل الأرض حجماً عظيماً لا يقع البصر على منتهاه انتهى .

قيل وهذا المد الظاهر للبصر لا ينافي كرويتها في نفسها لتباعد أطرافها ، وبه قال أهل الهيئة[1]، والله أخبر أنه مد الأرض وأنه دحاها وبسطها وأنه جعلها فراشاً وكل ذلك يدل على كونها مسطحة كالأكف ، وهو أصدق قيلاً وأبين دليلاً من أصحاب الهيئة .

وفي الجامع الصغير حديث رواه البيهقي عن ابن عباس ولفظه : أول بقعة وضعت من الارض موضع البيت ثم مدت منها الأرض ، وأن أول جبل وضعه الله على وجه الأرض أبو قبيس ثم مدت منه الجبال[1] .

وعن ابن عمرو قال : الدنيا مسيرة خمسمائة عام ، أربعمائة عام خراب ومائة عمران ، في أيدي المسلمين من ذلك مسيرة سنة ، وقد روي عن جماعة من السلف في ذلك تقريرات لم يأت عليها دليل يصح .

وعن علي بن أبي طالب قال : لما خلق الله الأرض قمصت وقالت : أي رب تجعل عليّ بني آدم يعملون عليّ الخطايا ويجعلون عليّ الخبث فأرسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون فكان إقرارها كاللحم ترجرج .

﴿وجعل فيها﴾ جبالاً ﴿رواسي﴾ أي ثوابت تمسكها عن الاضطراب واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها أي تثبت والرسو الثبوت ﴿وأنهاراً﴾ أي مياهاً جارية في الأرض فيها منافع الخلق ، أو المراد جعل فيها مجاري الماء .

﴿ومن كل الثمرات﴾ متعلق بجعل في قوله ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر ، واكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان إذ يطلق الزوج على المجموع ، ولكن اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية ، أي جعل من كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين ،

---

(١) ضعيف الجامع الصغير/ ٢١٣١ .

إما في اللونية كالبياض والسواد ونحوهما او في الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما او في القدر كالصغر والكبر او في الكيفية كالحر والبرد وما أشبه ذلك ، ويجوز أن يتعلق بجعل الأول ويكون الثاني استئنافاً لبيان كيفية ذلك الجعل ، قاله أبو السعود .

قال الفراء : يعني بالزوجين هنا الذكر والانثى من كل صنف ، ومثله عن مجاهد والأول أولى .

﴿يغشى الليل النهار﴾ أي يلبسه مكانه فيصير أسوداً مظلماً بعدما كان أبيضاً منيراً أشبه إزالة نور الجو بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التي تسترها أي يستر النهار بالليل ، والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول فإن ضوء النهار أيضاً ساتر لظلمة الليل إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي .

وعدَّ هذا في تضاعيف الآيات السفلية وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً باعتبار ظهوره في الأرض فإن الليل إنما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلاً ، ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على أنهما ايضاً زوجان متقابلان مثلها ، وقرىء يغشى من التغشية ، وقد سبق تفسير هذا في الاعراف .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من مد الأرض وإثباتها بالجبال وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة وتعاقب النور والظلمة ﴿لآيات﴾ بينة ﴿لقوم يتفكرون﴾ أي للناظرين المتفكرين المعتبرين فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والفكر هو تصرف القلب في طلب الأشياء .

وقال صاحب المفردات : الفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل ، وذلك للإنسان دون الحيوان ولا يقال

إلا فيما يمكن أن يكون له صورة في القلب ، ولهذا روى تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله إذ الله منزه عن أن يوصف بصورة .

﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي بقاع مختلفة ، وهذا كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات ، قيل وفي الكلام حذف ، أي قطع متجاورات وغير متجاورات كما في قوله ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أي والبرد ، وقيل المتجاورات المدن وما كان عامراً ، وغير المتجاورات الصحاري وما كان غير معمور .

وقيل معنى متجاورات متدانيات ترابها واحد وماؤها واحد وفيها زرع وجنات ثم تتفاوت في الثمار فيكون البعض حلواً والبعض حامضاً ، والبعض طيباً والبعض غير طيب ، والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع آخر .

وعن ابن عباس قال : يريد الأرض الطيبة العذبة التي يخرج نباتها بإذن ربها تجاورها السبخة القبيحة المالحة التي لا يخرج منها نباتها وهما أرض واحدة وماؤها شيء واحد ، ملح او عذب ففضلت أحداهما على الأخرى قال قتادة : قرىء متجاورات قريب بعضها من بعض .

وقال ابن عباس : الأرض تنبت حلواً والأرض تنبت حامضاً وهي متجاورات تسقى بماء واحد ، وقيل متلاصقات فمنها طيب وسبخ ، وقليل الريع وكثيره ، وهو من دلائل قدرته تعالى سبحانه .

﴿و﴾ في الأرض ﴿جنات﴾ أي بساتين وعلى النصب تقديره جعل فيها جنات ، والجنة كل بستان ذي شجر من نخيل واعناب وغير ذلك ، سمي جنة لأنه يستر بأشجاره الأرض وإليه الإشارة بقوله ﴿من أعناب﴾ جمع عنب ﴿وزرع ونخيل﴾ ذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل لأنه يكون في الخارج كثيراً كذلك ، ومثله في قوله سبحانه جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب

وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ، والنخل والنخيل بمعنى والواحد نخلة ، لكن النخل يذكر ويؤنث والنخيل مؤنث لا غير .

﴿صنوان وغير صنوان﴾ قرىءبـالرفـع في الأربعة عطفاً على جنات وبالجر عطفاً على أعناب وبضم الصاد وكسرها وهما لغتان والأولى لغة قيس وتميم والثانية لغة العامة وقرىء بفتحها وهو اسم جمع لا جمع تكسير لأنه ليس من ابنية فعلان بالفتح ، ونظير صنوان بالفتح سعدان ، قال ابو عبيدة جمع صنو ، وهو أن يكون الأصل واحداً ثم يتفرع فيصير نخيلاً ثم يحمل .

وهـذا قول جميـع أهل اللغـة والتفسير ، فـالصنوان جمـع صنو وهي النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ، فالصنو المفرد واحد هـذه النخلات ، قال ابن الاعرابي : الصنو المثل . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « عم الرجل صنو ابيه »[1] فمعنى الآية على هذا أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون .

قال في الكشاف : جمع صنو وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد ، وقيل الصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق . قال النحاس : وهو كذلك في اللغة ، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان . والصنو المثل ولا فرق بين التثنية والجمع إلا بكسر النون في المثنى وبما يقتضيه الإعراب في الجمع .

عن البراء بن عازب قال : الصنوان ما كان أصله واحداً وهو متفرق وغير الصنوان التي تنبت وحدها ، وفي لفظ الصنوان النخلة في النخلة ملتصقة وغير الصنوان النخل المتفرق . وعن ابن عباس : هي مجتمع النخل في أصل واحد وغيرها المتفرق ، وفي السمين والصنو الفرع يجمعه ، وفرعاً آخر أصل

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٣٩٧٩ .

واحد والمثل ، وفي المختار إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد فكل واحدة منهن صنو ، والاثنتان صنوان بكسر النون والجمع صنوان برفعها .

﴿يسقى﴾ بالتحتية أي يسقى ذلك كله ، يعني أشجار الجنة وزروعها ﴿بماء واحد﴾ والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام ، وقيل في حده هو جوهر سيال به قوام الأرواح ، وقرىء تسقى بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات . وقال أبو عمرو : التأنيث أحسن لقوله :

﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ أي في الطعم ما بين الحلو والحامض وغير ذلك من الطعام ولم يقل بعضه ، قرىء بالنون على تقدير ونحن نفضل ، وقرىء بالياء ، ومتى قرىء الأول بالتاء جاز في الثاني الياء والنون ، ومتى قرىء الأول بالياء تعين في الثاني النون لاغير ، فالقراءات ثلاثة لا أربعة كما توهم وكلها سبعية .

قال الكرخي : قرىء بالتحتية ليطابق قوله يدبر وقرىء بنون العظمة وأنت خبير بأن القراء يتبعون فيما اختاروه من القراءات الأثر لا الرأي فإنه لا مدخل له فيها .

أخرج الترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال « الدقل والفارسي والحلو الحامض »[1] ، وقال مجاهد هذا كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم ، وأبوهم واحد ، وعن ابن عباس قال : هذا حامض وهذا حلو ، وهذا دقل وهذا فارسي .

والأكل بضمتين وإسكان الثاني للتخفيف المأكول والمراد به ما يؤكل منها وهو الثمر والحب ، فالثمر من النخيل والأعناب والحب من الزرع ، كأنه قال

---

(١) الترمذي كتاب التفسير/ سورة ١٣ .

ونفضل الحب والثمر بعضها على بعض طعماً وشكلا ورائحة وقدراً وحلاوة وحموضة وغضاضة وغير ذلك من الطعوم ، وفضلها أيضاً في غير ذلك كاللون والنفع والضر وإنما اقتصر على الأكل لأنه أعظم المنافع .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور ﴿لآيات﴾ دلالات على بديع صنعه وعظيم قدرته فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الثمرات في الأكل فيكون طعم بعضها حلو والآخر حامضاً وهذا في غاية الجودة ، وهذا ليس بجيد ، وهذا فائق في حسنه ، وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضى لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه ، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا للسببين . إما اختلاف المكان الذي هو المنبت أو اختلاف الماء الذي تسقى به ، فإذا كان المكان متجاوراً وقطع الأرض متلاصقة والماء الذي تسقى به واحداً لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب .

﴿لقوم يعقلون﴾ أي يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودات ، أي يستعملون عقولهم بالتفكر فيها ، خص هذا بالعقل والأول بالتفكر لأن الاستدلال باختلاف النهار أسهل ، ولأن التفكر في الشيء سبب لتعقله والسبب مقدم على المسبب ، فناسب تقديم التفكر على التعقل .

قال الحسن : هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم ، فالناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم وتخشع وتخضع ، وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع . وقال أيضاً : والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة او نقصان ، قال الله تعالى ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ .

۞وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾

﴿وإن تعجب﴾ يامحمد من تكذيبهم لك بعدما كنت عندهم من الصادقين ﴿فعجب﴾ أي فأعجب منه ﴿قولهم﴾ أي تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب لأنه تغير النفس بشيء تخفى أسبابه، وذلك في حق الله تعالى محال ، قاله القرطبي .

وقيل العجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة وإنما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله واتباعه .

قال الزجاج : أي هذا موضع عجب أيضاً أنهم أنكروا البعث وقد بين لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة وقد تقرر في النفوس أن الإعادة أهون من الإبداء فهذا موضع التعجيب ، وقيل الآية في منكري الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغير فهو محل التعجب .

والأول أولى لقوله ﴿أئذا كنا تراباً أئنّا لفي خلق جديد﴾ والجملة في محل الرفع أو النصب والعجب على الاول كلامهم وعلى الثاني تكلمهم بذلك أو لا يرون أنه خلقهم من نطفة ، فالخلق منها أشد من الخلق من تراب وعظام ، والعامل في إذا نبعث أو نعاد، والاستفهام منهم للانكار المفيد لكمال

الاستبعاد ، وفي هذا الاستفهام المكرر اختلف القراء اختلافاً منتشراً وهو في أحد عشر موضعاً في تسع سور من القرآن ولا بدّ من تعيينها .

**فأولها** هنا .

**والثاني والثالث** في الإسراء بلفظ واحد ﴿أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ .

**والرابع** : في المؤمنون ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾.

**والخامس** : في النمل ﴿أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾ .

**والسادس** : في العنكبوت ﴿أئنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، أئنكم لتأتون الرجال﴾ .

**والسابع** : في آلم السجدة﴿أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد﴾ .

**والثامن والتاسع** : في الصافات ﴿**أئذا** متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ وأئنا لمدينون .

**والعاشر** : في الواقعة مثل الصافات .

**والحادي عشر**: في النازعات ﴿أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاماً نخرة﴾ .

فهذه هي المواضع المختلف فيها ثم الوجه في قراءة من استفهم في الأول والثاني المبالغة في الانكار فأتى به في الجملة الأولى وأعاد في الثانية تأكيداً له ، والوجه في قراءة من أتى به مرة واحدة حصول المقصود ، لأن كل جملة مرتبطة بالأخرى فإذا أنكر في إحداهما حصل الإنكار في الأخرى ، ذكره السمين ، وتقديم الظرف في قوله ﴿لفي خلق﴾ لتأكيد الإنكار بالبعث .

وكذلك تكرير الهمزة في قوله أئنا ، والمعنى أي نعاد خلقاً جديداً بعد

الموت كما كنا قبله ؛ ولم يعلموا ان القادر على إنشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على إعادتهم .

ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة :

**الأول** : ﴿أولئك الذين كفروا بربهم﴾ أي أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتمادون في الكفر الكاملون فيه ، وفيه دليل على كفر منكري البعث .

﴿و﴾ **الثاني** ﴿أولئك الأغلال في أعناقهم﴾ الأغلال جمع غل بالضم وهو طوق من حديد يجعل في العنق أو تشد به اليد إلى العنق ، اي يغلون بها يوم القيامة كما يقاد الأسير ذليلاً بالغل ، وقيل الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق ﴿و﴾ **الثالث** ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ، وفي توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكري البعث .

﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾ نزل في استعجالهم العذاب استهزاء والسيئة العقوبة المهلكة ، والحسنة العافية والسلامة ، قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم وشدة تصميمهم .

﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ جمع مثلة كسمرة وهي العقوبة الفاضحة ، سميت بذلك لما بين العقاب والمعاقب عليه وهو الذنب من المماثلة في أن كُلًّا منهما مذموم .

قال ابن الأنباري : المثلة العقوبة التي تبقى في المعاقب شيئاً بتغيير بعض خلقه من قولهم مثل فلان بفلان إذا شان خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه ، وقرىء بفتح الميم وإسكان الثاء تخفيفاً لثقل الضمة ، قيل وهي لغة الحجاز ، وفي لغة تميم بضم الميم والثاء جميعاً ، واحدتها على لغتهم مثلة ، مثل غرفة وغرفات ، وقرىء بفتحهما .

وقيل المثلة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالاً يرتدع غيره به . قال قتادة : المثلات العقوبات ، يعني وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم . وقال ابن عباس : المثلات ما أصاب القرون الماضية من العذاب ، والمعنى أن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بهم ويحذرون من حلول ما حل بهم .

وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية ﴿وإن ربك لذو مغفرة﴾ أي لذو تجاوز عظيم ، والمراد بها الإمهال وتأخير العذاب ﴿للناس على﴾ أي مع ﴿ظلمهم﴾ باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي إن تابوا عن ذلك ورجعوا إلى الله سبحانه ، والجار والمجرور في محل نصب على الحال أي حال كونهم ظالمين .

وفي الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير ، لأن من المعلوم أن الانسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً فيجوز العفو قبل التوبة ولهذا قيل إنها في عصاة الموحدين خاصة .

وقيل المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة كما تقدم ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة ، وكما يفيده قوله تعالى ﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾ فيعاقب من يشاء من العصاة المكذبين من الكافرين عقاباً شديداً على ما تقتضيه مشيئته في الدار الآخرة فتأخير ما استعجلوه ليس للاهمال .

عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد »[1] .

﴿ويقول الذين كفروا﴾من أهل مكة﴿لولا﴾ هلا ﴿أنزل عليه﴾ أي على

---

(١) ابن كثير ٥٠١ .

محمد صلى الله عليه وسلم ﴿آية من ربه﴾ غير ما قد جاء به من الآيات كالعصا واليد والناقة ، وهؤلاء القائلون هم المستعجلون للعذاب وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ذماً لهم بكفرهم بآيات الله التي تخر لها الجبال حيث لم يرفعوا لها رأساً ولم يعدوها من جنس الآيات ، وهذا مكابرة من الكفار وعناد وإلا فقد أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغني البعض منه .

قال الزجاج : طلبوا غير الآيات التي أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى فقال الله تعالى ﴿إنما أنت منذر﴾ تنذرهم بالنار وليس إليك من الآيات من شيء وفيه إزالة لرغبته صلى الله عليه وسلم في حصول مقترحهم ، فإنه كان شديد الرغبة في إيجاب مقترحاتهم لشدة التفاته إلى إيمانهم ، قاله الخطيب .

وجاء في إنما أنت بصيغة الحصر لبيان أنه صلى الله عليه وسلم مرسل لإنذار العباد وبيان ما يحذرون عاقبته وليس عليه غير ذلك ، وقد فعل ما هو عليه وأنذر أبلغ إنذار ، ولم يدع شيئاً مما يحصل به ذلك إلا أتى به وأوضحه وكرره فجزاه الله عن أمته خيراً .

﴿ولكل قوم هاد﴾ أي نبي يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ، ورشادهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون وإن لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها ، وآيات الرسل مختلفة ، هذا يأتي بآياته أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها ، ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ في التعنت الى مكان عظيم فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية ، وذلك لا يختص بفرد منها ولا بأفراد معينة . قال الرازي : فهذا هو الوجه الذي قرره القاضي ، وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظما . انتهى .

وقيل إن المعنى ولكل قوم هاد هو الله سبحانه عز وجل فإنه القادر على ذلك وليس على أنبيائه إلا مجرد الإنذار. قال ابن عباس : هاد أي داع ،

وقال مجاهد : المنذر محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكل قوم هاد نبي يدعوهم إلى الله ، وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن عباس نحوه ، وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المنذر وهو الهادي . أخرجه ابن مردويه ، وعن عكرمة وأبي الضحى نحوه .

وقيل الهادي هو العمل الصالح ، وقيل الهادي هو القائد إلى الخير لا إلى الشر وهو يعم الرسل وأتباعهم إلى آخر الدهر .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال : أنا المنذر ، وأومأ بيده الى منكب عليّ فقال (أنت الهادي يا عليّ بك يهتدي المهتدون من بعدي[1])، اخرجه ابن جرير وأبو نعيم في المعرفة ، والديلمي وابن عساكر وابن النجار ، قال ابن كثير في تفسيره ، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة .

وجملة ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته سبحانه بالعلم وعلمه بالغيب الذي هذه الأمور منه . وقيل الاسم الشريف خبر ، أي لكل قوم هاد هو الله ، وجملة ﴿يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ تفسير لهاد ، وهذا بعيد جداً ، والعلم هنا متعد لواحد بمعنى العرفان وما موصولة ، أي يعلم الذي تحمله كل أنثى في بطنها من علقة أو مضغة أو ذكر أو أنثى أو صبيح أو قبيح أو سعيد أو شقي أو طويل أو قصير ، أو تام أو ناقص ، أو استفهامية ، أي يعلم أي شيء في بطنها وعلى أي حال هو ؛ أو مصدرية ، أي يعلم حملها .

﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ وما في الموضعين محتملة للأوجه المتقدمة وغاض وازداد سمع تعديهما ولزومهما ولك أن تدعي حذف العائد على القول بتعديهما وأن تجعل ما مصدرية على القول بلزومهما ، والغيض النقص وعليه

(١) ابن كثير/ ٢ ٥٠٢ .

أكثر المفسرين أي يعلم الذي تغيضه الأرحام أي تنقصه ، ويعلم ما تزداده لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا من أوقاته وأحواله فقيل المراد نقص خلقة الحمل وزيادته كنقص أصبع أو زيادتها .

وقيل ان المراد نقص مدة الحمل عن تسعة أشهر او زيادتها ، وقيل إذا حاضت المرأة في حال حملها كان ذلك نقصا في ولدها ، قاله ابن عباس واذا لم تحض يزداد الولد وينمو فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم ، وقال سعيد بن جبير : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداده منه ، وقال الضحاك : ما تغيض السقط وما تزداد ، ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما ؛ وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله وكل ذلك يعلمه الله .

وقال مجاهد : الغيض خروج الدم ؛ والزيادة استمساكه ؛ ومدة الحمل أكثرها عند قوم سنتان ، وبه قالت عائشة وابو حنيفة ، وقيل إن الضحاك ولد لسنتين ، وقيل أكثرها أربع سنين ، وإليه ذهب الشافعي وقيل خمس سنين ، وبه قال مالك وأقلها ستة أشهر ، وقد يولد لهذه المدة ويعيش .

﴿وكل شيء﴾ من الأشياء التي من جملتها الأشياء المذكورة ﴿عنده﴾ سبحانه ﴿بمقدار﴾ هو القدر الذي قدره الله وهو معنى قوله سبحانه ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ أي كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه لا يخرج عن ذلك شيء ، وهذا مذهب السلف ، وقال الكرخي : هذه عندية علم ، أي يعلم كيفية كل شيء وكميته على الوجه المفصل المبين .

ويحتمل أن يكون المراد بالعندية أنه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية ، ويدخل في هذه الآية أفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم وهي من أدل الدلائل على بطلان قول المعتزلة .

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي عالم كل غائب عن الحس وكل مشهود حاضر او كل معدوم وموجود ، وقال الضحاك : عالم السر والعلانية ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك ﴿الكبير المتعال﴾ أي العظيم الذي كل شيء دونه المتعالي عما يقوله المشركون او المستعلى على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره او المتعالي عن الخلق باستوائه على عرشه ومباينته عن خلقه وهو الأولى .

ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يغادر شيئاً منها بين أنه عالم بما يسرونه في أنفسهم وما يجهرون به لغيره تعالى وأن ذلك لا يتفاوت عنده فقال ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به﴾ فهو يعلم ما أسره الإنسان كعلمه بما جهر به من خير أو شر أي سواء ما أضمرته القلوب او نطقت به الألسن ، وسر من أسر ، وجهر من جهر .

﴿ومن هو مستخف بالليل﴾ أي مستتر في الظلمة الكائنة في الليل المتواري عن الأعين يقال خفى الشيء واستخفى أي استتر وتوارى ﴿وسارب بالنهار﴾ .

قال الكسائي : سرب يسرب سراباً وسروباً إذا ذهب ، وقال القتيبي : أي متصرف في حوائجه بسرعة من قولهم أسرب الماء .

قال الأصمعي : حل سربه أي طريقته ، والسرب بالكسر النفس يقال هو واسع السرب أي رخى البال والسرب بفتحتين بيت في الأرض لا منفذ له وهو الوكر .

وقال الزجاج : معنى الآية الجاهر بنطقه والمضمر في نفسه ، والظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات ، علم الله فيهم جميعاً سواء وهذا الصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب ، فالمستخفي المستتر ، والسارب البارز الظاهر ، ولنعم ما قاله بعضهم :

يا من ترى مدَّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
وترى عروق نياطها في نحرها والمخ في ذاك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول

وقيل مستخف راكب رأسه في المعاصي ، وسارب ظاهر بالنهار بالمعاصي .

وعن ابن عباس : قال هو صاحب ريبة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس انه بريء من الإثم .

﴿له﴾ الضمير راجع الى ﴿من﴾ في قوله ﴿من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف﴾ أي لكل من هؤلاء ﴿معقبات﴾ هي المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلاً منه وهم الحفظة من الملائكة تعتقبه في قول عامة المفسرين ؛ قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتي بعضهم بعقب بعض قيل هم خمسة بالليل وخمسة بالنهار .

وفي الخطيب انهم عشرون لكل انسان عشرة بالليل وعشرة بالنهار ، وهو

الذي في شرح الجوهرة ، وإنما قال معقبات مع كون الملائكة ذكوراً لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة ثم جمع معقبة على معقبات ذكر معناه الفراء كما قيل أبناوات سعد ، ورجالات بكر .

وقيل أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة ، قال الجوهري : والتعقب العود بعد البدء قال الله تعالى ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ وقرىء معاقيب جمع معقب وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر » ، الحديث بطوله أخرجه الشيخان[1] ، وقال ابن عباس هذه للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

قلت العموم أولى ويدخل فيه سبب النزول دخولاً أولياً .

﴿من بين يديه ومن خلفه﴾ أي من بين يدي من له المعقبات ؛ والمراد أن الحفظة من الملائكة يتعاقبون من جميع جوانبه ، وقيل المراد بالمعقبات الأعمال ومعنى من بين يديه ومن خلفه ما تقدم منها وما تأخر ﴿يحفظونه من﴾ أجل ﴿أمر الله﴾ وقيل يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب ، وقيل يحفظون عليه الحسنات والسيئات ، وقيل من شر طوارق الليل والنهار .

قال الفراء في هذا قولان :

**أحدهما** : انه على التقديم والتأخير أي له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه .

**والثاني** : أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به ، قال الزجاج : المعنى حفظهم إياه من أمر الله أي مما أمرهم به لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله قال ابن الأنباري : وفي هذا قول آخر وهو أن من بمعنى الباء أي يحفظونه بأمر

---

(١) مسلم/ ٦٣٢ ـ البخاري/ ٣٥٩ .

الله واعانته واستظهره السفاقسي ، وقيل إن من بمعنى عن أي يحفظونه عن أمر الله بمعنى من عند الله لا من عند أنفسهم كقوله ﴿أطعمهم من جوع﴾ أي عن جوع .

وقيل يحفظونه عن ملائكة العذاب وقيل يحفظونه من الجن والأنس فهي على بابها ، واختار ابن جرير أن المعقبات المواكب والحراس والجلاوزة بين أيدي الأمراء في حول السلطان على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء .

وقال ابن عباس : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله وبإذن الله ، لأنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق أن يحفظ أحداً من أمر الله ومما قضاه الله عليه إلا بأمره وإذنه ، وعن قتادة مثله .

وعنه أيضاً قال : وليّ السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه يقول يحفظونه من أمري ، فإني إذا أردت بقوم سوءاً فلا مرد له ، وقال أيضاً الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من أمامهم وعن خلفهم وعن شمالهم يحفظونهم من القتل ، ألم تسمع أن الله يقول ﴿إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له﴾ أي إذا أراد سوءاً لم تغن الحرس عنه شيئاً .

وعن عكرمة قال : هؤلاء الأمراء ، وعن ابن عباس قال : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فاذا جاء قدر الله خلوا عنه .

وعن علي قال : ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط أو يتردى في بئر أو يأكله سبع أو يغرق أو يحرق ، فاذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر ، وقد ورد في ذكر الحفظة الموكلين بالإنسان أحاديث كثيرة مذكورة في كتب الحديث .

﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾ من النعمة والعافية ﴿حتى يغيروا ما

بأنفسهم﴾ من طاعة الله والحالة الجميلة بالحالة القبيحة ؛ والمعنى أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة ، او يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها ، قيل وليس المراد أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير ، كما في الحديث انه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سائل فقال : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم اذا كثر الخبث(١) .

﴿واذا أراد الله بقوم سوءاً﴾ أي هلاكاً وعذاباً ﴿فلا مرد﴾ أي فلا راد ﴿له﴾ وقيل المعنى إذا أراد بقوم سوءاً أعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿وما لهم من دونه من وال﴾ يلي أمرهم ويلتجئون اليه فيدفع عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه من العقوبات ، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله .

والمعنى أنه لا راد لعذاب الله ولا ناقض لحكمه .

ولما خوف سبحانه عباده بإنزال ما لا مرد له أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه وتخاف من بعضها ، وهي البرق والسحاب والرعد والصاعقة ، وقد مر في أول البقرة تفسير هذه الألفاظ وأسبابها فقال ﴿هو الذي يريكم البرق﴾ هو لمعان يظهر من خلال السحاب .

وعن علي بن أبي طالب قال : البرق مخاريق من نار بأيدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب . وروي عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه .

﴿خوفاً وطمعاً﴾ أي لتخافوا خوفاً ولتطمعوا طمعاً ، وقيل النصب على العلة بتقدير إرادة الخوف والطمع او على الحالية من البرق او من المخاطبين

(١) مسلم ٢٨٨٠ ـ البخاري ١٥٨٢ .

بتقدير ذوي خوف ، وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه، قيل والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق وبالطمع هو الحاصل بالمطر .

وقال الزجاج : الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر ، والطمع للحاضر لأنه إذا رأى البرق طمع في المطر الذي هو سبب الخصب ، قال قتادة : خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم يطمع في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته وعن الحسن خوفاً لأهل البحر وطمعاً لأهل البر . وعن الضحاك قال : الخوف ما يخاف من الصواعق والطمع الغيث .

﴿وينشيء السحاب الثقال﴾ التعريف للجنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة والسحاب الغيم المنسحب في الهواء ، والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التي ينشئها ثقالاً بما يجعله فيها من الماء .

﴿ويسبح الرعد﴾ نفسه متلبساً ﴿بحمده﴾ وليس هذا بمستبعد ، ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد بذلك ويكون ذكره على الإنفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له وعناية به ، والمسموع لنا منه هو نفس صوته إذا سبح التسبيح المذكور .

وقيل هو صوت الآلة التي يضرب بها السحاب أي الصوت الذي يتولد عنه الضرب ، وقيل المراد ويسبح سامعو الرعد ، أي يقولون سبحان الله وبحمده ، والأول أولى .

أخرج أحمد عن شيخ من بني غفار قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله ينشيء السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك[1] ، وقيل والمراد بنطقها الرعد وبضحكها البرق ، وقد ثبت عند أحمد والترمذي والنسائي في

---

(١) صحيح الجامع الصغير ١٩١٦ .

اليوم والليلة والحاكم في مستدركه من حديث ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك[1] .

وأخرج العقيلي وضعَّفه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينشيء الله السحاب ثم ينزل فيه الماء فلا شيء أحسن من ضحكه ولا شيء أحسن من نطقه ، ومنطقه الرعد وضحكه البرق[2] .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبدالله أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصاري سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن منشأ السحاب فقال : إن ملكاً موكلاً يلم القاصية ويلحم الدانية ، بيده مخراق فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت ، واذا ضرب صعقت .

وعن ابن عباس قال : أقبلت يهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : ملك من ملائكة الله سبحانه موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله ، قالوا : فما هذا الصوت الذي يُسمع ؟ قال : صوته ، قالوا : صدقت ، اخرجه الترمذي وغيره[3] .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد وابن أبي الدنيا في المطر وابن جرير عن ابن عباس أنه كان اذا سمع صوت الرعد قال سبحان الذي سبحت له ، وقال إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه ، وقد روي نحو هذا عنه من طرق وعن أبي هريرة أن الرعد صوت الملك ، وعن ابن عمر نحوه .

---

(١) المستدرك كتاب الأدب ٢٨٦/٤ .

(٢) أحمد بن حنبل ٤٣٥/٥ .

(٣) الترمذي كتاب التفسير سورة ١٣ ـ احمد بن حنبل ٢٧٤/١ .

وعن ابن عباس قال : الرعد ملك اسمه الرعد وصوته هذا تسبيحه ، فإذا اشتد زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه . وعن أبي عمران الجوني قال : ان بحوراً من نار دون العرش تكون منها الصواعق . وعن السدي قال : الصواعق نار .

وتسبح ﴿الملائكة من خيفته﴾ سبحانه أي هيبته وجلاله ، وقيل من خيفة الرعد ، وقد ذكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد وان الله سبحانه جعل له أعواناً .

﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ من خلقه فيهلكه ، وسياق هذه الأمور هنا للغرض الذي سيقت له الآيات التي قبلها وهو الدلالة على كمال قدرته ، والصواعق جمع صاعقة وهي العذاب النازل من البرق ، وقيل هي الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد ، وهذه الأشياء تنشأ منها .

قال الكرخي : وأمر الصاعقة عجيب جداً لأنها نار تتولد في السحاب وإذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان . قال محمد ابن علي الباقر : الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر .

﴿وهم﴾ أي الكفار المخاطبون في قوله ، وهو الذي يريكم البرق ﴿يجادلون في﴾ شأن ﴿الله﴾ فينكرون البعث تارة ويستعجلون بالعذاب أخرى ويكذبون الرسل ويعصون الله ، وقيل الضمير راجع إلى من وأعاد عليها الضمير جمعاً باعتبار معناها ، ثم المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله والجملة مستأنفة .

﴿وهو شديد المحال﴾ أي المماحلة والمكايدة لأعدائه من محل بفلان إذا كاده وعرَّضه للهلاك ومنه تمَحَّل إذا تكلف استعمال الحيلة ، ولعل أصله المحل بمعنى القحط ، والجملة حالية من الجلالة الكريمة ويضعف استئنافها .

قال ابن الأعرابي : المحال المكر والمكر من الله التدبير بالحق ، وقال

النحاس : المكر من الله ايصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر ، وقال الأزهري : المحال فعال من المحل بمعنى القوة والشدة والميم أصلية وماحلت فلاناً محالاً أينا أشد ، وقال أبو عبيدة المحال العقوبة والمكروه .

قال الزجاج : يقال ماحلته محالاً إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد والمحل في اللغة الشدة ، قال ابن قتيبة : أي شديد الكيد وأصله مفعل من الحول أو الحيلة جعل الميم كميم المكان وأصله من الكون ثم يقال تمكنت فاعل على غير قياس ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول إذا احتال .

قال الأزهري : غلط ابن قتيبة ان الميم فيه زائدة بل هي أصلية وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية مثل مهاد وملاك ومراس وغير ذلك من الحروف ، وفي القاموس المحال ككتاب الكيد وروم الأمر بالحيل والتدبير والقدرة والجدال والعذاب والعقاب والعداوة والمعادلة كالمماحلة والقوة والشدة والهلاك والإهلاك .

ومحل به مثلث الحاء محلاً ومحالاً كاده بسعاية الى السلطان وماحله مماحلة ومحالاً قاواه حتى يتبين أيهما أشد انتهى . وللصحابة والتابعين في تفسير المحال هنا أقوال ثمانية :

**الأول** : العداوة .

**الثاني** : الحول .

**الثالث** : الأخذ ، وبه قال ابن عباس .

**الرابع** : الحقد .

**الخامس** : القوة .

**السادس** : الغضب .

**السابع** : الهلاك .

**الثامن** : الحيلة .

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾

﴿له دعوة الحق﴾ الإضافة للملابسة أي الدعوة الملابسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه كما يقال كلمة الحق والمعنى أنها دعوة مجابة واقعة في موقعها لا كدعوة من دونه ، وقيل الحق هو الله سبحانه ، والمعنى ان لله سبحانه دعوة المدعوّ الحق وهو الذي يسمع فيجيب ، وقيل المراد بدعوة الحق ههنا كلمة التوحيد والإخلاص، والمعنى لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له ، وقيل معنى كونها له تعالى أنه شرعها وأمر بها وجعلها افتتاح الإسلام بحيث لا يقبل بدونها ، وقيل دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى ﴿ضل من تدعون إلا إياه﴾ وقيل الدعوة العبادة فإن عبادة الله هي الحق والصدق .

﴿و﴾ الآلهة ﴿الذين يدعون﴾ بالياء متواترة وبالتاء شاذة لا من السبعة ولا من العشرة وعليها فيقرأ كباسط بالتنوين ويكون في قوله الآتي لا يستجيبون التفات ﴿من دونه﴾ أي غير الله عز وجل وهم الأصنام ﴿لا يستجيبون﴾ أي لا يجيبون ﴿لهم بشيء﴾ مما يطلبونه منهم كائناً ما كان ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء﴾ أي استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فإنه لا يجيبه لأنه جماد لا يشعر بحاجته اليه ، ولا يقدر ان يجيب دعاءه ولا يدري انه طلب منه

﴿ليبلغ فاه﴾ بارتفاعه من البئر اليه ولهذا قال ﴿وما هو﴾ أي الماء ﴿ببالغه﴾ أي ببالغ فيه .

وقيل وما الفم ببالغ الماء إذ كل واحد منهما لا يبلغ الآخر على هذه الحال، وقيل وما باسط كفيه إلى الماء ببالغ الماء ذكره السمين، والأول أولى.

أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه الى بلوغ فمه وما الماء ببالغه ، وقيل أنه كباسط كفيه الى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه ، وقد ضرب العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقبض على الماء ، وقال الفراء : أن المراد بالماء هنا ماء البئر لأنها معدن للماء وانه شبهه بمن مدَّ يديه الى البئر بغير رشا .

ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام ، عن عليّ قال : كان الرجل العطشان يمد يده الى البئر ليرتفع الماء اليه وما هو ببالغه ، وعن ابن عباس قال : هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر الى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه .

﴿وما دعاء الكافرين﴾ أي عبادتهم الأصنام أو حقيقة الدعاء والأول هو الظاهر ، والثاني قول ابن عباس:﴿إلا في ضلال﴾ أي يضل عنهم ذلك الدعاء إذا احتاجوا اليه لأن اصواتهم محجوبة عن الله تعالى فلا يجدون منه شيئاً ولا ينفعهم بوجه من الوجوه بل هو ضائع ذاهب .

﴿ولله يسجد من في السموات والأرض﴾ إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقي وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل فذلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن ، وأما في الكفار فلا يصح تأويل

السجود بهذا في حقهم فلا بد أن يحمل السجود المذكور في الآية على معنى حق لله السجود ووجب حتى يتناول السجود بالفعل وغيره أو يفسر السجود بالانقياد لأن الكفار وان لم يسجدوا لله سبحانه فهم منقادون لأمره وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت ، والفقر والغنى ، وجاء بمن تغليباً للعقلاء على غيرهم ، ولكون سجود غيرهم تبعاً لسجودهم .

ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم لله على الفعل من الاختصاص فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله في الأمور التي يقرون على أنفسهم بأنها من الله كالخلق والحياة والموت وغير ذلك .

وايضاً يدل على ارادة هذا المعنى قوله ﴿طوعاً وكرهاً﴾ فإن الكفار ينقادون كرهاً كما ينقاد المؤمنون طوعاً ، وهما منتصبان على المصدرية أي انقياد طوع وانقياد كره ، أو على الحال أي طائعين وراضين وكارهين غير راضين ، قال الفراء : الآية خاصة بالمؤمنين فإنهم يسجدون طوعاً وبعض الكفار يسجدون إكراهاً بالسيف ، وخوفاً كالمنافقين فالآية محمولة على هؤلاء .

وقيل الآية في المؤمنين فمنهم من يسجد طوعاً لا يثقل عليه السجود ومنهم من يثقل عليه لأن التزام التكليف مشقة ، ولكنهم يتحملون المشقة ايماناً بالله واخلاصاً له أو المراد بالسجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية وكل من فيها من ملك وإنس وجن فإنهم يقرون له بالعبودية والتعظيم ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ والأول أولى .

﴿وظلالهم﴾ جمع ظل والمراد به من له ظل منهم كالإنسان لا الجن ولا الملك اذ لا ظل لهما والمعنى سجوده حقيقة تبعاً لصاحبه حيث صار لازماً لا

ينفك عنه ، قال الزجاج : جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله فظله يسجد لله وقال ابنْ الأنباري ولا يبعدأن يخلق الله تعالى للظلال عقولاً وأفهاماً تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيحه ، فظل المؤمن يسجد لله طوعاً وظل الكافر يسجد لله كرهاً .

وقيل المراد بالسجود ميلان الظلال من جانب الى جانب آخر وطولها تارة وقصرها أخرى بسبب ارتفاع الشمس ونزولها والأول أولى .

﴿بالغدو والآصال﴾ أي البكر والعشايا وخصهما بالذكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما وهما ظرف للسجود المقدر ، أي ويسجد ظلالهم في هذين الوقتين ، وقيل لأنهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما ، والغدو بالضم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والغدوة والغداة أول النهار ، وقيل الى نصف النهار .

والآصال جمع أصيل وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهي ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس ، وقد تقدم تفسير الغدو والآصال في الأعراف أيضاً. وفي معنى هذه الآية قوله سبحانه ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون﴾ قيل وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، فيسن للقارىء والمستمع ان يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة .

﴿قل من رب السموات والأرض﴾ أي خالقهما ومتولي أمورهما ، أمر الله سبحانه رسوله أن يسأل الكفار مَنْ ربهما؟ سؤال تقرير ، ثم لما كانوا يقرون بذلك ويعترفون به كما حكاه الله سبحانه في قوله ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ وقوله ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب فقال ﴿قل

الله﴾ فكأنه حكى جوابهم وما يعتقدونه لأنهم ربما تلعثموا[1] في الجواب حذراً مما يلزمهم .

ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويبكتهم فقال ﴿قل أفاتخذتم﴾ الاستفهام للإنكار ، أي إذا كان رب السموات والأرض هو الله كما تقرون بذلك وتعترفون به كما حكاه سبحانه عنكم بقوله ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله﴾ فما بالكم اتخذتم لأنفسكم بعد إقراركم هذا ﴿من دونه أولياء﴾ عاجزين ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا﴾ يضرون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم فكيف ترجون منهم النفع والضر وهم لا يملكونهما لأنفسهم .

ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم فقال ﴿قل هل يستوي الأعمى﴾ في دينه وهو الكافر ﴿والبصير﴾ فيه وهو الموحد ، فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه والثاني عالم بذلك . قال ابن عباس يعني المؤمن والكافر .

﴿أم هل﴾ أم هذه هي المنقطعة فتقدر ببل . والهمزة عند الجمهور ، وببل وحدها عند بعضهم ، وقد تقوى بهذه الآية من يرى تقديرها ببل فقط بوقوع هل بعدها ، وأجيب بأن هل هنا بمعنى قد وإليه ذهب جماعة ، وقيل استفهامية للتقريع والتوبيخ وهو الظاهر ﴿تستوي﴾ قرىءبالتاء والياء والوجهان واضحان ﴿الظلمات﴾ أي الكفر ﴿والنور﴾ أي الايمان ، أي كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت ما بين الأعمى والبصير ، وما بين الظلمات والنور ، ووحد النور وجمع الظلمات لأن طريق الحق واحدة لا تختلف ، وطرائق الباطل كثيرة غير منحصرة .

---

(١) لعثم فيه لعثمة، وتلعثم تمكث وتوقف وتأنى أو نكص عنه وتبصره . إنتهى قاموس .

﴿أم﴾ هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة أي بل أ ﴿جعلوا لله شركاء﴾ والاستفهام لإنكار الوقوع قال إبن الأنباري : معناه أجعلوا لله شركاء ﴿خلقوا كخلقه﴾ أي مثل خلق الله ، يعني سموات وأرضاً وشمساً وقمراً ، وجبالاً وبحاراً وجناً وإنساً .

﴿فتشابه الخلق عليهم﴾ أي فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم ، وهذا كله في حيز النفي كما علمت ، أي ليس الأمر كذلك حتى يشتبه الأمر عليهم ، بل اذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المتفرد بالخلق وسائر الشركاء لا يخلقون شيئاً . والمعنى أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه فتشابه بهذا السبب الخلق عليهم حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم . بل إنما جعلوا له شركاء الاصنام ونحوها بمحض سفه وجهل . وهي بمعزل أن تكون كذلك لأنه لم يصدر عنها فعل ولا خلق ولا أثر البتة .

ثم أمره الله سبحانه وتعالى بأن يوضح لهم الحق ويرشدهم الى الصواب فقال ﴿قل الله خالق كل شيء﴾ كائناً ما كان ليس لغيره في ذلك مشاركة بوجه من الوجوه فلا شريك له في العبادة ، قال الزجاج : والمعنى انه خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً ، ألا ترى انه تعالى شيء وهو غير مخلوق ﴿وهو الواحد﴾ أي المنفرد بالربوبية مقول القول او مستأنفه ﴿القهار﴾ لما عداه فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب .

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه وللباطل ومنتحليه ، فقال ﴿أنزل من السماء ماء﴾ مطراً يعني من جهتها والتنكير للتكثير أو للنوعية ﴿فسالت أودية﴾ جمع واد وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع وإذا نزل لا يعم جميع الأرض ولا يسيل في كل الأودية بل ينزل في أرض دون أرض ويسيل في واد دون واد .

قال ابو علي الفارسي : لا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة إلا هذا ، وكأنه حمل على فعيل مثل جريب وأجربة كما أن فعيلاً حمل على فاعل فجمع على أفعال مثل يتيم وأيتام وشريف وأشراف كأصحاب وأنصار في صاحب وناصر .

قال وفي قوله أودية توسع أي سال ماؤها قال ومعنى ﴿بقدرها﴾ بقدر مائها لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها ، قال الواحدي : والقدر مبلغ الشيء والمعنى بقدرها من الماء فإن صغر الوادي قل الماء وإن اتسع كثر ، قال ابن عباس : الصغير قدر صغره ، والكبير قدر كبره، ونحوه قال ابن جريج وقال في الكشاف بمقدارها الذي يعرف الله انه نافع للممطور عليهم غير ضار ، وقيل بمقدار ملئها أي ما يملؤها كل واحد بحسبه صغراً وكبراً ؛ والباء للملابسة .

قال ابن الأنباري : شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر

إذ نفْع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر ، وشبه الأودية بالقلوب إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والإيمان في قلوب المؤمنين .

﴿فاحتمل السيل﴾ احتمل بمعنى حمل فافتعل بمعنى المجرد وإنما نكر الأودية وعرف السيل لأن المطر ينزل على المناوبة والسيل قد فهم من الفعل قبله وهو فسالت ﴿زبداً رابياً﴾ الزبد هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل ويقال له الغُثاء والرغوة وكذلك ما يعلو عن القدر عند غليانها ، وقيل الزبد وضر الغليان والوضر بفتحتين وسخ الدسم ونحوه وهو مجاز عما يعلو الماء من الغُثاء والرابي العالي المرتفع فوق الماء ، قال الزجاج : هو الطافي فوق الماء ، وقال غيره هو الزائد بسبب انتفاخه من ربا يربو إذا زاد .

والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح ، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل ، وعن ابي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء نفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ووعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين ونفعه ما بعثني الله به فتعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به[1] ، أخرجه البخاري ومسلم .

وقد تم هنا المثل الأول ثم شرع سبحانه في ذكر المثل الثاني فقال ﴿ومما يوقدون عليه في النار﴾ مِن لابتداء الغاية أي ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء أو للتبعيض بمعنى وبعضه زبد مثله والضمير للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره ؛ هذا على قراءة التحتية واختاره أبو عبيدة ، وقرىء بالفوقية على الخطاب والمعنى ومما توقدون عليه في النار فيذوب من الأجسام المتطرفة

(١) مسلم/ ٢٢٨٢ البخاري/ ٦٨ .

الذائبة ، وفي المصباح وقدت النار وقداً من باب وعد ووقوداً والوقود بالفتح الحطب وأوقدتها إيقاداً ومنه على الاستعارة كلما أوقدوا ناراً للحرب ، والوقد بفتحتين النار نفسها والموقد موضع الوقود .

﴿ابتغاء﴾ أي لطلب اتخاذ ﴿حلية﴾ بتزينون بها ويتجملون كالذهب والفضة ﴿أو﴾ لطلب ﴿متاع﴾ آخر يتمتعون به من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والصفر والنحاس والرصاص ﴿زبد مثله﴾ المراد بالزبد هنا الخبث فإنه يعلو فوق ما أذيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير في مثله يعود الى زبداً رابياً وزبد مبتدأ وخبره مما توقدون ، ووجه المماثلة أن كلا منهما ناش من الاكدار .

﴿كذلك﴾ الضرب البديع ﴿يضرب﴾ أي يبين ﴿الله﴾ المثل ﴿الحق﴾ أي الايمان ﴿و﴾ المثل ﴿الباطل﴾ أي الكفر فالحق هو الماء والجوهر الصافي الثابت والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به ثم شرع في تتميم المثل فقال :

﴿فأما الزبد﴾ بقسميه ﴿فيذهب جفاء﴾ باطلاً مرمياً به يقال جفأ الوادي غثاء جفأ إذا رمى به أي يرميه الماء الى الساحل ويرميه الكير فلا ينتفع به والجفاء بمنزلة الغثاء وكذا قال أبو عمرو بن العلاء ، وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ ﴿جفالاً﴾ قال أبو عبيدة أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته ، قال أبو حاتم لا يقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفار .

والمعنى يذهب باطلاً ضائعاً أي أن الباطل وان علا في وقت فإنه يضمحل ويذهب ، وقيل الجفاء المتفرق قاله ابن الأنباري يقال جفأت الريح السحاب أي قطعته وفرقته ووجه المماثلة بين الزبدين في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الأجسام المتطرقة ان تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الأجسام

المتطرقة فإن أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها .

﴿وأما ما ينفع الناس﴾ منها وهو الماء الصافي والجوهر الجيد من هذه الأجسام المذابة والذائب الخالص من الخبث ﴿فيمكث في الأرض﴾ أي يثبت فيها ويبقى ولا يذهب ، أما الماء فإنه يسلك في عروق الأرض فينتفع الناس به ، وأما ما أذيب من تلك الأجسام فإنه يصاغ حلية وأمتعة .

وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل يقول إن الباطل وان ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ، ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل ، وكخبث هذه الأجسام فإنه وان علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه فهذا مثل الباطل .

وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الأرض وكذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه وهو مثل الحق .

قال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الايمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعاً بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به ، وقد حكينا عن ابن الأنباري فيما تقدم أنه شبه نزول القرآن الى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلاً ضربه الله للقرآن .

﴿كذلك﴾ الضرب العجيب ﴿يضرب الله الأمثال﴾ في كل باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم في الارشاد والهداية ، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول أو بجعل ذلك اشارة إليهما جميعاً.

ثم بيَّن سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده ، فقال

فيمن ضرب له مثل الحق ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ خبر مقدم ، أي أجابوا دعوته إذ دعاهم الى توحيده وتصديق أنبيائه والعمل بشرائعه .

﴿الحسنى﴾ مبتدأ مؤخر ، أي المثوبة الحسنى وهي الجنة ، وبه قال جمهور المفسرين ، وقيل الحسنى هي المنفعة العظمى الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع والأول أولى . وهو قول ابن عباس . وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل :

﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ أي لدعوته الى ما دعاهم إليه وهم الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه ، والموصول مبتدأ أخبر عنه بثلاثة أخبار ، الأول الجملة الشرطية وهي ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ من أصناف الأموال التي يتملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شيء ﴿ومثله معه﴾ أي مثل ما في الأرض جميعاً كائناً معه ومنضماً اليه ﴿لافتدوا به﴾ أي بمجموع ما ذكر وهو ما في الأرض ومثله ، والمعنى ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم ، ثم بيَّن سبحانه ما أعد لهم فقال :

﴿أولئك﴾ يعني الذين لم يستجيبوا وهو خبر ثان للموصول ﴿لهم سوء الحساب﴾ من إضافة الصفة للموصوف أي الحساب السيء ، وهو أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شيء .

قال الزجاج : لأن كفرهم أحبط أعمالهم ، وقال غيره هو المناقشة فيه ، وفي الحديث « من نوقش الحساب عذب »[1] ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي مرجعهم اليها ﴿وبئس المهاد﴾ أي المستقر الذي يستقرون فيه أو الفراش الذي يفرش لهم في جهنم ، والمخصوص بالذم محذوف وهو خبر ثالث للموصول المتقدم .

---

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٦٤٥٤ .

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أفمن يعلم﴾ الهمزة للإنكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك ولا يؤمن به ﴿أنما أنزل اليك من ربك الحق﴾ أي ما أنزل الله سبحانه الى رسوله صلى الله عليه وسلم من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة وهو القرآن ﴿كمن هو أعمى﴾ فإن الحال بينهما متباعد جداً كالتباعد الذي بين الماء والزبد وبين الخبيث والخالص من تلك الأجسام .

قيل نزل في حمزة وأبي جهل ، ومع هذا فالأولى حمل الآية على العموم وان كان السبب خاصاً ، والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصره ولا يتبعه ، وعن قتادة قال : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي انما يقف على تفاوت المنزلتين وتباين الرتبتين أو يتعظ أهل العقول الصحيحة .

ثم وصفهم بالأوصاف المادحة فقال ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ أي بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم أو فيما بينهم وبين العباد ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ الذي وثقوه على أنفسهم وأكدوه بالأيمان ونحوها ، وهذا تعميم بعد التخصيص لانه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها .

ويجوز ان يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله ، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عباده على ألسنة الرسل في الكتب الإلهية ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه ويراد بالميثاق ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذر المذكور في قوله سبحانه ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ الآية بأن يؤمنوا إذا وجدوا في الخارج ولا يكفروا، قال قتادة: إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين آية من القرآن.

﴿والذين يصلون ما أمر به ان يوصل﴾ ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده ، ومنه الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرق بين أحد منهم ، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولاً أولياً ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصل قرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿انما المؤمنون إخوة﴾ بالإحسان اليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وإفشاء السلام وعيادة المرضى .

ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر إلى غير ذلك وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم ، واللفظ أوسع من ذلك .

أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين يصلون ما أمر الله ـ الى ـ ويخافون سوء الحساب وقد ورد في صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة .

﴿ويخشون ربهم﴾ خشية تحملهم على فعل ما وجب واجتناب ما لا يحل والخشية خوف يشوبه تعظيم وإجلال، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ وهو الإستقصاء فيه والمناقشة للعبد ، فمن نوقش

الحساب عذب ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

﴿والذين صبروا﴾ قيل مستأنف وقيل معطوف على ما قبله والتعبير عنه بلفظ الماضي للتنبيه على انه ينبغي تحققه والمراد بالصبر الصبر على الإتيان بما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه . وقيل على الرزايا والمصائب ، وقيل عن الشهوات والمعاصي والأولى حمله على العموم ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ أي ثوابه ورضاه معناه أن يكون خالصاً له لا شائبة فيه لغيره كأن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل أو لأجل أن لا يعاب على الجزع أو لأجل أن لا يشمت به الاعداء .

﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي فعلوها في أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه في أذكارها وأركانها مع الخشوع والإخلاص والمراد بها الصلوات المفروضة وقيل أعم من ذلك ﴿وأنفقوا﴾ في الطاعة ﴿مما رزقناهم﴾ أي بعضه ﴿سراً وعلانية﴾ المراد بالسر صدقة النفل والعلانية صدقة الفرض ، وقيل السر لمن لم يعرف بالمال ولا يتهم بترك الزكاة والعلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة والحمل على العموم أولى .

﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ أي يدفعون سيئة من أساء اليهم بالإحسان إليه كما في قوله تعالى ادفع بالتي هي أحسن ، أو يدفعون بالعمل الصالح السيء فيمحوه أو يدفعون الشر بالخير أو المنكر بالمعروف أو الظلم بالعفو أو الذنب بالتوبة أو الحرمان بالإعطاء أو القطع بالوصل أو الهرب بالإنابة ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور .

﴿أولئك﴾ الموصوفون بالصفات المتقدمة ﴿لهم عقبى الدار﴾ العقبى مصدر كالعاقبة والإضافة على معنى في ، أي العقبى المحمودة فيها قال الخطيب العقبى الانتهاء الذي يؤدي اليه الابتداء من خير أو شر ، والمراد بالدار الدنيا وعقباها الجنة ، وقيل المراد دار الآخرة وعقباها الجنة للمطيعين والنار للعصاة .

﴿جنات عدن يدخلونها﴾ أي لهم جنات عدن والعدن أصله الاقامة ثم

صار علماً لجنة من الجنان واسم المكان معدن مثال مجلس لأن أهله يقيمون عليه الصيف والشتاء أو لأن الجوهر الذي خلقه الله فيـه عدن بـه ، قال القشيري : وجنات عدن وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن ولكن في صحيح البخاري وغيره إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة[1] .

وعن ابن مسعود قال : جنات عدن بطنان الجنة أي وسطها ، وعن الحسن ان عمر قال لكعب : ما عدن قال هو قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل .

وأخرج ابن مردويه عن علي قال : قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : جنة عدن قضيب غرسه الله بيده ثم قال له كن فكان[2] .

﴿ومن صلح﴾ أي آمن في الدنيا ، قاله مجـاهد ﴿من آبـائهم﴾ أي أصولهم وهي تشمل الآباء والأمهات ومن لبيان الجنس ﴿وأزواجهم﴾ اللاتي متن في عصمتهم ﴿وذرياتهم﴾ أي ويدخلها هؤلاء الفرق الثلاث وإن لم تعمل بأعمالهم تكرمة لهم قاله ابن عباس ورجحه الواحدي .

قال الرازي : وليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه ، وذكر الصلاح دليل على أنه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات اولئك ، ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج أو الذرية بدون صلاح .

﴿والملائكة يدخلون عليهم﴾ في قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات للتهنئة ، وقيل بل هو في أول دخولهم . قاله السيوطي في الجمل والتقييد بهذا لم نره لغيره من المفسرين . بل في كلام غيره ما يدل على عدمه ﴿من كل باب﴾ أي من جميع أبواب القصور والمنازل التي يسكنونها أو من كل باب من أبواب الجنة أو من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه .

---

(١) البخاري ، كتاب التوحيد ٢٢ ـ كتاب الجهاد ٤ .

(٢) الترمذي، كتاب الجنة، الباب ٤ .

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾

﴿سلام عليكم﴾ أي قائلين سلام عليكم ، فأضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه أي سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة ، وقيل دعاء لهم من الملائكة ، أي سلمكم الله تعالى ﴿بما صبرتم﴾ أي بسبب صبركم في الدنيا على الآفات وهو متعلق بالسلام ، أي إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم أو بمحذوف، أي هذه الكرامة بسبب صبركم وبدل ما احتملتم من مشاق الصبر ﴿فنعم عقبى الدار﴾ أي نعم ما أعقبكم الله من الدنيا الجنة .

أخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا ان نأتي هؤلاء فنسلم عليهم ؟ .

قال الله : ان هؤلاء عبادي كانوا يعبدونني ولا يشركون بي شيئا وتسد

بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب قائلين لهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »[1] .

وفي القرطبي عن عبدالله بن سلام وعلي بن الحسين : اذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الصبر ، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم انطلقوا الى الجنة فتلقاهم الملائكة فتقول الى أين ؟ فيقولون الى الجنة ، قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا: نعم ، فيقولون : من انتم ، فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معاصي الله ، وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا .

قال علي بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها وعملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه ، فالعقبى على هذا اسم والدار هي الدنيا .

وقال أبو عمران الجوني : أي الجنة عن النار بضم الجيم ، وعنه الجنة عن الدنيا وبالجملة فقد جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ما أعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق .

ثم أتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء فقال : ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول بقولهم بلى ﴿ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل﴾ من الإيمان والرحم وغير ذلك ، وقد مر تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير النقض والقطع ولم يتعرض

(١) احمد بن حنبل ١٦٨/٢ .

لنفي الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدمة لـدخولها في النقض والقطع ﴿ويفسدون في الأرض﴾ بالكفر وارتكاب المعاصي والإضرار بالأنفس والأموال .

﴿أولئك﴾ الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿لهم﴾ بسبب ذلك ﴿اللعنة﴾ أي الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه ﴿ولهم سوء الدار﴾ أي سوء عاقبة دار الدنيا وهي النار او عذاب جهنم فإنها دارهم .

﴿الله يبسط الرزق﴾ أي يوسعه ﴿لمن يشاء﴾ أي لمن كان كافراً استدراجاً ﴿ويقدر﴾ أي ويقتره على من كان مؤمناً إبتلاء وامتحاناً وتكفيراً لذنوبه ولا يدل البسط على الكرامة ، ولا القبض على الإهانة ، ومعنى يقدر يضيق ، ومنه ومن قدر عليه رزقه ، أي ضيق ، وقيل معنى يقدر يعطي بقدر الكفاية ، وقرأ السبعة يقدر بكسر الدال وهو أفصح ، واستعمل بالضم ايضاً على ما في المصباح ، ومعنى الآية إنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره .

﴿وفرحوا﴾ أي مشركو مكة ﴿بالحياة الدنيا﴾ فرح بطر لا فرح سرور والفرح لذة تحصل في القلب عند حصول المشتهى وجهلوا ما عند الله ، والجملة مستأنفة لبيان قبح أفعالهم مع ما وسعه عليهم ، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا والركون إليها حرام .

قيل وفي هذه الآية تقديم وتأخير ، والتقدير ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا ، والأول أولى لأنه ماض وما قبله مستقبل ، وقيل العطف على ينقضون ولا يصح لأنه يستلزم تخلل الفاصل بين أبعاض الصلة .

﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة﴾ أي بالنسبة اليها وفي جنبها ففي هنا

للمقايسة وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق وليست ظرفاً للحياة ولا للدنيا لأنهما لا يكونان في الآخرة ﴿إلا متاع﴾ أي ما هي إلا شيء يستمتع به . وقيل المتاع واحد الأمتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما ، وقيل المعنى شيء قليل ذاهب من متع النهار إذا ارتفع فلا بدّ من زوال ، وقيل زاد كزاد الراكب يتزودونه منها إلى الآخرة . وقال عبدالرحمن بن سابط : كزاد الراعي يزوده أهله الكف من التمر أو الشيء من الدقيق او الشيء يشرب عليه اللبن .

وعن ابن عباس قال : كان الرجل يخرج في الزمان الأول في إبله او غنمه فيقول لأهله متعوني فيمتعونه فلقة الخبز او التمر ، فهذا مثل ضربه الله للدنيا .

وأخرج الترمذي وصححه عن ابن مسعود قال : نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه ، فقلنا يارسول الله لو اتخذنا لك ، فقال : « مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها »[١] .

واخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن المستورد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع » وأشار بالسبابة[٢] .

﴿ويقول الذين كفروا﴾ أي المشركون من أهل مكة ﴿لولا﴾ هلا ﴿أنزل عليه﴾ أي على محمد ﴿آية﴾ أي معجزة ، مثل معجزة موسى وعيسى عليهما السلام ﴿من ربه﴾ كالعصا واليد والناقة ، وقد تقدم تفسير هذا قريبا وتكرر في مواضع .

(١) الترمذي كتاب الزهد باب ٤٤ .
(٢) مسلم ٢٨٥٨ .

﴿قل إن الله يضل من يشاء﴾ أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا وهو أن الضلال بمشيئة الله سبحانه من شاء ان يضله كما ضل هؤلاء القائلون ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ ولا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات إن لم يهده الله عز وجل وإن أنزلت كل آية فان ذلك في أقصى مراتب المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو في الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء .

﴿ويهدي اليه﴾ أي إلى الحق او إلى الاسلام او إلى جنابه عز وجل ﴿من أناب﴾ أي رجع الى الله بالتوبة والاقلاع عما كان عليه ، وأصل الانابة الدخول في نوبة الخير . كذا قال النيسابوري .

﴿الذين آمنوا﴾ منصوب على البدل من أناب ، والمعنى انهم هم الذين هداهم الله وأنابوا اليه : أو خبر مبتدأ محذوف ، اي هم الذين آمنوا ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي تسكن عن القلق والاضطراب وتستأنس بذكره سبحانه بألسنتهم كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد أو بسماع ذلك من غيرهم عبر بالمضارع لأن الطمأنينة تتجدد بعد الإيمان حيناً بعد حين ، قاله الشهاب . وقال الكرخي المضارع قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حال او استقبال فيدل إذ ذاك على الاستمرار ومنه الآية أ هـ .

قال في الجمل : وهذا ينفع في مواضع كثيرة وقد سمى الله سبحانه القرآن ذكراً قال ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ وقال ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ .

قال الزجاج : أي إذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله ﴿واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ .

وقيل الذكر هنا الطاعة وقيل بوعد الله وقيل بالحلف بالله فإذا حلف

خصمه بالله سكن قلبه ، قاله السدي ، وقيل بذكر رحمته ، وقيل بذكر دلائله الدالة على توحيده ، وقال قتادة هشت إليه واستأنست به ، وقال مجاهد بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولا مانع من حمل الآية على جميعها .

﴿ألا بذكر الله﴾ وحده دون غيره من الأمور التي تميل اليها النفوس من الدنيويات ﴿تطمئن القلوب﴾ والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وان كان يفيد طمأنينة في الجملة لكن ليست كهذه الطمأنينة وكذلك النظر في المعجزات من الأمور التي لا يطيقها البشر فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله ، فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر .

وأما قوله تعالى في الأنفال ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ والوجل ضد الاطمئنان فالمعنى أنهم إذا ذكروا العقوبات وجلوا وإذا ذكروا المثوبات سكنوا .

أخرج أبو الشيخ عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه حين نزلت هذه الآية : هل تدرون ما معنى ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : من أحب الله ورسوله وأحب أصحابي .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية قال ذلك من أحب الله ورسوله وأحب أهل بيته صادقاً غير كاذب وأحب المؤمنين شاهداً وغائباً ألا بذكر الله يتحابون .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ مبتدأ خبره جملة ﴿طوبى لهم﴾ وجاز الابتداء بطوبى إما لأنها علم لشيء بعينه وإما لأنها نكرة في معنى الدعاء كسلام عليك وويل له ، قال أبو عبيدة والزجاج : وأهل اللغة طوبى فعلى من الطيب فهو يائي وأصله طيبي ، قال ابن الأنباري : وتأويلها الحال المستطابة ، وقيل طوبى شجرة في الجنة . وقيل هي الجنة وقيل هي البستان بلغة الهند وقيل هي اسم الجنة بالحبشية وقيل معناه حسنى لهم وقيل خير لهم وقيل كرامة لهم وقيل غبطة لهم قال النحاس : وهذه الاقوال متقاربة ، واللام في لهم للبيان مثل سقياً لك ورعياً لك .

قال الأزهري : تقول طوبى لك وطوباك لحن لا تقوله العرب وهو قول اكثر النحويين وقيل هو مصدر من طاب كبشرى ورجعى وزلفى فالمصدر قد يجيء على وزن فعلى ومعناه أصبت خيراً وطيباً، وقيل هي شجرة في جنة عدن تظلل الجنان كلها ، وقال ابن عباس : طوبى لهم فرح لهم وقرة أعين ، وقال عكرمة : نعمى لهم ، وقد روي عن جماعة من السلف نحو ما قدمنا ذكره من الأقوال .

والأرجح تفسير الآية بما روي مرفوعاً الى النبي صلى الله عليه وسلم كما أخرجه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن عتبة بن عبد قال : جاء إعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله في الجنة فاكهة قال : « نعم فيها شجرة تدعى طوبى » الحديث .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والخطيب في تاريخه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان رجلا قال يارسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال : « طوبى لمن آمن بي ورآني ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني ، فقال رجل : وما طوبى ؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[١] وفي الباب أحاديث وآثار عن السلف .

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرأوا ان شئتم وظل ممدود » وفي بعض الألفاظ إنها شجرة الخلد وفي بعضها شجرة غرسها الله بيده[٢] .

﴿وحسن مآب﴾ من آب إذا رجع أي ولهم حسن مرجع وهو الدار الآخرة وهي الجنة قال السدي حسن منقلب وعن الضحاك مثله .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة ﴿أرسلناك﴾ يامحمد ارسالاً له شأن ، وقيل شبه الإنعام على من أرسل اليه محمد صلى الله عليه وسلم بالإنعام على من أرسل اليه الأنبياء قبله ، وقيل كما هدى الله من أناب كذلك أرسلناك .

وقال ابن عطية الذي يظهر لي أن المعنى كما أجرينا العادة بأن الله يضل ويهدي لا بالآيات المقترحة فكذلك أيضاً فعلنا في هذه الأمة أرسلناك إليها بوحي لا بالآيات المقترحة ، وقال أبو البقاء : كذلك الأمر كذلك ، وقال الحوفي : أي كفعلنا الهداية والإضلال، والإشارة بذلك الى ما وصف به نفسه من أن الله

---

(١) احمد بن حنبل ٧١/٣ .

(٢) مسلم ٢٨٢٦ ـ البخاري ١٥٣٩ .

. يضل من يشاء ويهدي من يشاء وكل ذلك فيه تكلف وبعد ، والأول أظهر وأولى .

﴿في أمة﴾ أي قرن ﴿قد خلت﴾ مضت ﴿من قبلها﴾ أي قبل الأمة ﴿أمم﴾ قرون أو في جماعة من الناس كثيرة قد مضت من قبلها جماعات ﴿لتتلو﴾ لتقرأ ﴿عليهم الذي أوحينا اليك﴾ أي القرآن ﴿و﴾ الحال أن ﴿هم يكفرون﴾ او استئناف وهم عائد على أمة من حيث المعنى ، ولو عاد على لفظها لقيل وهي تكفر، وقيل على أمة ، وعلى أمم ، وقيل على الذين قالوا لولا أنزل ﴿بالرحمن﴾ أي بالكثير الرحمة لعباده ، ومن رحمته لهم إرسال الرسل اليهم وانزال الكتب عليهم كما قال سبحانه ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ .

عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب في الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالت قريش أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه دعنا نقاتلهم ، فقال : لا ولكن اكتبوا كما يريدون »[1] وعن ابن جريج في هذه الآية نحوه وقيل حيث قالوا لما أمروا بالسجود له وما الرحمن كما ذكر في سورة الفرقان بقوله ﴿واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾ فهذه الآية متقدمة على ما هنا في النزول وان تأخرت عنها في المصحف والتلاوة ، وقيل غير ذلك ، ﴿قل هو ربي﴾ مستأنفة بتقدير سؤال كأنهم قالوا وما الرحمن ؟ فقال سبحانه : قل يامحمد هو ربي ، اي الرحمن الذي انكرتم معرفته ربي وخالقي .

﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا يستحق العبادة له والإيمان به سواه ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أموري ﴿وإليه﴾ لا إلى غيره ﴿متاب﴾ أي توبتي قاله مجاهد ، وفيه تعريض بالكفار وحث لهم على الرجوع الى الله والتوبة من الكفر والدخول في الإسلام .

(١) انظر تمام القصة في سيرة ابن هشام ٢٤ .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

﴿ولو أن قرآنا سيرت به﴾ أي بإنزاله وقراءته ﴿الجبال﴾ عن محل استقرارها وانتقلت عن أماكنها وأذهبت عن وجه الأرض ، قيل هذا متصل بقوله ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وإن جماعة من الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسير لهم جبال مكة حتى تتفسح فإنها أرض ضيقة فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به وأصروا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية من عدم انزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد .

﴿أو قطعت به الأرض﴾ أي صدعت وشققت حتى صارت قطعاً متفرقة من خشية الله عند قراءته وجعلت أنهاراً أو عيوناً ﴿أو كلم به الموتى﴾ أي صاروا أحياء بقراءته عليهم فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء وقد اختلف في جواب لو فقيل لكان هذا القرآن ، وقيل لكفروا بالرحمن أي لو فعل بهم هذا وقيل لما آمنوا كما سبق في قوله ﴿وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ .

وقيل التقدير وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا إلخ وكثيراً ما تحذف

العرب جواب لو إذا دل عليه سياق الكلام وتذكير كلِّم خاصة دون الفعلين قبله لان الموتى تشتمل على المذكر الحقيقي والتغليب له فكان حذف التاء أحسن ، والجبال والأرض ليستا كذلك قاله الكرخي .

قال ابن عباس : قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول من الموتى نكلمهم وافسح لنا هذه الجبال فنزلت هذه الآية ، وعن عطية العوفي قال : قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان عليه السلام يقطع لقومه بالريح أو أحييت لنا كما كان يحيي عيسى الموتى لقومه فأنزل الله هذه الآية .

﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ أي لو ان قرآنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن فلو شاء ان يؤمنوا لآمنوا واذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات ، فالإضراب متوجه الى ما يؤدي اليه كون الأمر لله سبحانه ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته ويدل على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله .

﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ قال الكلبي : بمعنى ألم يعلم وهي لغة النخع قال في الصحاح ، وقيل هي لغة هوازن ، وبهذا قال جماعة من السلف ، قال ابوعبيدة : أفلم يعلموا ويتبينوا قال الزجاج : وهو مجاز لأن اليائس من الشيء عالم بأنه لا يكون نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف والنسيان في الترك لتضمنهما إياهما .

وقرأ جماعة من الصحابة والتابعين أفلم يتبين بطريق التفسير فمعنى الآية على هذا أفلم يعلموا ﴿أن﴾ أي انه ﴿لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ من غير أن يشاهدوا الآيات ولكن لم يفعل ذلك لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره؛ والمعنى أنه تعالى لم يهد جميع الناس الذين

آمنوا من ايمان هؤلاء الكفار لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعاً في إيمانهم.

قال ابن عباس : لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل وقال ييأس يعلم وعن ابن زيد نحوه وعن أبي العالية ، قد يئس الذين آمنوا ان يهدوا ولو شاء لهدى الناس جميعاً وفيه دلالة على أن الله لم يشأ هداية جميع الخلائق .

﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ هذا وعيد للكفار على العموم ولكفار مكة على الخصوص اي لا يزال تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسل والأعمال الخبيثة داهية تفجؤهم وتهلكهم وتستأصلهم يقال قرعه الأمر إذا أصابه والجمع قوارع والأصل في القرع الضرب والقارعة الشديدة من شدائد الدهر وهي الداهية ، والمعنى أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم نازلة وداهية مهلكة من قتل أو أسر أو جدب أو حرب أو نحو ذلك من العذاب وقد قيل إن القارعة النكبة ، وقيل الطلائع والسرايا قاله ابن عباس ولا يخفى ان القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك .

﴿أو تحل﴾ القارعة ﴿قريباً من دارهم﴾ فيفزعون منها ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم وترعد منه بوادرهم ، وقيل إن الضمير في تحل للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أو تحل أنت يامحمد مكاناً قريباً من دارهم محاصراً لهم آخذاً بمخانقهم كما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم لأهل الطائف والأول أبين وأظهر .

﴿حتى يأتي وعد الله﴾ وهو موتهم أو قيام الساعة عليهم ، فإنه اذا جاء وعد الله المحتوم وحل بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدة ، وقيل المراد بوعد الله هنا الإذن منه بقتال الكفار والنصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه ، وقال ابن عباس : فتح مكة وكان في الثامنة وحج في العاشرة ولم يحج غيرها والأول أولى ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ فما جرى به وعده فهو كائن

لا محالة ﴿ولقد استهزىء برسل﴾ التنكير للتكثير أي برسل كثيرة ﴿من قبلك﴾ كما استهزىء بك وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

﴿فأمليت للذين كفروا﴾ الإملاء الامهال مدة طويلة من الزمان في دعةٍ وأمن ، وقد مر تحقيقه في آل عمران ﴿ثم أخذتهم﴾ في الدنيا بالعذاب الذي أنزلته بهم من القحط والقتل والأسر وفي الآخرة بالنار .

﴿فكيف كان عقاب﴾ الاستفهام للتقريع والتهديد ، أي فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزؤوا بالرسل فأمليت لهم ثم أخذتهم هل كان ظلماً لهم او كان عدلاً ؟ أي هو واقع موقعه فكذلك أفعل بمن استهزأ بك .

ثم استفهم سبحانه استفهاماً آخر للتوبيخ والتقريع يجرى مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والإزراء عليهم فقال ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ القائم الحفيظ والمتولي للأمور ، وأراد سبحانه نفسه فإنه المتولي لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت ، والجواب محذوف ، اي أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضر .

قال الفراء : كأنه في المعنى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله ، والمراد من الآية إنكار المماثلة بينهما ، وقيل المراد بالقائم الملائكة الموكلون ببني آدم والأول أولى ، وبه قال ابن عباس ، وقال عطاء : الله قائم بالقسط والعدل على كل نفس .

﴿و﴾ قد ﴿جعلوا لله شركاء﴾ استئناف وهو الظاهر جيء به للدلالة على الخبر المحذوف كما تقدم ، وقيل الواو للحال وأقيم الظاهر مقام المضمر تقريراً للإلهية وتصريحاً بها ، وقيل عطف على استهزىء أي ولقد استهزؤوا وجعلوا ،

وقال أبو البقاء : معطوف على كسبت أي وجعلهم لله شركاء والأول أولى .

﴿قل سموهم﴾ أي عينوا حقيقتهم من أي جنس ومن أي نوع أي وما اسماؤهم ، وفي هذا تبكيت لهم وتوبيخ ، لأنه إنما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحق ان يلتفت إليه فيقال سمه إن شئت ، يعني انه أحقر من أن يسمى وقيل إن المعنى صفوهم وبينوا أوصافهم بما يستحقون ويستأهلون به ، ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد ، وقيل المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون فيكون ذلك تهديداً لهم .

﴿أم تنبئونه﴾ أي بل أتنبئون الله ﴿بما لا يعلم في الأرض﴾ من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما في السموات والأرض ، وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها وان لم يكن له شريك في غير الأرض أيضاً لأنهم ادعوا له شريكاً فيها ﴿أم﴾ أي بل أتسمونهم شركاء ﴿بظاهر من القول﴾ من غير أن يكون له حقيقة كتسمية الزنجي كافوراً .

وقيل المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه ، فإن قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاءوا بدعوى باطلة ، وإن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم سموهم فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما فقل لهم إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً ، وقيل المعنى أم بزائل من القول باطل ، قاله مجاهد ، وقيل بكذب من القول ، وقيل بظن باطل لا حقيقة له في الباطن ، وقيل المعنى بحجة من القول ظاهرة على زعمهم قال الطيبي في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان .

**أولها** : أفمن هو قائم الخ احتجاج عليهم وتوبيخ لهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهـا.

**ثانيها** : وجعلوا لله شركاء وفيه وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه .

**ثالثها** : قل سموهم أي عينوا اسماءهم فقولوا فلان وفلان فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني ، كما تقول إن كان الذي تدعيه موجوداً فسمه ، لأن المراد بالاسم العلم .

**رابعها** : أم تنبئونه بما لا يعلم ، احتجاج من باب نفي الشيء ، أعني المعلوم بنفي لازمه وهو العلم وهو كناية .

**خامسها** : أم بظاهر من القول احتجاج من باب الاستدراج والهمزة للتقرير لبعثهم على التفكير ، المعنى أتقولون بأفواهكم من غير روية وأنتم ألبَّاء فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه .

**سادسها** : التدريج في كل من الاضرابات على ألطف وجه ، وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع اختصارها كان الاحتجاج المذكور منادياً على نفسه بالإعجاز وإنه ليس من كلام البشر . أ هـ .

﴿بل﴾ إضراب عن محاجتهم بالكلية ، فكأنه قيل دع ذا فإنه لا فائدة فيه لأنه ﴿زين للذين كفروا﴾ قرأ ابن عباس زين على البناء للفاعل على ان الذي زين لهم ذلك هو ﴿مكرُهم﴾ وقرأ غيره على البناء للمفعول ، والمزين هو الله سبحانه أو الشيطان بإلقاء الوسوسة ، ويجوز أن يسمى المكر كفراً لأن مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كان كفراً ، وأما معناه الحقيقي فهو الكيد أو التمويه بالأباطيل، أي كيدهم للإسلام بشركهم .

﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي صدهم الله أو صدهم الشيطان ، وقرىء بالبناء للفاعل ، أي صدوا غيرهم عن الايمان ، قراءتان سبعيتان ، وقد يستعمل صد لازماً بمعنى أعرض .

﴿ومن يضلل الله﴾ أي يجعله ضالاً ويقتضي مشيئته إضلاله ﴿فما له من هاد﴾ يهديه الى الخير ، وقرأ الجمهور هاد من دون اثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة وقرىء بإثباتها على اللغة القليلة وهما سبعيتان .

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦)﴾

ثم بين سبحانه ما يستحقونه فقال ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ بما يصابون به من القتل والأسر وأنواع المحن ﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾ عليهم من عذاب الحياة الدنيا وأشد وأغلظ ، لأن المشقة غلظ الأمر على النفس وشدته ، مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع ﴿وما لهم من الله من واق﴾ يقيهم عذابه ولا عاصم يعصمهم منه .

ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب في الأولى والأخرى ذكر ما أعده للمؤمنين فقال ﴿مثل الجنة﴾ أي صفتها العجيبة الشأن التي هي في الغرابة كالمثل ، قال ابن قتيبة : المثل الشبه في أصل اللغة ، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته ، يقال مثلت لك كذا أي صورته ووصفته ، فأراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها وجريان الأنهار من تحتها كالتفسير للمثل .

قال سيبويه : وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة ، وقال الفراء المثل مقحم للتأكيد والمعنى الجنة .

﴿التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار﴾ والعرب تفعل ذلك كثيراً ، وقال الخليل وغيره : إن مثل الجنة مبتدأ والخبر تجري ، وقال الزجاج : انه تمثيل للغائب بالشاهد ومعناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار . وقال عكرمة : نعت الجنة ليس للجنة مثل ، وقيل إن فائدة الخبر ترجع الى قوله .

﴿أكلها﴾ أي ما يؤكل فيها ﴿دائم﴾ أي لا ينقطع أبداً ولا يفنى ، ومثله قوله تعالى ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ قال ابراهيم التيمي : لذاتها دائمة في أفواههم ، وقيل دائم بحسب نوعه ، فكل شيء أكل يتجدد غيره لا بحسب شخصه اذ عين المأكول لا ترجع ﴿وظلها﴾ كذلك دائم لا يتقلص ولا ينسخه الشمس لأنه ليس في الجنة شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول.

وفي الآية رد على جهم وأصحابه فإنهم يقولون ان نعيم الجنة يفنى وينقطع ، وفيها دليل على ان حركات أهل الجنة لا تنتهي إلى سكون دائم كما يقوله ابو الهذيل واستدل عبدالجبار المعتزلي بهذه الآية على أن الجنة لم تخلق بعد ، ويرده قوله تعالى ﴿أعدت للمتقين﴾ إلى غير ذلك من الآيات والأخبار الصحيحة .

﴿تلك﴾ الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة وهو مبتدأ خبره ﴿عقبى﴾ أي عاقبة ﴿الذين اتقوا﴾ المعاصي أي مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ ليس لهم عاقبة ولا منتهى إلا ذلك .

﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ أي التوراة والانجيل ﴿يفرحون بما أنزل اليك﴾ يامحمد وهم أهل الكتابين مطلقاً أو من أسلم منهم لكون ذلك موافقاً لما في كتبهم مصدقاً له .

وعلى الأخير يكون المراد بقوله ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ من لم يسلم من اليهود والنصارى ، وعلى الأول يكون المراد به المشركين من أهل مكة ومن يماثلهم أو يكون المراد به بعض أهل الكتابين أي من أحزابهما ، فانهم أنكروه لما اشتمل عليه من كونه ناسخاً لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم الى ما هو موافق لما في الكتابين ، وإنكار من أنكر منهم الى ما خالفهما .

وقيل المراد بالكتاب القرآن والمراد بمن يفرح به المسلمون والمراد

بالأحزاب المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين واليهود والنصارى ، والمراد بالبعض الذي أنكروه ما خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم .

واعترض على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة في ذكره واجيب عنه بأن المراد زيادة الفرح والاستبشار بما يتجدد من الأحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت ، وقال كثير من المفسرين ان عبدالله بن سلام والذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة فأنزل الله ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ ففرحوا بذلك .

قال قتادة : الذين يفرحون أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فرحوا بكتاب الله وصدقوا به وبرسله ، والأحزاب اليهود والنصارى والمجوس ، وقال ابن زيد : هؤلاء من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب يفرحون بذلك ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به .

ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والإنكار للبعض صرح بما عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمره إن يقول لهم ذلك فقال ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله﴾ وحده ﴿ولا أشرك به﴾ بوجه من الوجوه أي قل لهم يامحمد ذلك إلزاماً للحجة ورداً للإنكار إنما أمرت فيما أنزل اليّ بعبادة الله وتوحيده وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتدية بالرسل .

﴿إليه﴾ أي الى الله لا الى غيره ﴿أدعو﴾ أو إلى ما أمرت به وهو عبادة الله وحده والأول أولى لقوله ﴿واليه مآب﴾ فإن الضمير لله سبحانه أي إليه وحده لا إلى غيره مرجعي يوم القيامة للجزاء ، قال قتادة : إليه مصير كل عبد .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

ثم ذكر بعض فضائل القرآن وأوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعريض لرد ما أنكروه من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال : ﴿وكذلك﴾ الإنزال البديع ﴿أنزلناه﴾ أي القرآن مشتملاً على أصول الشرائع وفروعها .

وقيل المعنى وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم ولسانهم كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب ﴿حكماً عربياً﴾ يريد بالحكم ما فيه من الأحكام والنقض والإبرام أو أنزلناه حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ولغتها ليسهل عليها فهمها وحفظها وتحكم بها بين الناس فيما يقع لهم من الحوادث الفرعية وان خالفت ما في الكتب القديمة إذ لا يجب عليك توافق الشرائع .

﴿ولئن﴾ اللام هي الموطئة للقسم ﴿اتبعت أهواءهم﴾ التي يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتك لشيء مما يعتقدونه ﴿بعدما جاءك من العلم﴾ الذي علمك الله إياه ﴿مالك﴾ ساد مسد جواب القسم والشرط ﴿من الله﴾ أي من جنابه ﴿من ولي﴾ يلي أمرك وينصرك ﴿ولا واق﴾ يقيك من عذابه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريض لأمته لأن من هو أرفع منزلة وأعظم قدراً وأعلى رتبة إذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الأولى .

﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ أي أن الرسل الذين أرسلناهم من جنس البشر لهم أزواج من النساء ولهم ذرية توالدوا منهم

ومن أزواجهم ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية .

وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجه بالنساء أي أن هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه فإنه قد كان لسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية فلم يقدح ذلك في نبوته وكان لأبيه داود مائة امرأة وكانوا ينكحون ويأكلون ويشربون فكيف يجعل هذا قادحاً في نبوتك .

وعن الحسن عن سمرة قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبتل »[1] أخرجه ابن ماجة والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وعن سعد بن هشام قال : دخلت على عائشة وقلت : إني أريد أن أتبتل . قالت : لا تفعل أما سمعت الله يقول ﴿ولقد أرسلنا رسلاً﴾ الآية اخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه .

وقد ورد في النهي عن التبتل والترغيب في النكاح ما هو معروف وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أولاد أربع اناث وثلاثة ذكور وكانوا في الترتيب في الولادة هكذا القاسم فزينب فرقية ففاطمة فأم كلثوم فعبدالله ويلقب بالطيب والطاهر فإبراهيم وكلهم من خديجة إلا ابراهيم فمن مارية القبطية وماتوا جميعاً في حياته إلا فاطمة فعاشت بعده ستة أشهر .

﴿وما كان﴾ أي لم يكن ﴿لرسول﴾ من الرسل ﴿أن يأتي بآية﴾ من الآيات ﴿إلا بإذن الله﴾ سبحانه فإن شاء أظهر وان شاء لم يظهرها وليس ذلك الى الرسول لأن الرسل مربوبون ومقهورون ومغلوبون محكوم عليهم متصرف فيهم بتدبير أمرهم .

﴿لكل أجل كتاب﴾ أي لكل أمر مما قضاه الله أو لكل وقت من

---

(١) أحمد بن حنبل ١٥٨/٣ - ٢٤٥ - ١٧/٥ - ١٢٥/٦ - ١٥٧ - ٢٥٣ .

الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم ، وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، والمعنى لكل كتاب أجل أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ووقت معلوم كقوله سبحانه ﴿لكل نبأ مستقر﴾ وليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم بل على حسب ما يشاؤه الله ويختاره ، وفيه رد لاستعجالهم الآجال والأعمار وإتيان المعجزات والعذاب ، فقد كان يخوفهم بذلك فاستعجلوه عناداً فرد الله عليهم ذلك .

والمراد بالأجل هنا أزمنة الموجودات فلكل موجود زمان يوجد فيه محدود لا يزاد عليه ولا ينقص ، والمراد بالكتاب صحف الملائكة التي تنسخها من اللوح المحفوظ أو اللوح نفسه .

﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ أي يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه يقال محوت الكتاب محواً إذا أذهبت أثره ، قرئ مخففاً ومشدداً وعن مجاهد قال : قالت قريش حين أنزل هذه الآية ما نراك يامحمد تملك من شيء ولقد فرغ الأمر فأنزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم أي إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا ويحدث الله في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم ما يعطيهم وما يقسم لهم .

وقال ابن عباس : ينزل الله في كل شهر رمضان إلى سماء الدنيا فيدبر أمر السنة إلى السنة فيمحو ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت ، وعنه قال : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله ، وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله وقال أيضاً: هما كتابان يمح الله ما يشاء من أحدهما ويثبت .

وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوةأو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شر ويبدل هذا بهذا ويجعل هذا مكان هذا ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وإلى هذا ذهب عمر بن

الخطاب وابن مسعود وابن عباس وابو وائل وقتادة والضحاك وابن جريج وغيرهم ، وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة .

وقيل يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه الثواب والعقاب .

وقيل يمحو ما يشاء من الرزق ، وقيل من الأجل ، وقيل من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ، وقيل يمحو ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما يشاء وقيل يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة .

وقيل يمحو الآباء ويثبت الأبناء .

وقيل يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله ﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ وقيل يمحو ما يشاء من الأرواح التي يقبضها حال النوم فيميت صاحبه ويثبت ما يشاء فيرده إلى صاحبه .

وقيل يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها .

وقيل يمحو الدنيا ويثبت الآخرة ، وقيل غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره والأول أولى كما يفيده ما في قوله ما يشاء من العموم مع تقدم ذكر الكتاب في قوله لكل أجل كتاب ومع قوله ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أي جملة الكتاب قاله ابن عباس .

والمعنى أصله وهو اللوح المحفوظ ، والأم أصل الشيء والعرب تسمى كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أماً له ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة ، فالمراد من الآية انه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما يقتضيه مشئيته .

وهذا لا ينافي ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله « جف القلم بما هو كائن»[1] وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله

---

(١) المعنى جزء من حديث طويل من حديث رسول الله : يا غلام احفظ الله يحفظك . . . .

سبحانه ، وقيل إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق .

قال ابن عباس : إن لله لوحاً محفوظاً مسيرته خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة والدفتان لوحان لله فيه في كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ينزل في ثلاث ساعات تبقين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت » الحديث أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم وغيرهما .

وأخرج الطبراني بإسناد قال السيوطي ضعيف عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والممات » وعن ابن عباس قال « لا ينفع الحذر من القدر ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر »[1] .

وقال قيس بن عباد : العاشر من رجب هو يوم يمحو الله فيه ما يشاء . وعن عمر بن الخطاب انه قال وهو يطوف بالبيت : اللهم إن كنت كتبت عليَّ شقوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، واجعله سعادة ومغفرة . وعن ابن مسعود نحوه .

وقيل أم الكتاب الذكر قاله ابن عباس ، وقد استدلت الرافضة على مذهبهم في البدء بهذه الآية ، وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقده وقالوا إنه جائز على الله ، وهو ظاهر الفساد لأن علمه سبحانه صفة قديمة أزلية لا يتطرق إليه التغيير والتبديل والمحو والاثبات من معلوماته الأزلية وليسا من البدء في شيء وقد علم ما هو خالق وما خلقه وما هم يعملون .

---

(١) أحمد بن حنبل ٥/٢٣٤ .

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

﴿وإما نرينك﴾ ما زائدة وأصله وان نرك ﴿بعض الذي نعدهم﴾ به من العذاب في حياتك كما وعدناهم بذلك بقولنا ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ وبقولنا ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ ، والمراد أريناك ما نعدهم قبل موتك ، وجواب الشرط محذوف ، أي فذاك شافيك من أعدائك ودليل على صدقك .

﴿أو نتوفينك﴾ أي أو توفيناك قبل إراءتك لذلك ، وجوابه أيضا محذوف أي فلا تقصير منك ولا لوم عليك ، وقوله ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ تعليل لهذا المحذوف ، والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ ، أي ليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم .

﴿وعلينا الحساب﴾ أي محاسبتهم إذا صاروا إلينا يوم القيامة بأعمالهم ومجازاتهم عليها وليس ذلك عليك ؛ وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به وليس عليه غيره ، وأن من لم يجب دعوته ويصدق نبوته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترى عليه من ذلك .

﴿أولم يروا﴾ يعني أهل مكة والاستفهام للإنكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أأنكروا نزول ما وعدناهم أو أشكوا أو ألم ينظروا ، وفي ذلك

لم يروا ﴿أنا نأتي الأرض﴾ أي أرض الكفر كمكة ﴿ننقصها من أطرافها﴾ بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً بما ينقص من أطراف المشركين ويزيد في أطراف المؤمنين .

قال الزجاج : أعلم الله أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر ، يقول أو لم يروا أنا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم فكيف لا يعتبرون وهذا قول قتادة وجماعة من المفسرين ، وقيل إن معنى الآية ننقصها بموت العلماء والصلحاء . وقال ابن عباس : موت علمائها وفقائها وذهاب خيار أهلها . وعن مجاهد نحوه .

قال القشيري : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ، وقد قال ابن الاعرابي : الطرف الرجل الكريم ، قال القرطبي : وهذا القول بعيد لأن مقصود الآية أنا أريناهم النقصان في أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود والنصارى .

قال الواحدي ؛ التفسير الأول أولى لأن هذا القول وإن صح فلا يليق بهذا الموضع وبه قال الرازي ، وقيل المراد خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران في ناحية منها . قاله ابن عباس وبه قال مجاهد وعكرمة والشعبي وعطاء وجماعة من المفسرين أي نخربها ونهلك أهلها أفلا تخافون أن يفعل بكم ذلك .

وقيل المراد بالآية هلاك من هلك من الأمم ، وقيل المراد جور ولاتها حتى تنقص . وقال ابن عباس : نقصان أهلها وبركتها . وعنه إنما تنقص الأنفس والثمرات ،وأما الأرض فلا تنقص .

﴿والله يحكم﴾ ما يشاء في خلقه فيرفع هذا ويضع هذا ، ويحيي هذا ويميت هذا ويغني هذا ويفقر هذا ، وفي الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الشريف والعلم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة ما لا يخفى على ذي بصيرة .

﴿لا معقب لحكمه﴾ أي لا راد لقضائه ، والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله وحقيقته الذي يقفيه بالرد والإبطال . قال الفراء : معناه لا راد لحكمه .

قال : والمعقب الذي يتبع الشيء فيستدركه ولا يستدرك أحد عليه ، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يتعقب غريمه بالطلب ، يعني أنه حكم للإسلام بالاقبال وعلى الكفر بالإدبار، وذلك كائن لا يمكن تغييره ، ومحل ﴿لا﴾ مع المنفي النصب على الحال ، أي يحكم نافذاً حكمه خالياً من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب أحد حكمه سبحانه بنقض ولا تغيير . قال ابن زيد : ليس أحد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده .

﴿وهو سريع الحساب﴾ أي الانتقام فيحاسبهم بعد زمن قليل في الآخرة بعدما عذبهم بالقتل وأخرجهم من ديارهم في الدنيا فلا تستبطىء عقابهم فإنه آت لا محالة وكل آت قريب ، وقد تقدم الكلام في معناه قبل هذا ، والمعنى فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته على السرعة .

﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ أي قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله اليهم من الرسل فكادوهم وكفروا بهم ، والمكر إيصال المكروه الى الانسان الممكور به من حيث لا يشعر ، مثل مكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى ويهود بعيسى ؛ وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم ولا تأثير له وأن المكر كله لله لا اعتداد بمكر غيره فقال ﴿فَلِلَّه المكر جميعاً﴾ يعني عند الله جزاء مكرهم وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم . وقال الواحدي : يعني جميع مكر الماكرين له ومنه أي هو من خلقه وإرادته ، فالمكر جميعاً مخلوق له بيده الخير والشر واليه النفع والضر ، والمعنى ان المكر لا يضر إلا بإذنه وارادته فإثباته لهم باعتبار الكسب ونفيه عنهم باعتبار الخلق .

ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره فقال ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ من خير وشر ، فيجازيها على ذلك ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وسيعلم الكفار﴾ جميعهم وقرىء الكافر على التوحيد أي جنس الكافر وقيل المراد بالكافر أبو جهل ﴿لمن عقبى الدار﴾ أي العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا أو في دار الآخرة أو فيهما .

﴿ويقول الذين كفروا﴾ أي المشركون أو جميع الكفار خطاباً وشفاهاً لك ﴿لست﴾ يامحمد ﴿مرسلاً﴾ إلى الناس من عند الله فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم فقال ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ فهو يعلم صحة رسالتي وصدق دعواي ويعلم كذبكم ﴿و﴾ كذا يعلم ذلك ﴿من عنده علم الكتاب﴾ أي علم جنس الكتاب السماوي كالتوراة والإنجيل فان أهلهما العالمين بهما كانوا يعلمون صحة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وكعب الأحبار وتميم الداري ونحوهم وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية الى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك .

وقيل المراد بالكتاب القرآن ومن عنده علم منه هم المسلمون فأنهم يشهدون ايضاً على نبوته او المراد من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه قاله مجاهد وبه قال الحسن ومثله عن ابن عمر بسند ضعيف واختار هذا الزجاج ، وقال لأن الأشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره .

عن جندب قال : جاء عبدالله بن سلام حتى أخذ بعضادتي باب المسجد ثم قال : أنشدكم بالله أتعلمون اني الذي أنزلت فيه ومن عنده علم الكتاب قالوا اللهم نعم ، وعن ابن عباس هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى يشهدون بالحق ويعرفونه منهم ابن سلام والجارود ، وعن الشعبي ما نزل في

ابن سلام شيء من القرآن ، وعن سعيد بن جبير أنه سئل عن الآية أهو ابن سلام فقال : كيف وهذه السورة مكيّة وعبدالله أسلم بالمدينة ، وعنه قال هو جبريل .

وهذه السورة مدارها كما في الكشف على حقية الكتاب المجيد واشتماله على ما فيه صلاح الدارين وأن السعيد من تمسك بحبله والشقي من أعرض عنه إلى آخر ما فصله .

وهنا أقول ما قاله الخفاجي اللهم اجعلنا ممن تمسك بعروته الوثقى ، واهتدى بهداه حتى لا يضل ولا يشقى ببركة من أنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم اقول يابركة النبي تعالي وانزلي ثم لا ترتحلي[1] .

---

(١) هذا الدعاء غير معهود من المؤلف، وفي النفس منه شيء .



## سورة ابراهيم عليه السلام

هي مكيّة قاله ابن عباس والزبير والحسن وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة إلا آيتين منها، وقيل إلا ثلاث آيات نزلت في الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قوله ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا - إلى قوله - فإن مصيركم إلى النار. وعن ابن عباس قال: هي مكيّة سوى آيتين منها نزلتا في قتلى بدر من المشركين وهي اثنتان وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

﴿الر﴾ قد تقدم الكلام في أمثال هذا وبيان قول من قال أنه متشابه وبيان قول من قال إنه غير متشابه ﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا القرآن ﴿أنزلناه اليك﴾ يامحمد ﴿لتخرج الناس﴾ بدعائك إياهم إلى اتباع ما تضمنه الكتاب من التوحيد وغيره واللام في لتخرج للغرض والغاية والتعريف في الناس للجنس والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم يخرج الناس بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيـه .

﴿من الظلمات﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل والضلالة ﴿إلى﴾ ما صاروا اليه من ﴿النور﴾ أي نور الإيمان والعلم والهداية .

قال الرازي : فيه دليل على أن طريق الكفر والبدعة كثيرة ، وطريق الحق ليس إلا واحداً لأنه عبر عنها بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الحق بالنور وهو لفظ مفرد جعل الكفر بمنزلة الظلمات والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة وقيل أن الظلمة مستعارة للبدعة والنور مستعار للسنة وقيل من الشك إلى اليقين ، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور وأسند الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعي والهادي والمنذر .

﴿بِإذن ربهم﴾ أي بأمره وعلمه وتيسيره وتسهيله ، قال الزجاج ؛ أي بما اذن لـك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان ﴿الى صراط العزيز الحميد﴾ بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيراً أي لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها الله لعباده وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها .

ويجوز أن يكون مستأنفاً كأنه قيل ما هذا النور الذي أخرجهم اليه فقيل صراط العزيز الحميد لأنه نور في نفسه طريق للخلود في الجنة المؤبد ، وإضافة الصراط الى الله تعالى لأنه المظهر له وأفهم بتخصيص الوصفين أنه لا يزل سالكهُ ولا يخيب قاصده ، والعزيز هو القادر الغالب الغني عن جميع الحاجات ، والحميد هو الكامل في استحقاق الحمد .

﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ قرأ الجمهور بالجر على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة فلا يصح وصف ما قبله به لأن العلم لا يوصف به ، وقيل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الله المتصف بملك ما فيها خلقاً وملكاً وعبيداً وكان يعقوب إذا وقف على الحميد رفع وإذا وصل خفض ، قال ابن الأنباري : من خفض وقف على وما في الأرض .

ثم توعد من لا يعترف بربوبيته فقال ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ معدّ لهم في الآخرة ، وقد تقدم بيان معنى الويل وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع للدلالة على الثبات ، قال الزجاج : هي كلمة تقال للعذاب والهلكة فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أنزله الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، قيل والويل هو نقيض لو أل أي النجاة وقيل الويل واد في جهنم ، ومن بيانية وقيل الويل بمعنى التأوه فمن للتعدية أي يولولون ويضجون

من العذاب الشديد الذي صاروا فيه قائلين ياويلاه .

ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله ﴿الذين يستحبون الحياة الـدنيا﴾ أي يؤثرونها لمحبتهم لها ﴿على الآخرة﴾ الدائمة والنعيم الأبدي .

﴿ويصدون﴾ أي يصرفون الناس ﴿عن سبيل الله﴾ أي عن دينه الذي شرعه لعباده ﴿ويبغونها﴾ أي السبيل ﴿عـوجـا﴾ أي يطلبون لها زيغاً وميلاً وعدولاً وانحرافاً عن الحق لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغـراضهم ، وقيل الهاء راجعة الى الدنيا أي يطلبونها على سبيل الميل عن الحق ، والميل إلى الحرام والعِـوج بكسر العين في المعاني وبفتحها في الأعيان وقد سبق تحقيقه ، واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال ، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال :

﴿اولئك﴾ يعني من هذه صفته ﴿في ضلال بعيد﴾ عن طريق الحق ، اي بالغ في ذلك غاية الغايات القاصية أو ذي بعد أو فيه بعد لأن الضال قد يضل ويبعد عن الطريق مكاناً قريباً وقد يضل بعيداً ، والبعد وان كان من صفة الضال لكنه يجوز وصف الضلال به مجازاً لقصد المبالغة كجد جدّه وداهية دهياء .

ثم لما منّ على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسـال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل بلسان قومه فقال :

﴿وما أرسلنـا من رسول إلا﴾ متلبساً ﴿بلسان قومه﴾ متكلماً بلغتهم لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل اليهم ما يقوله لهم ويدعوهم اليه وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول ولا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهراً طويلاً ومع ذلك فلا بد أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة ، ولهذا علّل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله :

﴿ليبين﴾ أي ليوضح ﴿لهم﴾ ما أمرهم الله به من الشريعة التي شرعها لهم ووحد اللسان لأن المراد بها اللغة . عن ابن عباس أن الله فضل محمداً على أهل السماء وعلى الأنبياء . قيل ما فضله على أهل السماء ؟ قال : إن الله قال لأهل السماء ﴿ومن يقل منهم إني إلَه من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فكتب له براءة من النار . قيل فما فضله على الأنبياء ؟ قال : إن الله يقول ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ وقال لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ فأرسله الى الانس والجن .

وقال عثمان بن عفان : نزل القرآن بلسان قريش . وعن مجاهد مثله ، وقد قيل في هذه الآية إشكال لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسل الى الناس جميعاً بل الى الجن والانس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة وأجيب بأنه صلىٰ الله عليه وسلم وان كان مرسلاً الى الثقلين كما مر ، لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخص به واقرب اليه ، كان أرساله بلسانهم أولى من أرساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فاهماً له كفهمهم إياه .

ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل اليهم وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل قوم بلسانه ، لكان ذلك مظنةً للاختلاف ، وفتحاً لباب التنازع ، لان كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها ، وربما كان ذلك ايضاً مفضياً الى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون .

قال في الجمل والأولى أن يحمل القوم على من أرسل اليهم الرسول أياً كان وهم بالنسبة لغير سيدنا محمد خصوص عشيرة رسولهم ، وبالنسبة إليه كل من أرسل اليه من سائر القبائل وأصناف الخلق وهو صلى الله عليه وسلم كان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وإن لم يثبت أنه تكلم باللغة التركية لأنه لم يتفق أنه خاطب أحداً من أهلها ، ولو خاطبه لكلمه بها ، تأمل انتهى .

﴿فيضل الله من يشاء﴾ اضلاله فيـه التفات عن التكلم الى الغيبـة ﴿ويهدي من يشاء﴾ هدايته ، والجملة مستأنفة .

قال الفراء : اذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلاً للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه ، يعني لا يجوز نصبه عطفاً على ما قبله لأن المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى ، والرسل أرسلت للبيان لا للضلال .

وقال الزجاج : ولو قرىء بنصبه على أن اللام لام العاقبة جاز ، والمعنى على الأول وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي ألفوها وفهموها ، ومع ذلك فإن المضل والهادي هو الله عز وجل ، والبيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله الله سبحانه واسطة وسبباً ، وتقديم الاضلال على الهداية لأنه متقدم عليها اذ هو إبقاء على الأصل ، والهداية انشاء ما لم يكن .

﴿وهو العزيز﴾ الذي لا يغالبه مغالب في ملكه ﴿الحكيم﴾ الذي تجري أفعاله على مقتضى الحكمة في صنعه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

ثم لما بيَّن أن المقصود من بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم هو اخراج الناس من الظلمات الى النور ؛ أراد أن يبيِّن أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك وخص موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية فقال ﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ متلبساً ﴿بآياتنا﴾ التسع الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات ، قاله مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير .

﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ المعنى قلنا لموسى أخرج ، لأن الإرسال فيه معنى القول أو بأن أخرج بني اسرائيل بعد ملك فرعون من الكفر أو الجهل الذي قالوا بسببه اجعل لنا إلٓهاً كما لهم آلهة إلى الايمان أو العلم ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ أي بوقائعه .

قال ابن السكيت : العرب تقول الأيام في معنى الوقائع ، يقال فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعها .

وقال الزجاج : بنعم الله عليهم وبنقم أيام الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود ، والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد . وأخرج النسائي والبيهقي وغيرهما عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال

« ذكرهم بنعم الله وآلائه »وبه قال ابن عباس .

وقال الربيع بوقائع في القرون الأولى ، ويترجح تفسير أيام الله ببلائه ونعمه وفي تفسير ابن جرير بأيام الله ، أي بأنواع عقوباته الفائضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه ، وفي القاموس وأيام الله نعمه ويوم أيوم شديد ،وآخر يوم في الشهر ، وفي المختار وربما عبروا عن الشدة باليوم .

﴿إن في ذلك﴾ التذكير بأيام الله أو في نفس أيام الله ﴿لآيات﴾ أي لدلالات عظيمة دالة على التوحيد وكمال القدرة ﴿لكل صبار﴾ كثير الصبر على المحن والمنح ﴿شكور﴾ كثير الشكر للنعم التي أنعم الله بها عليه لانه اذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء وأفيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر وقيل المراد بذلك كل مؤمن ، وعبر عنه بالوصفين لأنهما ملاك الإيمان وعنوان المؤمن ، وقدم الصبار على الشكور لكون الشكر عاقبة الصبر .

قال قتادة في الآية : نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ؛ واذا أعطى شكر ، وإنما خص الصبار والشكور وان كان فيها عبرة للكافة لأنهم المنتفعون بها دون غيرهم .

﴿واذ قال موسى﴾ أي اذكر وقت قول موسى ﴿لقومه﴾ والمعنى اذكر يامحمد لقومك ما ذكر لعلهم يعتبرون ﴿اذكروا نعمة الله﴾ أي انعامه ﴿عليكم اذ أنجاكم﴾ أي وقت إنجائه لكم ﴿من آل فرعون يسومونكم﴾ أي يبغونكم ، يقال سامه ظلماً أي أولاه ظلماً ، وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء .

﴿سوء العذاب﴾ مصدر ساء يسوء والمراد جنس العذاب السيىء وهو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة .

﴿ويذبحون أبناءكم﴾ المولودين لقول بعض الكهنة أن مولوداً يولد في بني اسرائيل يكون سبب ذهاب ملك فرعون ، وعطف ﴿يذبحون﴾ على ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ وان كان التذبيح من جنس سوء العذاب اخراجاً له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدة ومع طرح الواو كما في الآية الأخرى يكون التذبيح تفسيراً لسوء العذاب .

﴿ويستحيون نساءكم﴾ أي يتركونهن في الحياة لإهانتهن واذلالهن ، ولذلك عدَّ من جملة البلاء ، وزاد الكرخي كانوا يستخدمونهن بالاستعباد ويفردونهن عن الأزواج وذلك من أعظم المضار .

﴿وفي ذلكم﴾ أي في انجائكم أو في افعالهم المذكورة ﴿بلاء﴾ أي ابتلاء لكم بالتنعم أو بالعذاب ، فالله تعالى يختبر عباده تارة بالنعم وتارة بالشدائد ، كما قال ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ ﴿من ربكم عظيم﴾ وقد تقدم تفسير هذه الآيات في البقرة مستوفى .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

﴿واذ تأذن﴾ بمعنى أذن قاله الفراء ، قال في الكشاف : ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل ، وكأنه قيل واذ آذن ﴿ربكم﴾ إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه ، والمعنى وإذ تأذن ربكم فقال لئن شكرتم ، وأجرى تأذن مجرى قال لانه ضرب من القول انتهى ، وهذا من قول موسى لقومه ، أي واذكروا حين تأذن ربكم .

وقيل هو من قول الله سبحانه أي أذكر يامحمد اذ تأذن ربكم وقرىء واذ قال ربكم والمعنى واحد كما تقدم واللام في .

﴿لئن شكرتم﴾ هي الموطئة للقسم والخطاب لبني اسرائيل وقوله ﴿لأزيدنكم﴾ سادّ مسد جوابي الشرط والقسم والمعنى لئن شكرتم إنعامي عليكم بما ذكر وما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلاً مني ، وقيل من طاعتي قاله الحسن ؛ وقيل من الثواب والأول أظهر فالشكر سبب المزيد .

قال الربيع : أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله وأوسع لهم من الرزق وأظهرهم على العالم ، وقال سفيان الثوري في الآية : لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون عند الله من ذلك ولكن يقول لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي .

﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ لمن كفر نعمتي فلا بد أن يصيبكم منه ما يصيب وهو ساد مسد الجوابين أيضاً ، وقيل الجواب محذوف أي ولئن كفرتم ذلك وجحدتموه لاعذبنكم ، دل عليه إن عذابي لشديد وانما حذف هنا وصرح به في جانب الوعد لأن من عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الأكرمين .

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾ أي وجميع الخلق من الثقلين نعمته تعالى ولم تشكروها وجواب الشرط محذوف أي فما أضررتم بالكفر إلا أنفسكم حيث حرمتموها من مزيد الإنعام وعرضتموها للعذاب الشديد ﴿فإن الله﴾ سبحانه ﴿لغني﴾ عن شكركم لا يحتاج إليه ولا يلحقه بذلك نقص ﴿حميد﴾ أي مستوجب للحمد لذاته لكثرة إنعامه وان لم تشكروه أو يحمده غيركم من الملائكة وتنطق بنعمه ذرّات الكائنات .

ولعله عليه السلام إنما قال هذا عندما عاين منهم دلائل العناد ومخائل الإصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب .

أخرج البخاري في تاريخه والضياء في المختار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ألهم خمسة لم يحرم خمسة » وفيها من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة . وعن أبي هريرة مرفوعاً « من أعطى الشكر لم يمنع الزيادة » أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر ، ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة بل الظاهر من الآية العموم كما يفيده جعل الزيادة جزاء الشكر ، فمن شكر الله على ما رزقه وسَّع الله عليه في رزقه ومن شكر الله على ما أقدره

عليه من طاعته زاده من طاعته ومن شكره على ما أنعم من الصحة زاده الله صحة الى غير ذلك .

﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم﴾ استفهام تقرير يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه فيكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطاباً لقوم موسى وتذكيراً لهم بالقرون الأولى وإخبارهم ومجيء رسل الله اليهم ، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم تحذيراً لهم عن مخالفته والنبأ الخبر والجمع الأنباء .

﴿قوم نوح وعاد وثمود﴾ بدل من الموصول أو عطف بيان ﴿والذين من بعدهم﴾ أي من بعد هؤلاء الأمم الماضية الثلاثة ﴿لا يعلمهم﴾ أي لا يحصى عددهم ومقاديرهم ولا يحيط بهم علماً ﴿إلا الله﴾ سبحانه والجملة معترضة وعدم العلم من غير الله إما أن يكون راجعاً الى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم أي هذه الأمور لا يعلمها إلا الله ولا يعلمها غيره أو يكون راجعاً الى ذواتهم أي أنه لا يعلم ذوات أولئك الذين من بعدهم إلا الله سبحانه ولم يبلغنا خبرهم أصلاً .

وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ويقول كذب النسابون ، وعن عمرو بن ميمون مثله ، وعن أبي مجلز قال : قال رجل لعلي بن أبي طالب أنا أنسب الناس قال إنك لا تنسب الناس ، فقال بلى ، فقال له عليّ أرأيت قوله عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً قال أنا أنسب ذلك الكثير قال أرأيت قوله والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، فسكت ، وعن عروة بن الزبير قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان ، وعن ابن عباس قال : ما بين عدنان واسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون .

﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي المعجزات الظاهرة والدلالات الباهرة والشرائع الواضحة مستأنف وهذا في المعنى تفسير لنبأ الذين من قبلهم ﴿فردوا أيديهم﴾ أي جعلوا أيدي أنفسهم ﴿في أفواههم﴾ ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل كما في قوله تعالى ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم .

وقيل إن المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم الى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات أي اسكتوا واتركوا هذا الذي جئتم به تكذيباً لهم ورداً لقولهم ، وقيل المعنى أنهم أشاروا الى ألسنتهم وما يصدر عنها من قولهم إنا كفرنا بما أرسلتم به أي لا جواب لكم سوى هذا الذي قلناه لكم بألسنتنا هذه، قيل وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجباً كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه .

وقيل المعنى ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم ، فالضمير الأول للرسل ، والثاني للكفار ، وقيل جعلوا أيديهم في أفواه الرسل رداً لقولهم ؛ فالضمير الاول على هذا للكفار ، والثاني للرسل ، وقيل معناه أومأوا الى الرسل أن اسكتوا ، وقيل أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم ، والمراد بهما على هذا هاتان الجارحتان المعلومتان .

وقيل إن الأيدي هنا النعم أي ردوا نعم الرسل بأفواههم أي بالنطق والتكذيب ، والمراد بالنعم هنا ما جاءوهم به من الشرائع ، وقال أبو عبيدة ونعم ما قال هو ضرب مثل أي لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت قد رد يده في فيه ، وهكذا قال الأخفش .

واعترض على ذلك القتيبي فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول رد يده في فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى عضوا على الأيدي حنقاً وغيظاً ، وهذا هو القول الذي قدمناه على جميع هذه الأقوال، وبه قال ابن مسعود وهو

أقرب التفاسير للآية ان لم يصح عن العرب ما ذكره الأخفش وأبو عبيدة ، فإن صح ما ذكراه فتفسير الآية به أقرب .

﴿وقالوا﴾ أي الكفار للرسل ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ من البينات على زعمكم ﴿وإنا لفي شك﴾ عظيم ﴿مما تدعوننا اليه﴾ من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه ﴿مريب﴾ أي موجب للريب ، يقال أربته إذا فعلت أمراً أوجب ريبة وشكاً ، والريب قلق النفس وعدم سكونها وأن لا تطمئن إلى شيء .

وقد قيل كيف صرحوا بالكفر ثم بنوا أمرهم على الشك وأجيب بأنهم أرادوا أنّا كافرون برسالتكم وإن نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أنّا نشك في صحة نبوتكم ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم ، وقيل كانوا فرقتين إحداهما جزمت بالكفر ، والأخرى شكت ، وقيل إن كفرهم بالمعجزات وشكهم في التوحيد فلا تخالف .

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿قالت رسلهم﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل فماذا قالت لهم الرسل فأجيب بأنهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء ﴿أفي الله شك﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار أي أفي وحدانيته سبحانه شك وهي في غاية الوضوح والجلاء ثم إن الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه ووحدانيته فقالوا ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما وما فيهما بعد العدم .

﴿يدعوكم﴾ إلى الإيمان به وتوحيده أو الى الايمان بإرساله إيانا لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا إليه ﴿ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي لأجل غفران ذنوبكم إذا آمنتم وصدقتم أو اللام للتعدية كقولك دعوتك لزيد .

قال أبو عبيدة : من صلة زائدة في الإيجاب ، ووجه ذلك قوله في موضع آخر ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ وأجازه الأخفش وقال سيبويه : هي للتبعيض ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع .

وقيل التبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غفران جميعها لغيرهم ، وبهذه الآية احتج من جوز زيادة ﴿من﴾ في الإثبات ، وجمهور البصريين لا يجوزون زيادتها إلا في النفي إذا

جرت نكـرة ومن ثم جعلها بعضهم للبدل وقال ليست بزائدة ولا تبعيضية أي لتكون المغفرة بدلاً من عقوبة الذنوب ، ويحتمل أن يضمن يغفر معنى يخلص أي يخلصكم من ذنوبكم ويكون مقتضاه غفران جميع الذنوب وهو أولى من دعوى زيادته ﴿ويؤخركم﴾ بلا عذاب ﴿إلى أجل﴾ أي وقت ﴿مسمى﴾ عنده سبحانه وهو الموت فلا يعذبكم في الدنيا .

﴿قالوا إن﴾ أي ما ﴿أنتم إلا بشر مثلنا﴾ في الهيئة والصورة ، تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب ، فلا فضل لكم علينا ولستم ملائكة ﴿تريدون أن تصدونا﴾ وصفوهم بالبشر أولاً ثم بإرادة الصدّ لهم ﴿عما كان يعبد آباؤنا﴾ أي آباؤهم ثانياً أي تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام ونحوها ﴿فأتونا﴾ إن كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله ﴿بسلطان مبين﴾ أي حجة ظاهرة واضحة تدل على صحة ما تدعونه من المزية أو النبوة وقد جاؤوهم بالسلطان المبين والحجـة الظاهـرة ولكن هذا نـوع من تعنتاتهم ولـون من تلوناتهم .

﴿قالت لهم رسلهم﴾ مسلمين مشاركتهم في الجنس ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ أي في الصورة والهيئة كما قلتم لا ننكر ذلـك ﴿ولكن الله يمن﴾ ويتفضل ﴿على من يشاء من عباده﴾ بالنبوة والرسالة ، وقيل بالتوفيق والهداية جعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله تعالى وفيه دليل على أن النبوة أمر وهبي لا كسبي كما يزعمه المتفلسفة والحكماء .

﴿وما كان﴾ أي ما صح ﴿لنا﴾ ولا استقام ﴿أن نأتيكم بسلطان﴾ أي بحجة من الحجج ، وقيل المراد بالسلطان هنا هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت ، وقيل أعم من ذلك فإن ما شاء الله كان وما لم يشأه لم يكن ﴿إلا بإذن الله﴾ أي بمشيئته وإرادته وليس ذلك في قدرتنا ، وقيل بأمره لنا بالإتيان أي إذنه لنا فيه والأول أولى .

﴿وعـلى الله﴾ وحده ﴿فليتـوكل المؤمنـون﴾ في دفع شـرور أعدائهم عنهم وفي

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾

الصبر على معاداتهم وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه وكأن الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصداً أولياً ولهذا قالوا :

﴿وما لنا﴾ أي وأيُّ مانع وعذر لنا في ﴿أن لا نتوكل على الله﴾ سبحانه في دفع شروركم عنا ، فيه التفات عن الغيبة الى التكلم والاستفهام للإنكار ﴿وقد هدانا سبلنا﴾ بضم الباء وسكونها سبعيتان ، أي والحال إنه قد فعل بنا ما يوجب التوكل عليه ويستدعيه من هدايتنا إلى الطريق الموصلِ إلى رحمته وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه وعرفنا طريق النجاة وبيَّن لنا الرشد .

وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمي مظهرين لكمال العزيمة ﴿و﴾ الله ﴿لنصبرن على ما آذيتمونا﴾ من وقوع التكذيب لنا منكم والعناد والاقتراحات الباطلة وغير ذلك مما لا خير فيه وما مصدرية أو موصولة اسمية ﴿وعلى الله﴾ وحده دون من عداه ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ قيل المراد بالتوكل الأول استحداثه وإنشاؤه، وبهذا السعي في بقائه وثبوته فالتوكلان مختلفان .

وقيل معنى الأول إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله سبحانه لا علينا ، فإن شاء سبحانه أظهرها وإن شاء لم

يظهرها . ومعنى الثاني إبداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم .

﴿وقال الذين كفروا﴾ هم طائفة من المتمردين عن إجابة الرسل ﴿لرسلهم﴾ واللام في ﴿لنخرجنكم﴾ هي الموطئة للقسم ، أي والله لنخرجنكم ﴿من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾ لم يقنعوا برد ما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم إليه حتى اجترؤوا عليهم بهذا وخيروهم بين الخروج من أرضهم أو العود في ملتهم الكفرية.

وقد قيل أن ﴿أو﴾ بمعنى حتى أو بمعنى إلا أن كما قاله بعض المفسرين ، ورد بأنه لا حاجة الى ذلك بل أو على بابها للتخيير بين أحد الأمرين ، قيل والعود هنا بمعنى الصيرورة ، أي لتصيرن داخلين في ديننا أي في الشرك لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها ، وقيل إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب الرسل على أتباعهم، وقد تقدم تفسير الآية في سورة الأعراف ﴿فأوحى اليهم﴾ أي إلى الرسل بعد هذه المخاطبات والمحاورات ﴿ربهم لنهلكن الظالمين﴾ الكافرين ﴿ولنسكننكم الأرض﴾ أي أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوكم من الإخراج او العود .

﴿من بعدهم﴾ أي بعد هلاكهم ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ وقال ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم﴾ .

عن ابن عباس قال : كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهم ويكذبونهم ويدعونهم إلى أن يعودوا في ملتهم ، فأبى الله لرسله والمؤمنين أن يعودوا في ملة الكفر ، وأمرهم أن يتوكلوا على الله وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة ووعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم ، فأنجز لهم ما وعدهم واستفتحوا كما أمرهم الله أن يستفتحوا .

وعن قتادة قال : وعدهم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة ، فبيَّن الله

من يسكنها من عباده فقال ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ وإن لله مقاماً هو قائمه ، وأن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا ودأبوا الليل والنهار .

﴿ذلك﴾ أي ما تقدم من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين في مساكنهم ﴿لمن خاف مقامي﴾ أي موقفي ، وذلك يوم الحساب فإنه موقف الله سبحانه ، والمقام بفتح الميم مكان الاقامة وبالضم فعل الاقامة ، وقيل ان المقام هنا مصدر بمعنى القيام ، أي لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي له كقوله تعالى ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ وقال الأخفش مقامي بمعنى عذابي .

﴿وخاف وعيد﴾ أي خشي وعيدي بالعذاب ، وقيل بالقرآن وزواجره ، وقيل هو نفس العذاب الموعود للكفار ، والوعيد اسم من الوعد ، وهذه الآية تدل على أن الخوف من الله غير الخوف من وعيده لأن العطف يقتضي التغاير ، قاله الكرخي .

﴿واستفتحوا﴾ أي استنصروا بالله على أعدائهم أو سألوا الله القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة بين الخصمين ، ومن الأول قوله ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ ومن الثاني قوله ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا﴾ أي احكم ، والضمير في استفتحوا للرسل ، وقيل للكفار وقيل للفريقين وقيل لقريش لأنهم في سني الجدب استمطروا فلم يمطروا ، وهو على هذا مستأنف والأول أولى ، وقرىء استفتحوا بكسر التاء الثانية على لفظ الأمر ، أمراً للرسل بطلب النصرة فنصروا وسعدوا وربحوا .

﴿وخاب﴾ أي خسر وقيل هلك ﴿كل جبار﴾ هو المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً ، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة .

وقيل من تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها ، وهو صفة ذم في

حق الانسان ، وقيل الذي لا يرى فوقه أحداً . وقيل المتعظم في نفسه المتكبر على اقرانه والمعاني متقاربة ﴿عنيد﴾ هو المعاند للحق والمجانب له قاله مجاهد ، وهو مأخوذ من العند وهو الناحية ، أي آخذ في ناحية معرضاً .

قال الزجاج : العنيد الذي يعدل عن القصد ، وبمثله قال الهروي . وقال أبو عبيد : هو الذي عند وبغى وقال ابن كيسان : هو الشامخ بأنفه ، وقيل المراد به العاصي ، وقيل الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله . قاله قتادة ، وقيل العنيد الناكب عن الحق . قاله ابراهيم النخعي ، وقال مقاتل : المتكبر ، وقال ابن عباس : هو المعرض عن الحق .

وقيل هو المعجب بما عنده ، وقيل هو الذي يعاند ويخالف ، ومعنى الآية انه خسر وهلك من كان متصفاً بهذه الصفة .

﴿من ورائه﴾ أي من بعده ﴿جهنم﴾ والمراد بعد هلاكه على أن وراء هنا بمعنى بعد : ومثله قوله تعالى ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي من بعده ، كذا قال الفراء . وقيل من ورائه أي من أمامه قال أبو عبيدة : هو من أسماء الأضداد لأن أحدهما ينقلب الى الآخر ، ومنه قوله تعالى ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾ أي أمامهم ، وبه قال قطرب .

وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك أي سوف يأتيك وأنا من وراء فلان أي في طلبه .

وقال النحاس : من ورائه أي من أمامه ، وليس من الأضداد ، ولكنه من توارى أي استتر فصارت جهنم من ورائه لأنها لا ترى. وحكى مثله ابن الأنباري وقال ثعلب: هو اسم لماتوارى عنك سواء كان خلفك أو قدامك.

﴿ويسقى من ماء صديد﴾ أي يلقى فيها ويسقى ، والصديد ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم واشتقاقه من الصد لأنه يصد الناظرين عن رؤيته وهو دم مختلط بقيح يسيل من جلد الكافر ولحمه .

يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾

وقال عكرمة : هو القيح والدم . وقال محمد بن كعب القرظي : هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر والصديد صفة لماء أو بدل منه ، وقيل عطف بيان له ﴿يتجرعه﴾ التجرع التحسي أي يتحساه مرة بعد مرة لا مرة واحدة لمرارته وحرارته ونتنه وكراهته ، وقيل يكلف تجرعه ويقهر عليه ولم يذكر الزمخشري غيره ، وقيل إنه دال على المهلة أي يتناوله شيئاً فشيئاً . وقيل انه بمعنى جرعه المجرد ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ يقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغاً اذا كان سهلاً ، والمعنى لا يقارب ان يسيغه ويبتلعه فكيف يكون الاساغة بل يغص به بعد اللتيا واللتي فيشربه جرعة بعد جرعة فيطول عذابه بالحرارة والعطش تارة ، ويشربه على هذه الحالة أخرى ، فإن السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفي ما ذكر جميعاً .

وقيل لا يكاد يدخله في جوفه ، وعبر عنه بالاساغة لما انها المعهودة في الاشربة وقيل انه يسيغه بعد شدة وابطاء كقوله ﴿وما كادوا يفعلون﴾ أي يفعلون بعد ابطاء كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿يصهر به ما في بطونهم﴾ قيل كاد صلة ، وقال الزمخشري للمبالغة ؛ وقيل معناه لا يجيزه .

أخرج أحمد والترمذي واستغربه والنسائي وابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي وابو نعيم في الحلية وصححه عن ابي أمامة عن النبي صلى الله

عليه وسلم في الآية قال : «يقرب الى فيه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فاذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره » يقول الله ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع امعاءهم﴾ وقال :﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ .

﴿ويأتيه الموت﴾ أي أسبابه ﴿من كل مكان﴾ أي من كل جهة من الجهات من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله ، أو من كل موضع من مواضع بدنه .

وقال الأخفش : المراد بالموت هنا البلايا التي تصيب الكافر في النار ، سماها موتاً لشدتها .

وقال ابن عباس : يعني أنواع العذاب وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت لأن الله يقول لا يقضى عليهم فيموتوا .

وقال ميمون بن مهران : المعنى من كل عظم وعرق وعصب . وعن محمد بن كعب نحوه ، وعن ابراهيم التيمي قال : من موضع كل شعرة في جسده .

﴿وما هو بميت﴾ أي والحال انه لم يمت حقيقة فيستريح . وقيل تعلق نفسه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع الى مكانها من جوفه فيحيا ، ومثله قوله ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾ .

وقيل المعنى وما هو بميت لتطاول شدائد الموت به وامتداد سكراته عليه ، والأولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه ﴿لا يموت فيها

ولا يحيى﴾ وقوله ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ .

﴿ومن ورائه﴾ أي من أمامه أو من بعده أو من بين يديه ، قاله البيضاوي . وقيل الضمير عائد على كل جبار كما في السمين ﴿عذاب غليظ﴾ أي شديد يستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه ، قيل هو الخلود في النار ، قال ابراهيم التيمي وقيل حبس الأنفاس ، قاله فضيل بن عياض .

﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ كلام مستأنف منقطع عما قبله ، قال سيبويه : تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين ، والمثل مستعار للقصة التي فيها غرابة . وقال الزجاج والفراء : التقدير مثل اعمال الذين . وروي عنه أنه قال بالغاء مثل ، وقيل مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول مثلهم فقيل :

﴿أعمالهم﴾ الصالحة كالصدقة وصلة الأرحام وفك الأسير وإقراء الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك أو عبادتهم الأصنام في عدم الانتفاع بها أو الأعمال التي اشركوا فيها غير الله تعالى .

﴿كرماد﴾ أي باطلة غير مقبولة ، والرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء ، وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد احتراقه بالنار وجمعه في الكثرة على رمد ؛ وفي القلة على أرمد .

﴿اشتدت به الريح﴾ حملته بشدة وسرعة فنسفته وطيَّرته ولم تبق منه شيئاً ﴿في يوم عاصف﴾ العصف شدة الريح وصف به زمانها مبالغة كما يقال يوم حار ويوم بارد والبرد والحر فيهما لا منهما والاسناد فيه تجوّز ، ووجه الشبه أن الريح العاصفة تطيِّر الرماد وتفرِّق اجزاءه بحيث لا يبقى له أثر ، فكذلك كفرهم أبطل أعمالهم واحبطها بحيث لا يبقى لها أثر .

وقد بيَّن محصله بقوله ﴿لا يقدرون مما كسبوا﴾ من تلك الاعمال الباطلة

﴿على شيء﴾ منها ولا يرون له أثراً في الآخرة يجازون به ويثابون عليه ، جميع ما عملوه في الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها وهو فذلكة التمثيل . وعن ابن عباس : لا يقدرون على شيء من اعمالهم ينفعهم كما لا يقدر على الرماد إذا أرسل في يوم عاصف .

﴿ذلك﴾ أي ما دل عليه التمثيل من هذا البطلان لأعمالهم وذهاب أثرها ﴿هو الضلال﴾ الهلاك ﴿البعيد﴾ عن طريق الحق المخالف لمنهج الثواب أو عن فعل الثواب ، ولما كان هذا خسراناً لا يمكن تداركه ولا يرجى عوده سماه بعيداً ﴿ألم تر أن الله خلق السموات والارض﴾ الرؤية هنا هي القلبية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريضاً لأمته او الخطاب لكل من يصلح له «بالحق» أي بالوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقها عليه ليستدل بها على كمال قدرته لا باطلاً ولا عبثاً والباء للمصاحبة .

ثم بينّ كمال قدرته سبحانه واستغنائه عن كل أحد من خلقه فقال : ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أيها الناس ﴿ويأت بخلق جديد﴾ سواكم فيعدم الموجودين ويوجد المعدومين ؛ ويهلك العصاة ، ويأتي بمن يطيعه من خلقه ، لأن القادر لا يصعب عليه شيء وانه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، والمقام يحتمل ان يكون هذا الخلق الجديد من نوع الانسان ، ويحتمل ان يكون من نوع آخر .

وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾

﴿وما ذلك﴾ أي الاذهاب والاتيان بإعدام الموجود وإيجاد المعدوم ﴿على الله بعزيز﴾ أي بممتنع ومتعذر لأنه سبحانه قادر على كل شيء ، وفيه أن الله تعالى هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخاف عقابه ، فلذلك أتبعه بذكر أحوال الآخرة فقال ﴿وبرزوا لله جميعاً﴾ أي الخلائق من قبورهم يوم القيامة ، والبروز الظهور والبراز بالفتح المكان الواسع لظهوره ، ومنه امرأة برزة أي تظهر للرجال ، وبرز حصل في البراز أي الفضاء ، وذلك بأن يظهر بذاته كلها ، فمعنى برزوا ظهروا من قبورهم .

وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه كما هو مقرر في علم المعاني وإنما قال وبرزوا لله مع كونه سبحانه عالماً بهم لا يخفى عليه شيء من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى ، فالكلام خارج على ما يعتقدونه .

﴿فقال الضعفاء للذين استكبروا﴾ أي قال الاتباع الضعفاء في الرأي للرؤساء الأقوياء المتكبرين بما هم فيه من الرياسة ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ في الدنيا

في الدين والاعتقاد فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم ، والتبع جمع تابع مثل خادم وخدم وحارس وحرس وراصد ورصد ، أو مصدر وصف به للمبالغة أو على تقدير ذوي تبع .

قال الزجاج : جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم وقادتهم عن عبادة الله انا كنا لكم تبعاً .

﴿فهل أنتم﴾ في هذا اليوم ، والاستفهام للتوبيخ ﴿مغنون﴾ أي دافعون ﴿عنا﴾ يقال أغنى عنه اذا دفع عنه الأذى واغناه إذا أوصل اليه النفع ﴿من عذاب الله من شيء﴾ أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله ، فمن الأولى للبيان والثانية للتبعيض قاله الزمخشري ، وقيل هما للتبعيض معاً قاله في الكشاف ايضاً وقيل الأولى تتعلق بمحذوف والثانية مزيدة .

﴿قالوا﴾ أي قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين ﴿لو هدانا الله﴾ الى الايمان في الدنيا ﴿لهديناكم﴾ اليه ولكن لما أضلنا وضللنا دعوناكم الى الضلالة واضللناكم واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، والجملة مستأنفة كأنه قيل كيف أجابوا ، وقيل المعنى لو هدانا الله الى طريق الجنة لهديناكم اليها ، وقيل لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه .

﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ أي مستو علينا الجزع والصبر ، والجزع أبلغ من الحزن لأنه يصرف الانسان عما هو بصدده وبقطعه عنه والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما في قوله تعالى ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ .

﴿ما لنا من محيص﴾ أي منجاة ومهرب من العذاب من الحيص وهو العدول على جهة الفرار يقال حاص فلان عن كذا أي فرَّ وزاغ يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً .

والمعنى مالنا وجه نتباعد به عن النار ، ويجوز ان يكون هذا من كلام الفريقين وأن كان الظاهر انه من كلام المستكبرين ، وفي مجيء كل جملة مستقلة من غير عاطف دلالة على أن كُلاً من المعاني مستقل بنفسه كاف في الأخبار ، وقال زيد بن أسلم : جزعوا مائة سنة وصبروا مائة سنة .

وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول أهل النار هلموا فلنصبر فيصبرون خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا هلموا فلنجزع فبكوا خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » .

والظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما في قوله تعالى ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد﴾ .

﴿وقال الشيطان﴾ للفريقين ﴿لما قضي الأمر﴾ أي دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار على ما سيأتي بيانه في سورة مريم ﴿ان الله وعدكم وعد الحق﴾ فصدق في وعده وهو وعده سبحانه بالبعث والحساب ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

قال الفراء : وعد الحق هو من اضافة الشيء الى نفسه كقولهم مسجد الجامع ؛ وقال البصريون وعدكم وعد اليوم الحق .

﴿ووعدتكم﴾ وعداً باطلاً بأنه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار

﴿فأخلفتكم﴾ ما وعدتكم به من ذلك ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم .

﴿إلا أن دعوتكم﴾ أي مجرد دعائي لكم الى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان ودعوته لهم ليست من جنس السلطان حتى يستثنى منه بل الاستثناء منقطع أي لكن دعوتكم وقيل المراد بالسلطان هنا القهر أي ما كان لي عليكم من قهر يضطركم الى اجابتي وقيل هذا الاستثناء هو من باب « تحية بينهم ضرب وجيع » مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من سلطان وليس منه قطعاً .

﴿فاستجبتم لي﴾ أي فسارعتم الى اجابتي ﴿فلا تلوموني﴾ بما وقعتم فيه بسبب وعدي لكم بالباطل واخلافي هذا الموعد فإن من صرح بالعداوة لا يلام بأمثال ذلك ﴿ولوموا أنفسكم﴾ باستجابتكم لي بمجرد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة فإن من قبل المواعيد الباطلة والدعاوي الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى ولمارنه قطع ولا سيما ودعوتي هذه الباطلةوموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وهو الحق ودعوته لكم الى دار السلام مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل ولا تلتبس إلا على مخذول .

وقريب من هذا من يقتدي بآراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله ولما في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويؤثرها على ما فيهما فانه قد استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حجة ، ولا دل عليه برهان ، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المقلدين لهم ، المتنكبين عن طريق الحق بسوء اختيارهم ، اللهم غفراً .

﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ﴾ يقال صرخ فلان اذا استغاث يصرخ صراخاً وصرخاً واستصرخ بمعنى صرخ والمصرخ المغيث والمستصرخ

المستغيث ، يقال استصرخني فأصرخته والصريخ صوت المستصرخ والصريخ ايضا الصارخ وهو المغيث والمستغيث وهو من أسماء الأضداد كما في الصحاح .

قال ابن الأعرابي : الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث ، ومعنى الآية ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من العذاب ، وما أنتم بمغيثي ولا منقذي مما أنا فيه وفيه إرشاد لهم إلى أن الشيطان في تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب ، محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه فكيف يطمعون في إغاثة من هو محتاج الى من يغيثه .

قال ابن عباس : المعنى ما أنا بنافعكم وما أنتم بنافعي ، وقال الشعبي في هذه الآية : خطيبان يقومان يوم القيامة إبليس وعيسى ؛ فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول القول المذكور في الآية ، وأما عيسى فيقول ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ وقال قتادة : المعنى ما أنا بمعينكم . ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قد ذهب جمهور المفسرين الى أن ما مصدرية أي بإشراككم أياي مع الله في الطاعة لأنهم كانوا يطيعونه في أعمال الشر ، كما يطاع الله في أعمال الخير ، فالإشراك استعارة بتشبيه الطاعة به وتنزيلها منزلته ، أو لأنهم لما أشركوا الأصنام ونحوها بايقاعه لهم في ذلك فكأنهم أشركوه وقيل موصولة على معنى إني كفرت بالذي أشركتمونيه وهو الله عز وجل ، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أن أمره بالسجود لآدم .

ولما كشف لهم القناع بأنه لا يغنى عنه من عذاب الله شيئاً ولا ينصرهم بنوع من انواع النصر ، صرح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع الله في الربوبية من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة ، وهو ما كان منهم في الدنيا من جعله شريكاً .

ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم ، فأوضح لهم :

**أولا** أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه ، وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها .

ثم أوضح لهم **ثانيا** بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول ، ولا يتفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره .

ثم أوضح لهم **ثالثاً** بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء .

ثم نعى عليهم **رابعاً** ما وقعوا فيه ودفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل .

ثم اوضح لهم **خامساً** بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضراً بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة .

ثم صرح لهم **سادساً** بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له ، فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب .

واذا كان جملة ﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ من تتمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع **سابع** من كلامه الذي خاطبهم به . فاثبت لهم الظلم ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الأليم لا على قول من قال إنه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه وتعالى .

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

ولما اخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة فقال ﴿وادخل﴾ قراءة الجمهور على البناء للمفعول وقرىء بالبناء على الفاعل أي وأنا أدخل ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ ثم ذكر سبحانه خلودهم في الجنات وعدم انقطاع نعيمهم فقال ﴿خالدين فيها﴾ ثم ذكر أن ذلك ﴿بإذن ربهم﴾ أي بتوفيقه ولطفه وهدايته ، هذا على القراءة الأولى وفيه تعظيم لذلك الأجر ، وأما على الثانية فيكون بإذن ربهم متعلقاً بقوله .

﴿تحيتهم فيها﴾ أي تحية الملائكة في الجنة ﴿سلام﴾ بإذن ربهم ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة يونس .

ولما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح ، ثم ذكر نعيم المؤمنين وما جازاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها وتحية الملائكة لهم ، ذكر تعالى ههنا مثلا للكلمة الطيبة وهي كلمة الإسلام أي لا إله إلا الله أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الخير ، وذكر مثلا للكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشر ، فقال مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم أو لمن يصلح للخطاب :

﴿ألم تر﴾ بعين قلبك فتعلم علم يقين بإعلامي إياك ﴿كيف ضرب الله مثلاً﴾ أي اختار مثلاً وضعه في موضعه اللائق به ، والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالأول ﴿كلمة طيبة﴾ وهي قول لا إله إلا الله عند الجمهور أو كل

كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة . قاله الزمخشري ﴿كشجرة طيبة﴾ أي طيبة الثمر نعت لكلمة وبه بدأ الزمخشري ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هي قاله ابن عطية .

ثم وصف الشجرة بقوله ﴿أصلها ثابت﴾ أي راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الأرض بعروقها ﴿وفرعها في السماء﴾ أي في أعلاها ذاهب الى جهة السماء مرتفع في الهواء . ثم وصفها سبحانه بأنها ﴿تؤتى أكلها﴾ أي ثمرها ﴿كل حين﴾ أي كل وقت والحين في اللغة: الوقت يطلق على القليل والكثير، واختلفوا في مقداره كما سيأتي ﴿بإذن ربها﴾ أي بإرادته ومشيئته وأمره، قيل وهي النخلة كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن وعمله يصعد إلى السماء وتناله بركته وثوابه كل وقت.

وأخرج أحمد وابن مردويه ، قال السيوطي بسند جيد عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « هي التي لا تنقص ورقها النخلة» .

وأخرج البخاري وغيره من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً لأصحابه « أي شجرة من الشجر لا يطرح ورقها مثل المؤمن ؟ قال فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في قلبي أنها النخلة فاستحييت حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي النخلة »[١] وفي لفظ للبخاري «أخبروني عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها وتؤتى أكلها كل حين » فذكر نحوه[٢] .

وفي لفظ لابن جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما الشجرة الطيبة ثم قال هي النخلة » وروى نحو هذا جماعة من الصحابة والتابعين ، وقيل غيرها ؛

(١) مسلم ٢٨١١ - البخاري ٥٤ .

(٢) البخاري كتاب الأدب باب ٨٩ .

والمراد تؤتى أكلها كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار ، في جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف ، قاله ابن عباس .

وقيل المراد في أوقات مختلفة من غير تعيين ، وقيل كل غدوة وعشية ، وقيل الحين هنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة ، وقيل كل شهر ، وقيل كل ستة أشهر قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن يعني من وقت طلعها الى حين صرامها ، وقال علي بن أبي طالب ثمانية أشهر ، وقيل أربعة اشهر من حين ظهور حملها الى إدراكها، وقال سعيد بن المسيب شهران .

قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره . وقد ورد الحين في بعض المواضع يراد به أكثر كقوله ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر﴾ وقد تقدم بيان أقوال العلماء في الحين في سورة البقرة . وقال الزجاج : الحين الوقت طال أم قصر .

عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿تؤتى أكلها كل حين﴾ قال يكون أخضر ثم يكون أصفر ، وعنه قال كل حين جداد النخل ، وقد روي عن جماعة من السلف في هذا أقوال كثيرة .

ووجه الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق أن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع نابت ، وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان والأركان وقيل غير ذلك ؛ وعن ابن عباس : الكلمة الطيبة شهادة أن لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن ، وأصلها الثابت قول لا إله إلا الله ثابت في القلب وفرعها في السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن الى السماء ، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم .

﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ أحوال المبدأ والمعاد

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته ، وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني وتقريب لها من الحس ومواعظ لمن تذكر واتعظ .

﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ قد تقدم تفسيرها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل وضرب الله مثلاً كلمة خبيثة للإيذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان ﴿كشجرة﴾ أي كمثل شجرة ﴿خبيثة﴾ قيل هي شجرة الحنظل وقيل هي شجرة الثوم وقيل الكمأة ، وقيل الطحلبة ، وقيل هي كشوث بالضم وآخره مثلثة وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض .

﴿اجتثت﴾ أي استؤصلت واقتلعت وقطعت من أصلها ، قال المؤرج أخذت جثتها وهي نفسها وذاتها والجثة شخص الانسان قاعداً ونائماً يقال جثه قلعه واجتثه اقتلعه كأنها اجتثت وكأنها غير ثابتة بالكلية وكأنها ملقاة على وجه الأرض ومعنى ﴿من فوق الأرض﴾ أنه ليس لها أصل راسخ وعروق متمكنة من الأرض .

﴿ما لها﴾ أي لهذه الشجرة ﴿من قرار﴾ أي من استقرار ، وقيل من ثبات لأنها ليس لها أصل ثابت تغوص في الأرض بل عروقها في وجهها ولا فرع لها صاعد إلى السماء بل ورقها يمتد على الأرض كشجرة البطيخ وثمرها رديء كما أن الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ولا خير يأتي منه أصلاً . ولا يصعد

له قول طيب ولا عمل صالح وفي الحقيقة تسميتها شجرة مجاز لأن الشجر ماله ساق والنجم ما لا ساق له وهي من النجم فتسميتها شجرة للمشاكلة .

قال ابن عباس : الكلمة الخبيثة الشرك والشجرة الخبيثة الكافر يعني الشرك ليس له اصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملاً ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم .

﴿يثبت الله﴾ راجع للمثل الاول ﴿الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ أي بالحجة الواضحة عندهم وهي الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها ، وقد ثبت في الصحيح أنها كلمة الشهادة يقولها المؤمن اذا قعد في قبره قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «فذلك قوله تعالى يثبت الله» الآية[١] وقيل معنى تثبيت الله لهم هو ان يدوموا عليه ﴿في الحياة الدنيا﴾ ويستمروا حتى اذا فتنوا في دينهم لم يزالوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود وغير ذلك .

﴿وفي الآخرة﴾ أي في القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب ، قاله الجمهور وقيل يوم القيامة عند البعث والحساب ، وقيل المراد بالحياة الدنيا وقت المسألة في القبر وفي الآخرة وقت المسألة يوم القيامة والمراد أنهم اذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم[٢] ولا تردد ولا جهل ، كما يقول من لم يوفق لا أدري فيقال له لادريت ولا تليت .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم اذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله » فذلك قوله ﴿يثبت الله الذين آمنوا﴾ الآية[٣] ، وعن البراء قال « اذا جاء الملكان الى الرجل في القبر فقالا من ربك فقال ربي الله ، وقالا وما دينك قال ديني الاسلام ، وقالا من نبيك قال نبيي محمد صلى

---

(١) النسائي كتاب الجنائز باب ١١٤ .

(٢) التلعثم ، التوقف أ هـ ، قاموس أ هـ منه .

(٣) مسلم ٢٨٧١ ـ البخاري ٧٢٥ .

الله عليه وسلم فذلك التثبيت في الحياة الدنيا »[١] وعن ابن عباس نحوه ، وعن أبي سعيد قال في الآخرة القبر ، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « هذا في القبر » .

وأخرج البزار عنها أيضا قالت : قلت يارسول الله تبتلى هذه الأمة في قبورها فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة ؟ قال ﴿يثبت الله الذين آمنوا﴾ الآية .

وعن عثمان بن عفان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل »[٢] أخرجه أبو داود ، وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفتنته ، وليس هذا موضع بسطها وهي معروفة ، نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب وتسهيله بفضله إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

﴿ويضل الله الظالمين﴾ راجع للمثل الثاني ، أي يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت فلا يقدرون على التكلم في قبورهم ولا عند الحساب ، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا ، قيل والمراد بالظالمين هنا الكفرة ، وقيل كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة فإنه لا يثبت في مواقف الفتن ولا يهتدي إلى الحق .

﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ من التثبيت للمؤمنين والخذلان للظالمين لا راد لحكمه ولا اعتراض عليه . قال الفراء : أي لا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل والاظهار في محل الإضمار في الموضعين لتربية المهابة .

﴿ألم تر﴾ هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له تعجيباً مما صنع الكفرة من الأباطيل التي لا تكاد تصدر عمن له ادنى

---

(١) ابو داود كتاب السنة باب ٢٤ ـ الترمذي تفسير سورة ١٤ .

(٢) أبو داود كتاب الجنائز الباب ٦٩ .

ادراك وذلك بتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله منهم وانعم عليهم به ، وقيل إنهم بدلوا نفس النعمة كفراً .

فالتبديل على الأول تغيير في الوصف والنعمة باقية لكنها موصوفة بالكفران وعلى الثاني تغيير في الذات والنعمة زائلة مبدلة بالكفر ، فانهم لما كفروها سلبت عنهم ، فصاروا تاركين لها محصلين للكفر بدلها ، ولفظ ابن عباس هم كفار أهل مكة ، أخرجه البخاري والنسائي وبه قال جمهور المفسرين .

قيل نزلت في الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، قال عليّ : هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر ، أخرجه النسائي . وقد روى عنه في تفسير هذه الآية من طرق نحو هذا ، وعن عمر بن الخطاب قال : هم الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا الى حين ، وعن عليّ نحوه ايضاً ، وعن ابن عباس قال : هم جبلة بن الايهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم ، أخرجه ابن أبي حاتم وفيه نظر فان جبلة وأصحابه لم يسلموا إلا في خلافة عمر بن الخطاب ؛ وقيل انها عامة في جميع المشركين .

﴿وأحلوا﴾ أي أنزلوا ﴿قومهم﴾ بسبب ما زينوه لهم من الكفر ﴿دار البوار﴾ وهي جهنم قيل هم قادة قريش احلوهم يوم بدر دار الهلاك وهو القتل الذي اصيبوا به والأول أولى لقوله .

﴿جهنم﴾ فانه عطف بيان لدار البوار يقال بار الشيء يبور بوراً بالضم هلك وبار الشيء بواراً كسد على الإستعارة لأنه إذا ترك صار غير منتفع به فأشبه الهالك من هذا الوجه ﴿يصلونها﴾ مستأنفة لبيان كيفية حلولهم فيها أي داخلين فيها مقاسين لحرها ﴿وبئس القرار﴾ أي قرارهم فيها أو بئس المقر جهنم فالمخصوص بالذم محذوف .

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ أي أمثالاً وأشباهاً أي شركاء في الربوبية أو في التسمية وهي الأصنام ، قال قتادة : يعني اشركوا بالله وليس له تعالى شريك ولا ند ولا شبيه تعالى عن ذلك علواً كبيراً فسَّر بغير قراءة حفصٍ فهي بضم الياء أما هنا ففسرها على الفتح فجعل الأصل قراءة والقراءة أصلاً ﴿ليضلوا﴾ بفتح الياء أنفسهم ﴿عن سبيله﴾ أي عن سبيل الله، اللام للعاقبة بطريق الاستعارة التبعية أي ليتعقب جعلهم لله أنداداً ضلالهم لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه.

وحسن استعمال لام العاقبة هنا لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها في آخر المراتب والمشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز ، وقرىء بضم الياء أي ليوقعوا قومهم في الضلال عن سبيل الله ، فهذا هو الغرض من جعلهم لله أنداداً والقراءتان سبعيَّتان، ثم هددهم سبحانه فقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قل تمتعوا﴾ في الدنيا بما أنتم فيه من الشهوات وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم واضلال الناس أياماً قلائل .

وفي التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب لافضائه الى المهدد به ﴿فإن مصيركم﴾ أي مردكم ومرجعكم في الآخرة ﴿الى النار﴾ .

ولما كان هذا حالهم وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لا يقلعون عنه ولا يقبلون فيه نصح الناصحين ، جعل الأمر بمباشرته مكان النهي عن قربانه ايضاحاً لما تكون عليه عاقبتهم وأنهم لا محالة صائرون الى النار فلا بد لهم من تعاطي الأسباب المقتضية لذلك ، فجملة فإن مصيركم الى النار تعليل للأمر بالتمتع وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره ، أو المعنى فان دمتم على ذلك فان مصيركم الى النار والأول أولى والنظم القرآني عليه أدل كما يقال لمن سعى في مخالفة السلطان اصنع ما شئت من المخالفة فإن مصيرك الى السيف .

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

﴿قل لعبادي﴾ بثبوت الياء مفتوحة وبحذفها لفظاً لا خطاً ، والقراءتان سبعيتان ويجريان في خمس مواضع من القرآن ، هذا وقوله في سورة الأنبياء ﴿ان الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ وقوله في العنكبوت ﴿ياعبادي الذين آمنوا﴾ وقوله في سبأ ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وفي سورة الزمر ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا﴾ .

﴿الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم﴾ لما أمره بأن يقول للمبدلين نعمة الله كفراً الجاعلين له أنداداً ما قاله لهم ، أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم وهي طائفة المؤمنين هذا القول ، والمقول محذوف دل عليه المذكور ، أي قل لهم اقيموا الصلاة الواجبة ، واقامتها اتمام أركانها ، وانفقوا أي اخرجوا الزكاة المفروضة ، وقيل أراد به جميع الانفاق في جميع وجوه الخير والبر ، والحمل على العموم أولى ويدخل فيه الزكاة دخولاً أولياً .

﴿سراً وعلانية﴾ قال الفراء : أي مسرين ومعلنين أو انفاق سر وعلانية أو وقت سر وعلانية فالانتصاب على الحال أو المصدر أو الظرف . قال الجمهور السر ما خفي والعلانية ما ظهر ، وقيل السر التطوع والعلانية الفرض ، وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله ﴿ان تبدو الصدقات فنعما هي﴾ .

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾ قال أبو عبيدة : البيع

ههنا الفداء والخلال المخالة وهو مصدر . قال الواحدي : هذا قول جميع أهل اللغة .

وقال ابو علي الفارسي : جمع خلة مثل قلة وقلال وبرمة وبرام وعلبة وعلاب ، والمعنى أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدي المقصر في العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك ، وليس هناك مخالة حتى يشفع الخليل لخليله وينقذه من العذاب .

فأمرهم سبحانه بالانفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله سبحانه ما داموا في الحياة الدنيا ، قادرين على انفاق أموالهم من قبل أن يأتي يوم القيامة فإنهم لا يقدرون على ذلك ، بل لا مال لهم إذ ذاك ، فالجملة لتأكيد مضمون الأمر بالانفاق مما رزقهم الله ، ويمكن أن يكون فيها ايضاً تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة ، وذلك لأن تركها كثيراً ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الأخلاء .

قيل هذه الآية الدالة على نفي الخلة محمولة على نفيها بسبب ميل الطبيعة وشهوة النفس ، والآية الدالة على حصول الخلة وثبوتها كقوله سبحانه في الزخرف ﴿الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله ، ألا تراه أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم .

وقيل إن ليوم القيامة أحوالاً مختلفة ؛ ففي بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفي بعضها يتعاطف الأخلاء بعضهم على بعض اذا كانت تلك المخالة لله تعالى في محبته ، وقد تقدم تفسير البيع والخلال .

﴿الله الذي خلق السموات والأرض﴾ أي أبدعهما واخترعهما على غير مثال سبق وخلق ما فيهما من الأجرام العلوية والسفلية ، وإنما بدأ بذكر خلقهما لأنهما أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار ، ذكر لهذا الموصول سبع صلات تشتمل على عشرة ادلة : على وحدانية الله تعالى وعلمه وقدرته .

﴿وأنزل من السماء ماء﴾ المراد بالسماء هنا جهة العلو فإنه يدخل في ذلك الفلك عند من قال إن ابتداء المطر منه ، ويدخل فيه السحاب عند من قال إن ابتداء المطر منها ، ويدخل فيه الاسباب التي تثير السحاب كالرياح ، قيل ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الريح ، ومن الريح الى الأرض ، وتنكير الماء هنا للنوعية أي نوعاً من أنواع الماء وهو ماء المطر .

﴿فأخرج به﴾ أي بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ المتنوعة ﴿رزقاً لكم﴾ أي لبني آدم يعيشون به ، ومن للبيان كقولك انفقت من الدراهم وقيل للتبعيض لأن الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم ومنها ما هو ليس برزق لهم وهوما لا يأكلونه ولا ينتفعون به ، والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر وقد يقع على الزرع ايضاً كقوله تعالى ﴿كلوا من ثمره إذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ وقيل المراد به ما يشمل المطعوم والملبوس .

﴿وسخر لكم الفلك﴾ أي السفن الجارية على الماء فجرت على ارادتكم لأجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات وغيرها من بلد الى بلد آخر ، فاستعملتموها في مصالحكم ، ولذا قال ﴿لتجري في البحر﴾ كما تريدون على ما تطلبون بالركوب والحمل ونحو ذلك ﴿بأمره﴾ أي بأمر الله ومشيئته وإذنه ، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة .

﴿وسخر لكم الانهار﴾ بكل فائدة قاله مجاهد : اي ذللها لكم بالركوب عليها والاجراء لها الى حيث تريدون ، وهو من أعظم نعم الله على عباده .

﴿وسخر لكم الشمس والقمر﴾ لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما ﴿دائبين﴾ الدؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية ، والدأب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ، ودأب في السير دوام عليه ، ودأب في عمله جد وتعب ، وبابه قطع وخضع فهو دائب بالالف لا غير ، والدائبان الليل والنهار ، والدأب بسكون الهمزة العادة والشأن ، وقد يحرك .

ومعنى دائبين يجريان دائما في اصلاح ما يصلحانه من النبات والحيوان

وإزالة الظلمة لأن الشمس سلطان النهار ، وبها يعرف فصول السنة ، والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور ، وكل ذلك بتسخير الله عز وجل وانعامه على عباده ، وقيل دائبين في السير امتثالاً لأمر الله .

قال ابن عباس : دؤبهما في طاعة الله ، والمعنى يجريان الى يوم القيامة ولا يفتران ولا ينقطع سيرهما في فلكهما ، وهو السماء الرابعة للشمس ، وسماء الدنيا للقمر الى آخر الدهر ، وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما تحتاجون اليه من أمور دنياكم ، والليل لتسكنوا فيه كما قال سبحانه ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ ولم يقتصر على النعم المتقدمة بل .

﴿وآتاكم من كل﴾ نوع وصنف ﴿ما سألتموه﴾ قال الأخفش : أي أعطاكم من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر ، وقيل المعنى من كل ما سألتم ومن كل ما لم تسألوه قاله ابن الأنباري : لأن نعمه علينا أكثر من أن تحصى ؛ وقيل من زائدة وبه قال الأخفش ، أي آتاكم كل ما سألتموه ، وقيل للتبعيض أي بعض ما سألتموه ، وهو رأي سيبويه .

قال عكرمة : أي من كل شيء رغبتم اليه فيه ، وعن مجاهد مثله ، وعن الحسن من كل الذي سألتموه ، وقرىء ﴿من كل﴾ بتنوين ، وعلى هذا ما نافية حرفية ، أي آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له ، أو مصدرية أو موصولة اسمية .

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ أي وإن تتعرضوا لتعداد النعم التي انعم الله تعالى بها عليكم اجمالاً فضلاً عن التفصيل لا تطيقوا احصاءها بوجه من الوجوه ولا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال .

وفي السمين : النعمة هنا بمعنى المنعم به ، وأصل الاحصاء أن الحاسب اذا بلغ عقداً معيناً من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظه بها .

ومن المعلوم أنه لو رام فرد من أفراد العباد أن يحصي ما أنعم الله به عليه في خلق عضو من أعضائه أو حاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط ولا أمكنه أصلاً فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه الله في بدنه فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة اليه في كل وقت على تنويعها واختلاف أجناسها ، اللهم إنا نشكرك على كل نعمة أنعمت بها علينا مما لا يعلمه إلا أنت ، ومما علمناه شكراً لا يحيط به حصر ولا يحصره عد ، وعدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان .

قال سليمان التيمي : إن الله أنعم على العباد على قدره وكلفهم الشكر على قدرهم وعن بكر بن عبدالله المزني قال : يا ابن آدم إن اردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك .

وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه ، وعن أبي أيوب القرشي قال : قال داود عليه السلام : رب أخبرني ما أدنى نعمتك عليَّ ؟ فأوحى اليه يا داود تنفس فتنفس ، فقال هذا أدنى نعمتي عليك .

﴿ان الانسان لظلوم﴾ لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه ، وقيل الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه ، وظاهره شمول كل انسان ، وقال الزجاج : إن الانسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة ، كما قال إن الانسان لفي خسر ، وقيل يريد أبا جهل والأول أولى .

﴿كفار﴾ أي شديد كفران نعم الله عليه جاحد لها غير شاكر لله سبحانه عليها كما ينبغي ويجب عليه .

عن عمر بن الخطاب قال : اللهم اغفر لي ظلمي وكفري ، فقال قائل يا أمير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر ، قال إن الانسان لظلوم كفار ، وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كفار في النعمة يجمع ويمنع .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿واذ قال ابراهيم﴾ أي واذكر وقت قوله ، ولعل المراد بسياق ما قاله ابراهيم عليه السلام في هذا الموضع بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم ، وهي إسكانهم مكة بعدما بين كفرهم بالنعم العامة . وقيل إن ذكر قصة ابراهيم ههنا لمثال الكلمة الطيبة ، وقيل لقصد الدعاء الى التوحيد وانكار عبادة الأصنام . وهذه القصة كانت بعدما وقع له من الإلقاء في النار ؛ وفي تلك لم يسأل ولم يدع بل اكتفى بعلم الله بحاله وفي هذه قد دعا وتضرع ؛ ومقام الدعاء أجل وأعلى من مقام تركه اكتفاء بعلم الله كما قاله العارفون . فيكون ابراهيم قد ترقى وانتقل من طور الى طور من أطوار الكمال .

﴿رب اجعل هذا البلد﴾ أي مكة ﴿آمناً﴾ أي ذا أمن الى قرب القيامة وخراب الدنيا ، وقدّم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الانسان لشيء آخر من أمور الدنيا والدين ، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في البقرة عند قوله تعالى ﴿رب اجعل هذا بلداً آمنا﴾ والفرق بين ما هنا وما هنالك أن المطلوب ههنا مجرد الأمن للبلد ، والمطلوب هنالك البلدية والأمن .

وفي الجمل فسر الشارح البلد هنا بمكة ، وفي سورة البقرة بالمكان فيقتضي أن هذا الدعاء وقع مرتين مرة قبل بنائها ومرة بعده ، ولذلك كتب

الكرخي هناك ما نصه نكر البلد هنا وعرفه في ابراهيم لأن الدعوة هنا كانت قبل جعل المكان بلداً فطلب من الله ان يجعل ويصير بلداً آمناً وثم كانت بعد جعله بلداً انتهى .

وقال الزمخشري : سأل في **الأول** ان يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي **الثاني** أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا انتهى .

قلت والمعاني متقاربة والمراد من الدعاء جعل مكة آمنة من الخراب ، وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على تخريبها وان أغار جماعة من الجبابرة عليها وأخافوا أهلها ، وقيل هو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين من الحبشة على ما في الصحيحين فلا تعارض بين النصين .

او المراد جعل أهل هذا البلد آمنين ، وهذا الوجه عليه أكثر المفسرين وغيرهم ، وهذا الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها الى الآن قال السيوطي : وقد أجاب الله دعاءه فجعله حرماً لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه .

﴿واجنبني وبني ان نعبد الأصنام﴾ يقال جنبته كذا واجنبته أي باعدته عنه ثلاثياً ورباعياً وهي لغة نجد ، وجنبه إياه مشدداً وهي لغة الحجاز وهو المنع وأصله من الجانب كأنه سأله ان يبعده عن جانب الشرك بألطاف منه وأسباب خفية والمعنى باعدني وباعد بني عن عبادة الأصنام قيل اراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية ، وقيل أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه وبني بنيه ، وقيل أراد جميع ذريته ما تناسلوا .

قيل ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد ابراهيم صنماً ، والصنم هو التمثال الذي كانت تصنعه أهل الجاهلية من الاحجار ونحوها

فيعبدونه ، والتأييد هذا يستقيم على القولين الأولين ، وأما القول الثالث فلا يستقيم فقريش من أولاد اسماعيل وقد عبدوا الأصنام بلا شك ، وقال الواحدي : المعنى وبني الذين اذنت لي في الدعاء لهم ، وقد كان من بنيه من عبد الصنم ، فيكون هذا الدعاء من العام المخصوص .

وقيل هذا مختص بالمؤمنين من أولاده بدليل قوله في آخر الآية فمن تبعني فإنه مني وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه ، وعن مجاهد قال : فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته ، واستجاب الله له وجعل هذا البلد آمناً ورزق أهله الثمرات وجعله إماماً وجعل من ذريته من يقيم الصلاة ويقبل دعاءه فأراه مناسكه وتاب عليه ، قيل هو دعاء لنفسه في مقام الخوف أو قصد به الجمع بينه وبين بنيه ليستجاب لهم ببركته والمراد طلب الثبات والدوام على ذلك .

﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ أسند الاضلال الى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل لأنها سبب لضلالهم فكأنها أضلتهم ، وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه واعادة النداء لتأكيد النداء وكثرة الابتهال والتضرع وهذا التركيب مجاز كقولهم فتنتهم الدنيا وغرَّتهم وإنما فتنوا بها واغتروا بسببها .

﴿ثم قال : ﴿فمن تبعني﴾ أي من تبع ديني من الناس فصار مسلماً موحداً ﴿ فإنه مني ﴾ أي من أهل ديني جعل أهل ملته كنفسه مبالغة .

﴿ومن عصاني﴾ فلم يتابعني ولم يدخل في ملتي ﴿فإنك غفور رحيم﴾ قادر على ان تغفر له قيل قال هذا قبل ان يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك قاله ابن الانباري ، قيل المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك قاله مقاتل ، وقيل ان هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك ، قاله السدي ، وقيل تغفر له بأن تنقله من الكفر الى الإيمان والاسلام وتهديه إلى الصواب والأول أولى : .

ثم قال ﴿ربنا اني أسكنت من ذريتي﴾ قال الفراء : من للتبعيض أي

بعض ذريتي ، وقال ابن الأنباري : انها زائدة أي أسكنت ذريتي والأول أولى لأنه إنما أسكن اسماعيل وهو بعض ولده وأمه هاجر ﴿بواد﴾ هو المنخفض بين الجبلين ﴿غير ذي زرع﴾ أي لا زرع فيه قط وهو وادي مكة أو لا يصلح للانبات لأنه أرض حجرية لا تنبت شيئاً نفى ان يكون اسكانهم لأجل الزراعة ﴿عند بيتك المحرم﴾ أي الذي كان قبل الطوفان ، واما وقت دعائه فلم يكن ، وإنما كان تلاً من الرمل ، وأما البيت فقد رفع الى السماء من حين الطوفان ولو جعل التجوز باعتبار ما يؤول لكان صحيحاً أيضاً يعني أنه سيعمره أو بيتك الذي جرى في سابق علمك انه سيحدث في هذا المكان .

وسمي محرماً لأن الله حرَّم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرماً لمكانه أو لأنه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقاً لأنه أعتق منه ، وقيل انه محرَّم على الجبابرة ، وقد تقدم في سورة المائدة ما يغني عن الاعادة .

أخرج الواقدي وابن عساكر من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال كانت سارة تحت ابراهيم فمكثت تحته دهراً لا ترزق منه ولداً فلما رأت ذلك وهبت له هاجر ، أَمَة لها قبطية فولدت له اسماعيل فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر فحلفت أن يقطع منها ثلاثة أطراف فقال لها ابراهيم : هل لك أن تبري يمينك قالت : كيف اصنع قال : اثقبي أذنيها واخفضيها والخفض هو الختان ، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في اذنيها قرطين فازدادت بهما حسناً فقالت سارة : اراني إنما زدتها جمالاً فلم تضارُّه على كونه معها ووجد بها ابراهيم وجداً شديداً فنقلها الى مكة فكان يزورها في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها .

ثم قال ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ اللام لام كي أي ما اسكنتهم بهذا الوادي الخالي من كل مرتفق ومرتزق إلا لاقامة الصلاة فيه متوجهين اليه متبركين به ، وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها ، ولعل تكرير النداء

وتوسيطه لاظهار العناية الكاملة بهذه العبادة وللاشعار بأنها المقصودة بالذات من اسكانهم ثَمَّ[١] والمقصود من الدعاء توفيقهم لها ، وقيل اللام لام الأمر والمراد الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الاقامة وسأل من الله ان يوفقهم لها اثبت أن الاقامة عنده للعبادة وقد نفى كونها للكسب فجاء الحصر .

﴿فاجعل أفئدة﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهو القلب عبر به عن جميع البدن لأنه أشرف عضو فيه ، وقيل هو جمع وفد والأصل أوفده فكأنه قال واجعل وفوداً ﴿من الناس تهوي اليهم﴾ من للتبعيض ، وقيل زائدة ولا يلزم منه ان يحج اليهود والنصارى لدخولهم تحت لفظ الناس ، لأن المطلوب توجيه قلوب الناس اليهم للسكون معهم والجلب اليهم لا توجيهها الى الحج ، ولو كان هذا مراداً لقال تهوي اليه ، وقيل من للابتداء كقوله القلب مني سقيم تريد قلبي ، ومعنى تهوي اليهم تنزع اليهم ؛ وقيل تسرع وتميل وتحن اليهم لزيارة بيتك لا لذواتهم واعيانهم .

وفي هذا بيان أن حنين الناس اليهم إنما هو لطلب حج البيت لا لأعيانهم ، يقال هوى نحوه اذا مال وهوت الناقة تهوي هوياً فهي هاوية إذا عدت عدواً شديداً كأنها تهوي في بئر ، ويحتمل أن يكون المعنى تجيء اليهم او تسرع اليهم وقيل تحن وتطير وتشتاق اليهم ، واصله أن يتعدى باللام وانما تعدى بإلى لأنه ضمن معنى تميل .

قال السدي : أي أمل قلوبهم الى هذا الموضع ، وقيل تريدهم ، قاله الفراء وقيل تنحط اليهم وتنحدر وتنزل ، وهذا قول أهل اللغة والمعاني

---

(١) بفتح الثاء أي هناك .

متقاربة ، قال ابن عباس : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والترك والروم والهند ، ولحج اليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكنه قال ﴿أفئدة من الناس﴾ فخص به المؤمنين أخرجه البيهقي بسند حسن وفيه دعاء للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بأنهم ينتفعون بمن يأتي اليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع ابراهيم في هذا الدعاء من أمر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركته .

﴿وارزقهم﴾ أي ذريتي الذين أسكنتهم هنالك أو اياهم ومن يساكنهم من الناس ﴿من﴾ أنواع ﴿الثمرات﴾ التي تنبت فيه كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزرع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار او المراد جلب الثمرات الى مكة بطريق النقل والتجارة لقوله تعالى ﴿تجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ وهذا أولى ﴿لعلهم يشكرون﴾ نعمتك التي انعمت بها عليهم .

قال محمد بن مسلم : إن ابراهيم لما دعا للمحرم نقل الله الطائف من فلسطين ، وعن الزهري قال : إن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم ، وأما إجابة قوله فاجعل أفئدة الخ فقد حصلت بجرهم ، وقد استمر قصد الحجاج والعمار لهذا البيت كل عام الى آخر الزمان .

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي ما نكتمه وما نظهره ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة اليه سبحانه سيان لا تفاوت فيهما ، قيل والمراد هنا بما نخفي ما يقابل ما نعلن فالمعنى ما نظهره وما لا نظهره ، وقدم الاخفاء على الاعلان للدلالة على انهما مستويان في علم الله سبحانه ، وظاهر النظم القرآني عموم كل ما يظهره وما لا يظهره من غير تقييد بشيء معين من ذلك .

وقيل المراد ما يخفيه ابراهيم من وجده باسماعيل وامه حيث أسكنهما بواد غير ذي زرع ، وما يعلنه من ذلك ، وقيل ما يخفيه ابراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء والمجيء بضمير الجماعة يشعر بأن ابراهيم لم يرد نفسه فقط بل أراد جميع العباد ، فكان المعنى ان الله سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد وبكل ما لا يظهرونه .

﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ قال جمهور المفسرين هو من كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله ابراهيم من أنه سبحانه يعلم بما يخفيه العباد وما يعلنونه ، فقال سبحانه ما يخفى عليه شيء من الأشياء الموجودة كائناً ما كان ، وانما ذكر السموات والارض لأنهما المشاهدتان للعباد ، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه خافية قيل ويحتمل أن يكون هذا من قول ابراهيم تحقيقاً لقوله

الأول وتعميماً بعد التخصيص ، فإن قيل بالأول فهو اعتراض بين كلامي ابراهيم ، وان قيل بالثاني ففيه وضع الظاهر موضع المضمر .

ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة اليه فقال ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر﴾ أي على كبر سني وسن امرأتي ﴿إسماعيل واسحاق﴾ قيل ولد له اسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحاق وهو ابن مائة واثنتا عشرة سنة وقيل على هنا بمعنى مع أي مع كبري ويأسي عن الولد .

عن سعيد بن جبير قال : بشر ابراهيم بعد سبع عشرة ومائة سنة وهبة الولد في هذا السن من أعظم المنن لأنه سن اليأس فلهذا شكر الله على هذه المنة ، وهذا قاله ابراهيم في وقت آخر لا عقيب ما تقدم من الدعاء ، لان الظاهر أنه دعا بذلك الدعاء المتقدم أول ما قدم بهاجر وابنها وهي ترضعه ووضعها عند البيت ؛ واسحاق لم يولد في ذلك الوقت ، قال الكرخي : وزمان الدعاء والحمد مختلف ، فان الدعاء في طفولية اسماعيل ولم يكن اسحاق حينئذ .

﴿ان ربي لسميع الدعاء﴾ أي لمجيب الدعاء من قولهم سمع كلامه اذا اجابه واعتد به وعمل بمقتضاه ، وهو من اضافة الصفة المتضمنة للمبالغة الى المفعول ، والمعنى انك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك وكان ابراهيم قد دعا ربه فسأله الولد بقوله ﴿رب هي لي من الصالحين﴾ فلما استجاب الله دعاءه قال الحمد لله الخ .

ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة محافظاً عليها غير مهمل لشيء منها فقال ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾ أي ممن يقيمها بأركانها ويحافظ عليها في أوقاتها ، ثم قال ﴿ومن ذريتي﴾ أي اجعلني واجعل بعض ذريتي مقيمين للصلاة وانما خص البعض من ذريته لأنه علم أن منهم من لا يقيمها

كما ينبغي ؛ ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم فقال ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولاً أولياً قيل والمراد بالدعاء هنا العبادة، فيكون المعنى وتقبل عبادتي التي أعبدك بها.

ثم طلب من الله سبحانه ان يغفر له ما وقع منه مما يستحق ان يغفره الله وإن لم يكن كبيراً لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر . فقال التجاء الى الله وقطعاً للطمع من كل شيء إلا من فضله وكرمه ، واعترافاً بالعبودية لله والاتكال على رحمته .

﴿ربنا اغفر لي ولوالديّ﴾ قيل إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم انهما عدوان لله سبحانه وقيل بشرط الاسلام ، وقيل كانت أمه مسلمة والأول أولى ، وقيل أراد بوالديه آدم وحواء وفيه بعد ؛ وقرىء شاذاً ولولديّ - يعني اسماعيل واسحاق - وأنكرها الجحدري بأن في مصحف ولأبوي ، فهي مفسرة لقراءة العامة .

﴿وللمؤمنين﴾ ظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته أو لم يكن منهم .

وقيل أراد المؤمنين من ذريته فقط والأول أولى . والله تعالى لا يرد دعاء خليله ، ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة اللهم اغفر لي مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً ، وإني من ذرية خليلك ابراهيم فاغفر لي ولمن أخلفه من المؤمنين .

﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي يوم يثبت حساب المكلفين في المحشر ، استعير له لفظ يقوم الذي هو حقيقة في قيام الرجل للدلالة على أنه في غاية الاستقامة . وقيل إن المعنى يوم يقوم الناس للحساب ، وقيل يبدو ويظهر فيه الحساب والأول أولى .

﴿ولا تحسبن﴾ بفتح السين وكسرها قراءتان سبعيتان ، أي لا تظنن

﴿الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو تعريض لأمته فكأنه قال ولا تحسب أمتك يامحمد ، ويجوز ان يكون خطاباً لكل من يصلح له من المكلفين وإن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم من غير تعريض لأمته ، فمعناه التثبيت على ما كان عليه من عدم الحسبان كقوله ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ ونحوه ، وقيل المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم ؛ أو يكون المراد بالنهي عن الحسبان الإيذان بأنه عالم بذلك لا تخفى عليه منه خافية .

قال ميمون بن مهران في الآية : هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم ، وعن سفيان بن عيينة نحوه ، والغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور ، وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الانسان من قلة التحفظ والتيقظ ؛ وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم بل سنة الله سبحانه في إمهال العصاة .

﴿إنما يؤخرهم﴾ أي يؤخر جزاءهم وعذابهم ولا يؤاخذهم بظلمهم ، وهذه الجملة استئناف وقع تعليلاً للنهي السابق ﴿ليوم﴾ أي لأجل يوم فاللام للعلة وقيل بمعنى الى التي للغاية ﴿تشخص فيه الابصار﴾ أي أبصارهم فلا تقر في أماكنها ، قال الفراء : المعنى ترفع فيه أبصار أهل الموقف ولا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم .

شخوص البصر حدة النظر وعدم استقراره في مكانه ، يقال شخص سمعه وبصره وأشخصهما صاحبهما وشخص بصره أي لم يطرف جفنه ، ويقال شخص من بلده أي بعد ، والشخص سواد الانسان المرئي من بعيد ، والمراد أن الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة . قال قتادة : شخصت فيه والله أبصارهم فلا ترتد اليهم ، قيل أل للعهد وقيل لو حمل على العموم كان أبلغ في التهويل وأسلم من التكرير .

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

﴿مهطعين﴾ أي مسرعين قاله قتادة وزاد في الجمل الى الداعي وهو اسرافيل وقيل هو جبريل والنافخ اسرافيل . قال الشهاب : وهو الاصح كما دلت عليه الآثار وقيل المهطع الذي يديم النظر . قاله مجاهد .

قال أبو عبيدة : قد يكون الوجهان جميعاً ، يعني الاسراع مع ادامة النظر ، وقيل المهطع الذي لا يرفع رأسه وقال ثعلب : المهطع الذي ينظر في ذل وخضوع وقيل هو الساكت ، قال النحاس : والمعروف في اللغة أهطع إذا أسرع ، وبه قال أبو عبيدة ، قال ابن عباس : يعني بالاهطاع النظر من غير أن يطرف .

﴿مقنعي رؤوسهم﴾ اقناع الرأس رفعه ، واقنع صوته إذا رفعه ، وقال ابن عباس : الاقناع رفع الرأس ، والمعنى أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم الى السماء ينظرون اليها نظر فزع وذل ولا ينظر بعضهم الى بعض ، وقيل أن اقناع الرأس نكسة، وقيل يقال أقنع إذا رفع رأسه وأقنع رأسه إذا طأطأه ذلة وخضوعاً ، والآية محتملة للوجهين ، قال المبرد : والقول الأول أعرف في اللغة .

﴿لا يرتد اليهم طرفهم﴾ أي لا ترجع اليهم أبصارهم من شدة الخوف ، وأصل الطرف تحريك الأجفان ، وسميت العين طرفاً لأنه يكون لها ، وقال ابن عباس : يعني شاخصة أبصارهم قد شغلهم ما بين أيديهم ﴿وأفئدتهم هواء﴾ الهواء في اللغة الجوف الخالي الذي لم تشغله الاجرام ، والمعنى أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش وجعلها نفس الهواء مبالغة ومنه قيل للأحمق والجبان قلبه هواء أي لا رأي فيه ولا قوة .

وقيل معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر لا تخرج من أفواههم ولا تعود الى أماكنها ، وقيل هواء بمعنى مترددة تهوي في اجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ، وقيل المعنى إن أفئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير . قال ابن عباس : ليس فيها شيء من الخير فهي كالخربة ، قال قتادة : ليس فيها شيء خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم ، وعن مرة قال : منخرقة لا تعي شيئاً ، وقيل المعنى وأفئدتهم ذات هواء .

ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ أي خالياً من كل شيء إلا من همّ موسى عليه السلام ، والحاصل أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة والرؤوس مرفوعة الى السماء من هول ذلك اليوم وشدته .

﴿وأنذر الناس﴾ هذا رجوع الى خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الله سبحانه بأن ينذرهم ، والمراد الناس على العموم ، وقيل المراد كفار مكة وقيل الكفار على العموم والأول أولى لأن الانذار كما يكون للكافر يكون أيضاً للمسلم ، ومنه قوله تعالى ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ .

﴿يوم يأتيهم العذاب﴾ أي يوم القيامة ، قاله مجاهد ، أي خوفهم يوم إتيان العذاب ، وإنما اقتصر على ذكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان

الثواب ايضاً لأن المقام مقام تهديد ، وقيل المراد به يوم موتهم فإنه أول أوقات إتيان العذاب ، وقيل المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل .

﴿فيقول الذين ظلموا﴾ المراد بهم هنا هم الناس ، أي فيقولون ، والعدول الى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم . هذا إذا كان المراد بالناس هم الكفار ، وعلى تقدير كون المراد بهم من يعم المسلمين فالمعنى فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار ﴿ربنا أخرنا﴾ أي أمهلنا ﴿الى أجل قريب﴾ أي أمد من الزمان معلوم غير بعيد ﴿نجب دعوتك﴾ لعبادك على ألسن أنبيائك الى توحيدك .

﴿ونتبع الرسل﴾ المرسلين منك الينا فنعمل بما بلغوه الينا من شرائعك ونتدارك ما فرط منا من الإهمال ، وانما جمع الرسل لأن دعوتهم الى التوحيد متفقة فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم ، وهذا منهم سؤال للرجوع الى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ .

ثم حكى الله سبحانه ما يجاب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة فقال ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ أي فيقال لهم هذا القول توبيخاً وتقريعاً من قبل الله أو الملائكة والاستفهام تقريري .

قال ابن عباس : من زوال عما أنتم فيه الى ما تقولون ، وقال السدي : بعث بعد الموت ، أي ألم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم ما لكم من زوال من دار الدنيا ، وقيل أنه لا قسم منهم حقيقة وإنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم في الشهوات واخلادهم الى الحياة الدنيا .

وقيل قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم في قوله ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ وجواب القسم ﴿ما لكم من زوال﴾ وانما جاء بلفظ الخطاب في ما لكم لمراعاة أقسمتم ، ولولا ذلك لقال ما لنا من زوال .

﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ أي استقررتم ، يقال سكن الدار وسكن فيها ، وهي بلاد ثمود ونحوهم من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله والعصيان له .

وقال الحسن : عملتم بمثل أعمالهم ﴿وتبين لكم﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كيف فعلنا بهم﴾ من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوا من الذنوب وكيف منصوب بما بعده من الفعل ، وليس الجملة فاعلاً لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله ما دلت هي عليه دلالة واضحة ، أي فعلنا العجيب بهم ، وقيل فاعله مضمر لدلالة الكلام عليه ، أي حالهم وخبرهم وهلاكهم ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ في كتب الله وعلى ألسن رسله ايضاحاً لكم وتقريراً وتكميلاً للحجة عليكم ﴿وقد مكروا﴾ أي فعلنا بهم ما فعلنا ، والحال أنهم قد مكروا في رد الحق واثبات الباطل .

﴿مكرهم﴾ العظيم الذي استفرغوا فيه وسعهم ، وقيل المراد كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم حين هموا بقتله ونفيه كما ذكر في سورة الانفال والأول أولى .

﴿وعند الله مكرهم﴾ أي علمه او جزاؤه أو مكتوب مكرهم فهو مجازيهم أو عند الله مكرهم الذي يمكرهم به ، على أن يكون المكر مضافاً الى المفعول .

وقيل المراد ما وقع من النمرود حيث حاول الصعود الى السماء فاتخذ لنفسه تابوتاً وربط قوائمه بأربعة نسور ، وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه بأطول من هنا ، وروي نحو هذه القصة لبختنصر وللنمرود من طرق ذكرها في الدر المنثور ، واستبعدها بعض أهل العلم ، وقال إن الخطر فيه عظيم ، ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الأمر العظيم الذي ذكروه وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ، ولا مناسبة لهذه القصة بتأويل الآية البتة .

﴿وان كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ وقرىء كاد موضع كان وقرىء

لتزول بفتح اللام على انها لام الابتداء ، وقرأ الجمهور بكسرها على أنها لام الجحود ، قال ابن جرير : والمختارة هي الأخيرة وإن هي الخفيفة من الثقيلة واللام هي الفارقة وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدته أي وان الشأن كان مكرهم معداً لذلك .

قال الزجاج : وان كان مكرهم يبلغ في الكيد الى إزالة الجبال ، فان الله ينصر دينه ، وعلى قراءة الجمهور يحتمل وجهين :

**أحدهما** : أن تكون إن هي المخففة من الثقيلة والمعنى كما مر .

**والثاني** : أن تكون نافية واللام المكسورة لتأكيد النفي كقوله : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ والمعنى ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهور المشبهة بها في القرار والبقاء ، وقال ابن عباس : مكرهم شركهم والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها ، وقيل المراد بالمكر كفرهم ، ويناسبه ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾ .

﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ المعنى مخلف رسله وعده ، قال القتيبي : هو من المقدم الذي يوضحه التأخير ، والمؤخر الذي يوضحه التقديم ، وسواء في ذلك مخلف وعده رسله ومخلف رسله وعده ، وقال الزمخشري : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله ﴿ان الله لا يخلف الميعاد﴾ ثم قال ﴿رسله﴾ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً وليس من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ، والمراد بالوعد هنا هو ما وعدهم سبحانه بقوله ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ وكتب الله لأغلبن أنا ورسلي .

﴿إن الله عزيز﴾ غالب لا يغالبه أحد ﴿ذو انتقام﴾ ينتقم من أعدائه لأوليائه والجملة تعليل للنهي ، وقد مر تفسيره في أول آل عمران ، قال قتادة : عزيز والله في أمره يملي وكيده متين ثم إذا انتقم انتقم بقدرة .

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿يوم﴾ أي اذكر وارتقب يوم ﴿تبدل الأرض﴾ المشاهدة ﴿غير الأرض﴾ والتبديل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم بالدنانير وقد يكون في الصفات كما في بدلت الحلقة خاتماً ، والآية تحتمل الأمرين وبالثاني قال الأكثر ﴿والسموات﴾ أي وتبدل السموات غير السموات لدلالة ما قبله عليه على الاختلاف الذي مر ، وتقديم تبديل الأرض لقربانها ولكون تبديلها أعظم أثراً بالنسبة الينا .

أخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان قال جاء رجل من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « في الظلمة دون الجسر »[1] .

وأخرج مسلم ايضا وغيره من حديث عائشة قالت : أنا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، قلت : أين الناس يومئذ قال : « على الصراط »[2] والصحيح على هذا ازالة عين هذه الأرض .

وأخرج البزار وابن المنذر والطبراني في الأوسط ، والبيهقي وابن عساكر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال : «أرض بيضاء كأنها فضة لم

---

(١) مسلم ٣١٥ .

(٢) مسلم ٢٧٩١ .

يسفك فيها دم حرام ولم يعمل بها خطيئة » قال البيهقي : والموقوف أصح ، وفي الباب روايات ، وقد روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة .

وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقى »[1] وفيهما ايضاً عن حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده »[2] الحديث .

وقد أطال القرطبي في بيان ذلك في تفسيره وفي تذكرته ، وحاصله ان هذه الأحاديث نص في أن الأرض والسموات تبدل وتزال ويخلق الله أرضاً أخرى تكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر ، وهو الصراط لا كما قال كثير من الناس ان تبديل الأرض عبارة عن تغيير صفاتها وتسوية آكامها ونسف جبالها ومد أرضها .

ثم قال وذكر شبيب بن إبراهيم في كتاب الإفصاح أنه لا تعارض بين هذه الآثار ، وأنها تبدلان كرتين : أحداهما هذه الأولى قبل نفخة الصعق ، والثانية إذا وقفوا في المحشر ، وهي أرض عفراء من فضة لم يسفك عليها دم حرام ولا جرى عليها ظلم ويقوم الناس على الصراط على متن جهنم ، ثم ذكر في موضع آخر من التذكرة ما يقتضي ان الخلائق وقت تبديل الأرض تكون في أيدي الملائكة رافعين لهم عنها .

قال في الجمل : فتحصل من مجموع كلامه ان تبديل هذه الأرض بأرض

---

(١) مسلم ٢٧٩٠ ـ البخاري ٢٤٩٩ .

(٢) مسلم ٢٧٩٢ ـ البخاري ٢٤٤٨ .

أخرى من فضة يكون قبل الصراط وتكون الخلائق إذ ذاك مرفوعة في أيدي الملائكة وان تبديل الأرض بأرض من خبز يكون بعد الصراط وتكون الخلائق إذ ذاك على الصراط ، وهذه الأرض خاصة بالمؤمنين عند دخولهم الجنة .

﴿وبرزوا﴾ أي العباد أو الظالمون كما يفيده السياق أي ظهروا من قبورهم ليستوفوا جزاء أعمالهم وهذه هي علة الخروج او ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتمونه ، والتعبير عن المستقبل بالماضي للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله ونفخ في الصور ﴿لله الواحد القهار﴾ المنفرد بالالوهية الكثير القهر لمن عانده .

﴿وترى﴾ التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة ﴿المجرمين﴾ أي المشركين ﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿مقرنين﴾ أي مشدودين ﴿في الاصفاد﴾ إما بجعل بعضهم مقروناً مع بعض ، قاله ابن قتيبة أي بحسب مشاركتهم في العقائد والأعمال كقوله ﴿واذا النفوس زوجت﴾ أو قرنوا مع الشياطين كما في قوله نقيض له شيطاناً فهو له قرين أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة والملكات الباطلة أو جعلت أيديهم مقرونة الى أرجلهم ، قاله ابن زيد .

والمقرن من جمع في القرن وهو الحبل الذي يربط به والأصفاد الأغلال والقيود قاله قتادة ، يقال صفدته صفداً أي قيدته ، والاسم الصفد بفتحتين فإذا أردت التكثير قلت صفدته ، ويقال صفدته وأصفدته إذا أعطيته ، قال ابن عباس : الكبول ، وعنه يقول في وثاق ، قال سعيد بن جبير : السلاسل .

﴿سرابيلهم﴾ هي القمص ، قاله السدي . وعن ابن زيد مثله واحِدُها سربال يقال سربلته أي ألبسته السربال ﴿من قطران﴾ هو قطران الإبل الذي تهنأ به قاله الحسن ، أي قمصناهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل ، وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه ولذعه مع نتن

رائحته ووحشة لونه ، وقال جماعة هو النحاس المذاب ، وبه قال عمر وابن عباس .

قال عكرمة : هذا القطران يطلى به حتى يشتعل ناراً ، وقال سعيد بن جبير : القطر الصفر ، والآن الحار وعن عكرمة نحوه ، والقطران فيه لغات بفتح القاف وكسر الطاء وهي قراءة العامة وبزنة سكران وبزنة سرحان وهو ما يستخرج من شجر فيطبخ ويطلى به الإبل ليذهب جربها لحدته .

وقيل هو دهن ينحلب من شجر الابهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الابل اذا جربت وهو الهناء ، ولو أراد الله المبالغة في احراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم بما يعرفون .

وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك الاشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب »[1] .

﴿وتغشى﴾ أي تعلو ﴿وجوههم النار﴾ وتضربها وتخللها وقلوبهم ايضاً ، وخص الوجوه لأنها أشرف ما في البدن وفيها الحواس المدركة .

﴿ليجزي﴾ أي يفعل ذلك بهم ليجزي ﴿الله﴾ متعلق ببرزوا والجمل التي بينهما اعتراض كما في السمين ﴿كل نفس ما كسبت﴾ من المعاصي أي جزاء موافقاً لما كسبت من خير أو شر ﴿ان الله سريع الحساب﴾ لا يشغله عنه شيء ولا حساب عن حساب ، بل يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك وقد تقدم تفسيره .

---

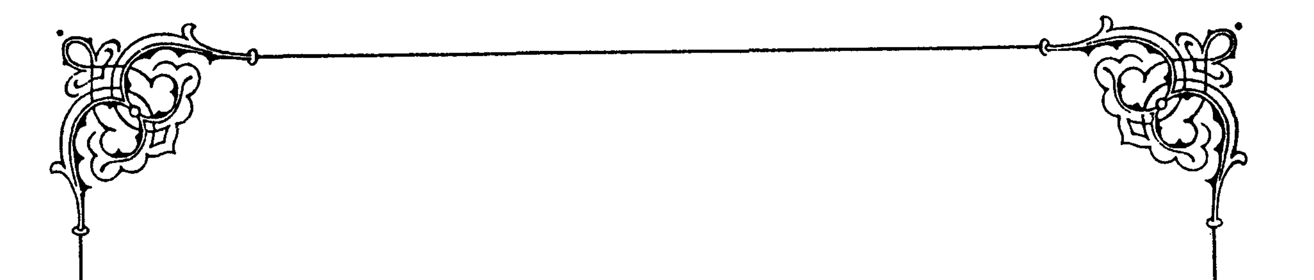
(١) مسلم ، ٩٣٤ .

﴿هذا بلاغ﴾ أي هذا الذي أنزل اليك تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير ومبلغ وموصل للناس الى مراتب السعادة ، قيل إن الاشارة الى ما ذكره سبحانه هنا من قوله ﴿ولا تحسبن الله غافلاً ، الى سريع الحساب﴾ أي هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة ، وقيل الاشارة الى جميع السورة ، وقيل الى القرآن وبه قال ابن زيد ، وفيه من المحسنات رد العجز على الصدر فقد افتتحت هذه السورة بقوله ﴿كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور﴾ .

﴿للناس﴾ أي للكفار او لجميع الناس على ما قيل في قوله وأنذر النّاس ، أي أنزل لتبليغهم الى ما فيه رشدهم ونفعهم أي لإيصالهم الى الخير ﴿ولينذروا به﴾ أي بالقرآن ، قاله ابن زيد ، وقرىء بفتح التحتية والذال المعجمة ، يقال نذرت بالشيء أنذر إذا علمت به واستعددت له .

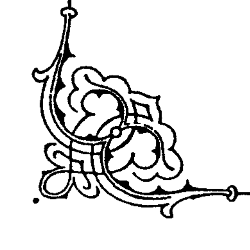
﴿وليعلموا﴾ بالأدلة التكوينية المذكورة سابقاً أو بالقرآن بما فيه من الحجج ﴿انما هو اله واحد﴾ لا شريك له ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ أي وليتعظ أصحاب العقول السليمة والأفهام الصحيحة .

وهذه اللامات متعلقة بمحذوف ، والتقدير وكذلك أنزلنا أو متعلقة بالبلاغ المذكور أي كفاية لهم في أن ينصحوا وينذروا ويعلموا بما أقام الله من الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه ، وانه لا شريك له ، وليتعظ بذلك أرباب العقول التي تعقل وتدرك .



## سورة الحجر

مكيّة بالاتفاق والاجماع كما قال القرطبي . وعن ابن عباس وابن الزبير مثله . وهي تسع وتسعون آية . والحجر واد بين المدينة والشام .





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

﴿الر﴾ قد تقدم الكلام عليه في محله مستوفى مراراً ﴿تلك﴾ أي ما تضمنته السورة من الآيات ﴿آيات الكتاب﴾ التعريف للتفخيم وقيل هو للجنس ، والمراد جنس الكتب المنزلة المتقدمة . قال مجاهد : يعني التوراة والانجيل ، وقيل المراد به هذه السورة والاضافة بمعنى من وقيل المراد القرآن ، ولا يقدح في هذا ذكر القرآن بعد الكتاب فقد قيل إنه جمع له بين الاسمين عطفاً للتغاير اللفظي لأجل التعدد في الاسم بزيادة صفة .

﴿وقرآن مبين﴾ أي الكامل الظاهر رشده وهداه وخيره وتنكير القرآن للتفخيم ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ قرىء ربما بالتخفيف والتشديد ، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون وتميم وربيعة يثقلون ، وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير .

قال الكوفيون : أي يود الكفار في أوقات كثيرة ، وقيل هي هنا للتقليل لأنهم ودوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب ، وقيل إن هذا التقليل أبلغ في التهديد فإن الأهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك إلا في أحيان قليلة . وقيل معناه يكفيك قليل الندم في كونه زاجراً لك عن الفعل ؛ فكيف بكثيره .

قيل وما هنا لحقت رب لتهيأ للدخول على الفعل وقيل نكرة بمعنى شيء وإنما دخلت رب هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلا على الماضي لأن المترقب في أخباره سبحانه كالواقع المتحقق ، فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا بهذا الكتاب والقرآن ، فهذا مرتبط بما قبله .

﴿لو كانوا مسلمين﴾ أي منقادين لحكمه مذعنين له من جملة أهله ، وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة ، والمراد أنه لما انكشف لهم الأمر واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، وأن الدين عند الله سبحانه هو الاسلام لا دين غيره ، حصلت منهم هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع بل هي لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت في جنب الله .

وقيل كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين ، وقيل عند خروج عصاة الموحدين من النار ، والظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم ، ولو مصدرية أو امتناعية وجوابها محذوف أي لسروا بذلك أو تخلصوا مما هم فيه والأول أولى .

والتعبير عن متمناهم بالغيبة نظراً للاخبار عنهم ، ولو نظر لصدوره منهم لقيل لو كنا .

عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار انهم كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم . وعن ابن مسعود قال : هذا في الجهنمين إذا رأوهم يخرجون من النار .

وعن ابن عباس قال : لا يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول : من كان مسلماً فليدخل الجنة ، فذلك قوله ربما يود الذين كفروا .

وعن ابن عباس وأنس انهما تذاكرا هذه الآية فقالا : حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المشركين والمسلمين في النار ، فيقول المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون ، فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضله ورحمته ، أخرجه البيهقي في البعث وابن المبارك في الزهد .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند قال السيوطي صحيح عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله ان يكونوا ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم ، فلا يبقى أحد إلا أخرجه الله من النار . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية » وفي الباب أحاديث مرفوعة عن جمع من الصحابة في تعيين هذا السبب في نزول هذه الآية .

﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ هذا تهديد لهم أي خل هؤلاء الكفرة ودعهم عما أنت بصدده من الأمر لهم والنهي فهم لا يرعوون أبداً ولا يخرجون من باطل : ولا يدخلون في حق بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل والتمتع بزهرة الحياة الدنيا من إلهاء العمل لهم عن اتباعك فإنهم كالأنعام التي لا تهتم إلا بذلك ولا تشتغل بغيره وهذا الأمر لا يستعمل له ماض إلا قليلا استغناء عنه بترك بل يستعمل منه المضارع نحو ونذرهم في طغيانهم ، ومن مجيء الماضي قوله صلى الله عليه وسلم : «ذروا الحبشة ما وذرتكم» وترك ووذر يكونان بمعنى صير أي ذرهم مهملين أي أترك كفار مكة والعموم أولى .

﴿ويلههم الأمل﴾ أي يشغلهم طول الأمل والعمر وبلوغ الوطر واستقامة الحال عن الايمان والأخذ بطاعة الله تعالى ، يقال ألهاه كذا أي شغله ولهى هو

عن الشيء يلهي والمعنى يشغلهم الأمل عن اتباع الحق ، وما زالوا في الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذى عينين وانكشف الأمر ، ورأوا العذاب يوم القيامة فعند ذلك يذوقون ما صنعوا وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يستبعد حصوله والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة امرهم وسوء صنيعهم ، وفيه من التهديد والزجر ما لا يقادر قدره وفيه تنبيه على أن ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدي اليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين ، قال بعض أهل العلم ذرهم تهديد ، وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين .

قال عليّ بن أبي طالب : انما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى فإن الأول ينسي الآخرة والثاني يصد عن الحق .

﴿وما أهلكنا من قرية﴾ من القرى بنوع من أنواع العذاب في حال من الأحوال ﴿إلا ولها﴾ أي ولتلك القرية ﴿كتاب معلوم﴾ أي أجل مؤقت مقدر لهلاكها لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه معلوم غير مجهول ولا منسي ، فلا يتصور التخلف عنه بوجه من الوجوه والواو فيها أوجه :
**أحدها:** وهو الظاهر أنها واو الحال.

**والثاني** : أنها مزيدة.

**الثالث** : انها داخلة على الجملة الواقعة صفة تأكيداً ، وبه قال الزمخشري .

﴿ما تسبق من أمة﴾ من الأمم ﴿أجلها﴾ المضروب لها المكتوب في اللوح المحفوظ والمعنى انه لا يأتي هلاكها قبل مجيء أجلها قيل من زائدة ، وقيل على

بابها لأنها تفيد التبعيض في هذا الحكم فيكون ذلك في إفادة عموم النفي آكد ﴿وما يستأخرون﴾ عنه ، والسين زائدة فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب له .

وايراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل ولذلك حذف الحار والمجرور ، والجملة مبينة لما قبلها فكأنه قيل ان هذا الامهال لا ينبغي ان يغتر به العقلاء فإن لكل أمة وقتا معيناً في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر ، وقال الزهري : نرى انه إذا حضره أجله فانه لا يؤخر ساعة ولا يقدم ، وأما ما لم يحضر أجله فإن الله يؤخر ما يشاء ويقدم ما يشاء .

قلت وكلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه ، وقد تقدم تفسير الأجل في أول سورة الانعام .

ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع في بيان بعض عتوهم في الكفر وتماديهم في الغيّ مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب فقال :

﴿وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي قال كفار مكة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومتهكمين به حيث أثبتوا له انزال الذكر عليه مع انكارهم لذلك في الواقع أشد انكار ونفيهم له أبلغ نفي ﴿إنك﴾ بسبب هذه الدعوى التي تدعيها من كونك رسولاً لله مأموراً بتبليغ أحكامه ﴿لمجنون﴾ فإنه لا يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً فقولهم هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم هو كقول فرعون إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون .

﴿لو ما﴾ حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمني ﴿ومن ما﴾ المزيدة

فأفاد المجموع الحث على الفعل الداخلة هي عليه ، قال الفراء : الميم في لو ما بدل من اللام في لولا ، وقال الكسائي لولا ولو ما سواء في الخبروالاستفهام ، قال النحاس : لوما ولولا وهلا واحد والمعنى هلا .

﴿تأتينا بالملائكة﴾ ليشهدوا على صدقك ، وقيل المعنى لوما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في قولك وادعائك الرسالة والحاصل انهم قالوا مقالتين تعنتا ، الأولى يا أيها الذي إلخ ، والثانية لو ما تأتينا فقال الله سبحانه مجيباً على الكفار لما طلبوا اتيان الملائكة اليهم وراداً عليهم المقالتين على سبيل اللف والنشر المشوش .

﴿ما ننزل﴾ نحن الملائكة ﴿إلا﴾ تنزيلاً متلبساً ﴿بالحق﴾ الذي يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلٓهية والمشيئة الربانية ، وليس هـذا الذي اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة ، وهذا رد للثانية وقرىء من الانزال ، وقيل معنى بالحق بالرسالة ، وقيل بالقرآن وقيل بالعذاب قاله مجاهد ، وقيل وقت الموت .

﴿وما كانوا إذاً منظرين﴾ قال السدي : أي وما كانوا لو نزلت الملائكة منظرين من أن يعذبوا فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة .

قال صاحب النظم إذن مركبة من إذ وإن وهي اسم بمنزلة حين ثم ضم اليها أن فصار إذ أن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فصار إذن ، ومجيء لفظة إن دليل على اضمار فعل بعدما ، والتقدير وما كانوا إذ كان ما طلبوا .

ثم انكر سبحانه على الكفار استهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقولهم المذكور فقال سبحانه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ الذي أنكـروه ونسبوك بسببه الى الجنون وهو القرآن واعتقدوا أنه مختلق من عندك .

﴿وإنا له لحافظون﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقصان ونحو ذلك ، فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها لا يقدر واحد من جميع الخلق من الانس والجن أن يزيد فيه او ينقص منه حرفاً واحداً أو كلمة واحدة .

وهذا مختص بالكتاب العزيز بخلاف سائر الكتب المنزلة فإنه قد دخل على بعضها تلك الأشياء ، ولما تولى الله حفظ ذلك الكتاب بقي مصوناً على الأبد محروساً من الزيادة والنقصان وغيرهما ، وفيه دليل على أنه منزل من عنده آية إذ لو كان من البشر لتطرق اليه الزيادة والنقصان كما يتطرق الى كل كلام سواه . وقيل المعنى نزله محفوظاً من الشياطين . وقيل حفظه بأن جعله معجزة باقية الى آخر الدهر ، وقيل حفظه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارض ولو بأقصر آية .

وقيل أعجز الله الخلق عن إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه فقيض له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه الى آخر الدهر لأن دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله ومن أسباب حفظه حدوث العلوم الكثيرة الآلية التي تذب عن الدخول في أبواب إفساده وإبطاله وتحريفه وتصحيفه وزيادته ونقصانه كالصرف والنحو والمعاني والبيان وأصول الحديث والفقه والتفسير وغير ذلك مما له مدخل في هذا الشأن .

وأخرج مسلم عن عياض عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى « نزلت عليك قرآناً لا يغسله الماء »[١] .

---

(١) مسلم ٢٨٦٥ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

وأيضاً في الآية وعيد شديد للمكذبين به المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل الضمير في له لرسول الله صلى الله عليه وسلم والأول أولى بالمقام . قال الخطابي : إنما لم يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه وتلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته صلى الله عليه وسلم ألهم الله تعالى الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق رضي الله عنه بمشورة عمر رضي الله عنه ، انتهى . ذكره السيوطي في الاتقان ، وقد بسطنا الكلام على جمع القرآن في رسالتنا المسماة بالأكسير في أصول التفسير فليرجع اليه . ثم ذكر سبحانه أن عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسليةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ولقد أرسلنا﴾ رسلاً كائنة ﴿من قبلك﴾ وحذف المفعول لدلالة الارسال عليه ﴿في شيع الأولين﴾ أي في أممهم وأتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم .

قال الفراء : الشيع الأمة التابعة بعضهم بعضاً فيما يجمعون عليه ، وأصله من شاعه إذا تبعه ، وهم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم ، وشيعة الرجل أتباعه ، وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان .

وفي المصباح : الشيعة الأتباع والأنصار وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة ، ثم صارت الشيعة اسماً لجماعة مخصوصة والجمع شيع والأشياع جمع الجمع واضافته الى الأولين من إضافة الصفة الى الموصوف عند بعض النحاة أو من حذف المضاف اليه عند آخرين منهم ، أي في شيع الأمم الأولين ، وفي البيضاوي من قبيل إضافة الموصوف لصفته كقوله حق اليقين .

﴿وما﴾ كان ﴿يأتيهم﴾ أي الشيعة ﴿من رسول﴾ من الرسل ﴿الا كانوا به يستهزئون﴾ كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم ﴿نسلكه﴾ أي الذكر ﴿في قلوب المجرمين﴾ فالإشارة الى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحي مقروناً بالاستهزاء ، والسلك ادخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط قاله الزجاج ، والسلوك النفاذ في الطريق ، قال والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزؤوا نسلك الضلال في قلوب المجرمين ، وقال ابن عباس الشرك نسلكه في قلوب المشركين . وعن قتادة مثله .

وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهي أبين في ثبوت القدر لمن أذعن للحق ولم يعاند ، قال الواحدي : أضاف الله سبحانه الى نفسه ادخال الكفر في قلوب الكفار وحسن ذلك منه ، فمن آمن بالقرآن فليستحسنه . وقال الرازي : احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل والضلال في قلوب الكفار .

﴿لا يؤمنون به﴾ أي بالذكر الذي انزلناه او بمحمد صلى الله عليه وسلم حال من ضمير نسلكه او مستأنفة لبيان ما قبلها ، وقيل إن الضمير في نسلكه للاستهزاء وفي به للذكر وهو بعيد ، والأولى أن الضميرين للذكر ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ أي مضت طريقتهم التي سنها الله في اهلاكهم حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء .

وقال قتادة : مضت وقائع الله فيمن خلا من الأمم فاحذروا ان يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب ، وقال الزجاج : قد مضت سنة الله فيهم بأن سلك الكفر والضلال في قلوبهم .

ثم حكى الله سبحانه اصرارهم على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء فقال ﴿ولو فتحنا عليهم﴾ أي على هؤلاء المعاندين لمحمد صلى الله عليه وسلم المكذبين له المستهزئين به ﴿باباً من السماء﴾ من أبوابها المعهودة ومكناهم من الصعود اليه ﴿فظلوا فيه﴾ أي في ذلك الباب ، يقال ظل فلان يفعل كذا إذا فعله بالنهار .

﴿يعرجون﴾ يصعدون بآلة او بغير آلة حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجحدها جاحد ولا يعاند عند مشاهدتها معاند ، وقيل الضمير في فظلوا للملائكة ، أي فظل الملائكة يعرجون في ذلك الباب والكفار يشاهدونهم وينظرون صعودهم من ذلك الباب . قاله ابن عباس .

﴿لقالوا﴾ أي الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوهم ﴿انما سكرت أبصارنا﴾ قرىء مشدداً ومخففاً وهم سبعيتان وهو من سكر الشراب أو من السكر وهو سدها عن الاحساس ، قاله مجاهد ، يقال سكر النهر اذا سده وحبسه عن الجري . وعن قتادة نحوه . قال أبو عمرو بن العلاء : سكرت غشيت وغطت ، وبه قال أبو عبيد وأبو عبيدة .

وروي عنه ايضا انه من سكر الشراب أي غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشى السكران ما غطى عقله ، وعلى التخفيف بمعنى سحرت ، وقيل أصله من السكور يقال سكرت عينه اذا تحيرت وسكنت عن النظر ، قال النحاس : وهذه الاقوال متقاربة والتشديد لأجل التكثير والمبالغة ، قال ابن عباس قريش تقوله .

﴿بل نحن﴾ أضربوا عن قولهم سكرت أبصارنا ، ثم ادعوا أنهم ﴿قوم مسحورون﴾ أي سحرهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان ، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا الى أبصارهم أن ادراكها غير حقيقي لعارض السكر أو أن عقولهم قد سحرت فصار ادراكهم غير صحيح ، ومن بلغ في التعنت الى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة ولا يهتدي بآية . وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالة على البت بأن ما يرونه لا حقيقة له ، بل هو باطل خيل اليهم بنوع من السحر .

ولما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم ذكر قدرته الباهرة وخلقه البديع ليستدل بذلك على وحدانيته فقال :

﴿ولقد جعلنا﴾ الجعل إن كان بمعنى الخلق فقوله ﴿في السماء بروجاً﴾ متعلق به، وإن كان بمعنى التصيير فهو خبره، والبروج في اللغة القصور والمحال والطرق والمنازل، والمراد بها هنا منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة السبعة وهي الاثنا عشر المشهورة، كما يدل على ذلك التجربة.

والعرب تعد المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من أجل العلوم ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب ، وقالوا الفلك إثنا عشر برجاً واسماء هذه البروج : الحمل الثور الجوزاء السرطان الاسد السنبلة الميزان العقرب القوس الجدي الدلو الحوت ، كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة عند المشتغلين بهذا العلم ، ويسمون الحمل والاسد والقوس مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية ، والجوزاء والدلو والميزان هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت مائية .

وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلاً ، لكل برج منزلان

وثلث منزل ، وتلك البروج منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب ، والزهرة ولها الثور والميزان ، وعطارد وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر وله السرطان ، والشمس ولها الاسد ، والمشتري وله القوس والحوت ، وزحل وله الجدي والدلو ، ذكره السيوطي وهي مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً .

وأصل البروج الظهور ، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها ، وقال الحسن وقتادة البروج النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها ، وقيل السبعة السيارة منها ، قاله أبوصالح .

وقيل هي قصور وبيوت في السماء فيها حرس ، قاله عطية . وقال مجاهد : البروج الكواكب .

﴿وزيناها﴾ أي السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج ﴿للناظرين﴾ اليها أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها إذا كان من النظر وهو الاستدلال ، أي بأبصارهم أو بصائرهم ، وفي السمين النظر عينيّ ، وقيل قلبيّ وحذف متعلقه ليعم .

﴿وحفظناها﴾ أي السماء بالشهب ﴿من﴾ دخول ﴿كل شيطان رجيم﴾ قال أبو عبيدة الرجيم المرجوم بالنجوم كما في قوله ﴿رجوماً للشياطين﴾ والرجم في اللغة هو الرمي بالحجارة ، ثم قيل للعن والطرد والإبعاد رجم ، لأن الرمي بالحجارة يوجب هذه المعاني وقال قتادة : الرجيم الملعون .

﴿إلا﴾ أي لكن ﴿من استرق السمع﴾ من غير دخول ، وهذا وجه الانقطاع ، والسمع بمعنى المسموع وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً

حتى يبلغوا الى السماء فيسترقوا السمع من الملائكة ، وقيل الاستثناء متصل ، أي إلا من استرق فإنها لا تحفظ منه .

قال أبو السعود : محله النصب على المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين من التعرض لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة او المنقطع إن فسر ذلك بالمنع من دخولها والتصرف فيها انتهى . قال ابن عباس : أراد أن يخطف السمع كقوله إلا من خطف الخطفة .

﴿فأتبعه شهاب مبين﴾ والمعنى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإنه تتبعه وتلحقه الشهب فتقتله أو تخبله أو تحرقه أو تثقبه ، ومعنى فأتبعه تبعه ولحقه أو أدركه والشهاب الكوكب نفسه أو النار المشتعلة الساطعة منه كما في قوله بشهاب قبس .

وصنيع البيضاوي يقتضي أن الشهاب بمعنى الشعلة هو الحقيقة والكثير وبمعنى الكوكب هو القليل ، وسمي الكوكب شهاباً لبريقه شبه بشهاب النار وانفصاله منها ، والمبين الواضح الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم . قال القرطبي : واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا ، فقال ابن عباس : يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل ، يقال خبلته خبلاً من باب ضرب إذا أفسدت عضواً من اعضائه أو أذهبت عقله ، والخبال بالفتح يطلق على الفساد والجنون .

وقال الحسن وطائفة يقتل . فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع الى الجن قولان :

**أحدهما** : أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم فلا تصل أخبار السماء الى غير الأنبياء ولذلك انقطعت الكهانة .

**والثاني** : انهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم من الجن قال ذكره الماوردي ثم قال : والقول الأول أصح .

قال : واختلف هل كان رمى بالشهب قبل المبعث فقال الأكثرون نعم : وقيل لا ، وانما ذلك بعد المبعث ، قال الزجاج : والرمي بالشهب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في اشعارهم والجمع بين هذين القولين ان الرمي بالنجوم كان موجوداً قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها صوناً لأخبار الغيوب .

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها[1] وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ، ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال له أليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء » اخرجه البخاري[2] .

قال كثير من أهل العلم : نحن نرى إنقضاض الكواكب فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم تصير ناراً إذا أدرك الشيطان ويجوز أن يقال يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل الينا أنه نجم يسري .

---

(١) أي أمالها انتهى مجمع البخار .

(٢) البخاري كتاب التوحيد الباب ٣٢ ـ كتاب التفسير سورة ١/١٥ سورة ١/٣٤ الترمذي تفسير سورة ٢/٣٤ .

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

﴿والأرض﴾ نصب على اشتغال ولم يقرأ بغيره لأنه أرجح من حيث العطف على جملة فعلية قبلها ﴿مددناها﴾ أي بسطناها وفرشناها على وجه الماء كما في قوله والأرض بعد ذلك دحاها وفي قوله والأرض فرشناها فنعم الماهدون وفيه رد على من زعم انها كالكرة ﴿وألقينا﴾ أي جعلنا ووضعنا ﴿فيها رواسي﴾ أي جبالاً ثابتة لئلا تتحرك بأهلها جمع راسية كما في المختار، وقد تقدم بيان ذلك في سورة الرعد ﴿وأنبتنا فيها من﴾ تبعيضية وهو الصحيح او مزيدة عند الكوفيين والأخفش ﴿كل شيء موزون﴾ أي مقدر معلوم فعبر عن ذلك بالوزن لانه مقدار تعرف به الأشياء، وقيل موزون مقسوم وقيل معدود.

والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد، قال ابن زيد: الأشياء توزن، وقيل الضمير راجع الى الجبال أي أنبتنا في الجبال من كل شيء موزون من الذهب والفضة والنحاس والكحل والرصاص ونحو ذلك، وقيل موزون بميزان الحكمة ومقدر بقدر الحاجة، وقيل الموزون هو المحكوم بحسنه كما يقال كلام موزون أي حسن وخص ما يوزن لانتهاء الكيل الى الوزن.

﴿وجعلنا لكم فيها﴾ أي في الأرض ﴿معايش﴾ تعيشون بها من المطاعم والمشارب جمع معيشة وهي ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا، وقيل هي الملابس، وقيل هي التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة، قال الماوردي: وهو الظاهر.

قلت : والأول أظهر قال النسفي هي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فان تصريح الياء فيها خطأ انتهى . وقرىء بالهمز على التشبيه بشمائل ، وقد ذكر في الأعراف وهي شاذة وقراءة الجمهور بالياء لأنها في المفرد أصلية لأن مفرده معيشة من العيش فالياء أصلية والمد في المفرد لا يقلب همزاً في الجمع إلا إذا كان زائداً في المفرد قاله في الجمل .

﴿ومن لستم له برازقين﴾ عطف على معايش أو على محل لكم وهم المماليك والعبيد والخدم والدواب والأولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله وان ظن بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب ، وهذا في غاية الامتنان والمعنى على الثاني وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش ، وهم من تقدم ذكره ويدخل في ذلك الدواب على اختلاف أجناسها ، وقيل أراد الوحش قاله منصور . وقال مجاهد : الأنعام ، وقيل الطيور ، ومنه قوله ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ .

﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ إن هي النافية ومن مزيدة للتأكيد ، وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة من ومع لفظ شيء المتناول لكل الموجودات الصادق على كل فرد منها ، فأفاد ذلك أن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شيء ، والخزائن جمع خزانة وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الأمور ، وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور .

والمعنى ان كل الممكنات مقدورة ومملوكة لله تعالى يخرجها من العدم الى الوجود بمقدار كيف شاء ، وقال جمهور المفسرين إن المراد بما في الآية هو المطر لأنه سبب الأرزاق والمعايش ، وعن ابن مسعود وابن عباس : ما نقص المطر منذ أنزله الله ولكن تمطر أرض أكثر مما تمطر أخرى ، ثم قرأ وما ننزله الآية .

قال ابن الخطيب : وتخصيص قوله هذا بالمطر تحكم محض لأن قوله وان من شيء يتناول جميع الأشياء إلا ما خصه الدليل ، وقيل الخزائن المفاتيح أي ما من شيء الا عندنا في السماء مفاتيحه والأولى ما ذكرناه من العموم لكل

موجود بل قد يصدق الشيء على المعدوم على الخلاف المعروف في ذلك ، وقيل في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر وهو تأويل هذه الآية .

وأخرج البزار وأبو الشيخ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خزائن الله الكلام فإذا أراد شيئاً قال له كن فكان »[1]

﴿وما ننزله﴾ من السماء الى الأرض أو نوجده للعباد ﴿إلا بقدر﴾ أي بمقدار ﴿معلوم﴾ والمعنى أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد اليه كما قال تعالى ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ وقد فسر الإنزال بالإعطاء وبالانشاء وبالإيجاد والمعنى متقارب .

﴿وأرسلنا الرياح﴾ جمع ريح وهو جسم لطيف منبث في الجو سريع المرور ﴿لواقح﴾ أي حوامل لانها تحمل السحاب أي تقله وتصرفه ثم تمر به فتنزله ، قال تعالى ﴿إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾ أي حملت وناقة لاقح إذا حملت الجنين في بطنها قاله الأزهري ، وبه قال الفراء وابن قتيبة ، وقيل لواقح بمعنى ملقحة ، قال ابن الأنباري : تقول العرب أبقل النبت فهو باقل أي مبقل والمعنى انها تلقح الشجر أي تقويها ، وقيل معنى لواقح ذوات لقح ، قال الزجاج : معناه ذوات لقحة لانها تعصر السحاب وتدره كما تدر اللقحة ، يقال رامح أي ذو رمح ولابن أي ذو لبن وتامر أي ذو تمر .

قال أبو عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح ذهب الى انها جمع ملقحة ، وفي هذه الآية تشبيه الرياح التي تحمل الماء بالحامل ولقاح الشجر بلقاح الحمل ، قال ابن مسعود : يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتدر كما تدر اللقحة ، ثم تمطر ، وعن ابن عباس نحوه ، وعن عبيد بن عمير قال : يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قماً ، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب فتجعله

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ٢٨٢٤ .

كسفاً ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه فتجعله ركاماً ثم يبعث الله اللواقح فتلقحه فتمطر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ والديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ريح الجنوب من الجنة وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه »[1] قال أبو بكر بن عياش لا تقطر قطرة من السماء إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها فالصبا تهيج السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه .

﴿فأنزلنا من السماء﴾ أي من السحاب وكل ما علاك فأظلك فهو سماء ، وقيل من جهة السماء ﴿ماء﴾ المراد هنا ماء المطر ﴿فأسقيناكموه﴾ أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم ؛ قال أبو علي : يقال سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروي وأسقيته نهراً أي جعلته شرباً له ، وعلى هذا فأسقيناكموه أبلغ من سقيناكموه ، وقيل سقى واسقى بمعنى واحد .

﴿وما انتم له بخازنين﴾ بل نحن الخازنون له ، فنفى عنهم سبحانه ما أثبته لنفسه في قوله ﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ وقيل إن المعنى ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم ، أي لا تقدرون على حفظه في الآبار والغدران والعيون ، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة اليه .

﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ أي نوجد الحياة في المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا ، وان واللام تفيدان الحصر ، يعني لا يقدر على ذلك سوانا وبيدنا احياء الخلق واماتتهم ؛ والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته عز وجل وإنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته ، ولهذا قال ﴿ونحن الوارثون﴾ أي للأرض ومن عليها لأنه سبحانه هو الباقي بعد فناء خلقه ، الحي الذي لا يموت ، الدائم

---

(١) ضعيف الجامع الصغير والأحاديث الضعيفة ٣٦٥٢ .

الذي لا ينقطع وجوده ومصير الخلق اليه ، ولله ميراث السموات والأرض .

﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ المراد علمنا من تقدم ولادة وموتاً ومن تأخر فيهما ؛ وقيل من تقدم طاعة ومن تأخر فيها ، وقيل من تقدم في صف القتال ومن تأخر ، وقيل المستقدمون هم الأمم المتقدمون على أمة محمد صلى الله عليه وسلم من لدن آدم . والمستأخرون هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة .

وقيل المستقدمون من قتل في الجهاد والمستأخرون من لم يقتل . وقيل من خلق ومن لم يخلق بعد ، وقيل من أسلم أولاً ومن يسلم آخراً ، واللفظ أوسع من ذلك ، واللام في الموضعين هي الموطئة للقسم .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن النساء ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت ابطيه ؛ فأنزل الله هذه الآية ، وقد رواه عبدالرزاق وابن المنذر من قول أبي الجوزاء عن ابن عباس . قال الترمذي وهذا أشبه أن يكون أصح .

وقال ابن كثير : في هذا الحديث نكارة شديدة وعن ابن عباس قال : المستقدمين الصفوف المتقدمة والمستأخرين الصفوف المؤخرة ، وقد وردت أحاديث كثيرة في أن خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها وعن مقاتل وعطاء إن الآية في صفوف القتال . وقال الحسن المستقدمين في طاعة الله والمستأخرين في معصية الله .

وعن ابن عباس يعني بالمستقدمين من مات والمستأخرين من هو حي لم يمت ، وقال ايضاً المستقدمين آدم ومن مضى من ذريته ، والمستأخرين في أصلاب الرجال ، وعن قتادة نحوه .

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

﴿وإن ربك هو يحشرهم﴾ أي هو المتولي لذلك القادر عليه دون غيره كما يفيده ضمير الفصل من الحصر، وفيه انه سبحانه يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته لأنه الأمر المقصود من الحشر.

﴿انه حكيم﴾ يجري الامور على ما تقتضيه حكمته البالغة ﴿عليم﴾ أحاط علمه بجميع الأشياء لا يخفى عليه شيء منها، ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شيء مما وسعه علمه وجرى فيه حكمه سبحانه لا إله إلا هو.

﴿ولقد خلقنا الانسان﴾ أي آدم عليه السلام لأنه أصل هذا النوع ﴿من﴾ لابتداء الغاية أو للتبعيض ﴿صلصال﴾ أي طين يابس إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع، واذا نقرته سمعت له صلصلة. أي صوتاً.

قال أبو عبيدة: هو الطين المخلوط بالرمل الذي يتصلصل إذا حرك، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار، وهذا قول أكثر المفسرين وقال الكسائي هو الطين المنتن مأخوذ من قول العرب صل اللحم، وأصل إذا أنتن مطبوخاً كان او نيئاً.

وهذا الطور آخر أطوار آدم الطينية. وأول ابتدائه انه كان تراباً متفرق الأجزاء ثم بُل فصار طيناً ثم أنتن واسود فصار حمأً مسنوناً أي متغيراً ثم يبس فصار صلصالاً، وعلى هذه الاطوار والأحوال تتخرج الآيات الواردة في أطواره

الطينية كآية خلقه من تراب وآية بشراً من طين ، وهذه الآية التي نحن فيها . ﴿من﴾ ابتدائية ﴿حمأ مسنون﴾ الحمأ الطين الأسود المتغير أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير .

قال ابن السكيت : تقول منه حمأت البئر حمأً بالتسكين إذا نزعت حمأها ؛ وحميت البئر حمأً بالتحريك كثرت حمأتها ، وأحميتها احماء ألقيت فيها الحمأة . قال أبو عبيدة : الحمأة سكون الميم مثل الحمأة يعني بالتحريك ، والجمع حمأ مثل تمرة وتمر والحمأ مصدر مثل الهلع والجزع ثم سمي به . والمسنون قال الفراء : هو المتغير وأصله من سننت الحجر على الحجر اذا حككته وما يخرج بين الحجرين يقال له السنانة والسنين ، ويقال أسن الماء إذا تغير ؛ ومنه قوله ﴿لم يتسنه﴾ وقوله ﴿من ماء غير آسن﴾ وكلا الاشتقاقين يدل على التغيير لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلا منتناً .

وقال أبو عبيدة : المسنون المصبوب وهو من قول العرب سننت الماء على الوجه أذا صببته والسن الصب .

وقال سيبويه : المسنون المصور مأخوذ من سنة الوجه وهي صورته ، وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم . من قولهم وجه مسنون إذا كان فيه طول ، والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بُل صار طيناً فلما أنتن صار حمأً مسنوناً فلما يبس صار صلصالاً ، فأصل الصلصال هو الحمأ المسنون ، ولهذا وصف بهما ، وعن ابن عباس قال : خلق الانسان من ثلاث : من طين لازب وصلصال وحمأ مسنون ، فالطين اللازب اللازم الجيد والصلصال المدقق الذي يصنع منه الفخار ، والحمأ المسنون الطين الذي فيه الحمأة .

وقال أيضا الصلصال الماء يقع على الارض الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق ، وعنه قال : الصلصال هو التراب اليابس الذي يبل بعد يبسه ، وقال أيضاً طين خلط برمل . وقال أيضاً الذي اذا ضربته صلصل ، وعنه قال الطين تعصر بيدك فتخرج الماء من بين أصابعك ، وقال

حمأ مسنون من طين رطب وقال من طين منتن .

﴿والجان﴾ منصوب على الاشتغال وهو أبو الجن عند جمهور المفسرين ، وقال الحسن وعطاء وقتادة ومقاتل هو ابليس أبو الشياطين وسمي جاناً لتواريه عن الأعين ، يقال جن الشيء إذا ستره ، فالجان يستر نفسه عن أعين بني آدم ، وهما نوعان يجمعهما وصف الاستتار عنا .

وفي الجن مسلمون وكافرون ، وهم يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم ، وأما الشياطين فليس منهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات ابليس أبوهم . ذكره الخازن .

قال ابن عباس : الجان مسيخ الجن كالقردة والخنازير مسيخ الانس ، وقيل كان إبليس من حي الملائكة يسمون الجان ، خلقوا من نار السموم ، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور .

﴿خلقناه من قبل﴾ أي من قبل خلق آدم ﴿من نار السموم﴾ وهي الريح الحارة النافذة في المسام لشدة لطفها وقوة حرارتها يكون بالنهار ، وقد يكون بالليل ، كذا قال ابو عبيدة .

وقال ابو صالح : السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها ، وهي نار تكون بين السماء وبين الحجاب ، فاذا أحدث الله أمراً أخرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به ، فالهدة التي تسمعون خرق ذلك الحجاب . قاله الخطيب .

وقيل السموم نار جهنم ، وقيل هي جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان ، قاله ابن مسعود ، وفي السمين : السموم ما يقتل من إفراط الحر من شمس أو ريح أو نار لأنها تدخل في المسام ، وقيل السموم ما كان ليلاً والحرور ما كان نهاراً ، وقيل هو من باب إضافة الموصوف لصفته .

وذكر خلق الجان والانسان في هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الإلهية وبيان أن القادر على النشأة الاولى قادر على النشأة الأخرى . قال ابن عباس : من نار السموم من أخس النار الحارة التي تقتل ، وعن ابن مسعود **قال:** السموم التي

خلق منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، واخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً .

﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال ربك للملائكة﴾ بيَّن سبحانه بعد ذكره لخلق الانسان ما وقع له عند خلقه ، وقد تقدم تفسير ذلك في البقرة ﴿إني خالق بشراً﴾ مأخوذ من البشرة وهي ظاهر الجلد ﴿من صلصال﴾ قد تقدم تفسيره قريباً مستوفى وكذا تفسير ﴿من حمأ مسنون فإذا سويته﴾ أي سويت خلقه وعدلت صورته الانسانية وخلقته البشرية وأكملت أجزاءه وأتممت خلقه ، او سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه .

﴿ونفخت فيه من روحي﴾ النفخ اجراء الريح في تجاويف جسم آخر صالح لامساكها والامتلاء بها ، فمن قال إن الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر ، ومن قال إنه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال في متحيز فمعنى النفخ عنده تهيؤ البدن لتعلق النفس الناطقة به، ومن زائدة أو تبعيضية. قال النيسابوري: ولا خلاف في أن الإضافة في روحي للتشريف والتكريم، مثل ناقة الله وبيت الله.

قال القرطبي : والروح جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم وحقيقته إضافة خلق الى خالق ، فالروح خلق من خلقه أضافه الى نفسه تشريفاً وتكريماً ، قال ومثله روح منه ، وقد تقدم في النساء .

قال أبو السعود : وليس ثمة نفخ ولا منفوخ فيه وإنما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها فإذا أكملت استعداده وأفضت عليه ما يحيى به من الروح التي هي من أمري .

﴿فقعوا له ساجدين﴾ الفاء تدل على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير تراخ وهو أمر بالوقوع ، من وقع يقع أي اسقطوا وخروا ، وفيه دليل على أن المأمور به هو السجود الحقيقي أي وضع الجبهة على الأرض لا مجرد الانحناء كما قال السيوطي ، وهذا السجود هو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ، ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء . وقيل كان السجود لله تعالى وكان آدم قبله لهم تشريفاً له ، وهذا وإن كان معنى صحيحاً لكن يخالفه

ظاهر النظم القرآني . والأولى ما دل عليه ظاهر اللفظ فالأول أولى والخطاب للملائكة الذين قال الله لهم اني خالق بشراً .

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ ، قال المبرد : قوله كلهم أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد ، فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ، ثم عند هذا بقي احتمال وهو أنهم هل سجدوا دفعة واحدة او سجد كل واحد في وقت ؟ فلما قال ﴿أجمعون﴾ ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة ، وهو ايضاح لما سبق ، وقيل قوله أجمعون توكيد بعد توكيد ، ورجح هذا الزجاج .

قال النيسابوري : وذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالاً ، ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً ، قال الكرخي : فيه تأكيدان لزيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن ولا يكون تحصيلاً للحاصل ؛ لأن نسبة أجمعون الى كلهم كنسبة كلهم الى أصل الجملة ، أو أجمعون يفيد معنى الاجتماع . وقيل هما تأكيدان للمبالغة وزيادة الاعتناء .

ثم استثنى إبليس من الملائكة فقال ﴿إلا إبليس﴾ قيل هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة ولكنه ﴿أبى أن يكون مع الساجدين﴾ استكباراً واستعظاماً لنفسه وحسداً لآدم فحقت عليه كلمة الله وقيل انه لم يكن من الملائكة ولكنه كان معهم وبينهم فغلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلا .

زاد أبو السعود إما لأنه كان جنياً مفرداً مغموراً بألوف من الملائكة فعد منهم تغليباً ، وإما لأن من الملائكة جنساً يتوالدون وهو منهم ، وقيل إن الاستثناء منقطع منفصل بناء على عدم كونه منهم وعدم تغليبهم عليه ، أي ولكن إبليس أبى من السجدة ، وقد تقدم الكلام في هذا في سورة البقرة .

وهذه الجملة على الأول استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء لأن مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد ، فبيَّن سبحانه أنه كان على وجه الإباء والاستكبار .

قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

﴿قال يا إبليس﴾ مستأنفة ايضاً ، وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم بل على سبيل الاهانة والإذلال والتقريع والتوبيخ ، وظاهره يقتضي أن الله تعالى تكلم مع إبليس بغير واسطة ، لأنه قال في الجواب ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته﴾ فقوله ﴿خلقته﴾ خطاب الحضور لا خطاب الغيبة ، فقول بعض المتكلمين انه تعالى أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله ضعيف .

قيل معنى ﴿مالك﴾ أيُّ غرض لك وأي سبب حملك على ﴿أن لا تكون مع الساجدين﴾ لآدم مع الملائكة ، وهم في الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها ، وعلى هذا فليست لا زائدة واليه مال البيضاوي ، وقيل زائدة بدليل ما في سورة (صٓ) ما منعك أن تسجد .

﴿قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته﴾ مستأنفة كالتي قبلها ، أي لا ينبغي لي ولا يصح مني ولا يليق بحالي ؛ فاللام لتأكيد النفي جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشراً مخلوقاً ﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾ زعماً منه أنه مخلوق من عنصر نار ، وهي أشرف من عنصر آدم عليه السلام وهو الطين المتغير المنتن لأنها نيرة والطين كثيف مظلم .

وفيه اشارة اجمالية الى كونه خيراً منه وقد صرح بذلك في موضع آخر فقال ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ وقال في موضع آخر ﴿أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ ولم يدر الخبيث أن الفضل فيها فضله الله تعالى ، قال الكرخي : وحاصل كلامه أن كونه بشراً يشعر بكونه جسماً كثيفاً وهو كان روحانياً لطيفاً فكأنه يقول البشر الجسماني الكثيف أدوَن حالاً من الروحاني اللطيف فكيف يسجد الأعلى للأدنى .

وايضاً فآدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون ، وهذا الأصل في غاية الدناءة وأصل إبليس هي النار وهي أشرف العناصر ، فكان أصل إبليس أشرف من أصل آدم والأشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للأدون ، فهذا مجموع شبه إبليس فأجاب الله سبحانه عليه بقوله :

﴿قال فاخرج منها﴾ أي فحيث عصيت وتكبرت فاخرج منها ﴿فانك رجيم﴾ والضمير في منها قيل عائد الى الجنة ، وقيل الى السماء ، وقيل الى زمرة الملائكة ، والرجيم المرجوم بالشهب ، وقيل معناه ملعون أي مطرود ، لأن من يطرد يرجم بالحجارة .

وفي القاموس الرجم اللعن والشتم والطرد والهجران ؛ وفي المصباح الرجم بفتحتين الحجارة والرجم القبر سمي بذلك لما يجتمع عليه من الأحجار ورجمته رجماً من باب قتل ضربته بالرجم .

﴿وان عليك اللعنة﴾ أي الطرد والابعاد من رحمة الله سبحانه مستمراً عليك لازماً لك ﴿الى يوم الدين﴾ وهو يوم القيامة والجزاء ، وقيل هو ملعون في السموات والأرض وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت لأن المراد دوامها من غير انقطاع وذكر يوم الدين للمبالغة كما في قوله تعالى ﴿مادامت السموات والأرض﴾ أو ان المراد أنه في يوم الدين وما بعده يُعَذَب بما هو أشد من اللعن من أنواع العذاب بما ينسى اللعن معه فكأنه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسه العذاب .

﴿قال رب فانظرني﴾ أي أخرني وامهلني ولا تمتني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي آدم وذريته طلب أن يبقى حياً الى هذا اليوم ؛ لأنه لما سمع ذلك علم أن الله قد أخر عذابه الى الدار الآخرة وكأنه طلب أن لا يموت أبداً لأنه إذا أخر موته الى ذلك اليوم وأمهل الى يوم البعث الذي هو وقت النفخة الثانية لا يموت بعد ذلك الانقطاع الموت من حين النفخة الأولى فهو يوم لا موت فيه .

وفي البيضاوي أراد بهذا السؤال ان يجد فسحة في الإغواء ونجاة عند الموت إذ لاموت بعد وقت البعث ، فأجابه الى الأول دون الثاني ، وقيل انه لم يطلب أن لا يموت بل طلب أن يؤخر عذابه الى يوم القيامة ولا يعذب في الدنيا .

﴿قال فانك من المنظرين﴾ لما سأل الإنظار أجابه الله سبحانه الى ما طلبه ، وأخبره بأنه من جملة المنظرين ممن أخر آجالهم من مخلوقاته أو من جملة من أخر عقوبتهم بما اقترفوا ولم يكن إجابة الله إياه في الإمهال اكراماً له بل زيادة في بلائه وشقائه وعذابه .

ثم بيَّن سبحانه الغاية التي امهله اليها فقال ﴿الى يوم الوقت المعلوم﴾ الذي عينت وهو يوم القيامة فإن يوم الدين ، ويوم يبعثون ، ويوم الوقت المعلوم ، كلها عبارات عن القيامة وسمي معلوماً لأن ذلك لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى فهو معلوم عنده ، وقيل إن جميع الخلائق تموت فيه ، فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث فعند ذلك يموت .

وقال ابن عباس : هو النفخة الأولى يموت فيها إبليس وبين النفختين أربعون سنة ، وهي مدة موته .

﴿قال رب بما أغويتني﴾ الباء للقسم وما مصدرية أي أقسم باغوائك إياي واختار البيضاوي في الأعراف كونها للسببية ، ونقل كونها للقسم بصيغة التمريض لأنه وقع في مكان آخر قال فبعزتك والقصة واحدة إلا أن **احدهما** إقسام بصفة ذاته ، **والثاني** إقسام بفعله والفقهاء قالوا الإقسام بصفات الذات صحيح ، واختلفوا في القسم بصفات الأفعال ومنهم من فرق بينهما ، ولأن جعل الاغواء

مقسما به غير متعارف ، قاله الكرخي .

قلت : وإقسامه هنا باغواء الله له لا ينافي اقسامه في موضع آخر بعزة الله التي هي سلطانه وقهره لأن الاغواء هو من جملة ما يصدق عليه العزة ، وقال أهل العراق الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين ، والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين ، قيل والأصح أن الأيمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يميناً وما لا فلا .

وجواب القسم ﴿لأزينن لهم﴾ أي لذرية آدم وان لم يجر لهم ذكر للعلم بهم ﴿في الأرض﴾ أي ما داموا في الدنيا والتزيين منه إما بتحسين المعاصي لهم وايقاعهم فيها أو بشغلهم بزينة الدنيا وحبها عن فعل ما أمرهم الله به فلا يلتفتون الى غيرها .

﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي لأضلنهم عن طريق الهدى وأوقعهم في طريق الغواية واحملهم عليها بالقاء الوسوسة في قلوبهم ، وذلك أن إبليس لما علم أنه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على إضلال الخلق بالكفر واغوائهم ، وفي الآية حجة على المعتزلة في خلق الأفعال وحملهم على التسبب عدول عن الظاهر .

﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ أي الذين استخلصتهم من العباد أو الذين أخلصوا لك العبادة والطاعة فلم يقصدوا بها غيرك ، وإنما استثناهم لأنه علم أن كيده ووسوسته لا تعمل فيهم ولا يقبلون منه وحقيقة الاخلاص فعل الشيء خالصاً لله عن شائبة الغير .

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿هذا صراط عليّ مستقيم﴾ لا عوج فيه والمعنى حق عليّ أن أراعيه واحفظه وهو أن لا يكون لك على عبادي سلطان ، فالكلام على التشبيه عند أهل السنة كما في قوله تعالى ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ إذ لا تجب رعاية الأصلح عندنا ، وقيل قال الكسائي هذا على الوعيد والتهديد كقولك لمن تهدده: طريقك عليّ ومصيرك إليّ وكقوله ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ فكان معنى هذا الكلام هذا طريق مرجعه اليّ فأجازي كلا بعمله .

وقيل ﴿عليّ﴾ هنا بمعنى ﴿اليّ﴾ وقيل المعنى على أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والحجة ، وقيل بالتوفيق والهداية ، وقيل عائد الى الاخلاص أي أن الاخلاص طريق عليَّ واليّ يؤدي الى كرامتي ورضواني .

وقال أبو السعود : والأظهر أن ذلك رد لما وقع في عبارة إبليس حيث قال ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ الآية ، وقرأ عليّ على أنه صفة مشبهة ومعناه رفيع .

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ المراد بالعباد هنا هم المخلصون ، والمراد انه لا تسلط أنت عليهم بإيقاعهم في ذنب يهلكون به ولا يتوبون منه ، فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء او نحوهما فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه قال أهل المعاني معنى ﴿عليهم﴾ على قلوبهم ، وقال سفيان بن عيينة : معناه ليس لك عليهم قوة وقدرة على أن تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي ، وهؤلاء خاصته أي الذين هداهم واجتباهم من عباده .

﴿إلا من اتبعك﴾ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء وهم المتبعون لإبليس ﴿من الغاوين﴾ عن طريق الحق الواقعين في الضلال وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصون﴾ .

ويمكن أن يقال بين الكلامين فرق ، فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين ، فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع إبليس ، وكلام إبليس اللعين يتضمن اغواء الجميع إلا المخلصين ، فدخل فيهم من لم يكن مخلصاً ولا تابعاً لإبليس غاوياً .

والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصة ولا غاوية تابعة لإبليس ، وقد قيل أن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ قال أبو السعود : وفيه مع كونه تحقيقاً لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين ، وبيان لمنزلتهم ، ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وإن اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم .

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾

ثم قال الله تعالى متوعداً لأتباع إبليس ﴿وان جهنم لموعدهم﴾ أي موعد المتبعين الغاوين ﴿أجمعين﴾ تأكيد للضمير أو حال ﴿لها سبعة أبواب﴾ يدخل أهل النار منها وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها ﴿لكل باب منهم﴾ أي من الأتباع الغواة ﴿جزء مقسوم﴾ أي نصيب وقدر معلوم متميز عن غيره . والجزء بعض الشيء ، وجزأته جعلته أجزاء ، والمراد هنا بالجزء الحزب والطائفة والفريق وقيل المراد بالأبواب الأطباق طبق فوق طبق .

قال ابن جريج : النار سبع دركات وهي : جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . فأعلاها لعصاة الموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهنم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها ، ثم كذلك ، كذا قيل .

والمعنى أن الله تعالى يجزىء أتباع إبليس سبعة اجزاء فيدخل كل جزء وقسم دركة من النار ، والسبب فيه أن مراتب الكفر والمعاصي مختلفة ، فلذلك اختلفت مراتبهم في النار .

قال الخطيب : تخصيص هذا العدد لأن أهلها سبع فرق ، وقيل جعلت

سبعة على وفق الأعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لأنها مصادر السيئات فكانت مواردها الأبواب السبعة .

ولما كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من أعمال القلب زادت الأعضاء واحداً فجعلت أبواب الجنان ثمانية ، انتهى .

أقول : الحكمة في تخصيص هذا العدد لا تنحصر فيما ذكر ، بل الأولى تفويضها الى جاعلها وهو الله سبحانه ، الا أن يرد خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب المصير اليه .

وعن عليّ رضي الله عنه قال : أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض ، فيملأ الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تملأ كلها .

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي واستغربه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لجهنم سبعة أبواب ؛ باب منها لمن سل السيف على أمتي »[1] وأخرج ابن مردويه والخطيب في تاريخه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « في الآية جزء أشركوا بالله وجزء شكوا في الله وجزء غفلوا عن الله »

وقد وردت في صفة النار وأهوالها أحاديث وآثار كثيرة ليس هذا موضع استقرائها[2] ﴿ان المتقين﴾ أي الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه كما قاله جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح ، وقيل هم الذين اتقوا جميع المعاصي ، وبه قال الجبائي وجمهور المعتزلة والأول أولى ، وأجمعت الأمة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول الحكم بدخول الجنة ، وليس من شرط صدق الوصف بكونه متقياً أن يكون آتياً بجميع أنواع التقوى لأن الآتي بفرد واحد من افراد التقوى يكون آتياً بالتقوى كما ان الضارب هو الآتي بالضرب ولو مرة واحدة والقاتل هو الآتي بالقتل ولو مرة واحدة وكل فرد من أفراد الماهية يجب أن يكون مشتملاً على تلك الماهية ، وبهذا التحقيق استدلوا على أن الأمر لا يفيد التكرار .

---

(١) الترمذي ، كتاب التفسير ، سورة ١٥ /٢ ـ أحمد بن حنبل ٢٩ /٩٤ .

(٢) وللمفسر كتاب جيد في التخويف من النار نشرته مطبعة الإمام .

﴿في جنات﴾ هي البساتين ﴿وعيون﴾ هي الأنهار الجارية أي مستغرقون فيهما والتركيب يحتمل أن يكون لجميعهم جنات وعيون أو لكل واحد منهم جنات وعيون أي عدة منهما كقوله تعالى ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ او لكل واحد منهم جنة وعين تجري في قصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه ، قال الرازي : يحتمل أن يكون منها ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآية ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الأنهار .

﴿ادخلوها﴾ أي قيل لهم ادخلوها وقرىء على انه فعل مبني للمفعول أي ادخلهم الله إياها ، وقد قيل إنهم إذا كانوا في جنات وعيون فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور فإن الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها ، وأجيب بأن المعنى إنهم لما صاروا في الجنات فإذا انتقلوا من بعضها الى بعض يقال لهم عند الوصول الى التي أرادوا الانتقال اليها ادخلوها ، والقائل هو الله تعالى أو بعض ملائكته .

﴿بسلام آمنين﴾ أي بسلامة من جميع الآفات وأمن من المخافات أو من زوال هذا النعيم أو مسلمين على بعضهم بعضاً أو مسلماً عليهم من الملائكة أو من الله عز وجل .

وقال الضحاك : أمنوا الموت فلا يموتون ولا يكبرون ولا يسقمون ولا يعرون ولا يجوعون .

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ هو الحقد والعداوة والشحناء والبغضاء والحسد وكل ذلك مذموم داخل في الغل لأنها كامنة في القلب ، وقد مر تفسيره في الأعراف ، وعن الحسن البصري عن عليّ : فينا والله أهل الجنة نزلت وعنه قال نزلت في ثلاثة أحياء من العرب بني هاشم وبني تميم وبني عدي ، وفي أبي بكر وعمر ، وعنه قال : اني لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وعن ابن

عباس قال : نزلت في عشرة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وابن مسعود ، وفي الباب روايات .

﴿إخواناً﴾ حال مقدرة قاله أبو البقاء يعني من فاعل ادخلوها ولا حاجة اليه بل هي حال مقارنة من ضمير صدورهم ، والمعنى حال كونهم اخوة في الدين بالتعاطف والمحبة والمودة والمخالطة ، وليس المراد منه اخوة النسب ، يروى أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد وصاروا إخواناً حال كونهم ﴿على سرر﴾ من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدر والياقوت .

قال أبو البقاء : يجوز ان يتعلق بنفس إخواناً لأنه بمعنى متصافين أي متصافين على سرر ، وفيه نظر من حيث تأويل جامد بمشتق بعيد منه والسرر جمع سرير ، وهو مثل ما بين صنعاء الى الجابية ، وقيل هو المجلس العالي الرفيع المهيأ للسرور ومنه قولهم سر الوادي لأفضل موضع منه .

﴿متقابلين﴾ أي ينظر بعضهم الى وجه بعض . قال مجاهد : لا يرى بعضهم قفا بعض ، وعن ابن عباس نحوه فإذا اجتمعوا وتلاقوا ثم أرادوا الانصراف يدور سرير كل واحد منهم به بحيث يصير راكبه مقابلاً بوجهه لمن كان عنده ، وقفاه الى الجهة التي يسير لها السرير ، وهذا أبلغ في الانس والاكرام .

وأخرج الطبراني والبغوي وابن أبي حاتم وغيرهم عن زيد بن أبي أوفى قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا هذه الآيـة قال : « المتحابون في الله في الجنة ينظر بعضهم الى بعض » .

﴿لا يمسهم فيها﴾ أي في الجنة مستأنفة أو حالية ﴿نصب﴾ أي تعب

وإعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة لانها نعيم خالص ، ولذة محضة تحصل لهم بسهولة وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد ، بل بمجرد خطور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفواً عفواً قال السدي النصب المشقة والأذى ﴿وما هم منها﴾ أي من الجنة ﴿بمخرجين﴾ أبداً ، وهذا نص من الله الكريم في كتابه العزيز على خلود أهل الجنة في الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان ، وفي هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم ، فان علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغص نعيمه وتكدر لذته .

ثم قال سبحانه بعد أن قص علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم والأجر الجزيل ﴿نبىء عبادي أني﴾ بفتح الياء فيهما وسكونها فيهما سبعيتان أي أخبر يامحمد كل من كان معترفاً بعبوديتي وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصي ﴿أنا الغفور الرحيم﴾ أي أنا الكثير المغفرة لذنوبهم الكثير الرحمة لهم كما حكمت به على نفسي ان رحمتي سبقت غضبي[1] اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة وأدخلتهم تحت أوسع الرحمة .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مصعب بن ثابت قال: مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على ناس من أصحابه يضحكون فقال : « اذكروا الجنة واذكروا النار » فنزلت هذه الآية .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر كل

---

(١) مسلم ٢٧٥١ ـ البخاري ١٥٠٩ .

الذي عند الله من رحمته لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار[١] .

ثم إن الله سبحانه لما أمر رسوله أن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة أمره بأن يذكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال ﴿وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ أي الكثير الإيلام .

وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير ، صاروا في حالة وسطاً بين اليأس والرجاء وخير الأمور أوسطها ، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف ، وبين حالتي الانس والهيبة ، وقيل لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لما أقدم على ذنب .

وفي هذه الآية لطائف منها أنه أضاف العباد الى نفسه بقوله ﴿نبىء عبادي﴾ وهذا تشريف لهم وتعظيم كما أضاف في قوله ﴿أسرى بعبده ليلاً﴾ ولم يزد عليه ومنها أنه أكد ذكر الرحمة والمغفرة بمؤكدات ثلاثة :

**أولها** : قوله ﴿أني﴾ .

**وثانيها** : ﴿أنا﴾ .

**وثالثها** : التعريف في ﴿الغفور الرحيم﴾ . وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ، ولم يقل في ذكر العذاب أني أنا المعذب ولم يصف نفسه بذلك بل قال على سبيل الإخبار ﴿أن عذابي هو العذاب الأليم﴾ .

ومنها أنه أمر رسوله أن يبلغ عباده هذا المعنى ، فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة .

ثم أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليكون سماعها

---

(١) لم يوجد بهذا اللفظ عند مسلم وورد ما جاء في حديثين مختلفين ٢٧٥٢ ـ ٢٧٥٥ واخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب ١٩ .

مرغباً في العبادة الموجبة للفوز بدرجات السعداء ، ومحذراً عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وذكر هنا أربع قصص : قصة ابراهيم ثم قصة لوط ثم قصة شعيب ثم قصة صالح ، وسيأتي تفصيلها . وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فقال :

﴿ونبئهم عن ضيف ابراهيم﴾ أي أخبرهم بما جرى على ابراهيم من الأمر الذي اجتمع فيه له الرجاء والخوف والتبشير الذي خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سنة الله في عباده ؛ وأيضاً لما اشتملت القصة على انجاء المؤمنين واهلاك الظالمين كان في ذلك تقرير لكونه الغفور الرحيم ، وأن عذابه هو العذاب الأليم .

وأصل الضيف الميل ، يقال أضفت الى كذا اذا ملت اليه ، والضيف من مال إليك نزولاً بك، وصارت الضيافة متعارفة في القرى، وهو في الأصل مصدر ولذلك وحد ، وان كانوا جماعة ملائكة اثني عشر أو عشرة أو ثلاثة منهم جبريل على صورة غلمان حسان أرسلهم الله اليه ليبشروه بالولد ويهلكوا قوم لوط عليه السلام ، وقد مر تفسير القصة مفصلاً في سورة هود عليه السلام ، وسمي الضيف ضيفاً لاضافته الى المضيف ، وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان ﴿إذ دخلوا﴾ أي اذكر لهم وقت دخولهم ﴿عليه فقالوا سلاماً﴾ أي هذا اللفظ قالوه تحية لابراهيم .

وفي الشهاب يجوز أن يكون سلاماً منصوباً بفعل مقدر أي سلمنا أو نسلم سلاماً ، ويجوز نصبه بقالوا ، ولم تذكر هنا تحية ابراهيم لهم ، وقد ذكرت في سورة هود فالقصة هنا مختصرة .

﴿قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون فزعون ، وانما قال هذا بعد أن قرب اليهم العجل فرآهم لا يأكلون منه كما تقدم في سورة هود ، فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة . وقيل أنكر السلام منهم لأنه لم يكن في بلادهم ، وقيل أنكر دخولهم عليه بغير استئذان .

قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾

﴿قالوا﴾ أي الملائكة ﴿لا توجل﴾ أي لا تخف ، قاله عكرمة ، وقرىء لا تأجل وتوجل من أوجله أي أخافه ﴿إنا نبشرك بغلام عليم﴾ مستأنفة لتعليل النهي عن الوجل لأن المبشر لا يخاف منه ، والعليم كثير العلم ، وقيل هو الحليم كما وقع في موضع آخر من القرآن . وهذا الغلام هو اسحاق كما تقدم في هود ، ولم يسمه هنا ولا ذكر التبشير بيعقوب اكتفاء بما سلف .

﴿قال أبشرتموني﴾ قرىء بألف الاستفهام وبغيرها ﴿على أن مسني الكبر﴾ أي مع حالة الكبر والهرم ﴿فبم تبشرون﴾ استفهام انكار أو تعجب كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار اليه من الهرم الذى جرت العادة بأنه لا يولد لمن بلغ اليه ، والمعنى فبأي شيء تبشرون ، فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصح ﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ أي بما يكون لا محالة ، أو باليقين الذي لا لبس فيه ولا خلف فيه فإن ذلك وعد الله وهو لا يخلف الميعاد ولا يستحيل عليه شيء ، فإنه القادر على كل شيء .

﴿فلا تكن من القانطين﴾ أي الآيسين من ذلك الذي بشرناك به فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر ، وكان تعجب ابراهيم باعتبار العادة دون القدرة ولذلك :

﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه﴾ قرىء بفتح النون من يقنط وبكسرها

وهما لغتان سبعيتان ، وحكى فيه ضم النون شاذاً ، والقنوط اليأس وبابه جلس ودخل وطرب وسلم فهو قانط وقنوط .

﴿إلا الضالون﴾ أي المكذبون أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب والمعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته ، كما قال الله تعالى إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، أي إني إنما استبعدت الولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة ربي .

ثم سألهم عما لأجله أرسلهم الله سبحانه ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الخطب الأمر الخطير والشأن العظيم ، أي فما أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به غير ما قد بشرتموني به ، وكان قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا لأنهم كانوا عدداً والبشارة لا تحتاج الى عدد ، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام ، أو لأنهم بشروه في تضاعيف الحال لازالة الوجل ، ولو كانت البشارة تمام المقصود لابتدأوه بها .

﴿قالوا إنا أرسلنا الى قوم مجرمين﴾ أي الى قوم لهم إجرام ، فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو دونه ، وهؤلاء القوم هم قوم لوط عليه السلام ، ثم استثنوا منهم من ليسوا بمجرمين فقالوا :

﴿إلا آل لوط﴾ وهو استثناء متصل لأنه من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى أجرموا كلهم إلا آل لوط فإنهم لم يجرموا ، ولو كان من قوم لكان منقطعاً لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين ، وليس آل لوط مجرمين البتة ، ويجب فيه على هذا النصب .

ثم ذكروا ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم في اجرامهم فقالوا ﴿إنا لمنجوهم﴾ أي آل لوط ﴿أجمعين﴾ وهم أتباعه وأهل بيته ودينه لايمانهم ، قرىء من التنجية والانجاء ومعناهما التخليص مما وقع فيه غيرهم وهذا الكلام استئناف اخبار بنجاتهم بكونهم لم يجرموا ويكون الارسال

حينئذ شاملاً للمجرمين ولآل لوط لإهلاك أولئك وانجاء هؤلاء على تقدير الاتصال ، وعلى انه منقطع ، جرى هذا الكلام مجرى خبر ، لكن في اتصاله بآل لوط لأن المعنى لكن آل لوط ننجيهم .

﴿إلا امرأته﴾ فليست ممن ننجيه بل ممن نهلكه لكفرها ، وهذا الاستثناء من الضمير في لمنجوهم اخراجاً لها من التنجية ، وقيل من آل لوط باعتبار ما حكم لهم به من التنجية ، والمعنى انها من الهالكين لأن الاستثناء من النفي اثبات ومن الاثبات نفي ، ومنعه الزمخشري وقال : كيف يكون استثناء من استثناء ، وقد اختلف الحكمان .

﴿قدرنا انها لمن الغابرين﴾ أي قضينا وحكمنا انها من الباقين في العذاب مع الكفرة ، والغابر الباقي والماضي ، وهو من الاضداد وبابه دخل .

قال الزجاج : معنى قدرنا دبرنا وهو قريب من معنى قضينا ، وأصل التقدير جعل الشيء على مقدار الكفاية ، وقرىء قدرنا بالتخفيف وبالتشديد . قال الهروي : هما بمعنى وقيل ضمن قدرنا معنى العلم فلذلك علق باللام مع كون التعليق من خصائص أفعال القلوب فكسرت إن .

وقيل هذا لا يصلح علة لكسرها إنما يصلح علة لتعليقها الفعل قبلها فقط ، والعلة في كسرها وجود اللام ولولاها لفتحت ، وانما أسند التقدير الى الملائكة مع كونه من فعل الله سبحانه مجازاً لما لهم من القرب عند الله ، أو أنهم رسل الله وواسطة بينه وبين خلقه .

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ مستأنفة لبيان اهلاك من يستحق الهلاك وتنجية من يستحق النجاة ، وفي الكلام حذف ، أي فخرجوا من عند ابراهيم وسافروا من قريته الى قرية لوط ، وكان بينهما أربعة فراسخ ، ولفظة آل زائدة بدليل ولقد جاءت رسلنا لوطاً .

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾

﴿قال﴾ لوط مخاطباً لهم ﴿إنكم قوم منكرون﴾ لا أعرفكم بل أنكركم وأخاف أن تصيبوني بمكروه ولا أعرف غرضكم ولا من أي القبائل أنتم . ﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أي بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه فالإضراب هو عن مجيئهم بما ينكره ، كأنهم قالوا ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل جئناك بما فيه سرورك وهو عذابهم الذي كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه .

﴿وأتيناك﴾ متلبسين ﴿بالحق﴾ أي باليقين الذي لا مرية فيه ولا تردد أو متلبساً أنت به لإبصارك له ، وهو العذاب النازل بهم لا محالة ﴿وإنا لصادقون﴾ في ذلك الخبر الذي أخبرناك .

وقد تقدم تفسير قوله ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ في سورة هود أي سر في جزء من الليل بهم ، وهم بنتاه ، فلم يخرج من قريته إلا هو وبنتاه ، وفي القرطبي في سورة هود : فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم ﴿واتبع أدبارهم﴾ أي كن من ورائهم وامش خلفهم تذودهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب ، أو لأجل أن تطمئن عليهم وتعرف أنهم ناجون .

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي أنت ولا أحد منهم فيرى ما نزل بهم من

العذاب فيشتغل بالنظر في ذلك ويتباطأ عن سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين وقيل معنى لا يلتفت لا يتخلف ﴿وأمضوا حيث تؤمرون﴾ أي الى الجهة التي أمركم الله سبحانه بالمضي اليها وهي جهة الشام وقيل مصر، وقيل قرية من قرى لوط، وقيل أرض الخليل عليه الصلاة والسلام وقيل الأردن، وزعم بعضهم إن حيث هنا ظرف زمان مستدلاً بقوله ﴿بقطع من الليل﴾ ثم قال ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ أي في ذلك الزمان، وهو ضعيف، ولو كان كما قال لكان التركيب وامضوا حيث أمرتم، على انه لو جاء التركيب هكذا لم يكن فيه دلالة ﴿وقضينا اليه﴾ أي أوحينا الى لوط عليه السلام ﴿ذلك الأمر﴾ هو **إهلاك** قومه ثم فسره بقوله:

﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ الدابر هو الآخر، أي أن آخر من يبقى منهم يهلك ﴿مصبحين﴾ أي حال كونهم داخلين في وقت الصبح، ومثله ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ وقدره الفراء وأبو عبيدة إذا كانوا مصبحين، قال الكرخي: فإن كان تفسير معنى فصحيح، وأما الاعراب فلا ضرورة تدعو اليه، قال ابن عباس: يعني استئصال هلاكهم.

ثم ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة الى قريتهم فقال ﴿وجاء أهل المدينة﴾ أي أهل مدينة قوم لوط وهي سذوم بسين مهملة فذال معجمة على وزن فعول، وأخطأ من قال بمهملة مدينة من مدائن قوم لوط كما سبق وتقدم أن هذا المجيء قبل قول الملائكة ﴿فأسر بأهلك﴾ فما في سورة هود على الترتيب الواقعي، وما هنا على خلافه، والواو لا تفيد ترتيباً.

قال الكرخي: ذكر القصة في هود بترتيب الوقوع، وهنا أخر ذكر مجيئهم عن قول الرسل، بل جئناك مع تقدمه ليستقل الأول ببيان كيفية نصرة الصابرين، والثاني بتساوي الأمم ﴿يستبشرون﴾ أي مستبشرين بأضياف لوط طمعاً في ارتكاب الفاحشة منهم، والاستبشار إظهار الفرح والسرور.

﴿قال﴾ لهم لوط ﴿إن هؤلاء ضيفي﴾ وحد الضيف لأنه مصدر كما تقدم ، والمراد أضيافي ، وسماهم ضيفاً لأنه رآهم على هيئة الأضياف ، وقومه رأوهم مرداً حسان الوجوه في غاية الحسن ونهاية الجمال ، فلذلك طمعوا فيهم ﴿ فلا تفضحون﴾ يقال فضحه يفضحه فضيحة وفضحاً إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بإظهاره .

وفي المختار فضحه فافتضح ، أي كشف مساويه وبابه قطع ، والاسم الفضيحة والفضوح أيضا بضمتين ، والمعنى لا تفضحوني عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمون إني عاجز عن حماية من نزل بي ، أو لا تفضحوني بفضيحة ضيفي ، فإن من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف .

﴿واتقوا الله﴾ في أمرهم من ركوب الفاحشة ﴿ولا تخزون﴾ يجوز أن يكون من الخزي وهو الذل والهوان ، أي لا تذلوني ، ويجوز أن يكون من الخزاية وهي الحياء والخجل ، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة هود .

﴿قالوا﴾ أي قوم لوط مجيبين له ﴿أوَ لم ننهك عن العالمين﴾ الاستفهام للانكار والواو للعطف على مقدر ، أي ألم نتقدم اليك وننهك عن أن تكلمنا في شأن أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة ، وقيل نهوه عن ضيافة غرباء الناس قال قتادة : يقولون أو لم ننهك ان تضيف أحداً أو تؤويه في قريتنا ، ويجوز حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك .

﴿قال هؤلاء بناتي﴾ فتزوجوهن حلالاً إن أسلمتم ولا تركبوا الحرام ، وقيل أراد ببناته نساء قومه لكون النبي بمنزلة الأب لقومه أو إنه كان في شريعته يحل تزوج الكافر بالمسلمة ، والأول أولى وقد تقدم تفسير هذا في هود ﴿إن كنتم فاعلين﴾ ماعزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفي أو ما أمركم به .

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾

﴿لعمرك﴾ العمر والعمر بالفتح والضم واحد لكنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فإنه كثير الدور على ألسنتهم ؛ ذكر ذلك الزجاج وهو اسم لمدة عمارة بدن الانسان بالحياة والروح وعيشه والبقاء مدة حياته في الدنيا ، والمعنى لعمرك قسمي او يميني فحذف الخبر لدلالة الكلام عليه .

قال القاضي عياض : اتفق أهل التفسير في هذا انه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم . وكذا حكى اجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله تعالى ههنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً له ، قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أكرم البرية عنده .

وعن ابن عباس قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال ﴿لعمرك﴾ الآية يقول وحياتك يامحمد وعمرك وبقائك في الدنيا وعيشك بها .

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما حلف الله بحياة أحد إلا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم قال ﴿لعمرك﴾ الآية » أخرجه ابن مردويه ، كذا في الدر المنثور للسيوطي .

قال ابن العربي : ما الذي يمنع أن يقسم الله سبحانه بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء ، وكل ما يعطيه الله سبحانه للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه أكرم على الله منه ، أو لا تراه سبحانه أعطى ابراهيم الخلة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ، قال فإذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط فحياة محمد صلى الله عليه وسلم أرفع ، قال القرطبي : ما قاله حسن فإنه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاماً معترضاً في قصة لوط عليه السلام .

فإن قيل قد اقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين ونحو ذلك فما فيها من فضل ، وأجيب بأنه ما من شيء أقسم الله به إلا وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه ، وقيل الإقسام منه سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين والنجم والضحى والشمس والليل ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به ، أي وخالق التين وكذلك ما بعده ، وفي قوله ﴿لعمرك﴾ أي وخالق عمرك .

وذكر صاحب الكشاف وأتباعه أن هذا القسم هو من الملائكة على ارادة القول ، أي قالت الملائكة للوط لعمرك ، ثم قال : وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له . انتهى .

وقد كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه ، وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله فليس لعباده ان يقسموا بغيره وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

﴿انهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ أي أنهم لفي غوايتهم وشدة غِلمَتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين خطئهم والصواب الذي يشار به اليهم

يتحيرون ، جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة ، والضمير لقريش على أن القسم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والجملة اعتراض ، أو لقوم لوط على أن القسم بلوط ، قال قتادة : أي في ضلالهم يلعبون ، وقال الاعمش لفي غفلتهم يترددون ، وعمه من باب تعب كما في المختار .

﴿فأخذتهم الصيحة﴾ العظيمة أو صيحة جبريل والصيحة العذاب ، قال ابن جريج : الصيحة مثل الصاعقة وكل شيء أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة ﴿مشرقين﴾ أي حال كونهم داخلين في وقت الشروق ، يقال أشرقت الشمس أي أضاءت وشرقت اذا طلعت ، وقيل هما لغتان بمعنى واحد ، وأشرق القوم اذا دخلوا في وقت شروق الشمس ، وقيل أراد شروق الفجر ، وقيل أول العذاب كان عند شروق الفجر حين أصبحوا وامتد تمامه الى طلوع الشمس حين أشرقوا ، فلذلك قال أولا مقطوع مصبحين وقال ههنا مشرقين ﴿فجعلنا﴾ مرتب على أخذ الصيحة ﴿عاليها﴾ أي عالي المدينة أو عالي قرى قوم لوط ﴿سافلها﴾ وقال الزمخشري الضمير لقرى ، ورجح الأول بأنه تقدم ما يعود اليه لفظاً بخلاف الثاني ، والمراد بعاليها وجه الأرض وما عليه رفعها جبريل الى السماء من الأرض السفلى وأسقطها مقلوبة الى الأرض ، وكانت أربعة قرى فيها أربعمائة ألف مقاتل .

﴿وأمطرنا عليهم﴾ أي على من كان خارجاً عن قراهم بأن كان غائباً في سفر او غيره ﴿حجارة من سجيل﴾ أي من طين متحجر طبخ بالنار ، وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا في سورة هود .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من قصتهم وبيان ما أصابهم ﴿لآيات للمتوَسِّمين﴾ أي للمتفكرين الناظرين في الأمر يستدلون بها ، وقال أبو عبيدة للمتبصرين ، وقال قتادة : للمعتبرين ، وقيل للمتأملين كأنهم يعرفون باطن الشيء بسمة ظاهرة وقال مجاهد للمتفرسين .

وأخرج البخاري في التاريخ والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ؛ ثم قرأ ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ »[1] والفراسة على نوعين :

**أحدهما** : ما يوقعه الله في قلوب الصلحاء فيعلمون بذلك أحوال الناس بإصابة الحدس والنظر والظن والتثبت .

**والثاني** : ما يحصل بدلائل التجارب والأخلاق ، وللناس في هذا العلم تصانيف قديمة وحديثة ، وقال ثعلب : الواسم الناظر اليك من فرقك الى قدمك ، والمعنى متقارب ، واصل التوسم التثبت والتفكر تفعل مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير او البقر ، وقيل أصله استقصاء التعرف يقال توسمت أي تعرفت مستقصياً وجوه التعرف ، وقيل هو من الوسم بمعنى العلامة .

﴿وانها لبسبيل مقيم﴾ يعني قرى قوم لوط أو مدينتهم على طريق ثابت أو الباء بمعنى ( في ) وهي الطريق من المدينة الى الشام فإن السالك في هذه الطريق يمر بتلك القرى ويشاهدها ويرى أثر عذاب الله وغضبه لأنه لم يدثر ولم يخف ولم يزل ، وعن ابن عباس معنى لبسبيل لبهلاك ، وعن مجاهد لبطريق معلم ليس يخفى وعن قتادة لبطريق واضح .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من المدينة أو القرى أو ما أنزل بهم من العذاب ﴿لآية للمؤمنين﴾ يعتبرون بها فإن المؤمنين بالله والأنبياء والمرسلين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار ويعرفون ان ذلك انما كان لانتقام

(١) الترمذي كتاب التفسير سورة ٦/١٥ .

الله من الجهال لأجل مخالفتهم ، وأما الذين لا يؤمنون فيحملونه على حوادث العالم وحصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية .

وجمع الآيات أولا باعتبار تعدد ما قص من حديث لوط وضيف ابراهيم وتعرض قوم لوط لهم وما كان من اهلاكهم وقلب المدائن على من فيها وامطار الحجارة على من غاب عنها ، وحدها ثانياً باعتبار وحدة قرية قوم لوط المشار اليها بقوله ﴿وأنها لبسبيل مقيم﴾ فلا يرد كيف جمع الآية أولاً ووحدها ثانياً والقصة واحدة .

﴿وإن كان أصحاب الأيكة﴾ شروع في قصة شعيب وذكرت ههنا مختصرة وسيأتي بسطها في سورة الشعراء ، والأيكة الغيضة وهي جماع الشجر ومجمع الشيء والجمع الأيك ، وفي الأصل اسم للشجر الملتف ، والمراد بها هنا البقعة التي فيها شجر مزدحم ، ففي الكلام مجاز من اطلاق الحال على المحل ، ويروى ان شجرهم كان دوماً وهو **المقْل**.

فالمعنى وان كان أصحاب الشجر المجتمع وأرباب بقعة الأشجار باعتبار اقامتهم فيها وملازمتهم لها ﴿لظالمين﴾ بتكذيبهم شعيباً ، واقتصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم ، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق ، واللام فيه للتأكيد وقيل الأيكة اسم القرية التي كانوا فيها ، قال أبو عبيدة : أيكة وليكة مدينتهم كمكة وبكة ، وأصحابها هم قوم شعيب ، وقد تقدم خبرهم .

وقد أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله اليهما شعيباً » ، وعن ابن عباس قال : « أصحاب الأيكة هم قوم شعيب » والأيكة ذات آجام وشجر كانوا فيها .

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فانتقمنا منهم﴾ أي أهلكناهم بالعذاب وذلك أن الله سلط عليهم شدة الحر سبعة ايام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه لهم سحابة كالظلة فالتجؤوا اليها واجتمعوا تحتها للتظلل يلتمسون الروح ، فبعث ناراً فأحرقتهم جميعاً .

﴿وإنهما﴾ الضمير يرجع الى مدينة قوم لوط ومكان أصحاب الأيكة أي وان المكانين ﴿لبإمام مبين﴾ أي لبطريق واضح ظاهر ، قاله ابن عباس ، وقيل يعود على الخبرين خبر إهلاك قوم لوط وخبر اهلاك قوم شعيب ، وقيل يعود على اصحاب الأيكة وأصحاب مدين لأنه مرسل اليهما فذكر أحدهما مشعر بالآخر وأرجح الأقوال هو الأول .

والامام اسم لما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التي تسلك ، قال الفراء والزجاج ، سمي الطريق إماماً لأنه يؤتم به ويتبع ، وقال ابن قتيبة : لأن المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذي يريده ، وقيل الضمير للأيكة ، ومدين لأن شعيباً كان ينسب اليهما .

ثم إن الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر﴾ قال قتادة : هم أصحاب الوادي وكانوا ثمود قوم صالح ، والحجر اسم لديار ثمود قاله الأزهري وهي ما بين مكة وتبوك ، وقال ابن جرير : هي أرض بين الحجاز والشام وآثارها موجودة باقية يمر عليها ركب الشام الى الحجاز وبالعكس .

وإنما قال الله سبحانه ﴿المرسلين﴾ ولم يرسل اليهم إلا صالحاً لأن من كذب واحداً من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين في الدعوة الى الله ، وقيل كذبوا صالحاً ومن تقدمه من الأنبياء ، وقيل كذبوا صالحاً ومن معه من المؤمنين .

﴿وآتيناهم آياتنا﴾ المنزلة على نبيهم ومن جملتها الناقة فإن فيها آيات جمة كخروجها من الصخرة ودنوّ نتاجها عند خروجها وعظمها وكثرة لبنها وإنما أضاف الآيات اليهم وان كانت لصالح لأنه مرسل اليهم بهذه الآيات ﴿فكانوا عنها﴾ أي عن الآيات ﴿معرضين﴾ أي غير معتبرين بها ولا ملتفتين اليها بل تاركين لها ، ولهذا عقروا الناقة وخالفوا ما أمرهم به نبيهم ، قال الكرخي : وذلك يدل على أن النظر والاستدلال واجب وان التقليد مذموم .

﴿وكانوا ينحتون﴾ النحت في كلام العرب البري والنجر ، نحته ينحته بالكسر نحتاً أي براه وفي التنزيل أتعبدون ما تنحتون أي تنجرون وكانوا يتخذون لأنفسهم ﴿من الجبال بيوتاً﴾ بضم الباء وكسرها سبعيتان أي يخرقونها في الجبال ﴿آمنين﴾ أي حال كونهم آمنين من الخراب ونقب اللصوص لها لشدة إحكامها أو من أن يقع عليهم الجبل أو السقف ، قاله الفراء ، وقيل آمنين من الموت وقيل من العذاب ركوناً منهم على قوتها ووثاقتها .

وقال بعضهم المراد أنهم يتخذون بيوتاً في الجبال بنقرها وقطع الصخر منها بالمعاويل حتى تصير مساكن من غير بنيان .

﴿فأخذتهم الصيحة﴾ أي العذاب وهو الرجفة او الزلزلة الشديدة من الأرض ﴿مصبحين﴾ أي داخلين في وقت الصبح ، وقد تقدم ذكر الصيحة في الأعراف وفي هود وتقدم ايضاً قريباً .

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

﴿فما أغنى﴾ أي لم يدفع ﴿عنهم﴾ شيئاً من عذاب الله ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من الأموال والحصون في الجبال أو من الشرك والأعمال الخبيثة .

أخرج البخاري وغيره عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم »[1] وأخرج ابن مردويه عنه قال نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم فأمرهم باهراق القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال إني أخشى أن يصيبكم مثل الذي أصابهم فلا تدخلوا عليهم »[2] .

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا﴾ متلبسة ﴿بالحق﴾ وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح ، ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعاً

---

(١) مسلم ٢٩٨٠ ـ البخاري ٢٨٤ .

(٢) مسلم ٢٩٨١ ـ البخاري ١٥٩٥ .

لفسادهم وارشاداً لمن بقي الى الصلاح ، وقيل المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته كما في قوله سبحانه ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ وقيل المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائل .

﴿وان الساعة لآتية﴾ وعند إتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب ، ويحسن الى من يستحق الإحسان ، وفيه وعيد للعصاة وتهديد ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يصفح عن قومه فقال ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ أي تجاوز عنهم واعف عفواً حسناً ، وقيل فأعرض عنهم إعراضاً جميلاً ولا تعجل عليهم بالانتقام وعاملهم معاملة الصفوح الحليم .

قال عليّ : الصفح الجميل الرضا بغير عتاب ؛ وعن ابن عباس مثله وعن مجاهد قال : هذه الآية قبل القتال : وعن عكرمة مثله ، يعني هذا منسوخ بآية السيف وفيه بعد ، لأن الله أمر نبيه أن يظهر الخلق الحسن وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف والأمر بالصفح الجميل لا ينافي قتالهم .

﴿إن ربك هو الخلاق﴾ أي الخالق للخلق جميعاً ﴿العليم﴾ بأحوالهم وبالصالح والطالح منهم .

﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ من للتبعيض أو للبيان على اختلاف الأقوال في المراد ، ذكر معنى ذلك الزجاج فقال : هي للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال ، وللبيان إذا أردت الاسباع ؛ واختلف أهل العلم فيها ماذا هي ، فقال جمهور المفسرين انها الفاتحة .

قال الواحدي : وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب ، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبي ، وزاد القرطبي أبا هريرة وأبا العالية ، وزاد النيسابوري الضحاك. وسعيد بن جبير ، وقد روي ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي بيانه فتعين المصير إليه .

وقيل هي السبع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والسابعة الأنفال والتوبة لأنهما كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية روي هذا عن ابن عباس .

وقيل السابعة هي سورة يونس ، وقيل المراد بها السبعة الأحزاب فإنها سبع صحائف : وقيل هي السور التي دون الطوال وفوق المفصل وهي المتين .

والمثاني جمع مثناة من التثنية وهي التكرير أو جمع مثنية . وقال الزجاج : يثنى بما يقرأ بعدها معها ؛ فعلى القول الأول يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني أنها تثنى أي تكرر في كل صلاة ، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية أن العبر والاحكام والحدود كررت فيها ، وعلى القول بأنه السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها .

وقد ذهب الى أن المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاك وطاووس وأبو مالك وهو رواية عن ابن عباس ، واستدلوا بقوله تعالى ﴿كتاباً متشابهاً مثاني﴾ وقيل المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن : وهي الأمر والنهي والتبشير والانذار وضرب الامثال وتعريف النعم، وأنباء القرون الماضية ، قاله زياد بن أبي مريم . ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثاني لا يستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم ، وقد تقرر أنها المرادة بهذه الآية فلا يقدح في ذلك صدق وصف المثاني على غيرها ﴿والقرآن العظيم﴾ المراد به سائر القرآن ؛ قاله ابن مسعود ، فيكون من عطف العام على الخاص لأن الفاتحة بعض من القرآن ؛ وكذلك ان أريد بالسبع المثاني السبع الطوال لأنها بعض من القرآن إن أريد به القدر المشترك الصادق على الكل والبعض أو من عطف الكل على البعض ان اريد به المجموع الشخصي .

وأما اذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه من باب عطف أحد الوصفين على الآخر .

ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكيّة وأكثر

السبع الطوال مدنية ؛ وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه ، وظاهر قوله ﴿ولقد آتيناك﴾ الخ انه قد تقدم إيتاء السبع على نزول هذه الآية .

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنه قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد ؛ فذهب النبي صلى الله عليه وسلم ليخرج فذكرت فقال « الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم »[١] .

وأخرج البخاري ايضاً من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم »[٢] .

فوجب بهذا المصير الى القول بأنها فاتحة الكتاب ، ولكن تسميتها بذلك لا ينافي تسمية غيرها به كما قدمنا ، وعن الضحاك قال : المثاني القرآني يذكر الله القصة الواحدة مراراً ، وعن زياد بن أبي مريم في الآية قال : أعطيتك سبعة أجزاء : مُرْ، وأنْهَ، وبشِّر، وأنذر ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، واتل نبأ القرآن .

ثم لما بيَّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره الله عن اللذات العاجلة الزائلة فقال ﴿لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي لا تطمح ببصرك الى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمن لها ؛ قال الواحدي : إنما يكون ماداً عينيه الى الشيء إذا أدام النظر نحوه وإدامة النظر اليه تدل على استحسانه وتمنيه .

وقال بعضهم : المعنى لاتحسدن أحداً على ما أوتي من الدنيا ، ورد بأن الحسد منهى عنه مطلقاً ، وإنما قال في هذه السورة لا تمدن بغير واو ؛ لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه .

---

(١) البخاري التفسير سورة ١/١ ـ ٣/١٥ .الترمذي كتاب ثواب القرآن الباب ١ .

(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، الباب ٩ ـ الترمذي ، كتاب ثواب القرآن ، باب ١ .

وعن ابن عباس قال : في قوله لا تمدن عينيك نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه والأزواج الأصناف قاله ابن قتيبة . وقال الجوهري : الأزواج القرناء ؛ وقيل يعني اليهود والنصارى والمجوس . وعن مجاهد في قوله أزواجاً منهم ، قال الأغنياء الأمثال والأشباه .

وعن سفيان بن عيينة قال : من أعطي القرآن فمد عينيه الى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن ألم تسمع قوله ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ الى قوله ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾ وقد فسر ابن عيينة أيضاً الحديث الصحيح « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[1] فقال إن المعنى لم يستغن به .

ثم لما نهاه عن الالتفات الى أموالهم وأمتعتهم نهاه عن الالتفات اليهم فقال ﴿ولا تحزن عليهم﴾ حيث لم يؤمنوا وصمموا على الكفر والعناد . وقيل المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا وفاتك من مشاركتهم فيها فإن لك الآخرة ؛ والأول أولى .

روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تغبطن فاجراً بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاق بعد موته إن له عند الله قاتلاً لا يموت ، قيل وما هو؟ قال النـار »[2] .

وعنه عند مسلم مرفوعاً « انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم »[3] قال عوف : كنت أصحب الأغنياء فما كان أحداً أكثر هماً مني ، كنت أرى دابة خيراً من دابتي وثوباً خيراً من ثوبي ، فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت .

ثم لما نهاه عن أن يمد عينيه الى أموال الكفار وأن يحزن عليهم وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم أمره أن يتواضع للمؤمنين فقال ﴿واخفض

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد ، باب ٤٤ ـ أبو داود ، كتاب الوتر ، الباب ٢٠ .
(٢) مشكاة المصابيح ٥٢٤٨ .
(٣) مسلم ٢٩٦٣ ـ البخاري ٢٤٣٤ .

جناحك للمؤمنين﴾ خفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ، ومنه قوله سبحانه ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه الى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ ، فجعل ذلك وصفاً لتواضع الانسان لأتباعه ، ويقال فلان خافض الجناح أي وقور ساكن ، والجناحان من ابن آدم جانباه ، ومنه واضمم يدك الى جناحك .

﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله ﴿كما انزلنا على المقتسمين﴾ عذاباً ، أي اني أنا النذير لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذي أنزلناه عليهم كقوله تعالى ﴿أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ وقيل ان الكاف زائدة ، وقيل متعلق بمحذوف والتقدير أنزلنا اليك إنزالاً مثل ما أنزلنا . قاله الكرخي .

وقيل هو متعلق بقوله ﴿ولقد آتيناك﴾ أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون قاله الزمخشري ، والأولى أن يتعلق بقوله ﴿إني أنا النذير المبين﴾ لأنه في قوة الأمر بالانذار .

وقد اختلف في المقتسمين من هم على أقوال سبعة ، فقال مقاتل والفراء : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها ، يقولون لمن دخل مكة لا تغتروا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن ، فقيل لهم المقتسمون لأنهم اقتسموا هذه الطرق .

وقيل إنهم قوم من قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعراً وبعضه سحراً وبعضه كهانة وبعضه أساطير الأولين ، قاله قتادة ، وقيل هم أهل الكتاب وسموا مقتسمين لأنهم كانوا يقسمون القرآن استهزاء فيقول بعضهم هذه السورة لي وهذه لك ، روي هذا عن ابن عباس ، وقيل إنهم اقتسموا كتابهم وفرقوه وبددوه وحرفوه .

وقيل المراد قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال تعالى ﴿تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله﴾ .

قلت : وفي هذا الوجه قرب من حيث المقاسمة وبعد من حيث وصفهم بجعلهم القرآن عضين ، وأما الأوجه الآخرة فهي مستقيمة ، وقيل تقاسموا أيماناً تحالفوا عليها قاله الأخفش ، وقيل أنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وابو البختري والنضر بن الحرث وأمية بن خلف وشيبة بن الحجاج ؛ ذكره الماوردي .

﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء وأجزاء فيكون المعنى على هذا : الذين جعلوه أجزاء متفرقة بعضه شعر وبعضه سحر وبعضه كهانة ونحو ذلك ، وقيل مأخوذ من عضهته إذا بهته فالمحذوف منه الهاء لا الواو ، وجمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء ، وقيل معنى عضين ايمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض ، وقيل العضة والعضين في لغة قريش السحر وهم يقولون للساحر عاضه وللساحرة عاضهة .

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن العاضهة والمستعضهة وفسر بالساحرة والمستسحرة ، والمعنى انهم أكثروا البهت على القرآن وسموه سحراً وكذباً وأساطير الأولين ، ونظير عضة في النقصان شفة والأصل شفهة وكذلك سنة أصلها سنهة ، قال الكسائي : العضة الكذب والبهتان ، وجمعها عضون وقال الفراء : انه مأخوذ من العضاة وهي شجرة تؤذي وتجرح كالشوك ، ويجوز أن يراد بالقرآن التوراة والإنجيل لكونهما مما يقرأ ويراد بالمقتسمين هم اليهود والنصارى ، أي جعلوهما أجزاء متفرقة وهو أحد الأقوال المتقدمة .

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿فوربك﴾ أقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة وربوبيته العظيمة ﴿لنسألنهم﴾ أي هؤلاء الكفرة ﴿أجمعين﴾ يوم القيامة سؤال توبيخ ﴿عما كانوا يعملون﴾ في الدنيا من الأعمال التي يحاسبون عليها ويسألون عنها ، وقيل إن المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد .

وقد أخرج الترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال عن قول لا إله إلا الله ، وروي عن أنس موقوفاً ، وعن ابن عمر مثله ، والعموم يفيد ما هو أوسع من ذلك .

وقيل ان المسؤولين ههنا هم جميع المؤمنين والعصاة والكفار ، ويدل عليه قوله : ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ وقوله : ﴿وقفوهم انهم مسؤولون﴾ وقوله ﴿ان الينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم﴾ ويمكن أن يقال إن قصر هذا السؤال على المذكورين في السياق وصرف العموم اليهم لا ينافي سؤال غيرهم .

﴿فاصدع بما تؤمر﴾ قال الزجاج : يقول أظهر ما تؤمر به من الشرائع أخذاً من الصديع وهو الصبح انتهى . وأصل الصدع الفرق والشق يقال صدعته فانصدع أي انشق وتصدع القوم أي تفرقوا ، ومنه يومئذ يصدعون أي يتفرقون ، قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر أي أظهر دينك ، فـ ﴿ما﴾ مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر ، وقال ابن الأعرابي معناه اقصد ، وقيل فرق

جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم الى التوحيد فإنهم يتفرقون ، والأولى أن الصدع الاظهار كما قاله الزجاج والفراء وغيرهما .

قال الواحدي : قال المفسرون أي اجهر بالأمر أي بأمرك بعد إظهار الدعوة وما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه وقال ابن عباس هذا أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغ رسالته قومه وجميع من أرسل اليه ، واصدع بمعنى أمضه وأعلن .

ثم أمره الله سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض وعدم الالتفات الى المشركين فقال ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أي لا تبال بهم ولا تلتفت اليهم إذا لاموك على اظهار الدعوة .

قال ابن عباس نسخه قوله تعالى ﴿واقتلوا المشركين﴾ وليس للنسخ وجه لأن معنى الإعراض ترك المبالاة بهم والالتفات اليهم ، فلا يكون منسوخاً .

ثم أكد هذا الأمر وثبت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿انا كفيناك المستهزئين﴾ مع أنهم كانوا من أكابر الكفار وأهل الشوكة فيهم ، فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى ، وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والحرث بن الطلاطلة ، كذا قال القرطبي ووافقه غيره من المفسرين .

وقد أهلكهم الله جميعا يوم بدر ، وكفاه أمرهم في يوم أحد ، وقد روي هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة في عددهم ونقص على طول في ذلك .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال ﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر﴾ فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء بل لهم ذنب آخر وهو الشرك بالله سبحانه ثم توعدهم فقال ﴿فسوف يعلمون﴾ كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه .

ثم ذكر تسلية أخرى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد التسلية الأولى بكفايته شرهم ودفعه مكرهم فقال ﴿ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون﴾ الأقوال الكفرية المتضمنة للطعن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون والكهانة والكذب وقد كان يحصل ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقتضى الجبلة البشرية والمزاج الانساني وان كان مفوضاً جميع أموره لربه .

ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر الى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال ﴿فسبح بحمد ربك﴾ أي افزع الى الله فيما نابك وافعل التسبيح المتلبس بالحمد أو فنزهه عما يقولون حامداً له على أن هداك للحق ﴿وكن من الساجدين﴾ أي من المصلين فانك إذا فعلت ذلك كشف الله همك وأذهب غمك وشرح صدرك ، وفي الكلام مجاز ثم أمره بعبادة ربه فقال :

﴿واعبد ربك﴾ من عطف العام على الخاص أي دم على عبادته الى غاية هي قوله ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ قال الواحدي : قال جماعة المفسرين يعني الموت لأنه موقن به متيقن الوقوع والنزول ، لا يشك فيه أحد .

وقال أبو حيان : ان اليقين من أسماء الموت وبنزوله يزول كل شك ، ووقّت العبادة بالموت إعلاماً بأنها ليست لها نهاية دون الموت ، فلا يرد ما قيل أي فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه إذا مات سقطت عنه العبادات.

وايضاح الجواب أن المراد واعبد ربك في جميع زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة من العبادة والله أعلم بمراده .

قال الزجاج : المعنى اعبد ربك أبداً لأنه لو قيل اعبد ربك بغير توقيت لجاز إذا عبد الانسان مرة أن يكون مطيعاً فإذا قال حتى يأتيك اليقين فقد أمره بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حياً ، ومثله قوله تعالى في سورة مريم ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع الى الصلاة .

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي عن أبي مسلم الخولاني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أوحي إليّ أن اجمَع المال وكن من التاجرين ، ولكن أوحي اليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وروي بطرق كثيرة .



## سورة النحل

## ﴿مائة وثمان وعشرون آية﴾

وهي مكيّة كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن عبد الله . وروي عن ابن عباس وأبي الزبير انها نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فانهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أحد وهي قوله تعالى : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ الى قوله ﴿ تعملون ﴾ وقال قتادة هي مكيّة الا خمس آيات وهي قوله : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ﴾ وقوله : ﴿ ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ وقوله : ﴿ وان عاقبتم ﴾ الى آخر السورة . وزاد مقاتل قوله : ﴿ من كفر بالله من بعد ايمانه ﴾ الآية ﴿ وضرب الله مثلا قرية ﴾ . وحكى الاصم عن بعضهم انها كلها مدنية . والاول أولى وتسمى هذه سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من النعم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

﴿أتى أمر الله﴾ أي جاء ودنا وقرب عقابه للمشركين بالقتل بالسيف ، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه ، وقال جماعة من المفسرين الأمر القيامة ، قال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم « بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير بأصبعيه يمدهما » أخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن سعد .

وقيل إن المراد بالأمر حكمه بذلك وقد وقع وأتى ، فأما المحكوم به فانه لم يقع لأنه سبحانه حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج الى الوجود وقيل المراد بإتيانه إتيان مباديه ومقدماته ، وقال الضحاك : يعني الأحكام والحدود والفرائض .

﴿فلا تستعجلوه﴾ أي فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت فإنه واقع لا محالة ولا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه ، وقد كان المشركون يستعجلون العذاب كما قال النضر بن الحرث ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية . والمعنى قَرُب أمر الله فلا تستعجلوه

وقوعاً ، وقد كان استعجالهم على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة ، وفي نهيهم عن الاستعجال تهكم بهم .

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزه الله وترفع عن إشراكهم أو عن أن يكون له شريك ، وشركهم ههنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب وقيام الساعة استهزاء وتكذيباً ، فإنه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك وإنه عاجز عنه ، والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق لا من صفات الخالق فكان ذلك شركاً .

وهذه الجملة تنازع فيها العاملان ، وفيه التفات من الخطاب الى الغيبة تحقيراً لشأنهم وحطاً لدرجتهم عن رتبة الخطاب ، وفي قراءة سبعية بالتاء وما مصدرية فلا عائد لها عند الجمهور أو موصولة كما قاله السمين ، أي عما يشركونه به و ( ما ) عبارة عن الأصنام .

﴿ينزل الملائكة﴾ قرىء بالياء التحتية والفاعل هو الله سبحانه ، وقرىء تنزل من التفعل والأصل تتنزل ، فالفعل مستند الى الملائكة ، وقرىء تنزل على البناء للمفعول وننزل بالنون ، والمراد بالملائكة هنا جبريل ، وعبر عنه بالجمع تعظيماً له ﴿بالروح﴾ هو الوحي قاله ابن عباس ، ومثله يلقي الروح من أمره ، وسمي الوحي روحاً لأنه يحيى قلوب المؤمنين ، فإن من جملة الوحي القرآن ، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد ، وبه قال الحسن .

فالتعبير بالروح عن الوحي على طريق الاستعارة التصريحية بجامع أن الروح به إحياء البدن والوحي به إحياء القلوب من الجهالات . وقيل المراد أرواح الخلائق وقيل الرحمة وقيل الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح قال الزجاج : الروح ما كان فيه من الله حياة بالارشاد الى أمره . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل ، ويكون الباء على هذا بمعنى مع .

وعن ابن عباس قال : الروح أمر من أمر الله وخلق من خلق الله وصورهم على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من

الروح ، ثم تلا ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ . ومن في ﴿من أمره﴾ بيانية أي ناشئاً ومبتدئاً من أمره أو صفة للروح أو متعلق بينزل ﴿على من يشاء من عباده﴾ يعني من يصطفيه للنبوة والرسالة وتبليغ الوحي الى الخلق وهم الأنبياء ؛ ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره ونهاهم عن الاستعجال ترددوا في الطريق التي علم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأخبر أنه علم بها بالوحي على ألسن رسل الله سبحانه من ملائكته .

﴿أن أنذروا﴾ قال الزجاج أي ينزلهم بأن أنذروا أو المعنى بأن الشأن أقول لكم أنذروا أي أعلموا الناس . وعبارة البيضاوي وأن مفسرة لأن الروح بمعنى الوحي الدال على القول أو مصدرية في موضع الجر بدلاً من الروح ، أو النصب بنزع الخافض أو مخففة من الثقيلة .

﴿أنه لا إله إلا أنا﴾ أي مروهم بتوحيدي واعلموهم ذلك مع تخويفهم لأن في الانذار تخويفاً وتهديداً والضمير في أنه للشأن ﴿فاتقون﴾ رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود ، والخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات وهو تحذير لهم من الشرك بالله والفاء فصيحة .

وفي الشهاب اذا كان الانذار بمعنى التخويف فالظاهر دخول فاتقون في المنذر به لأنه هو المنذر به في الحقيقة ؛ وإذا كان بمعنى الاعلام فالمقصود بالاعلام هو الجملة الأولى ، وهذا متفرع عليها انتهى . وفيه تنبيه على الأحكام الفرعية بعد التنبيه على الأحكام العلمية بقوله أنه لا إله إلا الله ، فقد جمعت هذه الآية بين الأحكام الأصلية والفرعية .

ثم إنه سبحانه لما أرشدهم الى توحيده ذكر دلائل التوحيد فقال ﴿خلق السموات والأرض﴾ أي أوجدهما على هذه الصفة التي هما عليها ﴿بالحق﴾ أي للدلالة على قدرته ووحدانيته ، وقيل المراد بالحق هنا الفناء والزوال ﴿تعالى﴾ الله ﴿عما يشركون﴾ أي تقدس وترفع عن إشراكهم أو عن شريكه الذي يجعلونه شريكاً له ، وقيل عما يشركونه من الأصنام أو منهما أي السموات

والأرض .

ثم لما كان نوع الانسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية قدمه وخصه بالذكر فقال ﴿خلق الانسان﴾ وهو اسم لجنس هذا النوع ﴿من نطفة﴾ أي من جماد يخرج من حيوان وهو المني فقلبه أطواراً الى أن كملت صورته ونفخ فيه الروح واخرجه من بطن أمه الى هذه الدار فعاش فيها ومن لابتداء الغاية وانتهاؤها محذوف كما قرره الكرخي والنطفة القطرة من الماء يقال نطف رأسه ماء أي قطر ، وقيل هي الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل والمرأة جمعها نطف ونطاف ولا يستعمل للنطفة فعل من لفظها .

﴿فاذا هو﴾ بعد خلقه على هذه الصفة ﴿خصيم﴾ كثير الخصومة والمجادلة والمعنى انه كالمخاصم لله سبحانه في قدرته ﴿مبين﴾ ظاهر الخصومة وواضحها ، وقيل يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل والمبين هو المفصح عما في ضميره بمنطقه ومثله قوله تعالى ﴿أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ قيل نزلت في أبيّ بن خلف والأولى أنها عامة في كل ما يقع من الخصومة في الدنيا ويوم القيامة فإنه لا اعتبار بخصوص السبب إذا اقتضى المقام العموم كما تقرر .

قال الكرخي أن هذه ذكرت لتقرير الاستدلال على وجود الصانع الحكيم لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في الغي والكفر .

ثم عقب ذكر خلق الانسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع والامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها فقال ﴿والأنعام خلقها﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز وأكثر ما يقال نعم وأنعام للإبل ، ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة ، وقال الجوهري : والنعم واحد الأنعام وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل .

ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبني آدم بين المنفعة التي فيها لهم ، قال الواحدي تم الكلام عند هذا ثم ابتدأ فقال ﴿لكم فيها دفء﴾ ويجوز أن يكون تمامه عند قوله لكم . والأول أولى وأحسن والدفء السخانة وهو ما

استدفىء به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، قال ابن عباس : دفء الثياب أي من الأكسية والاردية قال بعض المفسرين أن في الآية التفاتاً من الغيبة في الانسان الى الخطاب في لكم فيقتضي أن المخاطب مطلق بني آدم المندرجين تحت الانسان .

﴿ومنافع﴾ أي ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة ، قاله ابن عباس وهي درها وركوبها ونتاجها والحراثة ونحو ذلك ، وقد قيل إن الدفء النتاج واللبن قال في الصحاح الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ، ثم قال والدفء ايضا السخونة ، وعلى هذا فإن أريد بالدفء المعنى الأول فلا بد من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها وان حمل على المعنى الثاني كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحاً ، وقيل المراد بالمنافع النتاج خاصة ، وقيل الركوب .

﴿ومنها﴾ أي من لحومها وشحومها ﴿تأكلون﴾ وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها ، وقيل خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التي فيها ، وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للاشارة الى أن الأكل منها هو الأصل وغيره نادر فالأكل من غيرها كالدجاج والبط والأوز وصيد البر والبحر يجري مجرى التفكه به ، وقيل تقديم الظرف للفاصلة لا للحصر .

ولما كانت منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الأكل قدمه على الأكل ﴿ولكم فيها﴾ مع ما تقدم ذكره ﴿جمال﴾ هو ما يتجمل به ويتزين والحسن والمعنى هنا لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين اليها ﴿حين تريحون وحين تسرحون﴾ أي في هذين الوقتين وهما وقت ردها من مراعيها ووقت تسريحها اليها فالرواح والاراحة رجوعها بالعشي وردها من المراعي والسراح مسيرها الى مراعيها بالغداة .

يقال سرحت الإبل أسرحها سرحاً وسروحاً إذا غدوت بها الى المرعى وقدم الاراحة على التسريح مع أنه خلاف الواقع لأن منظرها عند الاراحة أجمل وذواتها أحسن لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب

فعظمت بطونها وانتفخت ضروعها فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع .

وخص هذين الوقتين لانهما وقت نظر الناظرين اليها لانها عند استقرارها في الحظائر لا يراها أحد ، وعند كونها في مراعيها هي متفرقة غير مجتمعة كل واحد منها يرعى في جانب ، وأكثر ما تكون هذه الراحة ايام الربيع إذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة ، وأحسن ما تكون النعم في هذا الوقت فإنه يسمع للإبل رغاء وللبقر خوار وللشياه ثغاء يجاوب بعضها بعضاً .

﴿وتحمل﴾ أي الأنعام والمراد بها هنا الإبل خاصة ﴿أثقالكم﴾ جمع ثقل وهو متاع المسافر من طعام وغيره ، وسمي ثقلاً لأنه يثقل الانسان حمله ، وقيل المراد أبدانهم ﴿الى بلد﴾ غير بلدكم ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ أي واصلين اليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم ﴿إلا بشق الأنفس﴾ لبعده عنكم وعدم وجود ما يحمل ما لا بد لكم منه في السفر ، وظاهره يتناول كل بلد بعيد من غير تعيين ، وقيل المراد بالبلد مكة ، قاله ابن عباس ، وقيل اليمن ومصر والشام لأنها متاجر العرب ، وشق الأنفس مشقتها ، قرىء بكسر الشين وبفتحها .

قال الجوهري : الشق المشقة ، ومنه قوله تعالى ﴿إلا بشق الأنفس﴾ وحكى ابو عبيدة فتح الشين وهما بمعنى ، ويجوز أن يكون المفتوح مصدراً من شققت عليه أشق شقاً والمكسور بمعنى النصف ، يقال أخذت شق الشاة وشقة الشاة ، ويكون المعنى على هذا لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب نصف الأنفس من التعب .

قد امتن الله سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم ثم خص الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم ، والاستثناء من أعم العام أي لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بشق الأنفس ، قال ابن عباس : لو تكلفتموه لم تطيقوه إلا بجهد شديد ﴿إن ربكم لرءوف رحيم﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح .

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿والخيل والبغال والحمير﴾ أي وخلق لكم هذه الثلاثة الأصناف ، وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في مشيها وواحد الخيل خائل كضائن واحد الضأن ، وقيل اسم جنس لا واحد له من لفظه بل من معناه وهو الفرس ، والبغال جمع بغل وهو المتولد من الخيل والحمير والحمير جمع حمار .

ثم علَّل سبحانه خلق هذه الأنواع الثلاثة بقوله ﴿لتركبوها﴾ وهذه العلّة هي باعتبار معظم منافعها لأن الانتفاع بها في غير الركوب معلوم كالتحميل عليها ﴿وزينة﴾ عطف على محل لتركبوها لأنها في محل نصب على أنه علة لخلقها ، ولم يقل لتتزينوا بها حتى يطابق لتركبوها ، لأن الركوب فعل المخاطبين والزينة فعل الزائن وهو الخالق .

والتحقيق فيه أن الركوب هو المعتبر في المقصود بخلاف الزينة فإنه لا يلتفت اليه أهل الهمم العالية لأنه يورث العجب ، فكأنه سبحانه قال خلقتها لتركبوها فتدفعوا بواسطتها عن أنفسكم ضرر الإعياء والمشقة ، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات .

وقد استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل

بالركوب يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها ، قالوا ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الأنعام ، فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل ، قالوا ولو كان أكل الخيل جائزاً لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب لأنه أعظم فائدة منه .

وقد ذهب الى هذا مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والاوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم ، وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم الى حل لحوم الخيل ، وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير ، واليه ذهب الشافعي وأحمد واسحق ، ولا حجة لأهل القول الأول في التعليل بقوله لتركبوها ، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافي غيره ، ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب .

وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها عام خيبر ، وقد قدمنا أن هذه السورة مكيّة .

والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل ، فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكاً للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال ، وقد أوضح الشوكاني هذه المسألة في مؤلفاته بما لا يحتاج الناظر فيه الى غيره .

وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل أحاديث منها ما في الصحيحين وغيرهما من حديث أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً فأكلناه[1] .

وأخرج أبو عبيد وابن شيبة والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن جابر قال : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم

(١) مسلم ١٩٤٢ البخاري/ ٢٢٠٢ .

الخيل ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية[1] وأخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضا وهما على شرط مسلم .

وثبت ايضا في الصحيحين من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمير الأهلية وأذن في الخيل[2] .

وأما ما أخرجه أبو عبيد وأبو داود والنسائي من حديث خالد بن الوليد قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ، ففي اسناده صالح بن يحيى بن أبي المقدام وفيه مقال ، ولو فرضنا أن الحديث صحيح لم يقو على معارضة أحاديث الحل ، على أنه يمكن أن هذا الحديث المصرح بالتحريم متقدم على يوم خيبر فيكون منسوخاً .

﴿ويخلق مالا تعلمون﴾ من الأشياء العجيبة والغريبة مما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدده ههنا ، وقيل المراد من أنواع الحشرات والهوام في أسافل الأرض وفي البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوه ، وقيل هو ما أعده الله لعباده في الجنة وفي النار مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر وقيل هو خلق السوس في النبات والدود في الفواكه ؛ وقيل عين تحت العرش وقيل نهر من النور وقيل أرض بيضاء .

ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع بل المراد أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد ، فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به ، والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة ، لأنه سبحانه قد خلق ما لم يعلم به العباد ولا يأتي عليه الحصر والعد .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان مما خلق الله أرضاً من لؤلؤة بيضاء، ثم ساق من أوصافها ما يدل

---

(١) الترمذي كتاب الصيد باب ٩ ـ ابو داوود كتاب الأطعمة باب ٢٥ .

(٢) مسلم ١٩٤١ ـ البخاري ١٩٠٩ .

على أن الحديث موضوع ثم قال في آخره فذلك قوله ويخلق ما لا تعلمون » .

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ القصد مصدر بمعنى الفاعل فالمعنى وعلى الله هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعْدِه المحتوم وتفضله الواسع ، وقيل هو على حذف مضاف ، والتقدير وعلى الله بيان قصد السبيل ، والسبيل الاسلام وبيانه بارسال الرسل وإنزال الكتب واقامة الحجج والبراهين ، والقصد في السبيل هو كونه موصلاً الى المطلوب فالمعنى وعلى الله بيان الطرق الموصلة الى المطلوب .

﴿ومنها﴾ الضمير راجع الى السبيل بمعنى الطريق لأنها تذكر وتؤنث أو لأنها في معنى سبل فـأُنِّث على معنى الجمع ؛ وقيل راجع اليها بتقدير مضاف أي ومن جنس السبيل ﴿جائر﴾ مائل عن الحق والجور العدول عن الاستقامة ، وقيل ان الطريق كناية عن صاحبها ، والمعنى ومنهم جائر عن سبيل الحق أي عادل عنه فلا يهتدي اليه ، قيل وهم أهل الأهواء المختلفة ، وقيل أهل الملل الكفرية . فقصد السبيل هو دين الاسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر .

وقيل قصد السبيل السنة المطهرة والجائر البدع المحدثة المضلة . قال ابن عباس : على الله أن يبين الهدى والضلالة ومنها جائر ، قال السبل المتفرقة ، وقال قتادة : وعلى الله بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ومنها جائر ، قال من السبل ناكب عن الحق . وعن عليّ كان يقرأ ومنكم جائر .

﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ أي ولو شاء أن يهديكم جميعاً هداية موصلة الى الطريق الواضح الصحيح والمنهج الحق الصريح لفعل ذلك ولكنه لم يشأ بل اقتضت مشيئته سبحانه اراءة الطريق والدلالة عليها كما قال وهـديناه النجدين ، وأما الايصال اليها بالفعل فذلك يستلزم ان لا يوجد في العباد كافر ، ولا من يستحق النار من المسلمين وقد اقتضت المشيئة الربانية بكون البعض مؤمناً والبعض كافراً كما نطق بذلك القرآن في غير موضع .

ولما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال ﴿هو الذي أنزل من﴾ جهة ﴿السماء﴾ وهي السحاب ﴿ماءً﴾ أي نوعاً من أنواع الماء وهو المطر ﴿لكم منه شراب﴾ هو اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم ، والمعنى أن الماء النازل من السماء قسمان ، قسم يشربه الناس ومن جملته ماء الآبار والعيون فإنه من المطر لقوله فسلكه ينابيع في الأرض ﴿و﴾ قسم يحصل ﴿منه شجر﴾ ترعاه المواشي .

قال الزجاج : كل ما نبت من الأرض فهو شجر لأن التركيب يدل على الاختلاط ، ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض ، ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ وفيما له ساق . وقال ابن قتيبة : المراد من الشجر في الآية الكلأ ، وقيل الشجر كل ما له ساق لقوله تعالى ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ والعطف يقتضي التغاير ، فلما كان النجم ما لا ساق له وجب أن يكون الشجر ما له ساق ، وأجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز .

﴿فيه تسيمون﴾ أي في الشجر ترعون مواشيكم ، يقال سامت السائمة تسوم سوماً رعت فهي سائمة ، واسمتها أي اخرجتها الى الرعي فأنا مسيم وهي مسامة وسائمة ، وأصل السوم الابعاد في المرعى ، قال الزجاج : أخذ من السومة وهي العلامة لأنها تؤثر في الأرض علامات برعيها .

وهذه الآية مبنية على مكارم الأخلاق ، وهو أن يكون اهتمام الانسان بمن يكون تحت يده أكمل من اهتمامه بنفسه . وأما الآية الأخرى ﴿كلوا وارعَوا أنعامكم﴾ فمبنية على قوله صلى الله عليه وسلم « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ﴿ينبت﴾ الله ﴿لكم به﴾ أي بذلك الماء الذي أنزله من السماء ؛ وهذا استئناف اخبار عن منافع الماء وقدم ﴿الزرع﴾ لأنه أصل الأغذية التي يعيش بها الناس ، وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما اشبههما .

﴿و﴾ ذكر ﴿الزيتون﴾ بعد الزرع لكونه فاكهة من وجه واداماً من وجه لكثرة ما فيه من الدهن والبركة وهو جمع زيتونة ويقال للشجرة نفسها زيتونة[1] ﴿و﴾ ذكر ﴿النخيل﴾ لكونه غذاء وفاكهة وهو مع العنب أشرف الفواكه ﴿و﴾ جمع ﴿الأعناب﴾ لاشتمالها على الأصناف المختلفة ، وهي شبه النخلة في المنفعة من التفكه والتغذية .

ثم أشار الى سائر الثمرات اجمالاً فقال ﴿ومن كل الثمرات﴾ كما أجمل الحيوانات التي لم يذكرها فيما سبق بقوله ويخلق ما لا تعلمون ومن تبعيضية إذ كلها إنما يوجد في الجنة وماأنبتت الأرض بعض من كلها للتذكرة .

﴿ان في ذلك﴾ الانزال والانبات ﴿لآية﴾ عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد بالربوبية ﴿لقوم يتفكـرون﴾ في مخلوقات الله ولا يهملون النـظر في مصنوعاته ، وقد ذكر لفظ الآية في هذه السورة سبع مرات خمس بالافراد واثنتان بالجمع قال الكرماني : ما جاء الافراد فلوحدة المدلول وهو الله تعالى ، وما جاء منها بلفظ الجمع فلمناسبة مسخرات انتهى .

وختم هذه الفاصلة بالتفكر لأن النظر في ذلك يعني انبات النبات بالماء يحتاج الى مزيد تأمل واستعمال فكر ، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها مقدار من الزمان مع رطوبة الأرض فإنها تنتفخ وينشق أعلاها فتصعد منه شجرة الى الهواء وأسفلها تغوص منه عروق في الأرض ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطباع والطعوم والألوان والروائح والأشكال والمنافع .

ومن تفكر في ذلك علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال فضلاً عن أن يشاركه أخس الأشياء في أخص صفاته التي هي الالوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علواً كبيراً ذكره الخازن وأبو السعود .

---

(١) وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتبه فوائد جمة للزيتون .

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم يتعاقبان دائما كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمر به ولا يخرج عن إرادته ولا يهمل السعي في نفعه ﴿و﴾ كذا الكلام في تسخيره ﴿الشمس والقمر و﴾ قوله : ﴿النجوم﴾ قرأ حفص عن عاصم برفعه على انه مبتدأ وخبره ﴿مسخرات﴾ أي مذللات مقهورات ﴿بأمره﴾ تعالى تجري على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان ولا تصرف لها في نفسها فضلاً عن غيرها ، وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لانهم يعتقدون ان هذه النجوم هي الفعالة المتصرفة في العالم السفلي فأخبر سبحانه انها مذللات تحت قهره وإرادته .

﴿إن في ذلك﴾ التسخير وما بعده ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي يعملون عقولهم في هذه الآيات الدالة على وجود الصانع وتفرده وعدم وجود شريك له وختم الفاصلة الثانية بالعقل لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة ، وجمع الآيات ليطابق قوله مسخرات ، وقيل ان

وجه الجمع هو ان كُلًّا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها بخلاف ما تقدم من الانبات فإنه آية واحدة ، ولا يخلو كل هذا عن تكلف والاولى أن يقال أن هذه المواضع التي أفرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار وللافراد باعتبار فلم يجرها على طريقة واحدة افتناناً وتنبيهاً على جواز الأمرين وحسن كل واحد منهما .

﴿وما ذرأ﴾ أي خلق ﴿لكم في الأرض﴾ يقال ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرأً فهو ذارىء ومنه الذرية ، وهي نسل الثقلين ، وقد تقدم تحقيق هذا أي وسخر لكم ما ذرأ في الأرض من الدواب والأنعام والأشجار والثمار فالمعنى أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية ﴿مختلفاً ألوانه﴾ أي هيئآته ومناظره فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكل في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرده ، قال قتادة : مختلفاً في الدواب والشجر والثمار نعم من الله متظاهرة فاشكروها لله .

﴿إن في ذلك﴾ التسخير لهذه الأمور مع اختلاف طبائعها وأشكالها مع اتحاد موادها ﴿لآية﴾ واضحة ﴿لقوم يذكرون﴾ فإن من تذكر اعتبر ومن اعتبر استدل على المطلوب ، قيل وإنما خص المقام الأول بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة ، وخص الثاني بالعقل لذكره بعد إماطة الشبهة وإزاحة العلة ، فمن لم يعترف بعدها بالواحدانية فلا عقل له ، وخص الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة فمن شك بعد ذلك فلا حس له ، وفي هذا من التكلف ما لا يخفى .

والأولى أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدم في افراد الآية في البعض وجمعها في البعض الآخر ، وبيانه أن كُلًّا من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر ولذكر التعقل ولذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة .

﴿وهو الذي سخر البحر﴾ امتن الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان

الركوب عليه واستخراج ما فيه من صيد وجواهر لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته ، وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية فأرشدهم الى النظر ، والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة وتكميلاً للانذار وتوضيحاً لمنازع الاستدلال ومناطات البرهان ، ومواضع النظر والاعتبار .

ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ المراد به السمك ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والارشاد الى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة ، قال قتادة : يعني حيتان البحر ، وقال السدي : وما فيه من الدواب وبدأ بذكر الأكل لأنه أعظم المقصود وبه قوام البدن .

وتسميته لحماً هو مذهب المالكية بخلاف الشافعية والحنفية وعلى هذا فلو حلف لا يأكل لحماً لا يحنث بأكل السمك ولاظهار قدرته في خلقه عذباً طرياً في ماء ملح ؛ والطراوة ضد اليبوسة أي غضا جداً ؛ ويقال طريت كذا اي جددته وأطريت فلانا مدحته بأحسن ما فيه ويقال بالغت في مدحه وجاوزته .

﴿وتستخرجوا منه﴾ أي من البحر وهو الملح فقط ﴿حلية﴾ أي لؤلؤاً ومرجاناً كما في قوله سبحانه ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ والحلية اسم لما يتحلى به واصلها الدلالة على الهيئة كالعمة وفي المصباح حلى الشيء بعيني وبصدري من باب تعب حلا وحسن عندي واعجبني ، وحليت المرأة حلياً ساكن اللام لبست الحلي وجمعه حلي ، والأصل على فعول مثل فلس وفلوس والحلية بالكسر الصفة والجمع حلى مقصور وتضم الحاء وتكسر وحلية السيف زينته .

قال ابن فارس : ولا تجمع وتحلت المرأة لبست الحلي أو اتخذته وحليتها بالتشديد ألبستها الحلي أو اتخذته لها لتلبسه وحليت السويق جعلت فيه شيئاً حلواً حتى حلا .

وظاهر قوله ﴿تلبسونها﴾ انه يجوز للرجال ان يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أي يجعلونها حلية لهم كما يجوز للنساء ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله تلبسونها بقولهم تلبسها نساؤهم لأنهن من جملتهم او لكونهن يلبسنها لأجلهم .

وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة فإن ذلك ممنوع قد ورد الشرع بمنعه من جهة كونه تشبهاً بهن لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان؛ وعن أبي جعفر قال: ليس في الحلي زكاة ثم قرأ هذه الآية أخرجه أبي شيبة.

أقول وفي هذا الاستدلال نظر والذي ينبغي التعويل عليه ان الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم ، وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف ولم يرد في الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدل على وجوب الزكاة فيها .

﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ أي ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدورها ، قال عكرمة ومخر السفينة شقها الماء بصدرها ، قال الجوهري : مخر السابح إذا شق الماء بصدره ومخر الأرض شقها للزراعة ، وقيل مواخر جواري قاله ابن عباس وأصل المخر الجري .

في المختار مخرت السفينة من باب قطع ودخل إذا جرت تشق الماء مع صوت وقيل معترضة ، وقيل تذهب وتجيء ، قال الضحاك : السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومدبرة وقيل مواقر أي مملوءة متاعاً وقال أبو عبيدة : صوائح وقيل ملججة[١] قال ابن جرير : الماخر في اللغة صوت هبوب الريح عند شدتها ولم يقيد بكونه في الماء .

﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا أو فعل ذلك لتبتغوا

---

(١) يقال لججت السفينة أي خاضت اللجة أ هـ صحاح .

أي لتتجروا فيه فيحصل لكم الربح من فضل الله سبحانه ، قال السدي : هي التجارة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي أذا وجدتم فضله عليكم واحسانه اليكم اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان والأركان ، قيل ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث ان فيها قطعاً لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلاً مع انها في تضاعيف المهالك .

ويمكن أن يضم الى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كونه فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له .

ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى فقال ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ أي جبالاً ثابتة يقال رسا يرسو إذا ثبت واقام ﴿أن تميد بكم﴾ أي كراهة ان تميد بكم على ما قاله البصريون أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون والميد الاضطراب يميناً وشمالاً يقال ماد الشيء يميد ميداً تحرك ومادت الأغصان تمايلت وماد الرجل تبختر قال قتادة : حتى لا تميد بكم كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقر فأصبحوا صبحاً وقد جعل الله سبحانه الجبال وهي الرواسي أوتاداً في الأرض .

﴿و﴾ جعل فيها ﴿أنهاراً﴾ لأن الالقاء هنا بمعنى الجعل والخلق كقوله ﴿والقيت عليك محبة مني﴾ وذكر الأنهار عقب الجبال لأن معظم عيون الأنهار وأصولها تكون من الجبال قال السيوطي كالنيل ولم يذكر في المثال غير هذا لأنه من أهل مصر .

﴿و﴾ جعل فيها ﴿سبلاً﴾ واظهرها وبينها لأجل أن تهتدوا بها في أسفاركم الى مقاصدكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان وهي الطرق ، وقال السدي : هي الطرق في الجبال ﴿لعلكم تهتدون﴾ بتلك السبل الى ما تريدون فلا تضلون او الى توحيد ربكم .

وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿و﴾ جعل فيها ﴿علامات﴾ هي معالم الطرق جمع علامة وفي المصباح أعلمت على كذا بالالف من الكتاب وغيره جعلت عليه علامة وأعلمت الثوب جعلت له علماً من طراز وغيره وهو العلامة وجمع العلم أعلام مثل سبب وأسباب وجمع العلامة علامات وعلمت له علامة بالتشديد وضعت له امارة يعرف بها ، والمعنى انه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها .

﴿وبالنجم﴾ المراد به الجنس ﴿هم يهتدون﴾ به في سفرهم ليلاً ؛ وقرأ ابن وثاب وبالنجم بضمتين والمراد النجوم فقصره أو هو جمع نجم كسقف وسقف وقيل المراد بالنجم هنا الجدي والفرقدان ، قاله الفراء . وقيل الثريا وبنات نعش وقيل العلامات الجبال ، وقيل هي النجوم لأن من النجوم ما يهتدى به ومنها علامة لا يهتدى بها .

وذهب الجمهور الى أن المراد في الآية الاهتداء في الأسفار ، وقيل هو الاهتداء الى القبلة ، ولا مانع من حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك . قال الأخفش : تم الكلام عند قوله ﴿وعلامات﴾ وقوله ﴿وبالنجم﴾ الخ كلام منفصل عن الأول .

قال السدي : علامات النهار الجبال وعلامات الليل النجوم . وقال ابن عباس : معالم الطرق بالنهار الجبال ويهتدون بالنجم بالليل ، قال قتادة : إنما

خلق الله النجوم لثلاثة أشياء . لتكون زينة للسماء ومعالم الطرق ورجوماً للشياطين ، فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به .

ثم لما عدد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال ﴿أفمن يخلق﴾ هذه المخلوقات العجيبة العظيمة والمصنوعات الغريبة الجليلة ويفعل هذه الافاعيل العجيبة المرئية بالعيان ﴿كمن لا يخلق﴾ شيئاً منها ولا يقدر على ايجاد واحد منها ، وهي هذه الأصنام التي يعبدونها ويجعلونها شركاء لله سبحانه .

وأطلق عليها لفظ ﴿من﴾ اجراء لها مجرى أولي العلم جرياً على زعمهم بأنها آلهة أو مشاكلة لقوله ﴿أفمن يخلق﴾ لوقوعها في صحبته أو هو من عكس التشبيه . وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار ما لا يخفى ، وما أحقهم بذلك فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكاً لخالقه ، تعالى الله عما يشركون .

﴿أفلا تذكرون﴾ مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرده بالربوبية وبديع صنعته فتستدلون بها على ذلك ، فإنها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر لها لا يحتاج الى دقيق الفكر والنظر ، قال قتادة في الآية : الله هو الخالق الرازق ، وهذه الاوثان التي تعبد من دون الله تخلق ولا تخلق شيئاً ، ولا تملك لأهلها ضراً ولا نفعاً .

ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة الى المكلفين نعم قال ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ ولو اجتهدتم في ذلك واتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه فضلاً عن أن تطيقوا القيام بحقها من اداء الشكر وهذا تذكير اجمالي بنعمه تعالى، وقد مر تفسير هذا في سورة ابراهيم.

قال العقلاء : إن كل جزء من اجزاء الانسان لو ظهر فيه أدنى خلل

وأيسر نقص لنغص النعم على الانسان وتمنى ان ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل ، فهو سبحانه يدبر بدن هذا الانسان على الوجه الملائم له ، مع أن الانسان لا علم له بوجود ذلك ، فكيف يطيق حصر نعم الله عليه او يقدر على احصائها أو يتمكن من شكر أدناها .

ياربنا هذه نواصينا بيدك خاضعة لعظم نعمك معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشيء منها لا تحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطيق التعبير بالشكر لك ، فتجاوز عنا واغفر لنا واسبل ذيول سترك على عوراتنا فإنك ان لا تفعل ذلك نهلك بمجرد التقصير في شكر نعمك فكيف بما قد فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك والانتهاء عن مناهيك ، وما احسن ما قال من قال :

العفو يرجى من بني آدم فكيف لا يرجى من الرب

وما احسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على انسان مشيراً الى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال ﴿ان الله لغفور رحيم﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه والقصور عن احصائها والعجز عن القيام بأدناها . ومن رحمته ادامتها عليكم وادرارها في كل لحظة وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها اللهم اني اشكرك عدد ما شكرك وسيشكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان ، فلقد خصصتني بنعم لم أرها على كثير من خلقك من انسان وحيوان وان رأيت منها شيئاً على بعض خلقك لم أر عليه بقيتها فأني أطيق شكرك وكيف استطيع تأدية أدنى شكر أدناها فكيف استطيع أعلاها ، فكيف استطيع شكر نوع من أنواعها .

ثم بيّن لعباده انه عالم بجميع ما يصدر منهم لا يخفى عليه خافية فقال ﴿والله يعلم ما تسرون﴾ أي ما تضمرونه من العقائد والأعمال ﴿وما تعلنون﴾

أي وما تظهرونه منها ، وحذف العائد لمراعاة الفواصل ، أي يستوي بالنسبة الى علمه المحيط سركم وعلنكم، وفيه وعيد وتعريض وتوبيخ وتنبيه على أن الإلـه يجب أن يكون عـالـمـاً بالسر والعلانية لا كالأصنام التي تعبدونها فـإنها جمادات لا شعور لها بشيء من الظواهر فضلاً عن الضمائر والسرائر فكيف تعبدونها ، وقراءة التحتية شاذة فيهما كما نبه عليه السمين .

ثم شرع سبحانه في تحقيق كون الأصنام التي أشار اليها بقوله كمن لا يخلق عاجزة عن أن يصدر منها خلق شيء فلا تستحق عبادة فقال ﴿والذين يدعون﴾ بالياء والتاء سبعيتان ، أي الآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿من دون الله﴾ سبحانه صفتهم هذه الصفات الثلاثة المذكورة المنافية للألوهية ، وهي أنهم ﴿لا يخلقون شيئاً﴾ من المخلوقات أصلاً لا كبيراً ولا صغيراً ولا جليلاً ولا حقيراً .

﴿وهم يُخلقون﴾ أي وصفهم أنهم يخلقون فكيف يتمكن المخلوق من أن يخلق غيره ؛ ففي هذه الآية زيادة بيان لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال بخلاف قوله ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال .

ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم فقال ﴿أموات﴾ يعني أن هذه الأصنام اجسادها جمادات ميتة لا حياة بها أصلاً ، فزيادة قوله ﴿غير أحياء﴾ لبيان انها ليست كبعض الأجساد التي تموت بعد ثبوت الحياة لها بل لا حياة لهذه أصلاً فكيف يعبدونها وهم أفضل منها لأنهم أحياء ﴿وما يشعرون﴾ أي الآلهة ﴿أيان يبعثون﴾ أي الكفار الذين يعبدون الأصنام ؛ والمعنى ما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة التهكم لهم لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة فضلاً عن الأمور التي لا يعلمها إلا الله سبحانه .

وقيل معناه ما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث ومتى يبعثها الله ، وبه بدأ القاضي تبعاً للكشاف ، ويؤيد ذلك ما روي أن الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحاً معها شياطينها فيؤمر بكلها الى النار ، ويدل على هذا قوله ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ .

وقيل قد تم الكلام عند قوله ﴿وهم يخلقون﴾ ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ، فيكون الضميران على هذا للكفار وعلى القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جرياً على اعتقاد من يعبدها بأنها تعقل ، وأيان بفتح الهمزة وكسرها لغتان .

وفي الآية قول آخر وهو أن أيان ظرف لقوله ﴿إلهكم إله واحد﴾ يعني أن الإله يوم القيامة واحد ولم يدع أحد تعدد الآلهة في ذلك اليوم بخلاف أيام الدنيا فإنه قد وجد فيها من ادعى ذلك ، وعلى هذا فقد تم الكلام على قوله يشعرون ، إلا أن هذا القول مخرج لأيان عن موضوعها ، وهو إما الشرط وإما الاستفهام الى محض الظرفية بمعنى وقت مضاف للجملة بعده ، والظاهر تفسيره بمتى يبعثون كما في الكشاف وغيره .

ولما زيف سبحانه طريقة عبدة الأصنام صرح بما هو الحق في نفس الأمر وهو وحدانيته سبحانه وهو نتيجة ما قبله ، ثم ذكر ما لأجله أصر الكفار على شركهم فقال ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ جاحدة للوحدانية لا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير ﴿وهم مستكبرون﴾ عن قبول الحق متعظمون عن الاذعان للصواب مستمرون على الجحد .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿لا جرم﴾ قال الخليل : هي كلمة تحقيق ولا يكون إلا جواباً أي حقاً ، قلت لا نافية وجرم بمعنى بد ، وهذا بحسب الأصل ، واما الآن فقد ركبت لا مع جرم تركيب خمسة عشر وجعلا بمعنى كلمة واحدة ، وتلك الكلمة مصدر أو فعل معناه حق وثبت .

وقوله ﴿إن الله﴾ فاعل لا جرم وقد مر تحقيق الكلام في لا جرم بأبسط من هذا قال أبو مالك لاجرم ، يعني الحق ، وقال الضحاك لا كذب ﴿يعلم ما يسرون﴾ من أقوالهم وأفعالهم ﴿وما يعلنون﴾ من ذلك ﴿انه لا يحب المستكبرين﴾ أي لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لأنبيائه ، والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدم .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، فقال رجل يارسول الله الرجل يحب ان يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ؛ فقال : ان الله جميل يحب الجمال ؛ الكبر من بطر الحق وغمطُ الناس »[1] .

---

(١) مسلم ٩١ .

وفي ذم الكبر ومدح التواضع أحاديث كثيرة ، وكذلك في إخراج محبة حسن الثوب وحسن النعل ونحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة ، فقد روي عن الحسين بن علي أنه مرّ بمساكين قد قدموا كسراً لهم وهم يأكلون فقالوا الغذاء يا أبا عبدالله فنزل وجلس معهم وقال إنه لا يحب المستكبرين ثم أكل فلما فرغوا قال : قد اجبتكم فأجيبوني فقاموا معه الى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم فانصرفوا .

قال العلماء ؛ كل ذنب يمكن ستره واخفاؤه إلا التكبر فإنه فسق يلزمه الاعلان وهو أصل العصيان كله ، وفي الحديث الصحيح « أن المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة تطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم »[1] أو كما قال صلى الله عليه وسلم « تصغر لهم أجسامهم في المحشر حين يضرهم تصغيرها وتعظم لهم في النار حين يضرهم عظمها » ذكره القرطبي .

والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيَّن ماهية الكبر أنه بطر الحق وغمط الناس ، فهذا هو الكبر المذموم ، وقد ساق صاحب الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية أحاديث كثيرة ليس هذا مقام ايرادها ، بل المقام مقام ذكر ما له علاقة بتفسير الكتاب العزيز . ثم شرع في ذكر شيء من قبائح المشركين فقال ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي واذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل ﴿ماذا﴾ أي أيُّ شيء أو ما الذي ﴿أنزل ربكم﴾ قيل القائل النضر بن الحرث وكانت عنده كتب التواريخ ويزعم أن حديثه أجمل وأتم مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، والآية نزلت فيه فيكون هذا القول منه على طريق التهكم .

وقيل القائل هو من يفد عليهم او بعضهم لبعض ، وقيل القائل

(١) الترمذي كتاب القيامة باب ٤٧ ـ الإمام أحمد ٢/١٧٩ .

المسلمون . فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ بالرفع أي ما تدعون ايها المسلمون أساطير الأوائل وأحاديثهم وأباطيلهم ، أو أن المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا المنزل عليكم أساطيرهم، وعلى هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح ان يكون جواباً من المشركين وإلا لكان المعنى الذي أنزله ربنا أساطير الأولين والكفار لا يقرون بالانزال، ووجه عدم وروده هو ما ذكرناه .

وقيل هو كلام مستأنف أي ليس ما تدعون انزاله ايها المسلمون منزلاً بل هو أساطير الأولين ، والأساطير الأباطيل والترهات التي يتحدث الناس بها عن القرون الأولى وليس من كلام الله في شيء ولا مما أنزله أصلاً في زعمهم ، وهي جمع أسطورة كأحاديث وأضاحيك وأعاجيب جمع أحدوثة وأضحوكة وأعجوبة .

﴿ليحملوا﴾ أي قالوا هذه المقالة لكي يحملوا ﴿أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾ لم يكفر منها شيء لعدم اسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب ، وقيل ان اللام هي لام العاقبة لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل أن يحملوا الأوزار ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعلل به كقوله ليكون لهم عدواً وحزناً ، وقيل هي لام الأمر .

قال الرازي في الآية : وهذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً في حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة.

﴿ومن أوزار الذين يضلونهم﴾ أي ويحملون بعض أوزار الذين أضلوهم لأن « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها »[1] كما ورد في

---

(١) مسلم ١٠١٧ .

الحديث وقيل من للجنس لا للتبعيض أي يحملون كل أوزار الذين يضلونهم قاله الواحدي .

﴿بغير علم﴾ حال من الفاعل والمعنى أن الرؤساء يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم اليه ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام ، وقيل إنه حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال قاله الزمخشري وعليه جرى القاضي وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم إذ كان عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين الحق والباطل ولا يقنعوا بالتقليد البحت العمى .

ورجح الأول بأنه من المحدث عنه والمسند اليه الاضلال على جهة الفاعلية والمعنى أنهم يقدمون على الاضلال جهلاً منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد في مقابلته ومثل هذه الآية قوله ﴿وليحملن اثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ وقوله ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ .

وقد تقدم في الأنعام الكلام على قوله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فمعناه وزراً لا مدخل لها فيه ولا تعلق له بها بتسبب ولا غيره ، قال ابن عباس : يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم ، وعن مجاهد نحوه وزاد لا يخفف ذلك عمن أطاعكم من العذاب شيئاً .

﴿ألا ساء ما يزرون﴾ أي بئس شيئاً يزرونه ويحملونه ،وفي ذلك وعيد وتهديد لهم ، ثم حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدمين فقال :

﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ ذهب أكثر المفسرين الى ان المراد به نمروذ ابن كنعان حيث بنى بناء عظيماً ببابل طوله في السماء خمسة آلاف ذراع ؛ وقيل فرسخان ورام الصعود الى السماء ليقاتل أهلها فأهب الله الريح فخرَّ ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا ، وكان أعظم أهل الأرض تجبراً في زمن ابراهيم

عليه السلام ونمروذ بضم النون والذال المعجمة وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة .

والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين الماكرين الذين يحاولون إلحاق الضر بالمحقين المؤمنين ، ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا يطابق الحق ، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له صلى الله عليه وسلم بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم .

﴿فأتى الله﴾ أي أتى أمر الله وهو الريح التي أخربت ﴿بنيانهم﴾ قال المفسرون أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر وخر عليهم الباقي بالزلزلة من أسفله فأهلكهم وهم تحته ﴿من القواعد﴾ .

قال الزجاج : أي من الأساطين ، وقيل من أصوله وأساسه بكسر الهمزة جمع أس وأما بالفتح فجمعه أسس بضمتين قيل لما سقط تبلبلت ألسن الناس بالفزع فتكلموا يومئذ بثلاث وسبعين لساناً فلذلك سميت بابل .

وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية هكذا ذكره البغوي وفي هذا نظر لأن صالحاً كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية ، وكان أهل اليمن عرباً منهم جرهم الذي نشأ اسماعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان قبائل من العرب قديمة قبل ابراهيم كل هؤلاء عرب ، والمعنى أنه أتاها أمر الله من جهة قواعدها فزعزعها .

﴿فخرَّ عليهم السقف﴾ بفتح السين وضمها مع سكون القاف وبضمها وضم القاف أي أنه سقط عليهم السقف لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها قال ابن الأعرابي وانما قال ﴿من فوقهم﴾ ليعلمك انهم كانوا حالين تحته والعرب تقول خر علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان

يملكه وان لم يكن وقع عليه فجاء بقوله ﴿من فوقهم﴾ ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب فقال من فوقهم أي عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما افلتوا وقيل هو للتأكيد لأن السقف لا يخر إلا من فوق ، وقيل ان المراد بالسقف السماء أي أتاهم العذاب من السماء التي فوقهم .

وقد اختلف في هؤلاء الذين خرَّ عليهم السقف فقيل هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ، قاله ابن عباس ، وعن مجاهد نحوه ، وقيل انه بختنصر وأصحابه ، وقيل هم المقتسمون الذين تقدم ذكرهم في سورة الحجر .

وقيل المعنى على العموم يعني انهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنياناً وثيقاً شديداً ودعموه بالأساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم ، فهو مثل ضربه لمن مكر بآخر فاهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على ألسنة الناس من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه ، وهذا ما اختاره القاضي كالكشاف ، والأول أولى ، ومع ذلك العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، قال قتادة : أتاها أمر الله من أصلها فخرَّ عليهم السقف من فوقهم والسقف أعالي البيوت فائتفكت بهم بيوتهم فأهلكهم الله ودمرهم .

﴿وأتاهم العذاب﴾ أي الهلاك ﴿من حيث لا يشعرون﴾ به بل من حيث أنهم في أمان لا يخطر العذاب ببالهم .

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

ثم بيَّن سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا فقال ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي الكفار بإدخالهم النار ويفضحهم بذلك ويذلهم ويهينهم عطف على مقدر ، أي هذا عذابهم في الدنيا ثم يوم القيامة يخزيهم ﴿ويقول﴾ الله لهم مع ذلك توبيخاً وتقريعاً ﴿أين شركائي﴾ كما تزعمون وتدعون .

ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله ﴿الذين كنتم تشاقون﴾ قرأ نافع بكسر النون على الاضافة والباقون بفتحها أي تخاصمون الأنبياء والمؤمنين ﴿فيهم﴾ والمعنى على قراءة الكسر تخاصمونني وتعادونني وتخالفونني ، وقد ضعف أبو حاتم هذه القراءة والمشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شق غير شق صاحبه والمعنى ما لهم لا يحضرون معكم ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم .

﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ وهم في الموقف قيل هم العلماء قالوا لأممهم الذين كانوا يعظونهم ولا يلتفتون الى وعظهم وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة وقيل هم الأنبياء ، وقيل الملائكة والظاهر الأول لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف وهو كونهم أنبياء او كونهم ملائكة ولا يقدح في هذا جواز الاطلاق لان المراد الاستدلال على الظهور فقط .

﴿ان الخزي اليوم﴾ أي الذل والهوان والفضيحة يوم القيامة ﴿والسوء﴾ أي العذاب ﴿على الكافرين﴾ مختص بهم يقولونه شماتة بهم .

﴿الذين تتوفاهم﴾ بالتاء والياء وهما سبعيتان لكنه مع الياء يقرأ بالامالة في الموضعين والتذكير على ان الملائكة ذكور والتأنيث لأن لفظ الجمع مؤنث ﴿الملائكة﴾ وهم ملك الموت عزرائيل وأعوانه ﴿ظالمي أنفسهم﴾ بالكفر وقد تقدم تفسيره .

﴿فألقوا السلم﴾ أي أقروا بالربوبية وانقادوا عند الموت ومعناه الاستسلام قاله قطرب ، وقيل معناه المسالمة أي سالموا وتركوا المشاقة قاله الأخفش ، وقيل معناه الاسلام أي أقروا بالإسلام وتركوا ما كانوا فيه من الكفر ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ تفسير للسَّلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه .

ويجوز أن يكون المراد بالسوء هنا الشرك ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب أو من شدة الخوف ومن لم يجوّز الكذب على أهل القيامة حمله على أنهم أرادوا أنهم لم يعملوا سوءاً في اعتقادهم وعلى حسب ظنونهم ، ومثله قوله ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ .

فلما قالوا هذا أجاب عليهم أهل العلم بقولهم ﴿بلى﴾ كنتم تعملون السوء ﴿ان الله عليم بما﴾ أي بالذي ﴿كنتم تعملون﴾ فيجازيكم عليه ولا ينفعكم هذا الكذب شيئاً . وقال عكرمة عنى بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر .

﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ يقال لهم ذلك عند الموت وقد تقدم ذكر الأبواب وإن جهنم درجات بعضها فوق بعض ، أي ليدخل كل صنف الى الطبقة التي هو موعود بها ، وإنما قيل لهم ذلك لأنه أعظم في الخزي والغم ، وفيه دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذاباً من بعض .

﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة لأن خلودهم مستقبل ﴿فلبئس مثوى

المتكبرين﴾ هي فالمخصوص بالذم محذوف ، والمراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الايمان والعبادة كما في قوله : إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إلـه إلا الله يستكبرون .

ثم اتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء فقال ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ وهم المؤمنون ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي أنزل خيراً ، ورفع الأول ونصب هذا فرقاً بين جواب المقر وجواب الجاحد ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ قيل هذا من كلام الله عز وجل ، وقيل هو حكاية لكلام الذين اتقوا فيكون هذا بدلاً من خير . قاله الزمخشري . وعلى الأول يكون كلاماً مستأنفاً مسوقاً لمدح المتقين .

والمعنى للذين أحسنوا أعمالهم بالايمان في الدنيا مثوبة حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيـرة. وقال قتادة : أحسنوا أي آمنوا بالله وكتبه ورسله ، وأمروا بطاعة الله وحثوا عباد الله على الخير ودعوهم اليه .

قال الضحاك : هي النصر والفتح ، وقال مجاهد : هي الرزق الحسن . وقيل الحياة الطيبة وهي استحقاق المدح والثناء او فتح أبواب المشاهـدات والمكاشفات . قاله الكرخي .

﴿ولدار الآخرة﴾ أي مثوبتها وهي الجنة ﴿خير﴾ مما أوتوا في الـدنيا ﴿ولنعم دار المتقين﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه ﴿جنات عدن﴾ أي بساتين اقامة من عدن بالمكان إذا أقام به . قيل يجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح فيجيء فيها ثلاثة أوجه : رفعها بالابتداء والجملة المتقدمة خبرها ، أو رفعها خبراً لمبتدأ مضمر أو رفعها بالابتداء والخبر محذوف وهو أضعفها ، ويجوز أن يكون جنات عدن خبر مبتدأ مضمر لا على ما تقدم بـل يكون المخصـوص محذوفـاً تقديـره ولنعم دارهم هي جنـات ، وقـدره الزمخشري ولنعم دار المتقين دار الآخرة ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر الجملة من قوله يدخلونها ، ويجوز أن يكون الخبر مضمراً تقديره لهم جنات دل عليه قوله للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة . قاله السمين .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

﴿يدخلونها﴾ أي تلك الجنات ولا يرحلون عنها ولا يخرجون منها ﴿تجري من تحتها﴾ أي من تحت دور أهلها وقصورهم ومساكنهم ﴿الأنهار لهم فيها﴾ أي في الجنات ﴿ما يشاءون﴾ أي ما يقع عليه مشيئتهم صفواً عفواً يحصل لهم بمجرد ذلك ، وهذه الحالة لا تحصل إلا في الجنة ، وذلك يدل على أن الانسان لا يجد كل ما يريد في الدنيا .

﴿كذلك﴾ أي الأمر كذلك أو مثل ذلك الجزاء ﴿يجزي الله المتقين﴾ المراد بهم كل من يتقي الشرك وما يوجب النار من المعاصي ﴿الذين تتوفاهم﴾ أي تقبض أرواحهم ﴿الملائكة طيبين﴾ حال من المفعول أو الفاعل مقارنة أو مقدرة ، وفيه أقوال ، أي طاهرين من شوائب الشرك والكفر والنفاق ، أو صالحين ، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم ، أو من ظلم أنفسهم بالمعاصي . قاله البيضاوي . أو طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله ، أو طيبة نفوسهم بالرجوع الى الله ، أو طيبين الوفاة أي هي عليهم سهلة لا صعوبة فيها .

وقال مجاهد : طيبين أحياء وأمواتاً قدر الله لهم ذلك ، أو فرحين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى حضرة القدس وقيل طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن حملاً لها على العموم فدخل فيه جميع ما ذكر .

﴿يقولون﴾ أي قائلين لهم يعني الملائكة حال مقارنة ان كان القول واقعاً منهم في الدنيا أو مقدرة إن كان واقعاً في الآخرة .

﴿سلام عليكم﴾ معناه يحتمل وجهين :

**أحدهما** : أن يكون السلام انذاراً لهم بالوفاة .

**الثاني** : أن يكون تبشيراً لهم بالجنة لأن السلام أمان ، وفي الكرخي يقولون لهم عند الموت سلام عليكم أي لا يلحقكم بعد مكروه ، فهي حال مقارنة .

واستشهد له في الدر المنثور بما أخرجه مالك وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن محمد بن كعب القرظي قال : إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك ياولي الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة ونحوه في الكشاف وقال أبو حيان : الظاهر أن السلام إنما هو في الآخرة ، ولذلك جاء بعده ادخلوا الجنة فهو من قول خزنة الجنة ، وعليه فهي حال مقدرة .

﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي بسبب عملكم ، قيل يحتمل هذا وجهين الأول : يكون تبشيراً بدخول الجنة عند الموت ، والثاني : أن يكون ذلك لهم في الآخرة . ولاينافي هذا دخول الجنة بالتفضل كما في الحديث الصحيح « سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قيل ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[1] وقد قدمنا البحث عن هذا .

---

(١) مسلم ٢٨١٨ ومن لفظ اعملوا وفي آخر أبشروا بدل اعملوا ـ البخاري ٢٤٢٧ .

﴿هل ينظرون﴾ هذا جواب شبهة أخرى لمنكري النبوة فإنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال : هل ينظرون في تصديق نبوتك ﴿إلا أن تأتيهم﴾ بالتاء والياء سبعيتان ﴿الملائكة﴾ شاهدين بذلك .

ويحتمل أن يقال أنهم لما طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأولين أوعدهم الله بقوله : هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي عذابه في الدنيا المستأصل لهم ، أو المراد بأمر الله القيامة ، والمراد بكونهم ينظرون أنهم ينتظرون إتيان الملائكة أو إتيان أمر الله على التفسير الآخر انهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب وصار منتظراً له .

وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا يصدقونه قيل أو مانعه خلو فإن كُلًّا من الموت والعذاب يأتيهم ، وإن اختلف الوقت . وإنما عبر بأو دون الواو اشارة الى كفاية كل واحد من الأمرين في تعذيبهم كما افاده أبو السعود .

﴿كذلك﴾ أي مثل فعل هؤلاء من الاصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء ﴿فعل الذين من قبلهم﴾ من طوائف الكفار فأتاهم أمر الله فهلكوا ﴿وما ظلمهم الله﴾ بتدميرهم بالعذاب فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بما ارتكبوه من القبائح وفيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما يؤول اليه ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ أي أجزِيَة أعمالهم السيئة أو جزاء سيئآت أعمالهم معطوف على فعل الذين من قبلهم وما بينهم اعتراض ﴿وحاق﴾ أي نزل ﴿بهم﴾ على وجه الإحاطة والحيق لا يستعمل إلا في الشر ، قاله البيضاوي فلا يقال حاقت به النعمة بل النقمة . قاله الشهاب ﴿ما﴾ أي العذاب الذي ﴿كانوا به يستهزئون﴾ أو عقاب استهزائهم .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وقال الذين أشركوا﴾ هذا نوع آخر من كفرهم الذي حكاه الله تعالى عنهم والمراد بالذين أشركوا هنا أهل مكة ﴿لو شاء الله﴾ عدم عبادتنا لشيء غيره ﴿ما عبدنا من دونه من شيء﴾ أي لحصل ذلك ، جئت أو لم تجيء ، ولو شاء منا الكفر لحصل جئت أو لم تجيء ، واذا كان كذلك فالكل من عند الله فلا فائدة في بعثة الرسل الى الامم ، ومن الأولى بيانية والثانية زائدة لتأكيد الاستغراق .

﴿نحن﴾ تأكيد لضمير عبدنا لا لتصحيح العطف لوجود الفواصل وان كان محسناً له ﴿ولا آباؤنا﴾ الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من الكفر والشرك بالله .

قال الزجاج : انهم قالوا هذا على وجه الاستهزاء ، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين انتهى . وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة الأنعام .

﴿ولا حرّمنا من دونه من شيء﴾ من السوائب والوصائل والبحائر ونحوها ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة الطعن في الرسالة ، أي لو كان ما قاله الرسول حقاً من المنع من عبادة غير الله والمنع من تحريم ما لم يحرمه الله حاكياً ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما أراده منا فأنه قد شاء الله ذلك وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ؛ فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه ،

كان ذلك دليلاً على أن ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته ، مع أنهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرون به ، لكنهم قصدوا ما ذكرنا من الطعن على الرسل ، والظاهر أن من الأولى والثانية ههنا زائدتان ، أي ولا حرمنا شيئاً حال كوننا دونه أي دون الله ، أي مستقلين بتحريمه . قاله الحفناوي .

﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ من طوائف الكفر فإنهم أشركوا بالله وحرموا ما لم يحرمه وجادلوا رسلهم بالباطل واستهزؤوا بهم ثم قال ﴿فهل على الرسل﴾ الذين يرسلهم الله الى عباده بما شرعه لهم من الشرائع التي رأسها توحيده وترك الشرك به ﴿إلا البلاغ المبين﴾ الى من أرسلوا اليهم ، بما أمروا بتبليغه بلاغاً واضحاً يفهمه المرسل اليهم ولا يلتبس عليهم والبلاغ مصدر بمعنى الابلاغ ثم إنه سبحانه أكد هذا وزاده ايضاحاً فقال :

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾ كما بعثنا في هؤلاء لإقامة الحجة عليهم وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً وأن في قوله ﴿أن اعبدوا الله﴾ إما مصدرية أي بعثنا بأن اعبدوا الله وحده أو مفسرة لأن في البعث معنى القول والوجهان حكاهما السمين وغيره .

﴿واجتنبوا الطاغوت﴾ أي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا الى الضلال وهو من الطغيان يذكر ويؤنث ، ويقع على الواحد كقوله يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به وعلى الجمع كقوله تعالى أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم ، والجمع طواغيت والتقدير واجتنبوا عبادتها فالكلام على حذف المضاف .

﴿فمنهم﴾ أي فمن هذه الأمم التي بعث الله اليها برسله ﴿من هدى الله﴾ أي أرشده الى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت فآمن ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ أي وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الأزل لاصراره على الكفر والعناد فلم يؤمن .

قال الزجاج : إعلم أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة وهو من وراء

الضلال والهداية ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ .

وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته واجتناب الشيطان وكل ما يدعو الى الضلال ، وأنهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى ومنهم من حقت عليه الضلالة فكان في ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة ارادته فإنه يأمر الكل بالإيمان ، ولا يريد الهداية إلا البعض إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد ، وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا .

﴿فسيروا في الأرض﴾ سير المعتبرين المتفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك وفي الفاء اشعار بوجوب المبادرة الى النظر والاستدلال ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ رسلهم من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد وثمود أي كيف ما آخر أمرهم الى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب .

ثم خصص الخطاب برسوله صلى الله عليه وآله وسلم مؤكداً لما تقدم فقال ﴿إن تحرص﴾ يا محمد ﴿على هداهم﴾ أي تطلب بجهدك ذلك وقد أضلهم الله لا تقدر على ذلك ، وفي المصباح حرص عليه حرصاً من باب ضرب إذا اجتهد والاسم الحرص بالكسر وحرص على الدنيا وحرص حرصاً من باب تعب لغة اذا رغب رغبة مذمومة .

وفي السمين قراءة العامة إن تحرص بكسر الراء مضارع حرص بفتحها وهي اللغة العالية لغة الحجاز وقرىء بكسر الراء مضارع حرص بكسرها وهي لغة لبعضهم .

﴿فإن الله﴾ تعليل للجواب ﴿لا يهدي من يضل﴾ قرىء يهدي بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند الى الله سبحانه أي فإن الله لا يرشد من أضله وقرىء بضم حرف المضارعة على أنه مبني للمجهول على أنه لا يهديه هاد كائناً من كان وهما سبعيتان ، فهذه الآية كقوله في الآية الأخرى

﴿من يُضلل الله فلا هادي له﴾ وقال الفراء: على القراءة الأولى معنى لا يهدي لا يهتدي كقوله تعالى ﴿أم من لا يهدى إلا أن يهدى﴾ بمعنى يهتدي.

قال النحاس: حكى عن المبرد معنى لا يهدي من يضل من علم ذلك منه وسبق له عنده ﴿ومالهم من ناصرين﴾ ينصرونهم على الهداية لمن أضله الله أو ينصرونهم بدفع العذاب عنهم ومن زائدة.

ثم ذكر عناد قريش وانكارهم للبعث فقال ﴿وأقسموا بالله﴾ أي حلفوا وسمى الحلف قسماً لأنه يكون عند انقسام الناس الى مصدق ومكذب.

﴿جهد أيمانهم﴾ أي جاهدين غاية اجتهادهم فيها وذلك أنهم كانوا يقسمون بآبائهم وآلهتهم فاذا كان الأمر عظيماً اقسموا بالله، والجهد بفتح الجيم المشقة وبضمها الطاقة وانتصابه على المصدرية وظاهره أنه استئناف إخبار وجعله الزمخشري نسقاً على وقال الذين أشركوا.

﴿لا يبعث الله من يموت﴾ من عباده زعموا أن الله سبحانه عاجز عن بعث الأموات، عن أبي العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان مما يتكلم به والذي أرجوه بعد الموت أنه لكذا وكذا فقال له المشرك إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فأنزل الله سبحانه هذه الآية، وعن عليّ قال نزلت فيَّ.

﴿بلى وعداً عليه حقاً﴾ هذا اثبات لما بعد النفي أي بلى يبعثهم ووعداً مصدر مؤكد لما دل عليه بلى وهو يبعثهم لأن البعث وعد من الله والتقدير وعد البعث وعداً عليه وحقه حقاً لا خلف فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ إن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير إما لعدم علمهم بأنه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناع البعث.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ليبين﴾ أي ليظهر ﴿لهم﴾ وهو غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير في لهم راجع الى من يموت ﴿الذي يختلفون فيه﴾ أي الأمر الذي وقع الخلاف بينهم فيه وبيانه إذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل ونزلت عليهم فيه كتب الله ، وقيل ليبين متعلق بقوله ولقد بعثنا ﴿وليعلم الذين كفروا﴾ بالله سبحانه وانكروا البعث ﴿أنهم كانوا كاذبين﴾ في جدالهم وانكارهم البعث بقولهم لا يبعث الله من يموت .

﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه ان نقول له كن فيكون﴾ جملة مستأنفة لبيان كيفية الابداء والاعادة مسوقة لهذا المقصد بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه ، قال الزجاج : أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشيء كان وهذا كقوله ﴿فإذا قضى أمراً يقول له كن فيكون﴾ قال ابن الأنباري : أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق لأنه بمنزلة ما قد وجد وشوهد ، قال الزجاج : إن معنى لشيء لأجل شيء فجعل اللام سببية وليس بواضح .

وقيل هي لام التبليغ ، قاله أبو السعود أي أيٍّ شيء كان مما عز وهان كما في قولك قلت له قم فقام ، وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى أنه لا

يمتنع عليه شيء وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمور به عند أمر الأمير المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، وليس هناك قول ولا مقول له، ولا أمر ولا مأمور، ولا كاف ولا نون حتى يقال إنه يلزم منه أحد محالين إما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل.

قلت : هكذا قال أكثر المفسرين وهو يخالف ظاهر النظم القرآني والحق ما دلت عليه الآية من القول وهو على حقيقته وانه جرت العادة الإلّهية وقد مضى تفسير ذلك في سورة البقرة مستوفى ، وفي الآية الكريمة من الفخامة والجزالة ما يحار فيه العقول والألباب .

﴿والذين هاجروا﴾ قد تقدم معنى الهجرة في سورة النساء وهي ترك الأهل والأوطان أي انتقلوا من مكة الى المدينة لإقامة دين الله تعالى ومعنى ﴿في الله﴾ في شأن الله سبحانه وفي رضاه ، وقيل في دين الله ، وقيل في بمعنى لام التعليل أي الله ﴿من بعد ما ظُلموا﴾ أي عُذبوا وأهينوا ، وقد اختلف في سبب نزول الآية فقيل نزلت في صهيب وبلال وخباب وعمار واعترض بأن السورة مكيّة وذلك يخالف قوله ﴿والذين هاجروا﴾ وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية في هذه السورة كما قدمنا في عنوانها .

وقيل نزلت في أبي جندل بن سهيل ، وقيل نزلت في أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما ظلمهم المشركون بمكة واخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ثم بوّأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم انصاراً من المؤمنين .

﴿لنبوّأنهم في الدنيا حسنة﴾ قيل المراد نزولهم المدينة قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة ، وقيل المراد الرزق الحسن قاله مجاهد ، وقيل النصر على عدوّهم ، قاله الضحاك ، وقيل ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات ، وقيل ما بقي لهم فيها من الثناء وصار لأولادهم من الشرف ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور والمعنى لنبوّأنهم مباءة

حسنة أو تبوئة حسنة فحسنة صفة مصدر محذوف .

﴿ولأجر الآخرة﴾ أي جزاء أعمالهم الكائن في الآخرة وهو النعيم الكائن في الجنة التي هي المراد بالآخرة ﴿أكبر﴾ وأعظم من ان يعلمه أحد من خلق الله قبل ان يشاهده ومنه قوله تعالى وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴿لو كانوا﴾ أي هؤلاء الظلمة ﴿يعلمون﴾ ذلك ، وقيل ان الضمير راجع الى المؤمنين المهاجرين أي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا وهو اسكانهم المدينة .

﴿الذين صبروا﴾ على أذى المشركين أو على مفارقة الوطن والهجرة أو على الجهاد وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله واللفظ أعم من ذلك ﴿وعلى ربهم﴾ وحده خاصة ﴿يتوكلون﴾ في جميع أمورهم معرضين عما سواه والصبر مبدأ السلوك الى الله تعالى والتوكل هو آخر الطريق ومنتهاه والظاهر والله أعلم أن المعنى على المضيّ والتعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة توكلهم البديعة ، وفيه ترغيب لغيرهم في طاعة الله عز وجل وجواب الموصول محذوف أي فيرزقهم من حيث لا يحتسبون .

﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ رد على قريش حيث زعموا أن الله سبحانه أجل من أن يرسل رسولاً من البشر فرد الله عليهم بأن هذه عادته وسنته أن لا يرسل ﴿إلا رجالاً﴾ من البشر ﴿نوحي اليهم﴾ وزعم أبو عليّ الجبائي ان معنى الآية أن الله سبحانه لم يرسل الى الأنبياء بوحيه إلا من هو على صورة الرجال من الملائكة ويرد عليه أن جبريل كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على صور مختلفة .

ولما كان كفار مكة مقرّين بأن اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله في التوراة والانجيل صرف الخطاب اليهم وأمرهم أن يرجعوا الى أهل الكتاب فقال ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ أي فاسألوا أيها المشركون إن شككتم فيما ذكر مؤمني أهل الكتاب فإنهم سيخبرونكم بأن جميع الأنبياء كانوا بشراً أو اسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده

الظاهر فإنهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه ، وقيل المعنى فاسألوا أهل القرآن .

عن سعيد بن جبير قال : نزلت في عبدالله بن سلام ونفر من أهل التوراة ، وقد استدل مجوزو التقليد بهذه الآية وقالوا أمر سبحانه من لا علم له أن يسأل من له علم والجواب أن هذه الآية الشريفة واردة في سؤال خاص خارج عن محل النزاع كما يفيده السياق المذكور قبل هذا اللفظ الذي استدلوا به وبعده ، وبه قال ابن جرير والبغوي وأكثر المفسرين ، واستوفاه السيوطي في الدر المنثور ، وهذا هو المعنى الذي يفيده السياق والسباق .

وعلى فرض أن المراد السؤال العام فالمأمور بسؤالهم هم أهل الذكر ، والذكر هو كتاب الله وسنة رسوله لا غيرهما ، ولا أظن مخالفاً يخالف في هذا لأن هذه الشريعة المطهرة هي إما من الله عز وجل وذلك هو القرآن الكريم أو من رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك هو السنة المطهرة ولا ثالث لذلك .

وإذا كان المأمور بسؤالهم هم أهل القرآن والحديث فالآية الكريمة حجة على المقلدة لا لهم ، لأن المراد أنهم يسألون أهل الذكر فيخبرونهم به ، فالجواب من المسؤولين أن يقولوا قال الله كذا وقال رسوله صلى الله عليه وسلم كذا فيعمل السائلون بذلك ، وهذا هو غير ما يريده المقلد المستدل بها فإنه إنما استدل بها على جواز ما هو فيه من الأخذ بأقوال الرجال من دون سؤال عن الدليل فإن هذا هو التقليد ولهذا رسموه بأنه قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة .

فحاصل التقليد أن المقلد لا يسأل عن كتاب الله ولا عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل يسأل عن مذهب إمامه فقط فإذا جاوز ذلك الى السؤال عن الكتاب والسنة فليس بمقلد ، وهذا يسلمه كل مقلد ولا ينكره .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

وإذا تقرر أن المقلد إذا سأل أهل الذكر عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن مقلداً علمت أن هذه الآية الشريفة على تسليم ان السؤال ليس عن الشيء الخاص الذي يدل عليه السياق ، بل عن كل شيء من الشريعة كما يزعمه المقلد تدفع في وجهه وترغم أنفه وتكسر ظهره ، فإن معنى هذا السؤال الذي شرعه الله تعالى هو السؤال عن الحجة الشرعية وطلبها من العالم فيكون هو راوياً وهذا السائل مُستَروياً، والمقلد يقر على نفسه بأنه يقبل قول العالم ولا يطالبه بالحجة ، فالآية هي دليل الاتباع لا دليل التقليد .

وبهذا ظهر لك ان هذه الحجة التي احتج بها المقلد هي حجة داحضة على فرض أن المراد المعنى الخاص وهي عليه لا له على فرض أن المراد المعنى العام .

﴿بالبينات والزبر﴾ فيه ستة أوجه :

**أحدها** : ما تقديره أي رجالاً متلبسين بالبينات وهو وجه حسن . ذكره الزمخشري ولا محذور فيه .

**الثاني** : ما أرسلناهم بها ذكره الحوفي والزمخشري وغيرهما وبه بدأ في الكشاف .

**الثالث** : تقديره ما أرسلنا بها إلا رجالاً حكاه ابن عطية .

**الرابع** : انه متعلق بنوحي كما تقول أوحي اليه بحق . ذكره الزمخشري وأبو البقاء .

**الخامس** : أنه منصوب بتقدير أعني والباء زائدة .

**السادس** : أنه متعلق بمحذوف كأنه قيل بم ارسلوا ، فقيل أرسلوا بهما ، كذا قدّره الزمخشري .

قال السمين : وهو أحسن من تقدير أبي البقاء يعني لموافقته للدال عليه لفظاً ومعنى ، والبينات الحجج الواضحة والبراهين الساطعة ، والزبر الكتب والصحف وقد تقدم الكلام على هذا في آل عمران .

﴿وانزلنا اليك﴾ يامحمد صلى الله عليه وسلم ﴿الذكر﴾ أي القرآن ، وسماه ذكراً لأن فيه مواعظ وتنبيها للغافلين ، ثم بيَّن الغاية المطلوبة من الانزال فقال ﴿لتبين للناس﴾ جميعاً ﴿ما نزل اليهم﴾ في هذا الذكر من الأحكام الشرعية والوعد والوعيد وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولهذا قيل متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لأن القرآن مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية ، والمبين مقدم على المجمل ، وقيل المحكم مبين والمتشابه مجمل بطلب بيانه من السنة ، فهذه الآية محمولة على ما أجمل فيه دون المحكم المبين المفسر ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ أي إرادة أن يتأملوا ويعملوا أفكارهم فيتعظوا ويعملوا به .

﴿أفأمن الذين مكروا﴾ الاستفهام للتوبيخ والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم ﴿السيئات﴾ أي المكرات السيئآت ولم يذكر الزمخشري غيره ، أو المعنى عملوا أو فعلوا السيئآت أو أمن الماكرون للعقوبات السيئات أو مكروا بالسيئآت .

قال مجاهد : يعني نمروذ بن كنعان وقومه وعن قتادة قال : مكرهم الشرك . وقال الضحاك : تكذيبهم الرسل وعملهم بالمعاصي ، أو هو سعيهم

في أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذى أصحابه على وجه الخفية واحتيالهم في إبطال الإسلام وكيد أهله في دار الندوة من تقييده او قتله أو إخراجه كما ذكر في الأنفال .

﴿أن﴾ أي أفأمنوا من أن ﴿يخسف الله بهم الإرض﴾ كما خسف بقارون وقرون من قبلهم ، يقال خسف المكان يخسف خسوفاً ذهب في الأرض وخسف الله به الأرض خسوفاً أي غاب به فيها ، ومنه قوله فخسفنا به وبداره الأرض وخسف هو في الأرض وخسف به .

﴿أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ به أي حال غفلتهم عنه ومن جهة لا تخطر ببالهم كما فعل بقوم لوط وغيرهم ؛ وقيل يريد يوم بدر فإنهم أهلكوا في ذلك اليوم ولم يكن في حسبانهم .

﴿أو يأخذهم في تقلبهم﴾ ذكر المفسرون فيه وجوهاً ، فقيل المراد في أسفارهم ومتاجرهم ، فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر ، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الأرض وبعدهم عن الأوطان ، والتقلب الحركة إقبالاً وادباراً .

وقيل المراد في حال تقلبهم في قضاء أوطارهم بوجوه الحيل فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم ، وقيل في حال تقلبهم في الليل على فرشهم ، وقيل في اختلافهم ، وقيل في حال إقبالهم وإدبارهم ، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار والتقلب بالمعنى الأول مأخوذ من قوله لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد وبالمعنى الثاني مأخوذ من قوله وقلبوا لك الأمور .

﴿فما هم بمعجزين﴾ أي بفائتين ولا ممتنعين ولا سابقين ﴿أو يأخذهم على﴾ حال ﴿تخوّف﴾ وتوقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه غير غافلين عنه فهو خلاف ما تقدم من قوله ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون .

وقال ابن الأعرابي : على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى يهلكهم كلهم . قال الواحدي قال عامة المفسرين ، معنى على تخوف على تنقص إما بقتل أو بموت يعني بنقص من أطرافهم ونواحيهم يأخذهم الأول فالأول حتى يأتي الأخذ على جميعهم قال والتخوف التنقص ، يقال هو يتخوف المال أي ينتقصه ويأخذ من أطرافه . انتهى .

يقال تخوفه الدهر وتخونه بالفاء والنون تنقصه ، قال الهيثم بن عدي : التخوف بالفاء التنقص لغة لأزد شنوءه. وقال ابن قتيبة : هذه لغة هذيل وقيل على تخوف على عجل ، قاله الليث بن سعد ، وقيل على تقريع بما قدموه من ذنوبهم ، روي ذلك عن ابن عباس ، وقيل على تخوف أن يعاقب ويتجاوز . قاله قتادة .

وعن ابن عباس على أثر موت صاحبه : وعنه أيضاً وتنقص من أعمالهم . وعن عمر أنه سألهم عن هذه الآية فقالوا : ما نرى إلا أنه عند تنقص ما يردوه من الآيات ، فقال عمر : ما أرى إلا أنه على ما يتنقصون من معاصي الله ، فخرج رجل ممن كان عند عمر فلقى أعرابياً فقال : يافلان ما فعل ربك ؟ قال قد تخيفته يعني تنقصته ، فرجع الى عمر فأخبره فقال قد رأيته ذلك .

وعبارة البيضاوي روي أن عمر قال على المنبر : ما تقولون فيها ؟ فسكتوا ، فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا التخوف التنقص ، فقال : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ فقال : نعم ، قال شاعرنا أبوبكر يصف ناقته :

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا : وما ديواننا . قال شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم أهـ .

قال الشهاب : الرحل رحل الناقة والتامك السنام المشرف والقرد هو المرتفع او المتراكم ، والنبع شجر يتخذ منه القسيّ ، والسفن هنا المبرد والقدوم يصف ناقته بأنها أثر الرحل في سنامها ، فأكله وانتقصه كما ينتقص المبرد العود . انتهى .

وعن مجاهد قال : على تخوف يأخذهم بنقص بعضهم بعضاً وقال الضحاك والكلبي : هو من الخوف يعني يهلك طائفة فيتخوف الآخرون أن يصيبهم ما أصابهم ؛ والحاصل أنه سبحانه خوفهم بخسف يحصل في الأرض أو بعذاب ينزل من السماء ، أو بآفات تحدث دفعة ، أو بآفات تحدث قليلاً قليلاً الى أن يأتي الهلاك على آخرهم .

ثم انه سبحانه ختم الآية بقوله ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ لا يعاجل بالعذاب بل يمهل رأفة بكم ورحمة لكم مع استحقاقكم للعقوبة .

ثم لما خوف سبحانه الماكرين بما خوف أتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير العالم العلوي والسفلي ومكانهما مصدراً بالاستفهام الانكاري فقال : ﴿أو لم يروا﴾ بالتحتية بإرجاع الضمير الى ماكري السيئات وقرىء بالفوقية على أنه خطاب لجميع الناس وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بإلى لأن المراد منها الاعتبار والاعتبار لا يكون إلا بنفس الرؤية التي يكون معها النظر الى الشيء ليتأمل أحواله ويتفكر فيه ويعتبر به .

﴿إلى ما خلق الله﴾ ما مبهمة مفسرة بقوله ﴿من شيء﴾ له ظل وهي الأجسام فهو عام أريد به الخاص وخرج به الملك والجن ﴿يتفيأ ظلاله﴾ أي تميل وتدور وتنتقل من جانب الى جانب وتكون أول النهار على حال وتتقلص ثم تعود في آخر النهار على حالة أخرى قال الأزهري : تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي وما انصرفت عنه الشمس والقمر ، والذي يكون بالغداة هو الظل وهو ما لم تنله .

وقال ثعلب : أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤبة قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل ، وفي السمين التفيؤ تفعل من فاء يفيء اذا رجع وفاء قاصر فإذا أريد تعديته عدًى بالهمزة كقوله ما أفاء الله على رسوله أو بالتضعيف نحو فيأ الله الظل فتفيأ وتفيأ مطاوع فيأ فهو لازم .

واختلف في الفيء فقيل هو مطلق الظل سواء كان قبل الزوال أو بعده وهو الموافق لمعنى الآية ههنا ، وقيل ما كان قبل الزوال فهو ظل فقط وما كان بعده فهو ظل وفيء فالظل أعم ، وقيل بل يختص الظل بما قبل الزوال والفيء بما بعده والظلال جمع ظل وهو مضاف الى مفرد لأنه واحد يراد به الكثرة .

﴿عن اليمين والشمائل﴾ أي عن جهة أيمانها وعن شمائلها أي عن جانبي كل واحد منها استعارة أو مجاز من اطلاق المقيد على المطلق ، قال أبو السعود : استعير لهما ذلك من يمين الانسان وشماله ، وقيل المراد باليمين يمين الفلك وهو جهة المشرق لأن الكواكب منه تظهر آخذة في الارتفاع والسطوع ومن الشمائل شماله وهي جهات المغرب المقابل له فإن الظلال في أول النهار تبتدىء من الشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض وعند الزوال تبتدىء من الغرب واقعة على الربع الشرقي منها . قال الفراء : وحد اليمين لأنه أراد واحداً من ذوات الاظلال وجمع الشمال لأنه أراد كلها لأن ما خلق الله لفظ مفرد ومعناه جمع .

وقال الواحدي : وحد اليمين والمراد به الجمع ايجازاً في اللفظ كقوله ويولون الدبر ، وبه قال الزمخشري ودلت الشمائل على أن المراد بها الجمع ، وقيل ان العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله وجعل الظلمات والنور ، وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم .

وقيل المراد باليمين النقطة التي هي مشرق الشمس وأنها واحدة

والشمائل عبارة عن الانحراف في تلك الأظلال بعد وقوعها على الارض وهي كثيرة ، قيل اذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه الى القبلة كان ظلك عن يمينك فإذا استوت الشمس في وسط السماء كان ظلك في خلفك فإذا مالت إلى الغروب كان ظلك عن يسارك .

وقال قتادة والضحاك : أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخر النهار دائماً وانما عبر عن المشرق باليمين لأن أقوى جانبي الانسان يمينه ؛ ومنه تظهر الحركة القوية والشمائل جمع شمال على غير قياس والقياس أشمل كذراع وأذرع .

﴿سجداً﴾ جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع أي حال كون الظلال ساجدة ﴿لله﴾ قال الزجاج يعني أن هذه الاشياء مجبولة على الطاعة وقال ايضاً سجود الجسم انقياده وما يرى فيه من أثر الصنعة .

قال مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله ، وقيل إن الظلال ملتصقة بالأرض كالساجد عليها فلما كانت يشبه شكلها شكل الساجدين اطلق الله عليها هذا اللفظ ﴿وهم﴾ أي والحال أن الظلال ﴿داخرون﴾ أي خاضعون صاغرون والدخور الصغار والذي يقال دخر الرجل فهو داخر وادخره الله ولما وصفها بالطاعة والانقياد لأمره وذلك صفة من يعقل عبر عنها بلفظ من يعقل .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

﴿ولله﴾ وحده لا لغيره ﴿يسجد﴾ أي يخضع وينقاد والسجود على نوعين : سجود طاعة وعبادة وسجود إنقياد وخضوع كسجود الإنسان وسجود الظلال والآية تحتمل النوعين ﴿مافي السموات﴾ جميعاً ﴿وما في الأرض من دابة﴾ أي حيوان جسماني ونسمة تدب وتتحرك على الأرض والمراد به كل دابة : قال الأخفش هو كقولك ما أتاني من رجل مثله وما أتاني من الرجال مثله .

وقد دخل في عموم ما فيهما جميع الأشياء الموجودة فيهما ، قال قتادة : لم يدع شيئاً من خلقه إلا عبده له طائعاً أو كارهاً ، وعن الحسن قال : يسجد من في السموات طوعاً ومن في الأرض طوعاً وكرهاً وإنما خص الدابة بالذكر لأنه قد علم من قوله أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء انقياد الجمادات ومن بيانية بياناً لما في الشقين او بيانا لما الثانية فقط .

﴿و﴾ عطف ﴿الملائكة﴾ على ما قبلهم عطف خاص على عام تشريفاً لهم وتعظيماً لدخولهم في المعطوف عليه ، وقيل أفرد الملائكة لأنهم أولو أجنحة يطيرون بها أو تكون في السماء خلق يدبون ﴿وهم﴾ أي والحال انهم ﴿لا يستكبرون﴾ عن عبادة ربهم ، والمراد الملائكة ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة وفي هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله ، والمعنى يسجد لله

مـا في السموات ومـا في الأرض والملائكـة وهم جميعاً لا يستكبـرون عن السجود .

﴿يخافون﴾ أي حال كونهم خائفين ﴿ربهم من فوقهم﴾ أو جملة مستأنفة لبيان نفي استكبارهم ومن آثار الخوف عدم الاستكبار أي يخافون عذاب ربهم كائناً من فوقهم أو يخافون ربهم حال كونه من فوقهم عالياً عليهم علو الرتبة والمكانة والقدرة بائناً عنهم بالاستواء على العرش ، وقيل معناه يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف أي يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم وهو تكلف لا حاجة اليه .

وإنما اقتضى مثل هذه التأويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت في الاذهان وتقررت في القلوب قيل وهذه المخافة هي مخافة الاجلال واختاره الزجاج فقال : يخافون ربهم خوف مجلين ويدل على صحة هذا المعنى قوله وهو القاهر فوق عباده وقوله اخباراً عن فرعون وإنا فوقهم قاهرون .

﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ به من طاعة الله يعني الملائكة أو جميع من تقدم ذكره وحمل هذه الجملة على الملائكة أولى لأن في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وإبليس وجنوده ، وهذه السجدة من عزائم سجود القـرآن فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها .

ولما بيَّن سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضيّة منقادة له خاضعة لجلاله أتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله ﴿وقال الله لاتتخذوا إلٓهين اثنين إنما هو إلٓه واحد﴾ فنهى سبحانه عن اتخاذ إلٓهين ثم أثبت أن الإلٓهية منحصرة في إلٓه واحد وهو الله سبحانه وقد قيل أن التثنية في الإلٓهين قد دلت على الاثنينية والإفراد في إلٓه قد دل على الوحدة فما وجه وصف إلٓهين باثنين ووصف إلٓه بواحد فقيل في

الجواب أن في الكلام تقديماً وتأخيراً والتقدير لا تتخذوا اثنين إلهين وفيه بعد .

وقال أبو البقاء : هو مفعول ثان وهذا كالغلط إذ لا معنى لذلك البتة ، وقيل ان التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك ، وقيل انه تأكيد لإلهين وعليه أكثر الناس ، وكلام الزمخشري هنا يفهم منه إنه ليس بتأكيد ، وقيل إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع الى التعدد لا الى الجنسية وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد اثبات الالهية دون الواحدية مع أن الالهية له سبحانه مسلمة في نفسها وإنما خلاف المشركين في الواحدية .

ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة الى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب فقال : ﴿فإياي فارهبون﴾ أي أن كنتم راهبين شيئاً فإيّاي فارهبون لا غيري فالتركيب أفاد الحصر ، وقيل التقدير إياي ارهبوا فارهبون وقدره ابن عطية : ارهبوا إياي فارهبون .

قال الشيخ : وهو ذهول عن القاعدة النحوية وقد يجاب عنه والرهب مخافة مع حزن واضطراب وقد مر هذا في أول البقرة .

ثم لما قرر سبحانه وحدانيته وأنه الذي يجب أن يخص بالرهبة منه والرغبة اليه ذكر أن الكل في ملكه وتحت تصرفه فقال ﴿وله ما في السموات والأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً والجملة مقررة لما تقدم في قوله ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض إلخ . . وتقديم الخبر لافادة الاختصاص والتفت فيه من التكلم الى الغيبة والجملة معطوفة على قوله إنما هو إله واحد أو على الخبر أو مستأنف .

﴿وله الدين واصباً﴾ أي ثابتاً واجباً دائماً لا يزول والدين هو الطاعة والاخلاص ، قال الفراء : واصباً معناه دائماً . وروي عنه ايضاً الواصب الخالص والأول أولى ومنه قوله سبحانه ولهم عذاب واصب أي دائم .

وقال الزجاج : أي طاعته واجبة أبداً ففسر الواصب بالواجب ، وقال ابن قتيبة في تفسير الواصب : أي ليس أحد يطاع إلا إنقطع ذلك بزوال او بهلكة غير الله تعالى فإن الطاعة تدوم له ففسر الواصب بالدائم وإذا دام الشيء دواماً لا ينقطع فقد وجب وثبت ، يقال وصب الشيء يصب وصوباً فهو واصب إذا دام ووصب الرجل على الامر إذا واظب عليه .

وقيل الوصب التعب والأعياء أي حب طاعة الله سبحانه وإن تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الآية ، قال مجاهد الدين الاخلاص وواصباً دائماً ، وقال أبو صالح : يعني لا إله إلا الله .

وعن ابن عباس : دائماً واجباً ، وفي البيضاوي : واصباً لازماً ، وقال الشهاب : الوصب ورد في كلامهم بمعنى اللزوم والدوام ، وفي القاموس وصب يصب دام وثبت كأوصب وعلى الأمر واظب واحسن القيام عليه ، وفي المصباح وصب الشيء وصوباً دام ووصب الدين وجب .

والاستفهام في قوله ﴿أفغير الله تتقون﴾ للتقريع والتوبيخ أو للتعجب والانكار والفاء للتعقيب ، والمعنى إذا كان الدين أي الطاعة واجباً له دائماً لا ينقطع كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به وعدم إيقاعها لغيره فكيف يعقل أن يكون للانسان رغبة أو رهبة في غير الله .

ثم امتن سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقلبون فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال : ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ أي ما يلابسكم من النعم على اختلاف أنواعها فهي منة سبحانه ، والنعمة اما دينية وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به واما دنيوية نفسانية أو بدنية أو خارجية كالسعادات المالية وغيرها ، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها والكل من الله سبحانه فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه ، وما موصولة متضمنة

لمعنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول ، والفاء زائدة او شرطية ، واليه نحا الفراء وتبعه الحوفي وأبو البقاء .

ثم بيّنّ تلون الإنسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال : ﴿ثم إذا مسكم الضر﴾ أي الشدة والأمراض والأسقام أو أي ضر كان ، والضر المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الانسان ﴿فإليه﴾ سبحانه لا الى غيره ﴿تجأرون﴾ تتضرعون وتستغيثون وتضجون في كشفه فلا كاشف له إلا هو ، يقال جأر يجأر جؤراً اذا رفع صوته بالدعاء في تضرع .

قال مجاهد : تتضرعون بالدعاء وقال السدي : تضجون بالدعاء ، وفي القاموس جأر جأراً وجؤراً بوزن غراب رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث ، والبقرة والثور صاحا والنبات طال والأرض طال نبتها .

﴿ثم اذا كشف الضر عنكم﴾ أي إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر ﴿اذا فريق﴾ أي جماعة ﴿منكم بربهم﴾ الذي رفع الضر عنهم ﴿يشركون﴾ فيجعلون منه إلهاً آخر من صنم أو نحوه ، إذا الأولى شرطية والثانية فجائية جوابها ، وفي الآية دليل على أن إذا الشرطية لا تكون معمولة لجوابها ، لأن ما بعد اذا الفجائية لا يعمل فيما قبلها .

والآية مسوقة للتعجب من فعل هؤلاء حيث يضعون الإشراك بالله الذي أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له ، وهذا المعنى قد تقدم في الأنعام ويونس ، ويأتي إن شاء الله تعالى في سبحان .

قال الزجاج : هذا خاص بمن كفر وقابل كشف الضر عنه بالجحود والكفر ، وعلى هذا فيكون من في منكم للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعاً والفريق هم الكفرة ، وإن كان الخطاب موجهاً الى الكفار فمن للبيان ، وبه قال الزمخشري كأنه قيل إذا فريق كافر وهم أنتم . قاله السمين .

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

واللام في ﴿ليكفروا﴾ لام كي لكي يكفروا يعني إشراكهم سبب كفرهم وقيل إنها لام الصيرورة ، أي صار أمرهم الى ذلك ، وقيل انها لام الأمر واليه نحا الزمخشري . وقيل إنها لام العاقبة ، أي فعاقبة إشراكهم بالله غيره كفرهم ﴿بما آتيناهم﴾ من نعمة وهي كشف الضر عنهم حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم ، وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها غاية .

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتاً من الغيبة الى الخطاب ﴿فتمتعوا﴾ بما أنتم فيه من ذلك ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة أمركم وما يحل بكم في هذه الدار وما تصيرون إليه في الدار الآخرة . قال الحسن هذا وعيد .

ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من قبائح أعمالهم فقال ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾ أي يقع منهم هذا الجعل بعدما وقع منهم الجؤار الى الله سبحانه في كشف الضر عنهم وما تعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والاشراك به ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيبا من أموالهم يتقربون به اليه .

وقيل المعنى إنهم أي الكفار يجعلون للأصنام وهم لا يعلمون شيئاً

لكونهم جمادات ، وأجراها مجرى العقلاء جرياً على اعتقاد الكفار فيها ، وحاصل المعنى ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعقل شيئاً نصيباً من أموالهم التي رزقهم الله إياها . قال مجاهد : يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ، ثم يجعلون لما لا يعلمون إنه يضرهم وينفعهم نصيباً مما رزقناهم .

وقال قتادة : هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله وجزءوا من أموالهم جزءاً فجعلوه لهم ، وعن السدي قال : هو قولهم هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا .

﴿تالله لتسألن﴾ أقسم بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة ، وهذا رجوع من الغيبة الى الخطاب ، وهو من بديع الكلام وبليغه ، وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ ﴿عما كنتم تفترون﴾ أي تختلقونه من الكذب على الله سبحانه في الدنيا .

﴿ويجعلون لله البنات﴾ هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم ، وقد كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله ، فنزه ﴿سبحانه﴾ نفسه عما نسبه اليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة ولا أفهام مستقيمة . قال ابن عباس : يقول تجعلون لي البنات ترتضونهن لي ولا ترتضونهن لأنفسكم ، وذلك انهم كانوا في الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية امسكها على هوان أو دسها في التراب وهي حية ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ، وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهونه من البنين ، والجملة مستأنفة أو في محل النصب على الحال من الواو في يجعلون هذا .

ثم ذكر سبحانه كراهتهم للاناث التي جعلوها لله سبحانه فقال ﴿وإذا بشر أحدهم بالانثى﴾ أي اذا أخبر أحدهم بولادة بنت له ﴿ظل﴾ صار ﴿وجهه

مسوداً﴾ أي متغيراً ، وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض ، بل المراد به الكناية عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم والحزم والغيظ والكراهة ، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسود وجهه غماً وحزناً. قاله الزجاج .

وقال الماوردي : بل المراد سواد اللون حقيقة ، قال وهو قول الجمهور والأول أولى ، فان المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي .

﴿وهو كظيم﴾ أي ممتلىء من الغم غيظاً وحنقاً ، يقال كظمت الغيظ كظماً وكظوماً ما أمسكت على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ ، وربما قيل كظمت على الغيظ وكظمني الغيظ فأنـا كظيم ومكظوم ، وكظم البعير كظوماً لم يجتر ، قال الأخفش : هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره ، وقيل انه المغموم الذي يطبق فاه من الغم ، مأخوذ من الكظامة وهو سد فم البئر . قاله علي بن عيسى ، وقد تقدم في سورة يوسف .

﴿يتوارى﴾ أي يتغيب ويختفي ﴿من القوم من سوء ما بشر به﴾ أي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب حدوث البنت له ، تعلق هنا جارّان بلفظ واحد لاختلاف معناهما ، فإن الأولى للابتداء والثانية للعلة ، أي من أجل سوء وسوؤها من حيث كونها يخاف عليها الزنا ، ومن حيث كونها لا تكتسب ومن حيث غير ذلك .

﴿أيمسكه على هون﴾ قال اليزيدي : الهون الهوان بلغة قريش ، وكذا حكى عن الكسائي ، وحكى عنه أيضاً أنه البلاء والمشقة . وقال الفراء : الهون القليل بلغة تميم . وعن الأعمش : أنه قرأ أيمسكه على سوء ﴿أم يدسه في التراب﴾ أي يخفيه فيه بالوأد كما كانت تفعله العرب ، والدس إخفاء الشيء في الشيء فلا يزال الذي بشر بحدوث الأنثى متردداً بين هذين الأمرين ،

والتذكير في يمسكه ويدسه مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ ، وقرأ الجحدري أم يدسها ويلزمـه أن يقرأ أيمسكها ، وقيل دسها إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالمدسوس لإخفائه عن الأبصار .

﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ حيث أضافوا البنات التي يكـرهونها الى الله سبحانه ، واضافوا البنين المحبوبين عندهم الى أنفسهم ، ومثله قوله تعالى ﴿ألكم الذكر وله الانثى تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ قال السدي : بئسما حكموا بقول شيء لا يرضونه لأنفسهم فكيف يرضونه لي .

﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ أي لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة صفة السوء من الجهل والكفر بالله ، وقيل هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة والولد ، وقيل هو حاجتهم الى الولد ليقـوم مقامهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الإملاق ، وقيل العذاب والنار ﴿ولله المثل الأعلى﴾ هي أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجـود الشامل والعلم الواسع أو التوحيد وإخلاص العبادة ، أو أنه خالق رازق قادر مجاز منزه عن الولد . وقيل شهادة أن لا إله إلا الله ، قاله قتـادة .

وقيل : الله نور السموات والأرض مثل نوره . الآية : وقيل : ليس كمثله شيء ، قاله ابن عباس ﴿وهو العزيز﴾ الذي لا يغالب فلا يضره نسبته اليه ما لا يليق به ﴿الحكيم﴾ في أقواله وافعاله .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظم كفرهم بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة فقال ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم﴾ المراد بالناس هنا الكفار أو جميع العصاة والباء للسببية ﴿ما ترك عليها﴾ أي على الأرض وإن لم تذكر فقد دل عليها ذكر الناس او الدابة ﴿من دابة﴾ قط بل أهلكها بالمرة شؤم ظلم الظالمين فإن الجميع مستقرون على الأرض ، والمراد بالدابة الكافر وقيل كل ما دب .

وقد قيل على هذا كيف يعم بالهلاك وفيهم من لا ذنب له ، وأجيب بأن إهلاك الظالم انتقاماً منه وإهلاك غيره إن كان من أهل التكليف فلأجل توفير أجره ، وان كان من غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين ولله الحكمة البالغة لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ومثل هذا قوله واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة .

وفي معنى هذه الآية أحاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا أراد الله بقوم

عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم »[١] وكذلك حديث الجيش الذي يخسف بهم في البيداء ، وفي آخره أنهم يبعثون على نياتهم[٢] ، وقد قدمنا عند تفسير قوله سبحانه ﴿واتقوا فتنة﴾ الآية تحقيقاً حقيقاً بالمراجعة له .

قال سعيد بن جبير : ما ترك عليها من دابة : ما سقاهم المطر ، وعن السدي نحوه ، أي يمسك المطر بسبب ظلمهم وانقطاعه يوجب انقطاع النسل وقيل لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء ، وذلك يستلزم أن لا يبقى في العالم أحد من الناس ؛ وقال قتادة : قد فعل ذلك في زمن نوح ، أهلك الله ما على الأرض من دابة إلا ما حمل في سفينته .

وهذا ايذان بأن ما أتوه من القبائح فقد تناهى الى أمد لا غاية وراءه ؛ وعن ابن مسعود قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره . ثم قال أي والله زمن غرق قوم نوح . وعنه قال : كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ هذه الآية . وعن أنس نحوه .

وعن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه . قال أبو هريرة بلى والله إن الحبارى لتموت هزالاً في وكرها من ظلم الظالم .

﴿ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى﴾ معلوم معين عنده تعالى وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم أو أجل عذابهم ، وفي هذا التأخير حكمة بالغة ، منها الإعذار اليهم وارخاء العنان معهم ، ومنها حصول من سبق في علمه من أولادهم .

﴿فإذا جاء أجلهم﴾ الذي سماه لهم ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي حقت عليهم كلمة الله سبحانه في ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه والساعة المدة القليلة ، وقد تقدم تفسير هذا وتحقيقه .

---

(١) مسلم ٢٨٧٩ بلفظ «ثم بعثوا على اعمالهم» ـ البخاري ٢٥٥٨ .

(٢) مسلم ٢٨٨٢ ـ البخاري كتاب البيوع باب ما ذكر في الأسواق .

ثم ذكر نوعاً آخر من جهلهم وحمقهم فقال ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ أي ينسبون اليه سبحانه ما يكرهون نسبته الى أنفسهم من البنات والشريك في الرياسة واهانة الرسل وهو تكرير لما تقدم لقصد التأكيد والتقرير او لزيادة التوبيخ والتقريع ، قال الضحاك : أي يجعلون لي البنات ويكرهون ذلك لأنفسهم .

ثم ذكر الله سبحانه نوعاً آخر من قبائحهم فقال ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾ والذي تصفه ألسنتهم من الكذب هو قولهم ﴿أن لهم﴾ الخصلة او العاقبة ﴿الحسنى﴾ قال الزجاج : يصفون أن لهم مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن أي الجنة كقوله ولئن رجعت الى ربي إن لي عنده الحسنى ، وقرىء الكذب بضمتين على أنه صفة للألسن وهو جمع كذب فيكون المفعول على هذا أن لهم الحسنى ، قال مجاهد : قول كفار قريش لنا البنون وله البنات وعن قتادة نحوه .

ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله :﴿لاجرم﴾ تركيب مزجي من لفظ لا ولفظ جرم ومعناه الفعل أي ثبت أو المصدر أي حقاً ﴿أن لهم﴾ مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى ﴿النار﴾ الموقدة والعذاب الدائم ﴿وأنهم مفرطون﴾ بفتح الراء تخفيفاً أي مقدمون الى النار .

قال ابن الأعرابي وأبو عبيدة : أي متروكون منسيون في النار وبه قال مجاهد وعن سعيد بن جبير نحوه ، وبه قال الكسائي والفراء فيكون مشتقاً من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته .

وقال قتادة والحسن : معجلون اليها مقدمون في دخولها من أفرطته أي قدمته في طلب الماء والفارط هو الذي يتقدم الى الماء والفراط المتقدمون في طلبه والوراد المتأخرون ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « أنا فرطكم على

الحوض »[1] أي متقدمكم ، وقرىء مفرطون بكسر الراء وتخفيفها وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومعناه مسرفون في الذنوب والمعاصي يقال أفرط فلان على فلان إذا أربى عليه وقال له أكثر مما قال من الشر .

وقرىء مفرطون بكسر الراء وتشديدها أي مضيعون أمر الله فهو من التفريط في الواجب .

ثم بين سبحانه أن مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الأمم فقال مسلياً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم ﴿تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك﴾ رسلاً ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ الخبيثة من الكفر فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب والمزين هو الله سبحانه والشيطان إنما له الوسوسة فقط فمن أراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته ﴿فهو وليهم اليوم﴾ لفظ اليوم المعرف بأل إنما يستعمل حقيقة في الزمان الحاضر المقارن للتكلم كالآن ، وحينئذ فلفظ اليوم في الآية يحتمل أن يكون عبارة عن زمان الدنيا فيكون المعنى هو قرينهم في الدنيا .

ويحتمل أن يكون عبارة عن يوم القيامة وما بعده فيكون للحال الآتية ويكون الوليّ بمعنى الناصر والمراد نفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة واذا كان الناصر منحصراً فيه لزم أن لا نصرة من غيره .

ويحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا وهو على وجهين : **الاول** : أن يراد البعض الذي قد مضى وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية . **الثاني** : أن يراد البعض الحاضر وهو وقت نزول الآية والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير في وليهم لكفار قريش أي فهو ولي هؤلاء اليوم ، أو على حذف

---

(١) مسلم ٢٤٩ .

مضاف أي فهو ولي أمثال أولئك الأمم اليوم ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وإنما سماه ولياً لهم لطاعتهم إياه ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة وهو عذاب النار .

ثم ذكر سبحانه انه ما هلك من هلك إلا بعد اقامة الحجة عليهم وازاحة العلة منهم فقال :

﴿وما أنزلنا عليك الكتاب﴾ هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن والاستثناء في ﴿الا﴾ مفرغ مَن أعم الأحوال أي ما أنزلنا عليك لحال من الأحوال ولا لعلة من العلل ﴿إلا لتبين لهم﴾ أي للناس وإنما جر هذا باللام لاختلاف فاعله مع فاعل الفعل فإن المنزل هو الله والمبين هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانما نصب اللذان بعده لاتحاد فاعلهما مع فاعل الفعل لأن الهادي والراحم هو الله كما انه المنزل ﴿الذي اختلفوا فيه﴾ من التوحيد والشرك والجبر والقدر وأحوال البعث واثبات المعاد وسائر الأحكام الشرعية .

﴿وهدى﴾ عطف على لنبين ﴿ورحمة لقوم يؤمنون﴾ بالله سبحانه ويصدقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب لأنهم هم المنتفعون .

ثم عاد سبحانه الى تقرير وجوده وتفرده بالآلهية بذكر آياته العظام وبيناته الفخام فقال ﴿والله أنزل من السماء﴾ أي من السحاب أو من جهة العلو كما مر ﴿ماء﴾ أي نوعاً من أنواع الماء ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي أحياها بالنبات والزرع بعد أن كانت يابسة لا حياة بها .

﴿إن في ذلك﴾ الانزال والاحياء ﴿ لآية﴾ أي علامة دالة ودلالة واضحة على وحدانيته وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم ﴿لقوم يسمعون﴾ كلام الله سماع تدبر وانصاف ويفهمون ما يتضمنه من العبر ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، فالمراد سمع القلوب لا سمع الآذان لأن من لم يسمع بقلبه فكأنه لم يسمع وكأنه أصم .

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾

﴿وان لكم في الأنعام لعبرة﴾ الأنعام هي الإبل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ومنه فاعتبروا يا أولي الأبصار والظاهر أن في سببية أي بسبب الأنعام ، وقال أبو بكر الوراق : العبرة في الأنعام تسخيرها لاربابها وطاعتها لهم .

والظاهر أن العبرة هي قوله ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة قرىء من سقى يسقي ومن أسقى يسقي قيل هما لغتان وقرىء بالتاء على ان الضمير راجع الى الأنعام وبالتحتية على ارجاع الضمير الى الله سبحانه وهما ضعيفان وجميع القراء على القراءتين الاولين والفتح لغة قريش والضم لغة حمير .

وقيل أن بين سقى وأسقى فرقاً فإذا كان الشراب من يد الساقي الى فم المسقى فيقال سقيته وان كان بمجرد عرضه عليه وتهيئته له قيل أسقاه ومن تبعيضية أو ابتدائية والضمير في بطونه راجع الى الأنعام ، قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد ، وقال الزجاج : لما كان لفظ الجمع يذكر ويؤنث فيقال هو الأنعام وهي الانعام جاز عود الضمير بالتذكير .

وقال الكسائي : معناه مما في بطون ما ذكرنا فهو على هذا عائد الى المذكور ، قال الفراء وهو صواب ، وقال المبرد : هذا فاش في القرآن كثير مثل قوله للشمس ﴿هذا ربي﴾ يعني هذا الشيء الطالع وكذلك ﴿إني مرسلة إليهم

بهديَّةٍ﴾ ثم قال ﴿فلما جاء سليمان﴾ ولم يقل جاءت لأن المعنى جاء الشيء الذي ذكرنا انتهى .

ومن ذلك قوله ﴿ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره﴾ وحكى الكسائي أن المعنى مما في بطون بعضه وهي الاناث لأن الذكور لا ألبان لها ، وبه قال أبو عبيدة ، وحكى عن الفراء انه قال : النعم والأنعام واحد يذكر ويؤنث ولهذا تقول العرب هذه نعم وارد فرجع الضمير الى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام وهو كقول الزجاج ، ورجحه ابن العربي فقال : إنما يرجع التذكير الى معنى الجمع والتأنيث الى معنى الجماعة فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع وأنثه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة ﴿من بين فرث ودم﴾ الفرث الزبل الذي ينزل الى الكرش ، فاذا خرج منه لم يسم فرثاً بل يسمى روثاً وهو ثفل الكرش يقال أفرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها .

وقال البيضاوي : الفرث الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش والمعنى ان الشيء الذي تأكله يكون منه ما في الكرش وهو الفرث ويكون منه الدم فيكون أسفله فرثاً وأعلاه دما وأوسطه .

﴿لبناً﴾ فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش كما هو فسبحان من هذه بعض حكمته ﴿خالصاً﴾ من حمرة الدم وقذارة الفرث بعد أن جمعهما وعاء واحدٌ وذلك ان الحيوان إذا أكل العلف طبخه الكرش ثم انقسم الى أقسام ثلاثة ثفل وفوقه اللبن وفوقه الدم ثم تسلط الكبد عليها فترسل الدم الى العروق واللبن الى الضروع ويبقى الثفل في الكرش حتى ينزل الى الخارج والحاصل ان الله تعالى خلق اللبن في مكان وسط بين الفرث والدم ﴿سائغاً للشاربين﴾ أي لذيذاً هنيئاً لا يغص به من شربه يقال ساغ الشراب يسوغ سوغاً أي سهل مدخله في الحلق وفي ذلك عبرة لمن اعتبر .

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾ قال ابن جرير التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون فحذف ما ، ودل على حذفه قوله منه : وقيل التقدير وإن لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة ، وقيل نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل وقيل نسقيكم من ثمرات النخيل قدره الزمخشري ويكون على هذا تتخذون منه سكراً بياناً للإسقاء وكشفاً عن حقيقته .

وقيل تقديره ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً ويكون تكرير منه للتأكيد وإنما ذكر الضمير في منه لانه يعود الى المذكور أو الى المضاف المحذوف وهو العصير كأنه قال من عصير ثمرات تتخذون منه والسكر بفتحتين ما يسكر من الخمر ، وقيل إنه من أسماء الخمر وقيل انه في الأصل مصدر سمى به الخمر .

﴿ورزقاً حسناً﴾ هو جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب والخل والدبس ، قال ابن عباس : السكر ما حرم من ثمرتهما والرزق الحسن ما حل وعنه قال السكر الحرام ، والرزق زبيبه وخله وعنبه ومنافعه ، وايضاً قال السكر النبيذ والرزق الزبيب فنسختها آية إنما الخمر والميسر ، وعنه قال فحرم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لأنه منه ثم قال ﴿ورزقاً حسناً﴾ فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ أو أشباه ذلك فاقرّه الله وجعله حلالاً للمسلمين .

وعن ابن عمر أنه سئل عن السكر فقال : الخمر بعينها وعن ابن مسعود قال : السكر الخمر وبالجملة فقد كان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر وبه جزم السيوطي اعتماداً على قولهم في السورة أنها مكية إلا ثلاث آيات من آخرها ، والمائدة مدنية وتحريم الخمر فيها وهي آخر القرآن نزولاً كما ثبت في الحديث .

وقيل ان السكر الخل بلغة الحبشة والرزق الطعام من الشجرتين ، وقيل السكر العصير الحلو الحلال ، وسمي سكراً لأنه قد يصير مسكراً اذا بقي فإذا بلغ الاسكار حرم والقول الأول أولى وعليه الجمهور ، وقد صرح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر ولم يخالف في ذلك إلا أبو عبيدة فإنه قال السكر الطعم .

ورجح هذا ابن جرير فقال : إن السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخيل والأعناب وهو الرزق الحسن فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل ﴿إنما أشكو بثي وحزني الى الله﴾ .

قال الزجاج : قول أبي عبيدة هذا لا يعرف وأهل التفسير على خلافه . وقد حمل السكر جماعة من الحنفيـة على ما لا يسكر من الأنبذة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ قالوا وإنما يمتن الله على عباده ، بما أحله لا بما حرمه عليهم ، وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحـريم الخمر .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من اخراج اللبن واتخاذ السكر والـرزق من الثمرات ﴿لآية لقوم يعقلون﴾ أي لدلالة لمن يستعمل العقل ويعمل بما يقتضيه عند النظر في الآيات التكوينية .

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ قد تقدم الكلام في الوحي وأنه يكون بمعنى الالهام وهو ما يخلقه في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، ومنه قوله سبحانه: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ ومن ذلك الهام البهائم لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته .

وقرىء النحل بفتح الحاء ، قال الزجاج : وسمي نحلاً لأن الله سبحانه نحله العسل الذي يخرج منه ، قال الجوهري : والنحل والنحلة الدبر يقع على الذكر والانثى وقيل اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ويذكر ويؤنث ، والنحل بالضم مصدر قولك نحلته من العطية أنحله نحلاً ، والنحلى العطية على فعل .

﴿أن اتخذي من الجبال بيوتاً﴾ أي بأن اتخذي على أن ﴿أن﴾ هي المصدرية ، ويجوز أن تكون تفسيرية لأن في الايحاء معنى القول ، وبهذا قال الزمخشري وغيره ومن منع وهو أبو عبد الله الرازي قال : لا نسلم انها مفسرة ، كيف وقد انتفى شرط التفسير بأن المراد من الايحاء هو الالهام اتفاقاً ، وليس فيه معنى القول وحينئذ فهي مصدرية ، كأنه قيل أوحى ربك باتخاذ بعض الجبال بيوتاً ورده في المغني بأن الإلهام فيه معنى القول من حيث الدلالة على المعنى .

وأنث الضمير في اتخذي لكونه أحد الجائزين كما تقدم أو للحمل على المعنى أو لكون النحل جمعاً وأهل الحجاز يؤنثون النحل ، والمعنى سخرها لما خلقها له وألهمها رشدها وقدر في نفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر ، وذلك أن النحل تبني بيوتاً على شكل مسدس من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ، ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الأشكال لكان فيها فرج خالية ضائعة ، ولما حصل المقصود فألهمها الله تعالى أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل ولا فرجة خالية .

وألهمها أيضا أن يجعلوا عليهم أميراً كبيراً نافذ الحكم فيهم ، وهم يطيعونه ويمتثلون أمره ويكون هذا الأمير أكبرهم جثة وأعظمهم خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكهم ، كذا حكاه الجوهري .

وألهمها أيضا أن جعلوا على باب كل خلية بواباً لا يمكن غير أهلها من الدخول اليها ؛ وألهمها أيضا أنها تخرج من بيوتها فتدور وترعى ثم ترجع الى بيوتها ولا تضل عنها ، ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الإلهام الإلهي .

ومن في من الجبال ﴿و﴾ كذا في ﴿من الشجر و﴾ كذا في ﴿مما يعرشون﴾ للتبعيض ، أي مساكن توافقها وتليق بها في كوى الجبال وتجويف الشجر وفي العروش التي يعرشها بنو آدم من الأجباح[1] والحيطان وغيرها ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب ، يقال عرش يعرش بكسر الراء وضمها وهما سبعيتان وبابه نصر وضرب كما في المختار .

والظاهر أن من في ﴿مما﴾ بمعنى في إذ لا معنى لكونها تبنى من بناء الناس بل الظاهر انها تبنى في بنائهم ويكون المراد من بنائهم الكوارة ومن بنائها بيتها الذي تمج فيه العسل ، فإن من المشاهد أنها تبني لها بيتاً داخل الخلية من الشمع ثم تمج فيه العسل شيئاً فشيئاً .

والظاهر أن ﴿من﴾ في الموضعين الأولين بمعنى في أيضا كما صرح به الشهاب ويكون المراد ببيوتها ما تبنيه من الشمع كما تقدم ، فالشمع تارة تبنيه في الجبال وتارة في الأشجار ، وهذا في النحل الوحشيّ ، وتارة تبنيه في الخلايا ، وهذا في النحل الأهلي فإن النحل قسمان كما ذكره الخازن .

---

(١) الجبح ويثلث خلية العسل الجمع أجبح وأجباح . أ هـ قاموس .

ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾

﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾ من للتبعيض لأنها تأكل النور من الاشجار فإذا أكلتها ﴿فاسلكي﴾ أي فادخلي ﴿سبل ربك﴾ أي الطرق التي فهمك الله وعلمك وأضافها الى الرب لأنه خالقها وملهم النحل أن تسلكها ؛ أي ادخليها لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر ، أو اسلكي ما أكلت في سبل ربك أي في مسالكه التي يستحيل فيها بقدرته النور المر عسلاً من أجوافك أو إذا أكلت الثمار في الأمكنة البعيدة فاسلكي الى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها .

﴿ذللاً﴾ حال من السبل وهي جمع ذلول أي مذللة غير متوعرة ، واختار هذا الزجاج وابن جرير ، وقيل حال من النحل ، يعني مطيعة للتسخير وإخراج العسل من بطونها . واختار هذا ابن قتيبة .

قال مجاهد : طرقاً لا يتوعر عليها مكان سلكته ، وعن قتادة قال مطيعة.. قال السدي ذليلة ﴿يخرج من بطونها﴾ مستأنفة عدل به عن خطاب النحل تعديداً للنعم وتعجيباً لكل سامع وتنبيهاً على العبر وإرشاداً إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الضعيف الشبيه بالذباب .

﴿شراب﴾ المراد به في الآية هو العسل قاله ابن عباس ﴿مختلف ألوانه﴾ يعني أن بعضه أبيض وبعضه أحمر وبعضه أزرق وبعضه أصفر باختلاف ذوات النحل وألوانها ومأكولاتها ، وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والإزهار ويستحيل في بطونها عسلاً . وفي هذا دليل على قدرته .

وفي البيضاوي مختلف ألوانه بسبب اختلاف سن النحل أو الفصل قال الشهاب : فالأبيض لفَتيِّها والأصفر لكهلها والأحمر لمسنها ، ولا يخفى إنه مما لا دليل عليه. انتهى . وجمهور المفسرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل ويسيل كاللعاب وقيل من أسفلها ، وقيل لا يدري من أين يخرج منها .

﴿فيه﴾ أي في الشراب الخارج من بطون النحل وهو العسل ، والى هذا ذهب الجمهور ﴿شفاء للناس﴾ قال مجاهد : العسل فيه الشفاء وفي القرآن . وقال الفراء وابن كيسان وجماعة من السلف أن الضمير راجع الى القرآن ، ويكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس ، ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين .

وعن ابن مسعود قال : ان العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وعنه مرفوعاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالشفاءين العسل والقرآن »[١] وقد وردت أحاديث في كون العسل شفاء ؛ منها ما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار ، وأنا أنهي أمتي عن الكي »[٢] .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إن أخي استطلق بطنه ، استطلاقاً ، قال اذهب فاسقه عسلاً ، فذهب فسقاه ثم جاء فقال : مازاده إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً ، فذهب فسقاه فبرأ[٣] .

---

(١) ابن ماجة كتاب الطب الباب السابع .
(٢) البخاري كتاب الطب باب ٣ رقم ٢٢٥٠ مسلم ٢٢٠٥ .
(٣) مسلم ٢٢١٧ .البخاري ٢٢٥١ .

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذي جعله الله في العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الأمراض ، فقالت طائفة هو على العموم في كل حال ولكل أحد ؛ وقالت طائفة إن ذلك خاص ببعض الأمراض ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل انسان ، وليس هذا بأول لفظ خصص ، فالقرآن مملوء منه ، ولغة العرب يأتي فيها العام كثيراً بمعنى الخاص ، والخاص بمعنى العام .

ومما يدل على هذا أن العسل نكرة في سياق الاثبات فلا يكون عاماً باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل الأصول ، وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل الا على أن فيه شفاء عظيماً لمرض أو أمراض لا لكل مرض ، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم .

والظاهر المستفاد من التجربة ومن قوانين علم الطب انه إذا استعمل مفرداً كان دواء لأمراض خاصة ، وان خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها كان مع ما خلط به دواء لكثير من الأمراض .

قلت وحديث البخاري أن أخي استطلق بطنه الحديث أوضح دليل على ما ذهبت اليه طائفة من تعميم الشفاء ، لأن قوله صلى الله عليه وسلم صدق الله أي أنه شفاء ، فلو كان لبعض دون بعض لم يكرر الأمر بالسقيا .

وقد اعترض على هذا الحديث بعض الملحدين ومن في قلبه مرض بكونه خلاف ما أجمع عليه الأطباء من أن العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الاسهال وأجاب عنه الخازن على الطريق الجاري على صناعة الطب وأورده الشيخ سليمان الجمل ثم قال : ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الأطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك انتهى .

وعن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلا حتى الدمل إذا خرج طلى عليه العسل ، وعن أبي وجرة أنه كان يكتحل

بالعسل ويستنشق ويتداوى به ذكره القرطبي ، وفي الباب آثار عن جماعة من السلف .

وقال البيضاوي : شفاء للناس إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية أو مع غيره كما في سائر الأمراض إذ قلما يكون معجون إلا والعسل جزء منه ، وقيل أن هذا القول خرج مخرج الأغلب وأنه في الأغلب فيه شفاء ولم يقل انه شفاء لكل الناس ولكل داء لكنه في الجملة دواء ، وأن نفعه أكثر من مضرته ومنافعه كثيرة جداً ، قال السدي : شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه ، وبالجملة فهو من أعظم الأغذية وأنفع الأدوية وقليلاً ما يجتمع هذان الأمران في غيره .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من أمر النحل ﴿لآية لقوم يتفكرون﴾ أي يعملون أفكارهم عند النظر في صنيع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته فإن أمر النحل من أعجبها وأغربها وأدقها وأحكمها ، ومن تدبر إختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر علم قطعاً أنه لا بدّ له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه .

ولما ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة وخصائص القدرة القاهرة أتبعه بعجائب خلق الانسان وما فيه من العبر فقال ﴿والله خلقكم﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ثم يتوفاكم﴾ عند إنقضاء آجالكم إما صبياناً وإما شباباً وإما كهولاً ﴿ومنكم من يرد الى أرذل العمر﴾ أي أضعفه وأرداه وأخسه وهو الهرم يقال رذل يرذل رذالة والأرذل والرذالة أردأ الشيء وأخسه وأحقره وأوضعه .

قال النيسابوري : إن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الانسان في أربع :

**أولها** : سن النشوء والنماء وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الأشد .

**وثانيها** : سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل .

**وثالثها** : سن الكهولة وهو من الأربعين الى الستين وهذه المرتبة تسرع الانسان الى النقص لكنه يكون النقص خفياً لا يظهر .

**ورابعها**: سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر وفيها يتبين النقص ويكون الهرم والخرف .

قال على أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون وقيل تسعون سنة قاله قتادة ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾ وعن السدي قال : هو الخرف ، وعن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر ؛ وعن طاووس العالم : لا يخرف وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح وغيره أنه كان يتعوذ بالله أن يرد الى أرذل العمر[1] .

ثم علّل سبحانه رد من يرده الى أرذل العمر بقوله ﴿لكيلا﴾ اللام لام التعليل وكي حرف مصدر ونصب ولا نافية ، وقيل اللام هنا للصيرورة والعاقبة ﴿يعلم بعد علم﴾ كان حصل له ﴿شيئاً﴾ منه لا كثيراً ولا قليلاً أو شيئاً من المعلومات اذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم ، وقيل المراد بالعلم هنا العقل ؛ وقيل المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك ، وقيل لكي يصير كالصبي الذي لا عقل له .

وقال الزجاج : المعنى وإن منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفاً فيصير بعد أن كان عالماً جاهلاً ليريكم الله من قدرته أنه كما قدر على إماتته واحيائه قادر على نقله من العلم الى الجهل وأنه قادر على احيائه بعد إماتته فيكون ذلك دليلاً على صحة البعث بعد الموت .

﴿إن الله عليم﴾ بحكم التحويل الى الأرذل من الأكمل أو الى الإفناء من الإحياء ﴿قدير﴾ على تبديل ما يشاء من الأشياء وعلى ما يريد .

---

(١) مسلم ٢٧٠٦ ـ البخاري ١٣٥٠ .

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

ثم لما بيَّن سبحانه خلق الإنسان وتقلبه في أطوار العمر ذكر طرفاً من أحواله لعله يتذكر عند ذلك فقال ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ فمنكم غني وفقير ومالك ومملوك ، أي فجعلكم متفاوتين فيه فوسع على بعض عباده وبسط حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفاً مؤلفة من بني آدم ، وضيقه على بعض عباده وقتر حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم ، وكثَّر لواحد وقلَّل على واحد ، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها .

وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم والفهم والخلق والجهل وقوة البدن وضعفه والحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك من الأحوال ، وعن ابن عباس في الآية قال : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني ، وعن مجاهد قال : هذا مثل لآلهة الباطل مع الله ، وقيل معنى الآية أن الله سبحانه أعطى الموالي أفضل مما أعطى مماليكهم بدليل قوله .

﴿فما الذين فُضلوا﴾ أي فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم كالموالي والسادة ﴿برادّي رزقهم﴾ الذي رزقهم الله إياه ﴿على ما ملكت أيمانهم﴾ من المماليك ﴿فهم﴾ أي المالكون المماليك ﴿فيه﴾ أي في الرزق ﴿سواء﴾ أي لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم فالفاء على هذا للدلالة على ان

التساوي مترتب على التَّرادّ أي لا يردونه عليهم رداً مستتبعاً للتساوي ، وإنما يردون عليهم منه شيئاً يسيراً .

وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعبدة الأصنام كما تقدم والمعنى إذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ولا ترضون بذلك فكيف تجعلون عبيدي معي سواء ، والحال ان عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في أموالكم فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له في العبادة ذكر معنى هذا ابن جرير .

ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ وفي هذه الجملة أوجه (أحدها) تقديره أفهم فيه سواء ومعناه النفي أي ليسوا مستوين فيه (والثاني) أنها إخبار بالتساوي أي إنما هو رزقي أجريته على أيديهم فهم فيه سواء : قال أبو البقاء : إنها واقعة موقع فعل تقديره يستووا ، وقيل أن الفاء في « فهم » بمعنى حتى .

﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ حيث يفعلون ما يفعلون من الشرك . والنعمة هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك وقراءة الغيبة أولى لقرب المخبر عنه ، ولأنه لو كان خطاباً لكان ظاهره للمسلمين والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع والفاء للعطف على مقدر أي أيشركون به فيجحدون نعمته .

ويكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برادّي رزقهم على مماليكهم بل أنا الذي أرزقهم وإياهم فلا تظنوا أنهم يعطونهم شيئاً وإنما هو رزقي أجريه على أيديهم جميعاً وهم في ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم ،

فيكون المعطوف عليه المقدر فعلا يناسب هذا المعنى كأن يقال ألا تفهمون ذلك فتجحدون نعمة الله .

ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ قال المفسرون : يعني النساء فإنه خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام . قال قتادة : خلق آدم ثم خلق زوجته منه أو المعنى خلق لكم من جنسكم أزواجاً لتستأنسوا بها لأن الجنس يأنس الى جنسه ويستوحش من غير جنسه ، وبسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب للنسل الذي هو المقصود بالزواج ولم يذكر البنات لكراهيتهم لهن فلم يمتن عليهم ألا بما يحبونه ولهذا قال ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ جمع حافد يقال حفد يحفد حفداً وحفوداً إذا أسرع فكل من أسرع في الخدمة فهو حافد ومنه اليك نسعى ونحفد أي نسرع الى طاعتك .

قال أبو عبيدة : الحفد العمل والخدمة ، وهذا أصله في اللغة قال الخليل ابن أحمد : الحفدة عند العرب الخدم والأعوان . وبه قال الحسن وعكرمة والضحاك . وقال الأزهري : قيل الحفدة أولاد الأولاد وروي هذا عن ابن عباس والحفيد ولد الابن ذكراً كان أو انثى وولد البنت كذلك .

وتخصيصه بولد الذكر وتخصيص ولد الأنثى بالسبط عرف طارىء على أصل اللغة ، وقيل الحفدة الأختان قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحى وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي ، وقيل الحفدة الأصهار .

قال الأصمعي : الختن من كان من قبل المرأة كابنها وأخيها وما أشبههما والأصهار منهما جميعا ، يقال أصهر فلان الى بني فلان فهو صاهر ، وقيل هم أولاد إمرأة الرجل من غيره وقيل أولاد الرجل الذين يخدمونه وقيل البنات الخادمات لأبيهن.

وكل هذه الأقوال متقاربة لأن اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك ؛ ورجح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد لأنه سبحانه امتن على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين وحفدة فالحفدة في الظاهر معطوفون على البنين وإن كان يجوز أن يكون المعنى جعل لكم من أزواجكم بنين وجعل لكم حفدة ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم وبالحفدة من يخدم الأب منهم أو يراد بالحفدة البنات فقط ، ولا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلا إذا كان تقدير الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة .

﴿ورزقكم من الطيبات﴾ التي تستطيبونها وتستلذونها من أنواع الأثمار والحبوب والحيوان والأشربة المستطابة الحلال من ذلك كله ، ومن للتبعيض لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا في الجنة والمرزوق في الدنيا أنموذج منها .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر أي أيكفرون بالله فيؤمنون بالباطل ، وفي تقديم بالباطل على الفعل دلالة على أنه ليس لهم ايمان إلا به والباطل هو اعتقادهم في أصنامهم أنها تضر وتنفع ، وقيل هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما .

﴿وبنعمة الله﴾ أي ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر ﴿هم يكفرون﴾ بإضافتها الى غيره ، وفي تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك لا يتجاوزه لقصد المبالغة والتأكيد ، وعن ابن جريج الباطل هو الشيطان ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

﴿ويعبدون من دون الله﴾ داخل تحت الإنكار التوبيخي انكاراً منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام وهي لا تنفع ولا تضر ، ولهذا قال ﴿ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً﴾ المعنى إن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقاً أي رزق كائناً منهما .

عن قتادة قال : هذه الأوثان التي تعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها رزقاً من السموات والأرض ولا خيراً ولا حياة ولا نشوراً ، وفي شيئا ثلاثة أوجه :

**أحدها** : إنه منصوب على المصدر ، أي لا يملك لهم ملكاً ، أي شيئاً من الملك .

**والثاني** : إنه بدل من رزقاً ، وهذا غير مفيد ، إذ ليس فيه بيان ولا تأكيد .

**والثالث** : إنه منصوب برزقاً على إنه اسم مصدر وهو يعمل عمل المصدر على خلاف في ذلك ، وبه قال الفارسي . ورد عليه ابن الطراوة بأن الرزق اسم المرزوق كالرعي والطحن ، ورد عليه بأن الرزق أيضاً مصدر .

﴿ولا يستطيعون﴾ الضمير راجع الى ﴿ما﴾ وجمع جمع العقلاء بناء على

زعمهم الباطل ، والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم أن من لا يملك شيئاً قد يكون موصوفاً بإستطاعة التملك بطريق من الطرق ، فبيَّن سبحانه أنه لا يملك ولا يستطيع وقيل الضمير للكفار والمعنى لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرفين فكيف بالجمادات التي لا حياة لها ولا تستطيع التصرف .

ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه فقال ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ فإنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، قاله قتادة ، فإن ضارب المثل يشبه حالاً بحال وقصة بقصة .

قال الزجاج : لا تجعلوا لله مثلاً فإنه واحد لا مثيل له ، وكانوا يقولون إن إله العالم أجلَّ من أن يعبده الواحد منا فكانوا يتوسلون الى الأصنام والكواكب كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك ، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك وعلَّل النهي بقوله ﴿ان الله﴾ علم ﴿يعلم﴾ ما عليكم من العبادة ﴿وانتم لا تعلمون﴾ ما في عبادتها من سوء العاقبة والتعرض لعذاب الله سبحانه أو أنه تعالى يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمون فدعوا رأيكم دون نصه .

ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال فإنه يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ، أو أنتم لا تعلمون بشيء من ذلك ، وفعلكم هذا هو عن توهم فاسد وخاطر باطل وخيال مختل .

وعن ابن عباس قال : يعني اتخاذهم الأصنام ، يقول لا تجعلوا معي إلهاً غيري فإنه لا إله غيري ، ثم علمهم كيفية ضرب الأمثال في هذا الباب فقال :

﴿ضرب الله مثلاً﴾ أي ذكر شيئاً يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه وبيَّن ما جعلوه شريكاً له من الأصنام ، والمثل في الحقيقة هي حالة للعبد عارضة له وهي المملوكية والعجز عن التصرف ، فقوله ﴿عبداً﴾ تفسير للمثل وبدل منه ووصفه بكونه ﴿مملوكاً﴾ لأن العبد والحر مشتركان في

كون كل واحد منهما عبداً لله سبحانه ووصفه بكونه ﴿لا يقدر على شيء﴾ لأن المكاتب والمأذون يقدران على بعض التصرفات ، فهذا الوصف لتمييزه عنهما ، واحتج الفقهاء بهذا على أن العبد لا يملك شيئاً .

﴿ومن﴾ أي الذي ، وقيل موصوفة ، واختاره الزمخشري كأنه قيل وحراً من الأحرار الذين يملكون الأموال ويتصرفون بها كيف شاءوا ﴿رزقناه﴾ ليطابق عبداً ﴿منا﴾ أي من جهتنا ﴿رزقاً حسناً﴾ والمراد به أنه مما يحسن في عيون الناس لكونه رزقاً كثيراً مشتملاً على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين اليها ﴿فهو ينفق منه﴾ في وجوه الخير ويصرف منه الى أنواع البر والمعروف ﴿سراً وجهراً﴾ أي في حال السر وحال الجهر ، والمراد بيان عموم الانفاق للأوقات وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه وان الثواب فيه أكثر .

﴿هل يستوون﴾ أي الحر والعبد الموصوفان بالصفات المتقدمة ، وجمع الضمير لمكان ﴿من﴾ لأنه اسم مبهم يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ، وقيل إنه أريد بالعبد ، والموصول الذي هو عبارة عن الحر الجنس أي من اتصف بتلك الأوصاف من الجنسين ، والاستفهام للانكار أي هل يستوي العبيد والأحرار مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر ، ومن المعلوم أنهم لا يستوون فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه .

وحاصل المعنى إنه كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حر قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه ، كذلك لا يستوي الرب الخالق الرازق والجمادات من الأصنام التي تعبدونها وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، وقيل المراد بالعبد المملوك في الآية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته ، والآخر هو المؤمن . وقال ابن عباس بمعناه بأطول من هذا ، والغرض إنهما لا يستويان في الرتبة والشرف .

وقال عطاء : هما أبو جهل بن هشام وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقيل العبد هو الصنم والثاني عابد الصنم ، والمراد انهما لا يستويان في القدرة والتصرف لأن الأول جماد والثاني إنسان .

﴿الحمد﴾ كله ﴿لله﴾ وحده حمد نفسه لأنه المنعم المستحق لجميع المحامد لا يستحق غيره من العباد شيئاً منه فكيف تستحق الأصنام منه شيئاً ولا نعمة منها أصلاً لا بالاصالة ولا بالتوسط ، وقيل أراد الحمد لله على ما أنعم به على اوليائه من نعمة التوحيد ، وقيل أراد قل الحمد لله ، والخطاب إما لمحمد صلى الله عليه وسلم أو لمن رزقه الله رزقاً حسناً ، وقيل إنه لما ذكر مثلاً مطابقاً للغرض كاشفاً عن المقصود قال الحمد لله أي على قوة هذه الحجة .

﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ذلك حتى يعبدوا من تحق له العبادة ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة ، ونفى العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم أو هم يتركون الحق عناداً مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له وخص الاكثر بنفي العلم إما لكونه يريد الخلق جميعاً وأكثرهم المشركون أو ذكر الأكثر وهو يريد الكل ، أو المراد أكثر المشركين لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم .

ثم ذكر سبحانه مثلا ثانياً ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع فقال ﴿وضرب الله مثلاً﴾ آخر أوضح مما قبله وأظهر منه ﴿رجلين﴾ بدل من مثل وتفسير له ﴿احدهما أبكم﴾ **أي العييّ المفحم،** وقيل هو الأقطع اللسان الذي لا يحسن الكلام ، وقيل هو الذي ولد أخرس ، فكل أبكم أخرس ، وليس كل أخرس أبكم ، وروى ثعلب عن ابن الاعرابي أنه الذي لا يسمع ولا يبصر .

ثم وصف الأبكم فقال ﴿لا يقدر على شيء﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق ، وهو إشارة الى العجز التام

والنقصان الكامل ﴿وهو كل﴾ أي ثقيل ﴿على مولاه﴾ أي على وليه وقرابته وعيال على من يلي أمره ويعوله ووبال على إخوانه ، وقد يسمى اليتيم كَلًّا لثقله على من يكفله ، وفي هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقاً .

ثم وصفه بصفة رابعة فقال ﴿أينما يوجهه﴾ أي يرسله ويصرفه في طلب الحاجة أو كفاية المهم ﴿لا يأت بخير﴾ قط لأنه عاجز أخرس لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول ﴿هل يستوي هو﴾ في نفسه مع هذه الأوصاف التي اتصف بها .

﴿ومن يأمر﴾ الناس ﴿بالعدل﴾ مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم ويقدر على التصرف في الأشياء وهو سليم الحواس نفاع ذو كفاية ورشد وديانة ﴿وهو﴾ في نفسه ﴿على صراط مستقيم﴾ أي على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل الى أحد جانبي الإفراط والتفريط .

وإنما قابل الأوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للآخر لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشيء ، وحاصل وصفي هذا أنه مستحق أكمل استحقاق ، والمقصود الإستدلال بعدم تساوي هذين الأمرين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكاً له ، قال ابن عباس : يعني بالأبكم الكافر وبالآمر بالعدل المؤمن .

وهذا المثل في الأعمال ، وعلى هذا تكون الآية على العموم في كل مؤمن وكافر ، وقيل هي على الخصوص ، والذي يأمر بالعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم والأبكم هو أبو جهل وقيل الأبكم أبي بن خلف والآمر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون .

وقال ابن عباس : هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان ومولى له كافر ، وهو أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما .

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

ولما فرغ سبحانه من ذكر المثلين مدح نفسه بقوله ﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أي يختص ذلك به لا يشاركه فيه غيره ولا يستقل به ، والمراد علم ما غاب عن العباد فيهما ، أو أراد بغيبهما يوم القيامة لأن علمه غائب عن العباد ومعنى الإضافة اليهما التعلق بهما ، والمراد التوبيخ للمشركين والتقريع لهم ، أي أن العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلاً عاجزاً لا يضر ولا ينفع ولا يعلم بشيء من أنواع العلم .

﴿وما أمر الساعة﴾ التي هي أعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه ، وهو إماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين وتبديل صور الأكوان أجمعين ، أو المعنى ما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته ﴿إلا كلمح البصر﴾ أي كرجع طرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ، وإنما ضرب به المثل لأنه لا يعرف زمان أقل منه ، واللمح النظر بسرعة ولا بدّ فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئي وكل زمان قابل للتجزئة ولذا قال .

﴿أو هو﴾ أي بل أمرها ﴿أقرب﴾ منه بأن يكون من زمان نصف تلك الحركة بل في الآن الذي تبتدأ فيه ، فإن الله تعالى يحيي الخلق دفعة ، وما يوجد دفعة كان في آن أي جزء غير منقسم .

وليس هذا من قبيل المبالغة بل هو كلام في غاية الصدق ، لأن مدة ما

بين الخطاب وقيام الساعة متناهية ، ومنها الى الأبد غير متنـاه ، ولا نسبة للمتناهي الى غير المتناهي أو يقال إن الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت في القرب كلمح البصر وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الاتيان بها لأنه يقول للشيء كن فيكون .

وقيل المعنى هي عند الله كـذلك وإن لم تكن عنـد المخلوقين بهـذه الصفة ، ومثله قوله سبحانه ﴿انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ ولفظ ﴿أو﴾ ليس للشك بل للتمثيل أو للتخيير ، وقيل دخلت لشك المخاطب ، وقيل هي بمنزلة بل ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته .

ثم أنه سبحانه ذكر حالة أخرى للإنسان دالّة على غاية قدرته ونهاية رأفته فقال ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ معطوف على قوله والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً منتظم معه في سلك أدلة التوحيد أي أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء ولا تعلمون شيئاً مما أُخذ عليكم من الميثاق وقيل مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة ، وقيل شيئاً من منافعكم والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتباراً بعموم اللفظ فإن شيئاً نكرة واقعة في سياق النفي .

﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي ركب فيكم هذه الأشياء وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الاخراج لما أن مدلول الواو هو مطلق الجمع والمعنى جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذي كان مسلوباً عنكم عند اخراجكم من بطون أمهاتكم وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه .

ونكتة تأخيره أن السمع ونحوه من آلات الإدراك إنما يعتد به إذا أحس وأدرك ، وذلك بعد الاخراج وقدم السمع على البصر لأنه طريق تلقي الوحي

أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب منزل منه بمنزلة القلب من الصدر ، وقد قدمنا الوجه في افراد السمع وجمع الأبصار والافئدة وهو أن افراد السمع لكونه مصدراً في الأصل يتناول القليل والكثير ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لكي تصرفوا كل آلة فيما خلقت له فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر .

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على كمال قدرته فقال ﴿ألم يروا الى الطير مسخرات﴾ أي ألم ينظروا اليها حال كونها مذللات للطيران ، بما خلق الله لها من الأجنحة وسائر الأسباب المؤاتية لذلك كرقة قوام الهواء والهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح في الماء ﴿في جو السماء﴾ أي في الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو واضافته الى السماء لكونه في جانبها قال كعب أن الطير ترتفع في الجو اثني عشر ميلاً ولا ترتفع فوق ذلك .

﴿ما يمسكهن﴾ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن في الجوّ ﴿إلا الله﴾ سبحانه بقدرته الباهرة فإن ثقل أجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها لأنها لم تتعلق بشيء من فوقها ولا اعتمدت على شيء تحتها ﴿ان في ذلك﴾ التسخير على تلك الصفة ﴿لآيات﴾ ظاهرة تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ بالله سبحانه وبما جاءت به رسله من الشرائع التي شرعها .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾

﴿والله جعل﴾ أي صيَّر أو خلق ﴿لكم من بيوتكم﴾ التي هي من الحجر والمدر وغيرهما ومن ابتدائية ﴿سكنا﴾ مصدر يوصف به الواحد والجمع واليه ذهب ابن عطية ومنعه الشيخ ولم يذكر وجه المنع وهو بمعنى مسكون أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة وهذا من جملة تعديد الله نعمه على الانسان فإن الله سبحانه لو شاء لخلق العبد مضطرباً دائماً كالأفلاك ولو شاء لخلقه ساكناً أبداً كالأرض .

﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ لما ذكر سبحانه بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة وهي الانطاع والأدم جعلها بيوتاً كالخيام والقباب والأخبية والفساطين ، قال مجاهد وهي خيام العرب وقيل ذلك في بعض الناس كالسودان فإنهم يتخذون خيامهم من الجلود ويجوز أن يتناول المتخذة من الصوف والوبر والشعر فإنها من حيث أنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها .

﴿تستخفونها﴾ أي يخف عليكم حملها في الأسفار وغيرها ولهذا قال ﴿يوم ظعنكم﴾ أي في يوم سيركم ورحيلكم في أسفاركم ، والظعن بفتح العين وسكونها وهما لغتان قرىء بهما كالنهر والنهر وهو سير أهل البادية للانتجاع

والتحول من موضع الى موضع والظعن الهودج أيضاً ، قال ابن عباس : بعض بيوت السيارة بنيانه في ساعة .

﴿ويوم اقامتكم﴾ أي حضركم والمعنى لا يثقل عليكم حملها في الحالين ﴿و﴾ جعل لكم ﴿من أصوافها وأوبارها وأشعارها﴾ والأنعام تعم الإبل والبقر والغنم كما تقدم والأصواف للغنم والأوبار للإبل والأشعار للمعز وهي من جملة الغنم فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع كل واحد منها لواحد من الثلاثة أعني الإبل ونوعي الغنم ولم يذكر القطن والكتان لأنهما لم يكونا ببلاد العرب .

﴿أثاثاً﴾ هو متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث أي كثير مجتمع يقال أث أي كثر وتكاثف ، وقيل للمال أثاث إذا كثر ، قال الخليل : اثاثاً أي منضماً بعضها الى بعض من أث إذا كثر .

قال الفراء : لا واحد له ﴿ومتاعاً﴾ هو ما يتمتع به بأنواع التمتع ، قال الخليل : الأثاث والمتاع واحد وجمع بينهما لاختلاف لفظيهما وعلى قول أبي زيد الانصاري أن الأثاث المال أجمع الإبل والغنم والعبيد ، والمتاع يكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام .

وقيل إن الأثاث ما يكتسي به الانسان ويستعمله من الغطاء والوطاء ، والمتاع ما يفرش في المنازل من الفرش والأكسية ويتزين به ، ومعنى ﴿الى حين﴾ الى أن تقضوا أوطاركم منه أو الى أن يبلى ويفنى أو الى الموت أو الى القيامة .

ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام أو أبنية يستظل بها لفقر أو لعارض آخر فيحتاج الى أن يستظل بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك ، نبه سبحانه على ذلك فقال ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ أي أشياء تستظلون بها من شدة الحر والبرد كالأشياء المذكورة وهي ظلال الأبنية والجدران والأشجار والحاصل أن الظلال تعم الأشياء التي تظل ثم لما كان

المسافر قد يحتاج الى كن يأوي اليه في نزوله والى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد نبه سبحانه على ذلك فقال :

﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ جمع كن وهو ما يستكن به من المطر وشدة الحر والبرد وفي المختار الكن السترة والجمع أكنان والأكنة الأغطية ، وقال الكسائي كن الشيء ستره وبابه رد ، وفي القاموس الكن بالكسر وقاء كل شيء وستره كالكنة والكنان كسرهما والكن البيت جمعه أكنان وأكنة وكنه كناً وكنوناً وأكنه وكننه واكتنه ستره واستكن استتر كاكتن والكنة جناح يخرج من حائط او سقيفة فوق باب الدار أو ظله هنالك او مخدع انتهى .

وهي هنا الغيران والأسراب في الجبال ونحوه جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون اليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها لأن الإنسان غني أو فقير فالغني يستصحب معه الخيام في سفره ليسكن فيها ، واليه الإشارة في الآية المتقدمة ، والفقير يسكن في ظلال الأشجار والحيطان والكهوف والى هذه الإشارة في هذه الآية وكانت بلاد العرب شديدة الحرارة وحاجتهم الى الظلال وما يدفع شدة الحر وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعاني في معرض الامتنان عليهم بها لأن النعمة عليهم فيها ظاهرة .

﴿وجعل لكم سرابيل﴾ جمع سربال وهي القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها ، قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال ﴿تقيكم الحر﴾ أي تدفع عنكم ضرر الحر والبرد وهو ما عليه أكثر المفسرين من أنه من حذف المعطوف للعلم به .

قال الشهاب في الريحانة في الآية نكتة لطيفة لم ينبهوا عليها وهو أنه إنما اقتصر على الحر لأنه أهم هنا لما عرف من غلبة الحر على ديار العرب ثم إن ما يقي الحر يحصل به برودة في الهواء في الجملة فوقاية الحر إنما هي لتحصيل البرد ، وهذا فيه من اللطف ما هو ألطف من النسيم ، فلِلّه در التنزيل فكم فيه من أسرار لا تتناهى انتهى ، ونظيره بيدك الخير أي والشر لأن

الخير مطلوب العباد من ربهم دون الشر أو لتقدم وقاية البرد في قوله لكم فيها دفء .

﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ وهي الدروع والجواشن وسائر ما يلبس في الحرب من السلاح تتقون بها الطعن والضرب والرمي والمعنى انها تقيكم البأس الذي يصل من بعضكم الى بعض في الحرب ﴿كذلك﴾ الإتمام البالغ ﴿يتم نعمته عليكم﴾ فإنه سبحانه قد منَّ على عباده بصنوف النعم المذكورة هنا وبغيرها وهو بفضله واحسانه سيتم نعمة الدين والدنيا ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي إرادة أن تسلموا فإن من أمعن النظر في هذه النعم لم يسعه إلا الإسلام والانقياد للحق .

وقرأ ابن عباس وعكرمة من السلامة من الجراح ، وقرأ الباقون من الإسلام قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العامة لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح ، وقيل الخطاب لأهل مكة أي لعلكم ياأهل مكة تخلصون لله الربوبية والحمل على العموم أولى وافرد النعمة هنا لأن المراد بها المصدر .

﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن الإسلام ولم يقبلوا ما جئت به فقد تمهد عذرك وفيه التفات وجواب الشرط محذوف أي فلا لوم عليك وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم والتعبير بالتولي إشارة الى أن الأصل فطرة الإسلام وخلافها عارض متجدد والمعنى إن داموا على التولي لظهور توليهم .

﴿فإنما عليك البلاغ﴾ لما أرسلت به اليهم وقد فعلت ذلك بهم ﴿المبين﴾ أي الواضح وليس عليك غير ذلك وصرف الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسلية له ، وهذا قبل الأمر بالقتال فتكون الآية منسوخة الحكم وهو لا يظهر إلا لو قدر جواب الشرط فأعرض عنهم ولا تقاتلهم مع أن أكثر المفسرين قدروه بقولهم فلا عتب عليك ولا مؤاخذة في عدم ايمانهم لأنك بلغت ما أمرت بتبليغه وهدايتهم من الله لا اليك ، وهذا لا ينافي أن يكون مأموراً بقتالهم .

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

ثم استأنف لبيان توليهم فقال ﴿يعرفون نعمة الله﴾ التي عدَّدها في هذه السورة ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه ﴿ثم ينكرونها﴾ بما يقع عنهم من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة حيث يقولون هي من الله ولكنها بشفاعة الأصنام وحيث يقولون انهم ورثوا تلك النعم من آبائهم وأيضاً لكونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الرب سبحانه وفي وجوه الخير التي أمرهم الله بصرفها فيها ، وقيل نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونه صلى الله عليه وسلم ثم ينكرون نبوته .

وقيل هي الاسلام وجيء بثم للدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لأن من عرف النعمة حقه أن يعترف لا ان ينكر ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ بالله أو الجاحدون لنعم الله .

وعبر هنا بالأكثر عن الكل لأنه قد يذكر الأكثر ويراد به الجميع واليه أشار في التقرير أو أراد بالأكثر العقلاء دون الاطفال ونحوهم أو أراد كفر الجحود ولم يكن كفر كلهم كذلك بل كان كفر بعضهم كفر جهل وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ .

ولما بيَّن سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وان أكثرهم كافرون أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة فقال ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نبعث﴾ أي نحيي ونخرج ﴿من كل أمة شهيداً﴾ أو المعنى يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه وشهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالايمان والتصديق وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب .

قال ابن عباس : شهيدها نبيها ، على أنه قد بلغ رسالات ربه ، قال الله ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه وذلك اليوم هو يوم القيامة .

﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار إذ لا حجة لهم ولا عذر كقوله سبحانه ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ أو في كثرة الكلام أو في الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف أو في حالة شهادة الشهود ، بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود أو لا يؤذن لهم في معارضة الشهود بإلقاء معذرة أو ادلاء بحجة بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك ، وايراد ﴿ثم﴾ ههنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبىء عن الاقناط الكلي أشدّ من ابتلائهم بشهادة الأنبياء .

﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم العتبى أي الرجوع الى ما يرضي الله من العبادات ، لأن العتاب إنما يطلب لأجل العود الى الرضاء ، فإذا كان على عزم السخط فلا فائدة في العتاب . والمعنى أنهم لا يسترضون أي لا يكلفون أن يرضوا ربهم . لأن الآخرة ليست بدار عمل ولا تكليف ، ولا يتركون الى رجوع الدنيا فيتوبون .

وأصل الكلمة من العتب وهو الموجدة ، يقال عتب عليه يعتب اذا وجد عليه وبابه ضرب ونصر ، فإذا أفاض عليه ما عاتب فيه عليه ، قيل عاتبه فإذا

رجع الى مسرته قيل أعتبه والاسم العتبى وهو رجوع المعتوب عليه الى ما يرضي العاتب قاله الهروي ، فالاستعتاب التعرض لطلب الرضاء ، وهذا باب منسد على الكفار في الآخرة .

وفي الخطيب أي لا تزال عتباهم وهي ما يعتبون عليها ويلامون ؛ يقال استعتبت فلاناً أي أزلت عتباه ، انتهى . واستفعل بمعنى أفعل غير مستنكر .

قال الخليل : العتاب مخاطبة الادلال ومذاكرة الموجدة ، وعاتبه معاتبة وعتاباً واعتبه سره بعدما ساء واستعتب واعتب بمعنى واستعتب أيضاً طلب أن يعتب ، أي استرضاه فأرضاه .

﴿وإذا رأى﴾ أي أبصر ﴿الذين ظلموا﴾ أي أشركوا وكفروا ﴿العذاب﴾ الذي يستحقونه بشركهم وهو عذاب جهنم ﴿فلا يخفف﴾ ذلك العذاب ﴿عنهم ولا هم يُنظرون﴾ أي لا يمهلون ولا يؤخرون ليتوبوا إذ لا توبة هنالك .

﴿وإذا رأى الذين أشركوا﴾ يوم القيامة ﴿شركاءهم﴾ مفعول به والاضافة لأدنى ملابسة باعتبار ادعائهم شركتها لله ، أي أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها في الدنيا لما تقرر من أنهم يبعثون مع المشركين ، يقال لهم من كان يعبد شيئاً فليتبعه كما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم .

﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو﴾ أي نعبدهم ونتخذهم آلهة ﴿من دونك﴾ ونطيعهم ، ولعلهم قالوا ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم ، قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين بهذا القول حالة الذنب على تلك الأصنام تعللاً بذلك واسترواحاً مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة . ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه .

﴿فألقوا اليهم﴾ أي ألقى أولئك الشركاء من الأصنام والأوثان والشياطين ونحوهم الى المشركين والكفار ﴿القول﴾ وعن مجاهد قال حدثوهم وقالوا لهم ﴿إنكم﴾ أيها المشركون ﴿لكاذبون﴾ فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا الذي هو مقصودكم من هذا القول ، أو في تسميتنا آلهة ، وما دعوناكم الى عبادتنا بل عبدتم أهواءكم .

فإن قيل ان المشركين أشاروا الى الأصنام ونحوها ان هؤلاء شركاؤنا وقد كانوا صادقين في ذلك فكيف كذبتهم الأصنام ونحوها .

فالجواب بأن مرادهم من قولهم هؤلاء شركاؤنا ، هؤلاء شركاء الله في المعبودية فكذبتهم الأصنام في دعوى هذه الشركة ، والأصنام والأوثان وإن كانت لا تقدر على النطق فإن الله سبحانه ينطقها في تلك الحال لتخجيل المشركين وتوبيخهم . وهذا كما قالت الملائكة بل كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم . قال الكرخي : إن المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم لها والمنفي عنهم في الكهف النطق بالإجابة الى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافي .

﴿والقوا الى الله يومئذ السلم﴾ أي ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذاب الله والخضوع لعزته ، وبه قال ابن جريج وعن قتادة نحوه ، وقيل المعنى استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم ، لكن الانقياد في هذا اليوم لا ينفعهم لانقطاع التكليف فيه ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ضاع وبطل وزال ما افتروا من أن لله سبحانه شركاء وما كانوا يزعمون من شفاعتهم لهم وأن عبادتهم لهم تقربهم الى الله سبحانه .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

﴿الذين كفروا﴾ في أنفسهم ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله﴾ أي عن طريق الحق وهي طريق الاسلام والايمان بأن منعوهم من سلوكها وحملوهم على الكفر ، وقيل المراد به الصد عن المسجد الحرام والعموم أولى .

﴿زدناهم عذاباً﴾ لأجل الاضلال لغيرهم ﴿فوق العذاب﴾ الذي استحقوه لأجل ضلالهم ، وقيل المعنى زدنا القادة عذاباً فوق عذاب أتباعهم أي أشد منه وقيل ان هذه الزيادة هي اخراجهم من حر النار الى برد الزمهرير وغير ذلك . وعن ابن مسعود قال : زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ينهشونهم في جهنم ، وروي مثله عن البراء مرفوعاً أخرجه الخطيب وغيره .

وقال سعيد بن جبير : حيات كالبخت وعقارب أمثال البغال تلسع احداهن اللسعة فيجد صاحبها ألمها أربعين خريفاً ، وعن ابن عباس قال : خمسة أنهار من نار صبها الله عليهم يعذبون بعضها بالليل وبعضها بالنهار .

وقد روى ابن مردويه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «الزيادة خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار ثلاثة انهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار ، فذلك قوله ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ ﴿بما كانوا يفسدون﴾ بصدهم الناس عن سبيل الله مع ما

يستحقونه من العذاب على الكفر .

﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً﴾ أي نبياً يشهد ﴿عليهم من أنفسهم من﴾ أي جنسهم إتماماً للحجة وقطعاً للمعذرة ، وهو أعدل شاهد عليها ، وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد والتهديد .

وقال الخطيب : كرر سبحانه التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السابقة وهو ان الشهادة تقع على الأمم لا لهم وتكون بحضرتهم ﴿وجئنا بك﴾ يامحمد ؛ وإيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه الصلاة والسلام ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع .

﴿شهيداً﴾ تشهد ﴿على هؤلاء﴾ أي على هذه الأمم ، وقيل على أمتك وقومك ، هكذا قال الجلال ، وسنده قوله سابقاً ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً﴾ الخ ومثله في البيضاوي ، وفي الشهاب عليه ، وقيل الآية مسوقة لشهادته على الأنبياء فتخلوا عن التكرار ، ورد بأن المراد بشهادته على أمته تزكيته وتعديله لهم وقد شهدوا على تبليغ الأنبياء ، وهذا لم يعلم مما مر وهو الوارد في الحديث ، وقد تقدم مثل هذا في البقرة والنساء .

﴿ونزلنا عليك﴾ في الدنيا ﴿الكتاب﴾ أي القرآن والجملة مستأنفة ﴿تبياناً لكل شيء﴾ أي بياناً له والتاء للمبالغة فالتبيان أخص من مطلق البيان على قاعدة أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، ونظيره من المصادر التلقاء ولم يأت غيرهما وفي الأسماء كثير نحو التمساح والتمثال .

ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ ومعنى كونه تبياناً لكل شيء أن فيه البيان البليغ لكثير من الأحكام والاحالة فيها بقي منها على السنة ، وأمرهم باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يأتي به من الأحكام وطاعته كما في الآيات القرآنية الدالة على ذلك .

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إني أوتيت القرآن ومثله معه »(١) . وعن ابن مسعود قال : تبياناً لكل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن وعنه قال : من أراد العلم فليؤثر القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين .

قال الكرخي : إما بتبيينه في نفس الكتاب أو بإحالته على السنة لقوله تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ أو بإحالته على الاجماع كما قال تعالى ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ الآية . أو على القياس كما قال ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ والاعتبار النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس .

فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها وكلها مذكورة في القرآن ، فكان تبياناً لكل شيء فاندفع ما قيل ، كيف قال الله ذلك ونحن نجد كثيراً من أحكام الشريعة لم يعلم من القرآن نصاً كعدد ركعات الصلاة ومدة المسح والحيض ومقدار حد الشرب ونصاب السرقة وغير ذلك ، ومن ثم اختلفت الأمة في كثير من الأحكام . أ هـ .

وفي هذا التقرير بحث ونظر ذكر في محله فليراجعه ؛ ولذلك قال الشهاب على قول البيضاوي بالإحالة الى السنة أو القياس وفيه تأمل . انتهى . وقد احتج بهذه الآية جمع من أهل العلم على منع التقليد .

﴿وهدى﴾ للعباد من الضلالة ﴿ورحمة﴾ لهم ﴿وبشرى للمسلمين﴾ خاصة دون غيرهم ، أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة لهم لانهم المنتفعون بذلك . ثم لما ذكر سبحانه أن في القرآن تبيان كل شيء ذكر عقبه آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك فقال .

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٦٤٠ ـ تخريج المشكاة ١٦٣ .

﴿ان الله يأمر﴾ أي فيما نزله تبياناً لكل شيء وهدى وبشرى ﴿بالعدل والاحسان﴾ وإيثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجدد والاستمرار ، وقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل والإحسان ، فقيل العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان أداء الفرائض . وقيل العدل الفرض والاحسان النافلة .

وقيل العدل استواء العلانية والسريرة والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية ، وقيل العدل التوحيد والاحسان التفضل ، وقيل العدل خلع الانداد والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .

وقيل العدل التوحيد والاحسان الاخلاص ، وقيل العدل في الأفعال والإحسان في الأقوال فلا يفعل إلا ما هو عدل ولا يقول إلا ما هو حسن . وقيل غير ذلك مما لا حاجة الى ذكره ، والعدل هو المساواة في كل شيء من غير شطط ولا وكس .

والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الافراط والتفريط فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن تكون عبادة في الدين على حالة متوسطة ليست بمائلة الى جانب الافراط وهو الغلو المذموم في الدين ولا الى جانب التفريط وهو الإخلال بشيء مما هو من أمر الدين اعتقاداً كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك ، والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر ، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير .

وأما الاحسان فمعناه اللغوي يرشد الى أنه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوع ، ومن الاحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها ولم يذكر متعلقات العدل والاحسان والبغي ليعم جميع ما يعدل فيه ويحسن به واليه وينبغي فيه وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم انه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه فقال في حديث ابن عمر في الصحيحين « والاحسان ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] وهذا هو المعنى بالإحسان شـرعـاً .

﴿وايتاء ذي القربى﴾ ما تدعو اليه حاجتهم وفي الآية ارشاد الى صلة الأقارب والأرحام وترغيب في التصدق عليهم ، وهو من باب عطف الخاص على العام ان كان اعطاء الأقارب قد دخل تحت العدل والاحسان ، وقيل من باب عطف المندوب على الواجب ، ومثل هذه الآية قوله ﴿وآت ذا القربى حقه﴾ وانما خص ذوي القربى لأن حقهم آكد فان الرحم قد اشتق الله اسمها من اسمه الشريف وجعل صلتها من صلته وقطيعتها من قطيعته فيستحب أن يصلهم من فضل ما رزقه الله فإن لم يكن له فضل فدعاء حسن وتودد .

﴿وينهى عن الفحشـاء﴾ هي الخصلة المتـزايـدة في القبْـح من قـول أو فعـل ، وقيل هي الزنا وقيل البخل ﴿والمنكر﴾ وهو ما أنكره الشرع بالنهي عنه وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف أنواعها ، وقيل هو الشرك ﴿والبغي﴾ قيل هو الكبر، وقيل هو الظلم وقيل الحقد وقيل التعدي ، وحقيقتـه تجاوز الحـد فيشمل هذه المذكورة ويندرج بجميع اقسامه تحت المنكر وإنما خص بالذكر اهتماماً به لشدة ضـرره ووبـال عاقبته وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله سبحانه ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ وهذه الآية من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وعن عبدالملك بن عمير أن هذه الآية لما بلغت أكثم بن صيفي حكيم العرب قال اني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ثم قال لقومه كونوا في هذه الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناباً وكونوا فيه أولاً ولا تكونوا فيه آخـراً .

---

(١) مسلم/ ٨.

وعن ابن عباس قال : أعظم آية في كتاب الله ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر التي في النحل ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان﴾ وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ، وأشد آية في كتاب الله رجاء ﴿يا عبادي﴾ الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآية .

وعن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له : يا ابن أخي أعد عليّ فأعادها عليه فقال له الوليد والله إن له لحلاوة وان عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر ، وعن الحسن انه قرأ هذه الآية الى آخرها ؛ ثم قال : إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة فوالله ما ترك العدل والاحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً الا جمعه وزجر عنه .

وفي المستدرك عن ابن مسعود وهذه أجمع آية في القرآن للخير والشر ، قال البيضاوي : وبسببها أسلم عثمان بن مظعون ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة ولعل إيرادها عقب قوله ﴿ونزلنا عليك الكتاب﴾ للتنبيه عليه .

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله ﴿يعظكم﴾ بما ذكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي إرادة أن تتذكروا ما ينبغي تذكره فتتعظوا بما وعظكم الله به فإنه كاف في باب الوعظ والتذكير.

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم﴾ خص الله سبحانه الايفاء من جملة المأمورات التي تضمنها قوله ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان﴾ وظاهرة العموم في كل عهد يقع من الانسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره ، وخص هذا العهد المذكور في الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام وهو خلاف ما يفيده العهد المضاف الى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله ، ولو فرض ان السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجباً لقصره على السبب فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وفسره بعضهم باليمين وهو مدفوع بذكر الوفاء بالايمان بعده حيث قال سبحانه :

﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ أي بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها بزيادة الاسماء والصفات ، وقيل ان تأكيد اليمين هو حلف الانسان على الشيء الواحد مراراً ، وحكى القرطبي عن ابن عمر أن التوكيد هو ان يحلف مرتين فإن حلف واحدة فلا كفارة عليه .

وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالايمان المؤكدة لا بغيرها مما لا تأكيد فيه فإن تحريم النقض يتناول الجميع ، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من

الاثم فوق الاثم الذي في نقض ما لم يؤكد منها ، يقال وكد وأكد توكيداً وتأكيداً وهما لغتان .

وقال الزجاج : الاصل الواو والهمزة بدل منها ، وقيل ليست الهمزة بدلاً من الواو كما زعمه أبو اسحاق لأن الاستعمالين في المادتين متساويان فليس ادعاء كون أحدهما أصلاً أولى من الآخر وتبع مكي الزجاج في ذلك ثم قال ولا يحسن ان يقال الواو بدل من الهمزة ولذلك تبعه الزمخشري ايضاً.

وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الأحاديث الصحيحة من قوله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه »[1] حتى بالغ في ذلك صلى الله عليه وسلم فقال « والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني »[2] وهذه الألفاظ ثابتة في الصحيحين وغيرهما ويخص أيضاً من هذا العموم يمين اللغو لقوله سبحانه ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لاخراج أيمان اللغو وقد تقدم بسط الكلام على الايمان في البقرة .

﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ أي شهيداً إما على التشبيه فهو استعارة أو باستعماله في لازم معناه فهو مجاز مرسل ، وقيل حافظاً ، وقيل ضامناً وقيل رقيباً لأن الكفيل يراعي حال المكفول له ﴿ان الله يعلم ما تفعلون﴾ من وفاء العهد ونقضه فيجازيكم بحسب ذلك ان خيراً فخير وان شراً فشر وفيه ترغيب وترهيب .

ثم أكد وجوب الوفاء تحريم النقض فقال ﴿ولا تكونوا﴾ فيما تصنعون

---

(١) مسلم ١٦٥٠ .

(٢) مسلم ١٦٤٩ ـ البخاري ١٤٧٦ .

من النقض بعد التوكيد ﴿كالتي نقضت غزلها﴾ أي ماغزلته ﴿من بعد قوة﴾ أي ابرام الغزل وإحكامه . عن ابن عباس ان سعيدة الاسدية كانت تجمع الشعر والليف فنزلت فيها هذه الآية ، وعن أبي بكر بن حفص مثله وفي الروايتين جميعاً أنها كانت مجنونة ، وعن السدي في سبب نزولها قال : كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة كانت تغزل فإذا أبرمت غزلها نقضته .

وعن عبدالله بن كثير معناه ، وقيل هي امرأة حمقاء اسمها ريطة بنت سعد بن تيم قرشية فالمشبه به معين على هذا ، وفي الكرخي المراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه من غير تعيين لأن القصد بالأمثال صرف المكلف عن الفعل إذا كان قبيحاً والدعاء اليه إذا كان حسناً ، وذلك يتم بدون التعيين إذ لا يلزم في التشبيه أن يكون المشبه به موجوداً في الخارج .

﴿أنكاثا﴾ جمع نكث بكسر النون ما ينكث فتله ليغزل ثانياً بمعنى منكوث أي منقوض يقال نكث الرجل العهد نكثاً من باب قتل نقضه ونبذه فانتكث ، قال ابن قتيبة هذه الآية متعلقة بما قبلها والتقدير وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان فانكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكاثاً أي اقطاعاً واجزاء .

﴿تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم﴾ قال الجوهري : الدخل المكر والخديعة ، وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل ، وقيل الدخل ما أدخل في الشيء على فساده ، وقال الزجاج : غشاً وغلاً ، وقيل أصل الدخل العيب والعيب ليس من الشيء الذي يدخل فيه ﴿أن تكون أمة﴾ أي بأن تكون جماعة أو لأجل وجدانكم أمة ﴿هي أربى من أمة﴾ جماعة أي أكثر عدداً منها وأوفر مالاً ، يقال ربى الشيء يربو إذ كثر ، قال الفراء : المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالايمان قيل وقد كانت قريش إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا

أعداءهم قاله مجاهد : وقيل هو تحذير للمؤمنين ان يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿إنما يبلوكم الله به﴾ أي يختبركم بكونكم أكثر وأوفر لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء أم تنقضون اغتراراً بالكثرة ، فالضمير في به راجع الى مضمون الجملة المتقدمة ، أي إنما يبلوكم الله بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون أو إنما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم .

﴿وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ فيوضح الحق والمحقين ويرفع درجاتهم ويبين الباطل والمبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه او يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة والنار وفي هذا انذار وتحذير من مخالفة الحق والركون الى الباطل .

ثم بيَّن سبحانه انه قادر على ان يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء أو على الايمان فقال ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ متفقة على الحق ﴿ولكن﴾ بحكم الإلهية ﴿يضل من يشاء﴾ بخذلانه إياهم عدلاً منه فيهم ﴿ويهدي من يشاء﴾ بتوفيقه إياهم فضلاً منه عليهم ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ ولهذا قال ﴿ولنسألن﴾ يوم القيامة سؤال تبكيت لا سؤال استفسار وتفهم وهو المنفي في غير هذه الآية ﴿عما كنتم تعملون﴾ من الأعمال في الدنيا لتجازوا عليها ، واللام في ليبين وفي لنسألن هي الموطئة للقسم .

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾

ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الايمان نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة فقال ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم﴾ قال الشهاب وغيره : ولما كان اتخاذ الأيمان دخلاً قيداً للمنهى عنه كان منهياً عنه ضمناً فصرح به هنا تأكيداً ومبالغة في قبح المنهى عنه .

قال في الجمل وعلى هذا فهو تأسيس لا تأكيد ولا تكرير ، قال أبو حيان : لم يتكرر النهي وإنما الذي سبق اخبار بأنهم اتخذوا أيمانهم دخلاً معللاً بشيء خاص هو ان تكون أمة هي أربى من أمة وجاء النهي بقوله هذا استئنافاً للنهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً على العموم ، اي في كل حال ، فيشمل جميع الصور من الخديعة في المبايعة وقطع الحقوق المالية وغير ذلك .

قال الواحدي : قال المفسرون وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد على الاسلام ونصرة الدين ، واستدلوا على هذا التخصيص بما في قوله فتزل قدم بعد ثبوتها ، من المبالغة ، وبما في قوله وتذوقوا السوء بما صددتم لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدوا غيرهم عن الدخول في الاسلام ؛ وعلى تسليم أن هذه

الأيمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هي سبب نزول هـذه الآية ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿فتزل قدم﴾ أي قدم من اتخذ يمينه دخلاً عن محجة الحق ﴿بعد ثبوتها﴾ عليها ورسوخها فيها ؛ قيل وافراد القدم وتنكيرها للايذان بأن زلل قدم واحدة أية قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة ، وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه ، لان القدم اذا زلت نقلت الانسان من حال خير الى حال شر ، ويقال لمن اخطأ في شيء زلت به قدمه .

﴿وتذوقوا السوء﴾ أي العذاب السيء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿بما صددتم﴾ أي بسبب امتناعكم وصدودكم ﴿عن سبيل الله﴾ وهو الاسلام أو بسبب صدكم لغيركم عن الاسلام ، فإن من نقض البيعة وارتد اقتدى به غيره في ذلك فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولهذا قال ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ أي متبالغ في العظـم، وهو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا .

ثم نهاهم سبحانه عن الميل الى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لأجله فقال ﴿ولا تشتروا بعهد الله﴾ الذي تركتموه ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي لا تأخذوا في مقابلة عهدكم عوضاً يسيراً حقيـراً ، وكل عرض دنيوي وان كان في الصورة كثيراً فهو لكونه ذاهباً زائلاً يسيراً . ولهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند الله فقال :

﴿إنمـا عند الله﴾ وفي رسم ان هـذه اختـلاف بـين المصـاحف العثمـانيـة ففي بعضها وصلها بما ، وفي بعضها فصلها عنها كما ذكر ابن الجزري ، أي ما عنده من النصر في الدنيا والغنائم والرزق الواسع وما عنده في الآخرة من نعيم الجنة الذي لا يزول ولا ينقطع ﴿هو خير لكم﴾ ثم علل النهي عن أن يشتروا

بعهد الله ثمناً قليلاً بقوله ﴿إن كنتم تعلمون﴾ وتميزون بين الأشياء .

ثم ذكر دليلاً قاطعاً على حقارة عرض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال ﴿ماعندكم ينفد وما عند الله باق﴾ والنفاد الفناء والذهاب ، يقال نفد بكسر العين ينفد بفتحها نفاداً ونفوداً ، وأما نفذ بالمعجمة ففعله نفذ بالفتح ينفذ بالضم ، ويقال أنفد القوم اذا فنى زادهم ، وباق بثبوت الياء وحذفها مع سكون القاف وهما سبعيتان .

ومعلوم لكل عاقل ان ما ينفد ويزول وان بلغ في الكثرة الى أي مبلغ فهو حقير يسير ، وما كان يبقى ولا يزول فهو كثير جليل أما نعيم الآخرة فظاهر ؛ وأما نعيم الدنيا الذي أنعم الله به على المؤمنين فهو وان كان زائلاً لكنه لما كان متصلاً بنعيم الآخرة كان من هذه الحيثية في حكم الباقي الذي لا ينقطع .

ثم قال ﴿ولنجزين﴾ بالنون ففيه التفات ، وقرىء بالياء واللام هي الموطئة للقسم أي والله لنجزين ﴿الذين صبروا﴾ بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف والفاقة وجهاد الكافرين والصبر على ما ينالهم منهم من الأذى ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من الطاعات ، قيل وانما خص أحسن أعمالهم لأن ما عداه وهو الحسن مباح والجزاء انما يكون على الطاعة ، وقيل المعنى ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من أعمالهم ، كقوله ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ .

وقيل ﴿أحسن﴾ هنا ليس للتفضيل بل بمعنى الحسن أو لنجزينهم بحسب أحسن افراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل لا إنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن ، والأحسن بالأحسن ، كذا قيل ، وفيه ما لا يخفى من العدة

الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه في سلك الصبر الجميل .

﴿ومن عمل صالحاً﴾ هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح وتعميم للوعد ، والمعنى من عمل صالحاً أي عمل كان ﴿من ذكر أو أنثى﴾ زيادة التمييز بذكر وانثى مع كون لفظ من شاملاً لهما لقصد التأكيد والمبالغة في تقرير الوعد . وقيل إن لفظ من ظاهر في الذكور فكان في التنصيص على الذكر والأنثى بيان لشموله للنوعين .

﴿وهو مؤمن﴾ جعل سبحانه الايمان قيداً في الجزاء المذكور لأن عمل الكافر لا اعتداد به لقوله سبحانه ﴿وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون ، فقيل بالرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا وإذا صار الى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل .

روي ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك ، وقيل بالقناعة قاله الحسن البصري وزيد بن وهب ، ووهب بن منبه ، وروي أيضاً عن عليّ وابن عباس قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو « اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واخلف عليَّ كل غائبة لي بخير» .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة عن ابن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه »[٢] وأخرج الترمذي والنسائي من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول

---

(١) مسلم ١٠٥٤ .

الله صلى الله عليه وسلم يقول « قد أفلح من هدى الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به »[1].

وقيل بالكسب الطيب والعمل الصالح ، قاله ابن عباس ، وقيل بالتوفيق الى الطاعة قاله الضحاك ، وقيل هي حياة الجنة ، روي هذا عن مجاهد وقتادة وغيرهما وحكي عن الحسن أنه قال : لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة ، وقيل الحياة الطيبة هي السعادة ، روي ذلك عن ابن عباس ، وقيل هي المعرفة بالله ، حكي ذلك عن جعفر الصادق رضي الله عنه .

وقال أبو بكر الوراق : هي حلاوة الطاعة ، وقال مقاتل : هي العيش في الطاعة وقيل رزق يوم بيوم .

وقال السدي : إنما هي تحصل في القبر لأن المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها ، وقال سهل بن عبد الله التستري : هي ان ينزع عن العبد تدبير نفسه ويرد تدبيره الى الحق ، وقيل هي الاستغناء عن الخلق والافتقار الى الحق .

وأكثر المفسرين على أن الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة ، لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله ﴿ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾ وقد قدمنا قريباً تفسير الجزاء بالأحسن ووحد الضمير في ﴿لنحيينه﴾ وجمعه في لنجزينهم حملاً على لفظ ﴿من﴾ وعلى معناه .

ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التي تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية فقال ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ الفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح ، وقيل هذه الآية

(١) الترمذي كتاب الزهر باب ٣٥ ـ الإمام احمد ٥/٢٥٥ .

متصلة بقوله ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ والتقدير فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله .

قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة : معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ ، وهذا على مذهب الأكثرين من الفقهاء والمحدثين من أن الاستعاذة تطلب قبل القراءة ، وليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن ، ومثله إذا أكلت فقل بسم الله .

قال الواحدي : وهذا اجماع الفقهاء أن الاستعاذة قبل القراءة إلا ما روي عن أبي هريرة وابن سيرين ومالك وحمزة من القراء فإنهم قالوا : الاستعاذة بعد القراءة ذهبوا الى ظاهر الآية ، واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وداود الظاهري .

وأما مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة وفقهاء الامصار انها قبل القراءة كما تقدم ، ومعنى فاستعذ بالله اسأله سبحانه أن يعيذك ﴿من الشيطان الرجيم﴾ أي من وساوسه لئلا يوسوسك في القراءة وفيه دليل على أن المصلي يستعيذ في كل ركعة لأن الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياساً ، وتعقيبه لذكر العمل الصالح والوعد عليه ايذان بأن الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل .

وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على انها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم لأنه اذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند إرادة غيره أولى كذا قيل وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم للاشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة لأنه صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته ، فكيف بسائر أمته ، قال السيوطي في الآية ، أي قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم انتهى .

وهذا بيان للأفضل وإلا فأصل السنة يحصل بأي صيغة كانت من صيغ الاستعاذة ، وقد ذهب الجمهور الى أن الأمر في الآية للندب ، وروي عن

إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

عطاء الوجوب أخذاً بظاهر الأمر ، والضمير في ﴿انه﴾ للشأن او للشيطان ﴿ليس له سلطان﴾ أي تسلط تعليل لمحذوف هو جواب الأمر تقديره فإن استعذت كفيت شره ﴿على﴾ اغواء ﴿الذين آمنوا﴾ وحكى الواحدي عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطان بالحجة وقالوا المعنى ليس له حجة على المؤمنين في اغوائهم ودعائهم الى الضلالة .

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي يفوضون أمورهم اليه في كل قول وفعل فان الايمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم وان وسوس لأحد منهم لا تؤثر فيه وسوسته وهؤلاء الجامعون بين الايمان والتوكل هم الذين قال فيهم ابليس ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ وقال الله فيهم ﴿ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ .

ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان فقال : ﴿انما سلطانه﴾ أي تسلطه ﴿على﴾ اغواء ﴿الذين يتولونه﴾ أي يتخذونه ولياً ويطيعونه في وساوسه يقال توليته إذا أطعته وتوليت عنه إذا أعرضت عنه وهذا مقابل لقوله وعلى ربهم يتوكلون ﴿والذين هم به﴾ أي بالله والباء للتعدية ﴿مشركون﴾ وقيل الضمير يرجع إلى الشيطان والباء للسببية أي والذين هم من أجله وبسبب وسوسته مشركون بالله وهذا مقابل لقوله على الذين آمنوا .

﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾[1] هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبهة كفرية ودفعها ومعنى التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها قال مجاهد : وهو كقوله ﴿ما ننسخ من آية او ننسها﴾ الخ . . وقد تقدم الكلام على النسخ في البقرة ﴿والله أعلم بما ينزل﴾ اعتراض دخل في الكلام أي أنه أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه وبما يغير وما يبدل من أحكامه ، وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار ، وقيل الجملة حالية وليس بظاهر .

وجواب إذا قوله ﴿قالوا﴾ أي كفار قريش الجاهلون للحكمة في النسخ ﴿إنما أنت﴾ يامحمد صلى الله عليه وسلم ﴿مفتر﴾ أي كاذب مختلق على الله فتقول عليه بما لم يقل حيث تزعم أنه أمرك بشيء ثم تزعم انه أمرك بخلافه فرد الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال :

﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ شيئاً من العلم أصلاً أو لا يعلمون حقيقة القرآن وهو انه اللفظ المنزل من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم للاعجاز بسورة منه المتعبد بتلاوته أو لا يعلمون بالحكمة في النسخ فإنه مبني على المصالح التي لا يعلمها إلا الله سبحانه فقد تكون في شرع هذا الشيء مصلحة موقتة بوقت ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره .

وفيه التخفيف على العباد ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف .

ثم بيَّن سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله وان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم افتراه فقال ﴿قل نزله﴾ أي القرآن المدلول عليه بذكر الآية ﴿روح القدس﴾ بضم الدال وسكونها سبعيتان والقدس التطهير والطهارة والمعنى نزله الروح المطهر من أدناس البشرية

---

(١) كانت هذه الآية أوضح دليل لنا على وجود النسخ في القرآن حين نشرنا بحثاً وافياً في الموضوع في كتابنا (الايمان واثاره والشرك ومظاهره) وذلك عندما أعلن بعض العلماء الذين نحترمهم رأيه في عدم وجود النسخ في القرآن والكتاب عموماً، مهم جداً.

وهو جبريل عليه السلام فهو من إضافة الموصوف الى الصفة كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير ﴿من ربك﴾ أي ابتداء تنزيله من عنده سبحانه ﴿بالحق﴾ أي متلبساً بكونه حقاً ثابتاً لحكمة بالغة .

﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ على الايمان فيقولون كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا ولأنهم ايضاً إذا عرفوا ما في النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الايمان ورسخت عقائدهم وقرىء من الاثبات ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ معطوفان على محل ليثبت أي تثبيتاً لهم وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الخصائل لغيرهم .

ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال ﴿ولقد نعلم﴾ علماً مستمراً ﴿انهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ وليس هو من عند الله كما هو يزعم ، واللام هي الموطئة أي والله لقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون انما يعلم محمداً القرآن بشر من بني آدم غير ملك .

وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه مازعموا فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانياً حداداً رومياً فأسلم ، وكان قريش إذا سمعوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبار القرون الأولى مع كونه أمياً قالوا إنما يعلمه جبر .

وقيل اسمه عايش أو يعيش عبد لبني الحضرمي وكان يقرأ الكتب الاعجمية ، وقيل غلام لبني عامر بن لؤي ، وقيل عنوا سلمان الفارسي ، وقيل عنوا نصرانياً بمكة اسمه بلعام وكان يقرأ التوراة ، وقيل عنوا رجلاً نصرانياً كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية ، وفي رواية اسمه عداس وقيل أرادوا بالبشر غلامين اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر ، وكانا صيقليَّين يعملان السيوف بمكة ، وكانا يقرآن كتاباً لهم ، وقيل كانا يقرآن التوراة والانجيل وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه فقال المشركون انما يتعلم منهما ؛ قاله عبدالله بن مسلم الحضرمي .

قال النحاس : وهذه الأقوال غير متناقضة لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال انه سلمان لأن هذه الآية مكية وهو إنما أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال ﴿لسان الذي يلحدون اليه﴾ أي لغته وكلامه ﴿أعجمي﴾ والالحاد الميل يقال لحد وألحد أي مال عن القصد ومنه لحد القبر لأنه حفرة مائلة عن وسطه ، وقد تقدم في الاعراف ، والمعنى لسان الذي يميلون اليه ويشيرون ويزعمون أنه يعلمك أعجمي يقال رجل أعجم وامرأة عجماء أي لا يفصحان والعجمة الاخفاء وهي ضد البيان والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجمياً .

قال الفراء والراغب : الاعجم الذي في لسانه عجمة وان كان في العرب والاعجمي هو الذي أصله من العجم ، وقال أبو علي الفارسي : العجمي المنسوب الى العجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم وكذلك الأعجم والأعجمي المنسوب الى العجم وان كان فصيحاً بالعربية والأعرابي الذي يسكن البادية والعربي الذي يسكن الأمصار من بلاد العرب .

﴿وهذا﴾ أي القرآن ﴿لسان﴾ أي كلام ﴿عربي مبين﴾ وسماه لساناً لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لساناً أو أراد باللسان البلاغة فكأنه قال وهذا قرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح فكيف تزعمون أن بشراً يعلمه من العجم وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي تشيرون اليه وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة .

فثبت بهذا أن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحي أوحاه الله اليه ، وليس هو من تعليم البشر الذي تشيرون اليه ولا هو آت به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله عز وجل وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لإبطال طعنهم ودفع كذبهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

ولما ذكر سبحانه جوابهم وبخهم وهددهم فقال ﴿ان الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أي لا يصدقون بها في علم الله ﴿لا يهديهم الله﴾ الى الحق الذي هو سبيل النجاة وهداية موصلة الى المطلوب لما علم من شقاوتهم ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾ بسبب ما هم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله .

ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رد عليهم بقوله ﴿انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ فكيف يقع الافتراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهورأس المؤمنين بها والداعين الى الايمان بهاوهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها فهم المفترون للكذب ، قال الزجاج : المعنى انما يفتري الكذب الذين اذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها هؤلاء أكذب الكذبة ، ثم سماهم الكاذبين فقال ﴿وأولئك﴾ المتصفون بذلك ﴿هم الكاذبون﴾ أي أن الكذب نعت لازم لهم وعادة من عاداتهم ، فهم الكاملون في الكذب اذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله ، وقولهم انما يعلمه بشر والتأكيد بالتكرار وإن ، وغيرهما ردا لقولهم إنما أنت مفتر .

﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ أي تلفظ وتكلم بالكفر أو فعل فعل كفر سواء كان مختاراً في ذلك او مكرهاً عليه فالاستثناء في قوله ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ متصل .

وقال القرطبي : أجمع المفسرون وأهل العلم على أن من أكره على الكفر

حتى خشي على نفسه القتل أنه لا اثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالايمان ، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر .

وحكى عن محمد بن الحسن أنه اذا أظهر الكفر كان مرتداً في الظاهر وفيما بينه وبين الله على الاسلام وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات ولا يرث أباه إن مات مسلماً ، وهذا القول مردود على قائله مدفوع بالكتاب والسنة .

وذهب الحسن البصري والاوزاعي والشافعي وسحنون الى ان هذه الرخصة إنما جاءت في القول واما في الفعل فلا رخصة مثل أن يكره على السجود لغير الله ، ويدفعه ظاهر الآية فانها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل كما تقدم ، والمعنى إلا من كفر بإكراه والحال أن قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر الى المدينة قال لأصحابه : « تفرقوا عني فمن كانت به قوة فليتأخر الى آخر الليل ومن لم تكن به قوة فليذهب أول الليل فإذا سمعتم بي قد استقرت لي الأرض فالحقوا بي » .

فأصبح بلال المؤذن وخباب وعمار وجارية من قريش كانت أسلمت فأخذهم المشركون وأبو جهل فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه فإذا ألبسوه إياه قال أحد أحد ، وأما خباب فجعلوا يجرونه في الشوك ، وأما عمار فقال لهم كلمة اعجبتهم تقية ، وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد ثم مدها فأدخل الحربة في قلبها حتى قتلها ، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بأمرهم ، واشتد على عمار الذي كان تكلم به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف كان قلبك حين قلت ، أكان منشرحا بالذي قلت أم لا ؟ قال : لا . فأنزل الله ﴿الا من أكره وقلبه مطمئن

بالايمان﴾وقيل نزلت في أناس من أهل مكة .

وقيل نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي أكرهه سيده على الكفر ، والأول أولى ، والحق أن الآية عامة في كل من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان وان كان السبب خاصاً ، وفيه دليل على أن محل الايمان هو القلب .

﴿ولكن﴾ الإستدراك واضح لأن قوله إلا من أكره قد يسبق الوهم الى الإستثناء مطلقاً فاستدرك هذا ، وقوله ﴿مطمئن﴾ لا ينفي ذلك الوهم ﴿من﴾ موصولة أو شرطية والأول أولى .

﴿شرح بالكفر صدراً﴾ أي اختاره ورضي به وطابت به نفسه ﴿فعليهم﴾ فيه مراعاة معنى ﴿من﴾ ولو راعى لفظها لأفرد وقال فعليه ﴿غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ في الآخرة .

عن ابن عباس قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير فتركوه ؛ فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما وراءك ؟ قال : شر ، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير ، قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالايمان ، قال « إن عادوا فعد » ، فنزلت ﴿إلا من أكره﴾ الخ . قال : فذاك عمار بن ياسر ، ولكن من شرح بالكفر صدراً عبد الله بن أبي سرح[1] ، أخرجه البيهقي والحاكم وصححه ، وفي الباب روايات مصرحة بأنها نزلت فيه .

وعن محمد بن سيرين قال : نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة وعن ابن عباس قال : هو عبدالله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل يوم فتح مكة ، فاستجار له عثمان بن عفان ، فأجاره النبي صلى الله عليه وسلم . وعن الحسن وعكرمة مثله ، وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمع للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه وعيد .

(١) المستدرك ، كتاب التفسير ٣٥٧/٢ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾

﴿ذلك﴾ أي الكفر بعد الايمان أو الوعيد بالغضب والعذاب ﴿بأنهم استحبوا الحياة الدنيا﴾ أي ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا الفانية ﴿على الآخرة﴾ الباقية الدائمة ﴿وأن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ في علمه الى الايمان به ولا يعصمهم من الزيغ .

ثم وصفهم بقوله ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة ﴿الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها ولا أبصروا الآيات التي يستدل بها على الحق ، وقد سبق تحقيق الطبع في أول البقرة ، ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة فقال ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ عما يراد بهم من العذاب في الآخرة ، وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون في الغفلة إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه .

﴿لا جرم﴾ قد تقدم تحقيق الكلام في معناها أي حقاً ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ أي الكاملون في الخسران البالغون الى غاية منه ليس فوقها غاية لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم ، والموجب لخسرانهم أن الله وصفهم بست صفات تقدمت :

**الأولى** : أنهم استوجبوا غضب الله .

**الثانية** : أنهم استحقوا عذابه العظيم .

**الثالثة** : أنهم استحبوا الحياة الدنيا .

**الرابعة** : أنهم حرمهم الله من الهداية .

**الخامسة** : أنه طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .

**السادسة** : أنه جعلهم من الغافلين .

﴿ثم إن ربك للذين هاجروا﴾ من دار الكفر الى دار الإسلام ، وخبر ﴿إن﴾ محذوف أي لغفور رحيم ؛ وقيل الخبر هو الذين هاجروا ، أي إن ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم وفيه بعد ، قال في الكشاف ﴿ثم﴾ ههنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء ، يعني الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك ، وهم عمار وأصحابه ، ويدل على ذلك ما روي أنها نزلت في ابن أبي السرح .

قال ابن عباس : كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا بذلك اليهم أن الله قد جعل لكم مخرجاً فاخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم فنجى من نجى وقتل من قتل .

﴿من بعد ما فتنوا﴾ أي فتنتهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا في الكفر ، وقرىء فتنوا على البناء للفاعل وهي سبعية ايضاً ، أي للذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الإسلام ﴿ثم جاهدوا﴾ في سبيل الله ﴿وصبروا﴾ على ما أصابهم من الكفار وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف ﴿ان ربك من بعدها﴾ أي من بعد الفتنة التي فتنوها أو بعد المهاجرة أو الجهاد أو الصبر أو جميع ذلك ﴿لغفور رحيم﴾ أي كثير الغفران والرحمة لهم .

ومعنى الآية على قراءة البناء للفاعل واضح ظاهر ، أي أن ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم وعذبوهم ثم جاهدوا وصبروا لغفور رحيم ، وأما على قراءة البناء للمفعول وهي قراءة الجمهور فالمعنى أن هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصدورهم غير منشرحة للكفر اذا صلحت أعمالهم وجاهدوا في الله وصبروا على المكاره لغفور لهم رحيم بهم .

۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

وأما إذا كان سبب الآية هو هذا عبدالله بن أبي سرح الذي ارتد عن الإسلام ثم رجع بعد ذلك اليه ، فالمعنى أن هذا المفتون في دينه بالردة إذا أسلم وجاهد وصبر فالله غفور له رحيم به .

﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ أي تخاصم وتسعى في خلاصها ، وقد استشكل إضافة ضمير النفس الى النفس ولا بد من التغاير بين المضاف والمضاف اليه .

وأجيب بأن المراد بالنفس الأولى جملة بدن الانسان وبالنفس الثانية الذات فكأنه قيل يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه غيرها بل يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار بما لا يقبل منه كقوله ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ونحو ذلك من المعاذير الكاذبة فهو مجادل ومخاصم عن نفسه لا يتفرغ لغيرها يوم القيامة .

﴿وتوفى كل نفس﴾ جزاء ﴿ما عملت﴾ في الدنيا من خير أو شر ﴿وهم لا يظلمون﴾ من جزاء أعمالهم بل يوفون ذلك كاملاً من غير زيادة أو نقصان ﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ قد قدمنا أن ضرب مضمن معنى جعل ولذا عُدِّيَ الى مفعولين قد اختلف المفسرون هل المراد بهذا القرية قرية معينة أو المراد قرية غير معينة . قال الزمخشري : بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته ، ونحوه في البيضاوي .

قال القرطبي : إنه مثل مضروب لأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، ويجوز أن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلاً لمكة انـذاراً من مثل عاقبتها .

وذهب الأكثرون الى الأول وصرحوا بأنها مكة ، وذلك لما دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : «اللهم أشـدد وطأتـك على مضر وأجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[1] فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، والثاني أرجح لأن تنكير قرية يفيد بذلك ، ومكة تدخل في هذا العموم البدلي دخولاً أولياً .

وأيضا يكون الوعيد أبلغ والمثل أكمل وغير مكة مثلها ، وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها . وعن ابن عباس قال : يعني مكة وعن عطية مثله وزاد فقال : ألا ترى انه قال ﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه﴾ قال الواقـدي : ذكر المشبـه به ولم يـذكر المشبـه لوضـوحه عنـد المخاطبين .

والآية عند عامة المفسرين نازلة في أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الأمن والنعمة بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلاً لقريتكم، أي بينّ الله لها شبهاً، ثم وصف القرية بأنها ﴿كانت آمنة﴾ غير خائفة.

﴿مطمئنة﴾ غير منزعجة ، أي لا يخاف أهلها ولا ينزعجون ، وعن ابن شهاب قال القرية التي كانت آمنة مطمئنة هي يثرب .

قلت ولا أدري أي دليل على هذا التعيين ولا أي قرينة قامت له على ذلك ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الأنصار بأنعم الله وأي وقت أذاقها الله

(١) مسلم ٦٧٥ ـ البخاري ٤٨٣ .

لباس الجوع والخوف وهي التي تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد كما صح ذلك عن الصادق المصدوق .

وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » ﴿يأتيها رزقها﴾ أي ما يرتزق به أهلها ﴿رغداً﴾ أي واسعاً يقال رغد العيش بالضم رغادة اتسع ولان فهو رغد ورغيد ورغد ورغد رغداً من باب تعب لغة فهو راغد وهو في رغد من العيش أي رزق واسع ، وأرغد القوم بالألف أخصبوا والرغيد الزبد ﴿من كل مكان﴾ من الأمكنة التي يجلب ما فيها اليها أي من نواحيها من البر والبحر .

﴿فكفرت﴾ أي كفر أهلها ﴿بأنعم الله﴾ التي أنعم بها عليهم وهي جمع نعمة كالأشد جمع شدة ، وقيل كالأدرع جمع درع على ترك الاعتداد بالتاء وقيل جمع نعم مثل بؤس وأبؤس ويحتمل أنه جمع نعماء بفتح النون والمد وهي بمعنى النعمة وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله .

﴿فأذاقها الله﴾ أي أهلها ﴿لباس الجوع والخوف﴾ أي أثرهما فقحطوا سبع سنين وسمي ذلك لباساً لأنه يظهربه عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاقة وأصلها الذوق بالفم ثم استعيرت لمطلق الإيصال مع إنبائها بشدة الإصابة لما فيها من اجتماع الإدراكين إدراك اللمس والذوق .

روي أن ابن الراوندي الزنديق ، قال لابن الأعرابي إمام اللغة والأدب : هل يذاق اللباس ؟ فقال له ابن الأعرابي : لا بأس أيها النسناس هب أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان نبياً أما كان عربياً ، كأنه طعن في الآية بأن المناسب أن يقال فكساها الله لباس الجوع أو فأذاقها الله طعم الجوع ، فرد عليه ابن الأعرابي .

وقد أجاب علماء البيان هذا أن تجريد الاستعارة وذلك انه استعار

اللباس لما غشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس ، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة فيقولون ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه غيره فكانت الاستعارة مجردة ولو قال فكساها كانت مرشحة قيل وترشيح الإستعارة وإن كان مستحسناً من جهة المبالغة إلا أن للتجريد ترجيحاً من حيث أنه روعي جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحاً .

قال الرازي : والحاصل أنه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق ، وحالة تشبه الملبوس ، فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فأذاقها ، والتقدير : أن الله عرفها لباس الجوع والخوف إلا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الإذاقة ، وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف والاختيار قال الشاعر :

ومن يذق الدنيا فاني طعمتها وسيق الينا عذبها وعذابها

أو يحمل اللبس على المماسة أي فأذاقها الله مساس الجوع ﴿بما كانوا يصنعون﴾ أي فعلنا بهم ما فعلنا بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين أظهرهم ، ولم يقل صنعت لأنه أراد أهل القرية ، قال الفراء : كل الصفات أجريت على القرية إلا قوله يصنعون تنبيهاً على أن المراد في الحقيقة أهلها .

﴿ولقد جاءهم﴾ يعني أهل مكة ﴿رسول منهم﴾ أي من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه فأمرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضررهم ﴿فكذبوه﴾ فيما جاء به ﴿فأخذهم العذاب﴾ النازل بهم من الله سبحانه ﴿وهم﴾ أي والحال أنهم في حال أخذهم العذاب لهم ﴿ظالمون﴾ لأنفسهم بإيقاعها في العذاب الأبدي ولغيرهم بالاضرار لهم وصدهم عن سبيل الله .

وهذا الكلام من تمام المثل المضروب وقيل ان المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذي أصابهم ، وقيل القتل يوم بدر والأول أولى .

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المذكورة أمرهم بأن يأكلوا مما زرقهم الله من الغنائم ونحوها وقال ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ جاء بالفاء للاشعار بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر، والمعنى انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنائم واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم، قيل الخطاب للمسلمين، وبه قال جمهور المفسرين، وقيل للمشركين من أهل مكة حكاه الواحدي وغيره والأول أولى.

وقيل إن الفاء ﴿فكلوا﴾ داخلة على الأمر بالشكر، وإنما دخلت على الأمر بالأكل لأن الأكل ذريعة الى الشكر ﴿واشكروا نعمة الله﴾ التي أنعم بها عليكم واعرفوا حقها ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ ولا تعبدون غيره أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادة الله تعالى.

﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير و﴾ حرم الله ﴿ما أهلَّ﴾ أي ما رفع الصوت ﴿لغير الله به﴾ سواء كان صنماً أو وثناً أو نصباً أو روحاً خبيثاً من جن أو روحاً طيباً من إنس كالنبي والولي والصالح، حياً كان أو ميتاً فهو حرام.

وقد ورد في الحديث « ملعون من ذبح لغير الله »[1] سواء سمى الله عند ذبحه او لم يسم لأن ما اشتهر لغيره سبحانه وتعالى ورفع به الصوت باسم الفلاني لا ينفع بعد ذلك ذكر الله تعالى عند ذبحه لأن هذا الحيوان قد انتسب الى ذلك الغير ، وحدث فيه من الخبث ما زاد على خبث الميتة فانها لم يذكر عليها اسم الله وهذا الحيـوان قد عين روحه لغير خالقه ثم ذبح له وهو الشرك بعينه وحين سرى هذا الخبث وأثر فيه لا يحل بحال وان ذكر اسم الله عليه كما لو ذبح الكلب او الخنزير على اسمه سبحانه وتعالى لا يحل .

والسر في ذلك ان نذر الروح لغير خالق الروح لا يجوز وإن كان حكم جميع المأكولات والمشروبات والأموال المنذورة للتقرب الى غير الله سبحانه هكذا فانها شرك وحرام ، ولكن ثوابها الذي كان يعود الى الناذر جاز جعله للغير كما جاز للانسان ان يعطي ماله من شاء بخلاف روح الحيوان فإنه ليس بمملوك للانسان حتى يعطيه لأحد غير الله ، وإنما وجب الأجر في انفاق المال لأن المال شيء ينتفع به في الحال .

ولما كان الموتى لا ينتفعون بعين المال جعل طريق ايصال النفع اليهم أن تجعل الأموال المعطاة لأهل الاستحقاق لهم فيعود ثوابها اليهم ، وأما روح الحيوان فلا يصلح للانتفاع في حياة الانسان فكيف بعد مماته ومضي الازمان .

وأما الاضحية عن الميت التي ورد بها الحديث فمعناها أن الأجر الذي كاد يثبت في ازهاق الروح لله سبحانه وتعالى يعطى لذلك الميت لا أنه يذبح لأجله ويرفع به الصوت للتقرب اليه .

وهذه الآية الكريمة جاءت في اربعة مواضع من التنزيل ومعناها ما رفع به الصوت لغير الله لا ما ذبح باسم غير الله ، فمن رفع الصوت بحيوان لغيره

---

(١) أحمد بن حنبل ١/٢١٧ .

تعالى ثم ذكر اسم الله عند ذبحه لا ينجع له هذا الذكر شيئاً ولا يأتي بفائدة ولا يعود بعائدة ولا يحل أكله بهذا الذكر عند الذبح . وإنما الاهلال في لغة العرب بمعنى رفع الصوت لا بمعنى الذبح .

كيف ولم يرد به عرف ولا وقع في شعر قط ، هذه كتب اللسان العربي ودفاتر اللغات على وجه البسيطة ليس في أحد منها الإهلال بمعنى الذبح، وانما يقال الإهلال لرؤية الهلال ولبكاء الطفل وللتلبية بالحج لا للذبح ، فليس معنى أهللت لله ذبحت له ، في القاموس استهل الصبي رفع صوته بالبكاء كأهلَّ وكذا كل متكلم رفع صوته أو خفض ، وأهلَّ نظر الى الهلال والملبي رفع صوته بالتلبية .

وقال الجوهري : استهل الصبي أي صاح عند الولادة وأهلَّ المعتمر إذا رفع صوته بالتلبية وأهلَّ بالتسمية على الذبيحة ، وقوله تعالى ﴿وما أهلَّ لغير الله به﴾ أي نودي عليه بغير اسم الله ، وأصله رفع الصوت انتهى .

ولو سلم ان معناه ذبح لغير الله فأين هذا من معنى ذبح باسم غير الله حتى تنتهض به الحجة ، فالقول بأن الاهلال في هذه الآية ونظائرها بمعنى الذبح وغير الله بمعنى اسم غير الله يقرب بتحريف كلامه سبحانه وتعالى حاشاه عن ذلك .

وقد حكى النظام النيسابوري في تفسيره إجماع أهل العلم على أن ذبيحة المسلم التي قصد بذبحها التقرب الى غير الله ذبيحة مرتد ، وقد صار هو مرتداً ايضاً وكان الكفار في الجاهلية إذا خرجوا من ديارهم رفعوا الأصوات بأسماء الأصنام في الطرق والشوارع وإذا وصلوا الى مكة المكرمة طافوا الكعبة مع أن طوافهم هذا لم يكن يقبل عند الله ولهذا نزل قوله تعالى : ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

فكذلك فيما نحن فيه إذا رفع أحد الصوت بحيوان أنه لفلان أو لأجله أو

يذبح له ثم ذكر عليه اسم الله عند الذبح فههنا لا تترتب عليه الحليّة أصلاً ، نعم أن يغير النية ويبدل الامنية ويزيل قصد التقرب به الى غير الله ، ويرفع به الصوت خلاف ما رفع به أولاً ويقول تبت عنه ، ثم يذبح ويذكر عليه اسم الله تعالى يحل أكله .

وإذا تقرر لك أن الإهلال بمعنى رفع الصوت في اللغة لا بمعنى الذبح علمت أن الذي فسره بالذبح قد غلط غلطاً بيناً او تجوّز ولا يصار الى المجاز إلا عند تعدد الحقيقة أو تأول رفع الصوت بالذبح بناء على سبب النزول وانما العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقد فسرنا الاهلال في البقرة والمائدة والأنعام بما فسر به جمهور المفسرين وهو تسامح سبق به القلم ، وانما الحق في المقام تفسيره برفع الصوت والغاء قيد الذبح ليتناول النظم الكريم كل حيوان رفع به الصوت لغير الله سبحانه وتعالى سواء ذبح باسم الله او باسم غيره ، وعليه تدل اللغة العربية وهي الأصل المقدم في تفسير كلام الله العزيز على الجميع ما لم يعارضه نص مقدم او ناقل مرجح أو دليل مساو ، والذي فسرنا به الآية هنا قد فسرها به الشيخ عبدالعزيز المحدث الدهلوي رحمه الله في تفسيره وهو الصواب وبالله التوفيق .

ثم ذكر الله سبحانه الرخصة في تناول شيء مما ذكر فقال ﴿فمن اضطر﴾ أي دعته ضرورة المخمصة الى تناول شيء من ذلك حال كونه ﴿غير باغ﴾ على مضطر آخر ﴿ولا عاد﴾ متعد قدر الضرورة وسد الرمق ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ لا يؤاخذه بذلك ، وقيل معناه غير باغ على الوالي ولا متعد على الناس بالخروج لقطع الطريق ، فعلى هذا لا يباح تناول شيء من المحرمات في سفر المعصية .

ثم زيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة وفي النقصان عنها كتحليل الميتة والدم فقال : ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ .

قال الكسائي والزجاج ﴿ما﴾ مصدرية ، والكذب منتصب بلا تقولوا أي لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم ، ومعناه لا تحللوا ، ولا تحرموا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة ، وقيل ﴿ما﴾ موصولة والكذب منتصب بتصف أي لا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه ؛ فحذف لفظ فيه لكونه معلوماً فيكون هذا حلال وهذا حرام بدلاً من الكذب .

قال مجاهد : في البحيرة والسائبة ، وقيل يعني قولهم ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير استناد ذلك الوصف الى الوحي .

وقيل في الكلام حذف بتقدير القول أي فتقول هذا حلال وهذا حرام او قائلة هذا حلال وهذا حرام ، وقيل لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب ، وقرىء كذب بضم الثلاثة على انه نعت للألسنة ، وقرىء ككتف نعتاً لما أو بدلاً منها ، ولا تقولوا الكذب الذي تصفه السنتكم هذا حلال وهذا حرام .

عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا الى يومي هذا .

قلت صدق رحمه الله فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتياً من أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأي المقدمين له على الرواية أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة وانهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاواهم ويمنعوا من جهالاتهم ، فإنهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير فضلوا وأضلوا فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

واخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا ، فيقول الله عز وجل كذبت ، أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت .

﴿لتفتروا﴾ اللام هي لام العاقبة لا لام الغرض ، أي فيتعقب ذلك افتراؤكم ﴿على الله الكذب﴾ بالتحليل والتحريم واسناد ذلك اليه من غير أن يكون منه .

﴿إن الذين يفترون على الله الكذب﴾ أي افتراء كان ﴿لايفلحون﴾ بنوع من أنواع الفلاح والفوز بالمطلوب لا في الدنيا ولا في الآخرة بدليل ما بعده ﴿متاع قليل﴾ قال الزجاج : متاعهم متاع قليل ، وقيل لهم متاع قليل ﴿ولهم عذاب أليم﴾ يردون اليه في الآخرة .

ثم خص محرمات اليهود بالذكر فقال ﴿على الذين هادوا﴾ أي على اليهود خاصة دون غيرهم ﴿حرمنا ما قصصنا عليك﴾ بقولنا حرمنا عليهم كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما . الآية .

﴿من قبل﴾ متعلق بقصصنا أو بحرمنا . قال الحسن : يعني في سورة الأنعام ؛ وعن قتادة مثله وقال حيث يقول : ﴿ وعلى الذين هادوا ـ الى قوله وإنا لصادقون ﴾ وتحريم الشيء إما لضرر فيه وإما لبغي المحرم عليهم ، فقوله إنما حرم عليكم الخ ، اشارة للقسم الأول وهذا إشارة للقسم الثاني .

﴿وما ظلمناهم﴾ بذلك التحريم بل جزيناهم ببغيهم ﴿ولكن كانوا انفسهم يظلمون﴾ حيث فعلوا أسباب ذلك فحرمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم . ثم بيَّن سبحانه أن الافتراء على الله سبحانه ومخالفة أمره لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة فقال :

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ أي متلبسين بجهالة ، أي جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه أي غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ، وعن السلف كل من عصى الله فهو جاهل ، ولا يصدر العمل السوء إلا من الجاهل بالعاقبة ، لأن العاقل لا يرضى بفعل القبيح ، وفيه بيان سعة مغفرته ورحمته لأن السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح ، فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة النساء .

﴿ثم تابوا من بعد ذلك﴾ أي من بعد عملهم للسوء ، وفيه تأكيد ، فإن « ثم » قد دلت على البعدية فأكدها بزيادة ذكر البعدية ﴿واصلحوا﴾ أعمالهم التي كان فيها فساد بالسوء الذي عملوه ؛ ثم كرر ذلك تأكيداً وتقريراً فقال ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي من بعد التوبة ﴿لغفور﴾ كثير الغفران ﴿رحيم﴾ أي واسع الرحمة .

ولما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وإبطال مطاعنهم ، وكان ابراهيم عليه السلام من الموحدين ، وهو قدوة كثير ممن ذكره الله في آخر هذه السورة قال ﴿إن ابراهيم كان أمّة﴾ قال ابن الأعرابي : يقال للرجل العالم أمة ، والأمة الرجل الجامع للخير .

قال الواحدي : قال أكثر المفسرين معنى الأمة المعلم للخير وبه قال ابن

مسعود ، وعلى هذا فمعنى كون ابراهيم أمة انه كان معلماً للخير أو جامعاً لخصال الخير أو عالماً بما علمه الله من الشرائع .

وقيل انه كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار ، فلهذا المعنى كان أمة وحده ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل : « يبعثه الله أمة وحده لأنه كان فارق الجاهلية » . قال مجاهد : قيل بمعنى مأموم أي الذي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير كما قال تعالى ﴿اني جاعلك للناس إماماً﴾ وحكى ابن الجوزي عن ابن الانباري انه قال : إن هذا مثل قول العرب فلان رحمة وعلامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث التناهي في المعنى الذي يصفونه به ، والعرب توقع الأسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد ، كقوله فنادته الملائكة ، وإنما ناداه جبريل وحده ، وإنما سمي ابراهيم أمة لأنه اجتمع فيه من صفات الفضل وسمات الخير والأخلاق الحميدة ما اجتمع من أمة .

ليس على الله بمستنكر     أن يجمع العالم في واحد

﴿قانتاً لله﴾ أي مطيعاً له قائماً بأوامره . قال ابن مسعود : هو الذي يطيع الله ورسوله . وعن ابن عباس قال : كان على الاسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الاسلام غيره فذلك ما قاله الله ﴿كان أمة قانتاً لله﴾ .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من عبد تشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم ، والأمة الرجل فما فوقه ، إن الله يقول إن ابراهيم كان أمة » أخرجه ابن مردويه وقد تقدم معنى القنوت في البقرة .

﴿حنيفاً﴾ الحنيف المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق ، أي مسلماً

مقيماً على دين الاسلام وقد تقدم بيانه في الأنعام ﴿ولم يك من المشركين﴾ بالله كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل ، بل كان من الموحدين المخلصين لله تعالى من صغره الى كبره .

﴿شاكراً لأنعمه﴾ التي أنعم الله بها عليه وإن كانت قليلة ، كما يدل عليه جمع القلة ، فهو شاكر لما كثر منها بالأولى ﴿اجتباه﴾ أي اختاره للنبوة واختصه بها ﴿وهـداه الى صراط مستقيم﴾ وهو ملة الاسلام ودين الحق .

﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ أي خصلة حسنة أو حالة حسنة ، قيل هي الولد الصالح وقيل الثناء الجميـل وقيل النبـوة وقيل الصـلاة منا عليـه في التشهد ، وقيل لسان الصدق وقيل القبول العام في جميع الأمم فإنه يتولاه جميع أهل الأديان ويثنون عليه ولا يكفر به أحد ورزقه أولاداً طيبة وعمراً طويلاً في السعة والطاعة ، ولا مانع ان يكون ما آتاه الله شاملاً لذلك كله ولما عداه من خصال الخير ، وفيه التفات عن الغيبة ونكتة الالتفات زيادة الاعتناء بشأنه عليه السلام .

﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي في أعلى مقاماتهم في الجنة ، وقيل من بمعنى مع ، وهذا حسبما وقع منـه السؤال لربـه حيث قال ﴿وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ اللهم اني اسألك ان تجعلني ممن يصدق عليه هذا الدعاء وإني من ذرية خليلك ابراهيم وما ذلك عليك بعزيز وآتني في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقني عذاب النار إنك أنت التواب الرحيم .

وحاصل ما ذكر من الصفات هنا تسعة بل عشرة إذ قوله سبحانه ﴿ثم أوحينا إليك﴾ يامحمد مع علو درجتك وسمو منزلتك وكونك سيد ولد آدم يرجع لوصف ابراهيم وتعظيمه بأن محمداً أمر باتباعه ﴿أن﴾ مفسرة أو مصدرية ﴿اتبع ملة ابراهيم﴾ أي دينه وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان

نبي من أنبيائه من أمللت الكتاب إذا أمليته وهو الدين بعينه ، لكن باعتبار الطاعة له وتحقيق ذلك أن الوضع الإلهي مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ، ومهما نسب الى من يقيمه ويعمل به يسمى ديناً .

قال الراغب : الفرق بينهما ان الملة لا تضاف إلا الى النبي ولا تكاد توجد مضافة الى الله ولا الى آحاد الأمة ، ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته الاسلام الذي عبر عنه آنفاً بالصراط المستقيم .

وقيل والمراد اتباعه صلى الله عليه وسلم ولملته عليه السلام في التوحيد والدعوة اليه ، وقال ابن جرير : في التبري من الأوثان والتدين بدين الاسلام ، وقيل في مناسك الحج ، وقيل في الأصول دون الفروع . وقال أبو السعود في الأصول والعقائد وأكثر الفروع دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار انتهى . وقيل في جميع شريعته إلا ما نسخ ، وهذا هو الظاهر .

وفي الكرخي : انما جاز اتباع الأفضل المفضول لسبقه الى القول والعمل به ، قال القرطبي وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدي الى الصواب ولا درك على الفاضل في ذلك ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم السلام وقد أمر بالاقتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم فقال تعالى ﴿**فبهداهم اقتده**﴾

﴿حنيفا﴾ حال من ابراهيم ، وجاز مجيء الحال منه لأن الملة كالجزء منه ، وقد تقرر في علم النحو أن الحال من المضاف اليه جائز اذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف اليه أو كان جزء أو كالجزء من حيث صحة الاستغناء بالثاني عن الأول ، إذ يصح أن يقال أن اتبع ابراهيم حنيفاً .

﴿وما كان من المشركين﴾ تكرير لما سبق للنكتة التي ذكرناها ، أي كرر رداً على زعم المشركين انهم على دينه .

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿إنما جعل السبت﴾ أي وبال السبت وهو المسخ في زمن داود عليه السلام أو فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ وهم اليهود لا على غيرهم من الأمم .

وقد اختلف العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت ، فقالت طائفة أن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم وأخبرهم بفضيلته على غيره فخالفوه وقالوا أن السبت أفضل ، فقال الله له دعهم وما اختاروا لأنفسهم .

وقيل إن الله أمرهم بتعظيم يوم في الاسبوع فاختلف اجتهادهم فيه فعينت اليهود السبت لأن الله سبحانه فرغ فيه من الخلق ؛ وعينت النصارى يوم الأحد لأن الله بدأ فيه الخلق ، فألزم الله كُلًّا منهم ما أدى اليه اجتهاده وعين لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلهم الى اجتهادهم فضلاً منه ونعمة .

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع ابراهيم عليه السلام ، فأخبر الله سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ولم يجعله على ابراهيم ولا على غيره ، وإنما شرع ذلك لبني اسرائيل بعد مدة طويلة .

قال الواحدي : هذا مما أشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف في السبت أن بعضهم قال هو أعظم الأيام حرمة وقال آخرون الأحد أفضل ؛ وهذا غلط لأن اليهود لم يكونوا فرقتين في السبت وانما اختار الأحد النصارى بعدهم بزمان طويل .

وعن مجاهد في الآية قال : أراد الجمعة فأخذوا السبت مكانها ، وعن أبي مالك وسعيد بن جبير في الآية قالا باستحلالهم إياه ، رأى موسى عليه السلام رجلاً يحمل حطباً يوم السبت فضرب عنقه .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يعني الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً والنصارى بعد غد »[1] وأخرج مسلم وغيره من حديث حذيفة نحوه .

﴿وان ربك ليحكم بينهم﴾ أي بين المختلفين فيه ﴿يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيجازى فيه كُلًّا بما يستحقه ثواباً وعقاباً كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لأخرى .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو أمته الى الاسلام فقال ﴿ادع الى سبيل ربك﴾ وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث الى الناس كافة أو المعنى افعل الدعاء والأول أولى وكأن المعنى وخاطب الناس في دعائك لهم وسبيل الله هو الاسلام ﴿بالحكمة﴾ أي بالمقالة المحكمة الصحيحة الموضحة للحق المزيلة للشبهة والشك ، قيل وهي الحجج القَطْعيّة المفيدة لليقين وقيل القرآن وقيل النبوة .

﴿والموعظة الحسنة﴾ وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي

---

(١) مسلم ٨٥٥ ـ البخاري ١٧٧ .

يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها قيل هي الحجج الظنية الاقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة قيل وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان .

ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الألدّ الى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل ولهذا قال سبحانه ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف وإيثار الوجه الأيسر والمقدمات التي هي أشهر فان ذلك أنفع في تسكين شرهم وهو ردّ على من يأبى المناظرة في الدين وانما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً .

قيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام :

**الأول**: هم العلماء وهم المشار اليهم بقوله : ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة﴾ .

**والثاني** : هم اصحاب النظر السليم والخلقة الأصلية وهم غالب الناس وهم المشار اليهم بقوله ﴿والموعظة الحسنة﴾ .

**والثالث** : هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهم المشار اليهم بقوله وجادلهم الخ ، وقال مجاهد في الآية اعرض عن أذاهم إياك ولا تقصر في تبليغ الرسالة ، وعلى هذا فالآية منسوخة بآية السيف ، قال بعضهم لا حاجة الى دعوى النسخ إذ الأمر بالمجادلة ليس فيه تعريض للنهي عن المقاتلة .

﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بين ان الرشد والهداية ليس الى النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك الى الله تعالى وهو الأعلم بمن يضل .

﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي بمن يبصر الحق فيقصده غير متنعت ، وإنما شرّع لك الدعوة وأمرك بها قطعاً للمعذرة وتتميماً للحجة وازاحة للشبهة وليس

عليك غير ذلك ، وفي إيثار الفعلية في الضالين والإسمية في مقابليهم إشارة الى أنهم غيّروا الفطرة وبدّلوها بإحداث الضلال ومقابلوهم استمروا عليه وتقديم أرباب الضلال لأن الكلام وارد فيهم .

ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع الى الحق فإن أبوا قوتلوا ، أمر الداعي بأن يعدل في العقوبة فقال ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ أي بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك .

قال ابن جرير : نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه اذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعداها الى غيرها ونحوه في البيضاوي ، وهذا صواب لأن الآية وإن قيل إن لها سبباً خاصاً كما سيأتي فالاعتبار بعموم اللفظ وعمومه يؤدي هذا المعنى الذي ذكره ، وسمى سبحانه الفعل الاول الذي هو فعل البادىء بالشر عقوبة مع ان العقوبة ليست إلا فعل الثاني وهو المجازي ، للمشاكلة وهي باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز .

ثم حث سبحانه على العفو فقال ﴿ولئن صبرتم﴾ عن المعاقبة بالمثل وعن الانتقام بتركه بالكلية ﴿لهو﴾ بضم الهاء وسكونها قراءتان سبعيتان أي فالصبر ﴿خير للصابرين﴾ من الانتصاف ووضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد .

وقد ذهب الجمهور الى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة في الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم ، وفي تعليم حسن الأدب في كيفية استيفاء الحقوق والقصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة ، وهذه الأشياء لا تكون منسوخة ولا تعلق لها بالنسخ ، وقيل هي منسوخة بآيات القتال وبه قال ابن عباس والضحاك ولا وجه لذلك .

أخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن أبي ابن كعب قال : لما كان يوم أُحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار :

لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى ﴿وان عاقبتم﴾ الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « نصبر ولا نعاقب : كفوا عن القوم إلا أربعة »(١)

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حيث استشهد فنظر الى منظر لم ينظر الى شيء قط كان أوجع لقلبه منه ونظر اليه قد مُثل به فقال « رحمة الله عليك فانك كنت ما علمت وصولاً للرحم فعولاً للخير ،ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى ، أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك» فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وان عاقبتم﴾ الآية فكفر النبي صلى الله عليه وسلم عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر ، وعن ابن عباس مرفوعاً نحوه أخرجه الطبراني وابن المنذر وغيرهما(٢) .

وهذا القول من النبي صلى الله عليه وسلم كأنه كان باجتهاد منه وعليه فلينظر هل قوله تعالى ﴿ولئن صبرتم﴾ الخ نسخ لهذا الاجتهاد او تنبيه على خطئه تأمل ، وعنه قال هذا حين أمر الله نبيه أن يقاتل من قاتله ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم فهذا منسوخ .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر فقال ﴿واصبر﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ أي بتوفيقه وتثبيته ؛ والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء أي وما صبرك مصحوباً بشيء من الأشياء إلا بتوفيقه لك ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ثم نهاه عن الحزن فقال ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي على الكافرين في اعراضهم عنك واستحقاقهم للعذاب الدائم أو لا تحزن على قتلى أحد فإنهم قد أفضوا الى رحمة الله .

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٥٩ .

(٢) المستدرك كتاب حمزة ٣/١٩٧ .

﴿ولا تك في ضيق﴾ أي ضيق صدر قرىء بفتح الضاد وكسرها وهما سبعيتان قال ابن السكيت هما سواء ، وقال الفراء : الضيق بالفتح ما ضاق عنه صدرك وبالكسر ما يكون في الذي يتسع كالدار والثوب وكذا قال الأخفش : وهو من الكلام المقلوب لأن الضيق وصف للانسان يكون فيه ولا يكون الانسان فيه وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشيء المحيط بالانسان من جميع جوانبه .

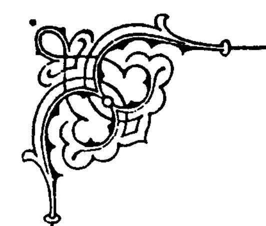
وقال هنا : ﴿تك﴾ بحذف النون ليكون ذلك مبالغة في التسلية وأثبتها في النمل على القياس ولأن الحزن ثم دون الحزن هنا والى ذلك أشار في التقرير ﴿مما يمكرون﴾ أي من مكرهم بك فيما يستقبل من الزمان و ﴿ما﴾ مصدرية او بمعنى الذي .

ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال ﴿ان الله مع الذين اتقوا﴾ المعاصي على اختلاف أنواعها ، وقيل اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي والعموم أولى وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة .

﴿والذين هم محسنون﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا به منها او بالعفو عن الجاني ، وقيل المعنى محسنون في أصل الانتقام ، فيكون الأول إشارة الى نوله ﴿فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ والثاني إشارة الى قوله ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ وقيل الذين اتقوا إشارة الى التعظيم لأمر الله والذين هم محسنون إشارة الى الشفقة على عباد الله تعالى .

وعن الحسن قال ؛ اتقوا فيما حرم عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم ، والعموم أولى ، وقيل لهرم بن حيان عند الموت أَوصِ فقال : إنما الوصية في المال ولا مال لي ولكني أوصيك بخواتيم سورة النحل .







## ( الاسراء )

وتسمى سورة سبحان وسورة الاسراء مائة وإحدى عشرة آية وهي مكية : وبه قال ابن عباس ، وعن ابن الزبير مثله الا ثلاث آيات ، قوله : ﴿ وان كادوا ليستفزونك ﴾ نزلت حين جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفد ثقيف وحين قالت اليهود ليست هذه بأرض الانبياء وقوله : ﴿ رب ادخلني مدخل صدق ﴾ وقوله : ﴿ ان ربك أحاط بالناس ﴾ وزاد مقاتل قوله ان الذين أوتوا العلم من قبله وقيل الآيات الثمان .

وعن ابن مسعود قال في هذه والكهف ومريم انهن من العتاق الاول وهن من تلادي ، وعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ كل ليلة بني اسرائيل والزمر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

﴿سبحان﴾ هو مصدر سماعي لسبح المشدد أو اسم مصدر ، يقال سبح يسبح تسبيحاً وسبحاناً أو مصدر قياسي لسبح المخفف ، فانه يقال سبح في الماء ، ومعناه التنزيه والبعد والبراءة لله سبحانه من كل نقص وسوء ، وعلى كل فهو علم جنس للتنزيه والتقديس .

وقال سيبويه : العامل فيه فعل لا من لفظه ، والتقدير أنزه الله تنزيهاً ، فوقع سبحان مكان تنزيهاً فهو على هذا مثل قعد القرفصاء واشتمل الصماء ، وقيل هو علم للتسبيح كعثمان للرجل أي أسبح الله سبحان ثم نزل منزلة الفعل وسدّ مسده ودل على التسبيح البليغ والتنزيه الكامل ولذا لا يستعمل إلا فيه تعالى .

﴿الذي أسرى بعبده﴾ الاسراء قيل هو سير الليل يقال سرى وأسرى كسقى واسقى لغتان بمعنى سار في الليل وهما لازمان لكن مصدر الأول الاسراء ومصدر الثاني سرى بضم السين كهدى فالهمزة ليست للتعدية الى المفعول وانما جاءت التعدية هنا من الباء ومعنى اسرى به صيّره سارياً في الليل ، وقيل هو سير أول الليل خاصة .

وإذا كان الاسراء لا يكون إلا في الليل فلا بد للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة ، فقيل أراد بقوله ﴿ليلاً﴾ تقليل مدة الاسراء وإنه أسرى به في بعض الليل

من مكة الى الشام مسافة أربعين ليلة ، ووجه دلالة ليلاً على تقليل المدة ما فيه من التنكير الدال على البعضية بخلاف ما اذا قلت سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً .

وقد استدل صاحب الكشاف على افادة ليلاً للبعضية بقراءة عبدالله وحذيفة من الليل أي في جزء من الليل ، قيل قدر أربع ساعات ، وقيل ثلاث وقيل أقل من ذلك ، والتقليل والتبعيض متقاربان ، فاستعمل في التبعيض ما هو للتقليل وقال الزجاج : معنى الآية سيَّر عبده يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ليلاً وعلى هذا معنى أسرى سيَّر فيكون للتقييد بالليل فائدة .

وقد أجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون على أن المراد بالعبد محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلف أحد من الأمة في ذلك وقال بعبده ولم يقل بنبيه أو برسوله أو بمحمد تشريفاً له صلى الله عليه وسلم .

قال أهل العلم : لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم والحالة العلية .

أصم اذا نوديت باسمي وانني    اذا قيل لي يا عبدها لسميع

غيره

لا تدعني الا بيا عبدها    فإنه اشرف اسمائي

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة . وعن ابن شهاب قال : أسري به الى بيت المقدس قبل خروجه الى المدينة بسنة . وعن عروة نحوه . وقال السدي قبل مهاجره بستة عشر شهراً .

﴿من المسجد الحرام﴾ قال الحسن وقتادة : يعني المسجد نفسه ، وهو ظاهر القرآن ، وقال عامة المفسرين · أسري به صلى الله عليه وسلم من دار أم هانىء ،

فحملوا المسجد الحرام على مكة او الحرم لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام أو لأن الحرم كله مسجد .

وفي حديث مالك بن صعصعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر » وذكر حديث المعراج بكماله ومن ابتدائية ثم ذكر سبحانه الغاية التي اسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم اليها فقال ﴿الى المسجد الاقصى﴾ وهو بيت المقدس ، وسمي الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام فهو أبعد بالنسبة الى من بالحجاز وفي تاريخ القدس انه سمي به لأنه أبعد المساجد التي تزار من المسجد ،وقيل لبعده عن الاقذار والخبائث ، وقيل لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ، وفي ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب ما لا يخفى .

وأول من بناه آدم بعد أن بنى الكعبة بأربعين سنة كما في المواهب . فهو أول مسجد بني في الأرض بعد الكعبة ، وتمام حاله في كتابنا لقطة العجلان فيما تمس الى معرفته حاجة الانسان .

وكان الاسراء به ببدنه في اليقظة وكان قبلها في المنام كما انه رأى فتح مكة سنة ست وتحقق منه سنة ثمان ؛ والحكمة في اسرائه الى بيت المقدس دون العروج به من مكة لأنه محشر الخلائق فيطؤه بقدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم ببركة أثر قدمه أو لأنه مجمع أرواح الأنبياء ، فأراد أن يشرفهم بزيارته صلى الله عليه وآله وسلم ، أو ليخبر الناس بصفاته فيصدقوه في الباقي ، قاله الكرخي والوجه الأخير أظهر والله أعلم .

ثم وصف المسجد الأقصى بقوله ﴿الذي باركنا حوله﴾ بركة دنيوية وهي ليست إلا حول الأقصى ، وأما في الداخل فالبركة في كل من المسجدين بل هي في الحرام أتم ، وهي كثرة الثواب بالعبادة فيهما ، وعبارة الخازن يعني بالثمار والأنهار والأشجار أو بالأنبياء والصالحين لأنه قبلتهم قبل نبينا صلى الله عليه وسلم وسماه

مباركاً لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي ، واليه تحشر الخلق يوم القيامة ، فقد بارك الله سبحانه حول المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة .

قال السدي : المعنى أنبتنا حوله الشجر وجعل الاسراء اليه كالتوطئة لمعراجه الى السماء .

ثم ذكر العلة التي أسرى به لأجلها فقال ﴿لنريه من آياتنا﴾ أي ما أراه الله سبحانه في تلك الليلة من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل ، ومن تبعيضية وإنما أتى بها تعظيماً لآيات الله ، فإن الذي رآه صلى الله عليه وسلم وإن كان جليلاً عظيماً فهو بعض بالنسبة الى آيات الله تعالى وعجائب قدرته وجليل حكمته ، قاله أبوشامة والرؤية هنا بصرية وقيل قلبية ، واليه نحا ابن عطية .

﴿إنه﴾ سبحانه ﴿هو السميع﴾ بكل مسموع ، ومن جملة ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿البصير﴾ بكل مبصر ، ومن جملة ذلك ذات رسوله وافعاله ، قيل في هذه الآية أربعة التفاتات ، وذلك انه التفت أولاً من الغيبة في قوله الذي أسرى بعبده الى التكلم في قوله باركنا حوله .

ثم التفت ثانياً من التكلم في باركنا الى الغيبة في ليريه على قراءة الحسن بالياء ، ثم التفت ثالثاً من هذه الغيبة الى التكلم في آياتنا ، ثم التفت رابعاً من هذا التكلم الى الغيبة في قوله انه هو على الصحيح في الضمير ﴿إنه﴾ لله تعالى .

وأما على قول نقله أبو البقاء إن الضمير في أنه هو للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يجيء ذلك ، ويكون في قراءة العامة التفات واحد وفي قراءة الحسن ثلاثة ، وهذا موضع غريب ، واكثر ما ورد الالتفات ثلاث مرات على ما قال الزمخشري في قول امرىء القيس :

**تطاول ليلك بالأثمد (الأبيات)**

وقيل فيها خمسة التفاتات ، والخامس الالتفات من قوله انه هو الى التكلم في قوله الآتي ﴿وآتينا موسى﴾.

وقد اختلف أهل العلم هل كان الاسراء بجسده صلى الله عليه وسلم مع روحه أو بروحه فقط ، فذهب معظم السلف والخلف الى الأول ، وذهب الى الثاني طائفة من أهل العلم منهم عائشة ومعاوية والحسن وابن اسحاق ، وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان .

وذهبت طائفة الى التفصيل فقالوا كان الإسراء بجسده يقظة الى بيت المقدس والى السماء بالروح ، واستدلوا على هذا التفصيل بقوله الى المسجد الأقصى فجعله غاية للإسراء بذاته صلى الله عليه وسلم فلو كان الاسراء من بيت المقدس الى السماء وقع بذاته لذكره .

والذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب اليه معظم السلف والخلف من الاسراء بجسده وروحه يقظة الى بيت المقدس ثم الى السموات ولا حاجة الى التأويل وصرف هذا النظم القرآني وما يماثله من ألفاظ الأحاديث الى ما يخالف الحقيقة ، ولا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من انه لا يستحيل عليه سبحانه شيء .

ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم ان الاسراء كان بالروح فقط وأن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبي صلى الله عليه وسلم عند اخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالايمان صدراً ، فإن الانسان قد يرى في نومه ما هو مستبعد بل ما هو محال ولا ينكر ذلك أحد.

وأما التمسك لمن قال بأن هذا الاسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس﴾ فعلى تسليم أن المراد بهذه

الرؤيا هو هذا الاسراء فالتصريح الواقع هنا بقوله سبحانه الذي اسرى بعبده ليلًا ؛ والتصريح في الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا يقصر عن الاستدلال به على تأويل هذه الرؤيا الواقعة في الآية برؤية العين ، فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا .

وكيف يصح حمل هذا الاسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبي صلى الله عليه وسلم ركب البراق ، وكيف يصح وصف الروح بالركوب ، وهكذا كيف يصح حمل الاسراء على الرؤيا مع تصريحه صلى الله عليه وسلم بأنه كان عند أن أسرى به بين النائم واليقظان ، فالأولى ما ذهب اليه الجمهور اذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم .

وقد اختلف أيضاً في تاريخ الاسراء فروي أن ذلك كان قبل الهجرة الى المدينة بسنة ، وروي أن الاسراء كان قبل الهجرة بأعوام ، ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين ، وقيل بثلاث ، وقيل بأربع ، ولم تفرض الصلاة إلا ليلة الاسراء وقد استدل بهذا ابن عبد البر على ذلك .

وقد اختلفت الرواية عن الزهري وممن قال بأن الاسراء كان قبل الهجرة بسنة . الزهري في رواية عنه ، وكذلك الحربي فانه قال : أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة .

وقال ابن القاسم في تاريخه : كان الاسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً ، قال ابن عبدالبر : لا أعلم أحداً من أهل السير قال بمثل هذا ، وروي عن الزهري أنه أسري به قبل مبعثة بسبعة أعوام ، وروي عنه أنه قال : كان قبل مبعثه بخمس سنين ، وروى يونس عن عروة عن عائشة انها قالت : توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة .

وأعلم أنه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطي وغيرهما في هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة في الاسراء على اختلاف ألفاظها وما يتعلق بها من الأحكام وما قال أهل العلم فيه وما ظهر بعد المعراج من الآيات الدالة على صدقه .

وليس في ذلك كثير فائدة فهي معروفة في مواضعها من كتب الحديث ، وهكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى وهو مبحث آخر ، والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز وذكر أسباب النزول وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية ، وما عدا ذلك فهو فضل لا تدعو اليه حاجة .

﴿وآتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة قيل والمعنى كرمنا محمداً بالمعراج واكرمنا موسى بالكتاب قال الشهاب : عقبت آية الاسراء بهذا استطراداً بجامع أن موسى اعطي التوراة بمسيره الى الطور وهو بمنزلة معراجه لأنه منح ثمة التكليم وشرف باسم الكليم والواو استئنافية او عاطفة على جملة سبحان الذي أسرى لا على أسرى بعبده وتكلفة .

﴿وجعلناه﴾ أي ذلك الكتاب ، وقيل موسى ﴿هدى لبني اسرائيل﴾ يهتدون به ﴿أن لا تتخذوا﴾ قرىء بالتحتية ولا نافية وأن مصدرية ولام التعليل مقدرة وبالفوقية ولا ناهية وان زائدة والمعنى على الأولى آتيناه الكتاب لهداية بني اسرائيل لئلا يتخذوا وعلى الثانية قلنا لهم لا تتخذوا والأولى أن تكون ﴿ان﴾ مفسرة لأن هذا ليس من مواضع زيادة بل ذلك في نحو ولما أن جاءت رسلنا .

﴿من دوني وكيلاً﴾ أي كفيلاً بأمورهم قاله الفراء ، وروي عنه انه قال كافياً ، وقيل معناه متوكلون عليه في أمورهم ، وقيل شريكاً ومعنى الوكيل في اللغة من توكل اليه الأمور .

﴿ذرية من حملنا من نوح﴾ نصب على الاختصاص ، وبه بدأ الزمخشري أو النداء أي يا ذرية من حملنا مع نوح كونوا كما كان نوح في العبودية والانقياد وفي كثرة الشكر لله تعالى بفعل الطاعات ذكرهم سبحانه انعامه عليهم في ضمن انجاء آبائهم من الغرق ، وقيل المعنى ولا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً كقوله ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ والمراد بالذرية هنا جميع من في الأرض لأنهم من ذرية من كان في السفينة .

وقيل موسى وقومه وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص والرفع على البدل من فاعل لا تتخذوا أو على الخبر فإنها كلها راجعة الى بني اسرائيل المذكورين ، وأما على جعل النصب على أن ذرية هي المفعول الأول لقوله ﴿لا تتخذوا﴾ فالأولى تفسير الذرية بجميع من في الأرض من بني آدم .

أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن زيد الانصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذرية من حملنا مع نوح قال ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد حام وسام ويافث وكوش فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلف » .

﴿إنه﴾ أي إن نوحاً ﴿كان عبداً شكوراً﴾ وصفه الله بكثرة الشكر في السراء والضراء وذلك انه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا قال الحمد لله وجعله كالعلة لما قبله ايذاناً بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ومن أفضل الطاعات وحثاً لذريته على شكر الله سبحانه .

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾

﴿وقضينا﴾ أي أعلمنا وأخبرنا قاله ابن عباس أو حكمنا وأتممنا وأصل القضاء الأحكام للشيء والفراغ منه ، وقيل أوحينا ويدل عليه قوله ﴿الى بني اسرائيل﴾ ولو كان بمعنى الاعلام والاخبار لقال قضينا بني اسرائيل ولو كان بمعنى حكمنا لقال على بني اسرائيل ولو كان بمعنى أتممنا لقال لبني اسرائيل ﴿في الكتاب﴾ أي التوراة ويكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه ، وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ .

﴿لتفسدن﴾ أي والله لتفسدن ﴿في الأرض﴾ قرىء بفتح الفوقية ومعناها قريب من معنى قراءة الجمهور لأنهم إذا أفسدوا أفسدوا في نفوسهم ، والمراد بالفساد مخالفة ما شرعه الله لهم في التوراة والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس ، وقيل أرض مصر واللام جواب قسم محذوف ، قال النيسابوري : أو أجرى القضاء المبتوت مجرى القسم كأنه قيل وأقسمنا لتفسدن .

﴿مرتين﴾ تثنية مرة وهي الواحدة من المر أي المرور على حد وفعلة لمرة كجلسة وفي القاموس مر مراً ومروراً جاز وذهب كاستمر ومره وبه جاز عليه والمرة الفعلة الواحدة والجمع مر بالضم ومرار بالكسر ومرر كعنب ولقيه ذات مرة لا يستعمل إلا ظرفاً وذات المرار أي مراراً كثيرة وجئته مراً أو مرين أي مرة أو مرتين انتهى .

والمرة الأولى قتل شعيا وحبس أرميا ومخالفة أحكام التوراة ، والثانية قتل يحيى بن زكريا والعزم على قتل عيسى ، وقيل الأولى قتل زكريا والثانية قتل يحيى وذكر ابن اسحاق أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتاً ولم يقتل .

قال ابن مسعود : أول الفساد قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك النبط ، ثم ان بني اسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم فذلك قوله ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ وعن ابن عباس قال : بعث الله في الأولى جالوت وبعث عليهم في المرة الأخرى بختنصر فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين .

﴿ولتعلنّ علواً كبيراً﴾ هذه اللام كاللام التي قبلها أي لتستكبرن عن اطاعة الله ولتستعلن على الناس بالظلم والبغي مجاوزين للحد في ذلك وتبغون بغياً عظيماً .

﴿فإذا جاء وعد﴾ أي وقت وعد ﴿أُولَيٰهُمَا﴾ أولى المرتين المذكورتين والمراد بالوعد الوعيد والمراد بالوعيد المتوعد به أي حان وقت حلول العقاب الموعود به ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي قوة في الحروب وبطش عند اللقاء قيل هو بختنصر وجنوده وقيل جالوت وقيل جند من فارس وقيل جند من بابل وقيل هو سنحاريب من اهل نينوى فقتلوا علماءهم واحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفاً .

﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي عاثوا وترددوا يقال جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى ذكره ابن عزيز والقتيبي ، قال الزجاج : معناه طافوا هل بقي أحد لم يقتلوه قال : والجوس طلب الشيء باستقصاء ، قال الجوهري : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار أي تخللوها كما يجوس الرجل للأخبار أي يطلبها وكذا قال أبو عبيدة .

وقال ابن جرير : ومعنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين

وجائين ، وقال الفراء : معناه قتلوهم بين بيوتهم ، وقال قطرب : معناه نزلوا ، وقرأ ابن عباس فحاسوا بالحاء المهملة ، قال أبو زيد : الحوس والجوس والعوس والهوس الطوف بالليل ، وقيل الطوف بالليل هو الحوسان محركاً كذا قال ابو عبيدة ، وقال ابن عباس : جاسوا مشوا ومعنى خلال الديار وسط الديار فهو على هذا اسم مفرد بمعنى الوسط ويؤيده قراءة الحسن خلل الديار ، والثاني جمع خلل بفتحتين كجبل وجبال وجمل وجمال قاله السمين .

﴿وكان﴾ ذلك ﴿وعداً مفعولاً﴾ أي كائناً لا محالة لازماً لا خلف فيه ﴿ثم رددنا لكم الكرّة﴾ أي الدولة والغلبة والرجعة ﴿عليهم﴾ وذلك عند توبتهم قيل وذلك حين قتل داود جالوت وقيل حين قتل بختنصر ووضع رددنا موضع ترد لأنه لم يقع وقت الاخبار لكن لتحققه عبر بالماضي والكرّة في الأصل مصدر كر بكر أي رجع ثم يعبر بها عن الدولة والقهر .

﴿وامددناكم بأموال وبنين﴾ بعد نهب أموالكم وسبي أبنائكم حتى عاد أمركم كما كان ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ قال أبو عبيدة : النفير العدد من الرجال فالمعنى أكثر رجالاً من عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من عشيرته يقال نفير ونافر مثل قدير وقادر ويجوز أن يكون النفير جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو .

﴿ان أحسنتم﴾ أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم ﴿أحسنتم لأنفسكم﴾ لأن ثواب ذلك عائد عليكم ﴿وإن اسأتم﴾ أعمالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم ﴿فلها﴾ أي فعليها اساءتها وانما عبر بها للمشاكلة قاله الكرماني قال ابن جرير : اللام بمعنى الى أي فاليها ترجع الاساءة كقوله تعالى ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ أي اليها وقيل المعنى فلها الجزاء والعقاب .

وقال الحسين بن الفضل : فلها رب يغفر الاساءة ، وقال الكرخي : أجرى اللام على بابها ، قال أبو البقاء : وهو الصحيح لأن اللام للاختصاص والعامل

مختص بجزاء عمله حسنة وسيئة انتهى . وهذا الخطاب قيل هو لبني اسرائيل الملابسين لما ذكر في هذه الآيات ؛ وقيل لبني إسرائيل الكائنين في زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعناه اعلامهم ما حل بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك ؛ وقيل هو خطاب لمشركي قريش .

﴿فاذا جاء وعد الآخرة﴾ أي حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة والمرة الآخرة هي قتلهم يحيى بن زكريا كما سبق وقصة قتله مستوفاة في الانجيل واسمه فيه يوحنا قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله واسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة .

وقال ابن جرير : هيردوس فسلط عليهم الفرس والروم فسبوهم وقتلوهم ، وقيل هو قصدهم قتل عيسى فخلصه الله منهم ورفعه اليه وجواب إذا محذوف لدلالة جواب إذا الأولى تقديره بعثناهم .

﴿ليسؤوا وجوهكم﴾ أي ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة وتبين في وجوهكم الكآبة وقيل المراد بالوجوه السادة منهم وقرىء لنسوء بالنون على أن الضمير لله سبحانه ، وقرىء لنسوءن بنون التأكيد وقرىء ليسوء بالتحتية وافراد الضمير لله أو للوعد وقرىء ليسوءوا على أن الفاعل عباد لنا ، وفي عود الواو على العباد نوع استخدام إذ المراد بهم أولاً جالوت وجنوده والمراد بهم في ضمن الضمير بختنصر وجنوده .

﴿وليدخلوا المسجد﴾ أي بيت المقدس ونواحيه فيخربوها ﴿كما دخلوه أول مرة﴾ أي وقت افسادهم الأول ﴿وليتبروا﴾ أي يدمروا ويهلكوا ، قاله ابن عباس ، وقال قطرب يهدموا ، قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته ﴿ما علوا﴾ ما غلبوا عليه من بلادكم أو مدة علوهم ﴿تتبيراً﴾ أي تدميراً ذكر المصدر إزالة للشك وتحقيقاً للخبر .

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

قال الضحاك : كانت الرحمة التي وعدهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وإن عدتم﴾ الى المعصية ثالثاً ﴿عدنا﴾ الى عقوبتكم ، قال أهل السير : ثم انهم عادوا الى ما لا ينبغي وهو تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد من نعته في التوراة والانجيل فعاد الله الى عقوبتهم على أيدي العرب ، فجرى على بني قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والاجلاء وضرب الجزية على من بقي منهم وضرب الذلة والمسكنة .

وقال قتادة : فعادوا فبعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقد اختلفت الروايات في تعيين الواقع منهم في المرتين وفي تعيين من سلطه الله عليهم وفي كيفية الانتقام منهم ولا يتعلق بذلك كثير فائدة .

﴿وجعلنا جهنم للكافرين﴾ منهم ومن غيرهم ﴿حصيراً﴾ أي سجناً ومحبساً جعل الله مأواهم فيها قاله ابن عباس ، والحصير هو المحبس فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ، والمعنى أنهم محبوسون في جهنم لا يتخلصون عنها ابداً . قال الجوهري : حصره يحصره حصراً ضيق عليه وأحاط به ، ويقال للسجن محصر وحصير ، وقيل فراشاً ومهاداً ، قاله الحسن ، وأراد على هذا بالحصير الحصير الذي يفرشه الناس .

﴿ان هذا القرآن يهدي﴾ الناس ﴿للتي﴾ أي للطريقة التي ﴿هي أقوم﴾ وأصوب من غيرها من الطرق وهي ملة الاسلام . وقال الزجاج : للحال التي هي أقوم الحالات ، وهي توحيد الله والايمان برسله ، وكذا قال الفراء ، وقيل للكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، فبعضهم يصل بهدايته وهم المؤمنون وبعضهم لا يصل وهم الكافرون.

﴿ويبشر المؤمنين﴾ بما اشتمل عليه من الوعد بالخير آجلاً وعاجلاً ﴿الذين يعملون الصالحات﴾ التي أرشد الى عملها القرآن ﴿أن لهم﴾ أي بأن لهم ﴿أجراً كبيراً﴾ وهو الجنة ﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ واحكامها المبينة في القرآن ﴿أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ وهو عذاب النار فلا يكون ذلك داخلاً في حيز البشارة وعليه جرى السفاقسي والبيضاوي والسيوطي .

والجملة عطف على جملة يبشر بتقدير يخبر ، وقيل عطف على قوله ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾ ويراد بالتبشير الاخبار سواء كان بخير أو شر أو معناه الحقيقي ويكون الكلام مشتملاً على تبشير المؤمنين ببشارتين ، الأولى ما لهم من الثواب والثانية ما لأعدائهم من العقاب ، ولا شك أن ما يصيبُ عدوهم سرور لهم . ﴿ويدع﴾ القياس أن تثبت واو يدع لأنه مرفوع ، إلا أنه لما وجب سقوطها لفظاً لاجتماع الساكنين سقطت في الخط ايضاً على خلاف القياس ، ونظيره سندع الزبانية .

﴿الانسان بالشر﴾ المراد بالانسان هو الجنس لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده ، وهو دعاء الرجل على نفسه وماله وولده وعند الضجر بما لا يحب ان يستجاب له نحو اللهم أهلكه اللهم آلعنه ونحو ذلك .

﴿دعاءه بالخير﴾ أي مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله ، كطلب العافية والرزق ونحوهما ، فلو استجاب الله دعاؤه على نفسه بالشر لهلك ، لكنه لم يستجب تفضلاً منه ورحمة .

ومثل ذلك ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير﴾ وقد تقدم في

سورة يونس انه يستجاب له بالخير ولا يستجاب له في الشر فراجعه ، وقيل المراد بالانسان القائل هذه المقالة هو الكافر يدعو لنفسه بالشر وهو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقوله ﴿اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ .

وقال ابن عباس : قوله اللهم العنه واغضب عليه ، وقيل هو أن يدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب المباح .

﴿وكان الانسان عجولاً﴾ أي مطبوعاً على العجلة يسارع الى كل ما يخطر بباله لا ينظر الى عاقبته ، ومن عجلته أنه يسأل البشر كما يسأل الخير وقال ابن عباس : ضجراً لا صبر له على سراء ولا ضراء ، والمراد بالانسان الجنس لأن أحداً من الناس لا يعرى عن عجلة ، ولو تركها لكان تركها أصلح في الدين والدنيا .

وقيل أشار به الى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن يكمل فيه الروح ، فعن سلمان الفارسي قال : أول ما خلق الله من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه ، فلما كان بعد العصر قال يارب أعجل قبل الليل ، فذلك قوله ﴿وكان الانسان عجولاً﴾ والمناسب للسياق هو الأول .

ولما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد أكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ وذلك لما فيهما من الاظلام والانارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الأحلام ، ومعنى كونهما آيتين انهما يدلان على وجود الصانع وقدرته وعلى إنفاذ الحكم بتعاقبهما على نسق واحد مع إمكان غيره ؛ وقدم الليل على النهار لكونه الأصل ، وثنى الآية ههنا وافردها في قوله ﴿وجعلناها وابنها آية﴾ لتباين الليل والنهار من كل وجه ولتكررهما ؛ فناسب هنا التثنية بخلاف عيسى مع أمه فإنه جزء منها ولا تكرر فيهما فناسب فيهما الافراد ، قاله الكرخي .

﴿فمحونا آية الليل﴾ أي طمسنا نورها ، وقد كان القمر كالشمس في الانارة والضوء ، قيل ومن آثار المحو السواد الذي يرى في القمر ؛ وقيل المراد بمحوها أنه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة مظلمة لا يستبين فيه شيء ، وليس المراد أنه محاها بعد أن لم تكن كذلك ، والفاء تفسيرية لأن المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقب جعل الليل والنهار آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته . وعن عليّ قال في الآية : هو السواد الذي في القمر . وعن ابن عباس نحوه .

واخرج البيهقي وابن عساكر عن سعيد المقبري أن عبدالله بن سلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السواد الذي في القمر فقال « كان شمسين ، فالسواد الذي رأيت هو المحو » وعن ابن عباس مرفوعاً نحوه بأطول منه . أخرجه ابن مردويه ، قال السيوطي واسناده واه .

﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي مبصراً فيها قال الكسائي وغيره هو من قول العرب : أبصر النهار إذا صار بحالة يبصر بها ، وأشار بهذا الى أن في الكلام مجازاً عقلياً لأن النهار لا يبصر ، بل يبصر فيه فهو من إسناد الحديث الى زمانه ، وقيل مبصرة للناس من قولهم أبصره فبصر . فالأول وصف لها بحال أهلها ؛ والثاني وصف لها بحال نفسها واضافة آية الى النهار بيانية ، أي فمحونا الآية التي هي النهار مبصرة ، كقولهم نفس الشيء وذاته . وقيل آية النهار الشمس ، كما أن آية الليل القمر ، فمعنى وجعلنا آية النهار مبصرة ، أي جعلنا شمس النهار مضيئة تبصر بها الأشياء رؤية بينة .

﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ أي لتتوصلوا ببياض النهار الى التصرف في وجوه المعاش ، والمعنى جعلناها لتبتغوا وتطلبوا فضلاً أي رزقاً ، اذ غالب تحصيل

الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار ، ولم يذكر هنا السكون في الليل اكتفاء بما قاله في موضع آخر: ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ .

ثم ذكر مصلحة أخرى في ذلك الجعل فقال: ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ وهذا متعلق بالفعلين جميعاً ، أعني محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتعلموا الخ لا بأحدهما فقط كالأول ، اذ لا يكون علم عدد السنين والحساب إلا باختلاف الجديدين ومعرفة الأيام والشهور والسنين ، والفرق بين العدد والحساب أن العدد احصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء ، والحساب احصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص .

فالسنة مثلاً إن وقع النظر اليها من حيث عدد أيامها فذلك هو العدد ، وان وقع النظر اليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل شهر من عدة أيام قد تحصل كل يوم من عدة ساعات قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق فذلك هو الحساب . ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار ولتعطلت الأمور ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج والصوم والصلاة ولا وقت الزراعة ولا وقت حلول الديون المؤجلة وقال الكرخي لا تكرار إذ العدد موضوع الحساب .

﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ أي كل ما تفتقرون اليه في أمر دينكم ودنياكم بيناه تبييناً واضحاً لا يلتبس فهو كقوله ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ وقوله ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ وإنما ذكر المصدر وهو قوله ﴿تفصيلاً﴾ لأجل تأكيد الكلام وتقريره فكأنه قال فصلناه حقاً على الوجه الذي لا مزيد عليه وعند ذلك تنزاح العلل وتزول الأعذار ليهلك من هلك عن بينة ولهذا قال :

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

﴿وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال أبو عبيدة : الطائر عند العرب الحظ ويقال له البخت فالطائر ما وقع للشخص في الأزل بما هو نصيبه من العقل والفهم والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة كان طائراً يطير اليه من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب طيراناً لا نهاية له ولا غاية الى أن انتهى الى ذلك الشخص في وقته المقدر من غير خلاص ولا مناص .

وقال الأزهري : الأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي فكتب ما علمه منهم أجمعين وقضى بسعادة من علمه مطيعاً وشقاوة من علمه عاصياً فطار لكل منهم ما هو صائر اليه عند خلقه وانشائه وذلك قوله ﴿وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ أي ما طار له في علم الله ، وقيل إن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم الى خير أو شر اعتبروا أحوال الطير ، فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه .

وفي عنقه عبارة عن شدة اللزوم وكمال الارتباط ، قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس ، قال مجاهد : ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد .

أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير بسند حسن عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « طائر كل انسان في عنقه »[1] وقال ابن عباس : طائره سعادته وشقاوته وما قدر الله له وعليه فهو لازمه أينما كان . وعن أنس قال : طائره كتابه فالطائر له تفسيران :

**الأول** : العمل وما قدر له .

**والثاني** : الكتاب الحقيقي .

﴿ونخرج﴾ بنون التعظيم ﴿له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ وقرىء يخرج بالتحتية وبالراء المضمومة على معنى ويخرج له الطائر فيصير كتاباً وقرىء يخرج والفاعل هو الله سبحانه وقرىء على البناء للمفعول أي يخرج له الطائر كتاباً والمعنى مكتوباً فيه أعماله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

قال الحسن : بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ عليك سيآتك حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة .

وإنما قال سبحانه ﴿يلقاه منشوراً﴾ تعجيلاً للبشرى بالحسنة والتوبيخ على السيئة قال ابن عباس هو عمله الذي أحصي عليه فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقرأه منشوراً ، والمعنى يلقاه الانسان او يلقى الانسان

﴿إقرأ كتابك﴾ أي يقال له أو قائلين له اقرأ قيل يقرأ في ذلك اليوم الكتاب من كان قارئاً ومن لم يكن قارئاً قاله قتادة ﴿كفى بنفسك﴾ أي بشخصك ﴿اليوم عليك حسيباً﴾ أي حاسباً أو كافياً والحسيب بمعنى المحاسب كالشريك والجليس والخليط ، قال الحسن لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك .

---

(١) أحمد بن حنبل ٣٤٢/٣ ـ ٣٤٩ ـ ٣٦٠ .

﴿من اهتدى فانما يهتدي لنفسه﴾ بيَّن سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده يختصان بفاعلهما لا يتعديان منه الى غيره فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به وترك ما نهاه الله عنه وعمل بما في تضاعيفه من الأحكام فانما تعود منفعة ذلك الى نفسه لا تتخطاه الى غيره ممن لم يهتد .

﴿ومن ضل﴾ عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به ولم يترك ما نهى عنه ﴿فانما يضل عليها﴾ أي فإن وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها فكل أحد محاسب عن نفسه مجزيّ بطاعته معاقب بمعصيته ، وهذا حاصل ما تقدم من بيان كون القرآن هادياً لأقوم الطريق ولزوم الأعمال لصاحبها .

ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ الوزر الاثم يقال وزر يزر وزراً ووزرة أي اثماً والجمع أوزار والوزر الثقل ومنه يحملون أوزارهم على ظهورهم أي أثقال ذنوبهم ومعنى الآية لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى تخلص الأخرى عن وزرها وتؤخذ به الأولى وقد تقدم مثل هذا في الأنعام .

قال الزجاج في تفسير هذه الآية : إن الآثم والمذنب لا يؤاخذ بذنب غيره وهذا تحقيق معنى قوله وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ، وأما ما يدل عليه قوله تعالى ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ وقوله تعالى ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئتها فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له ، وإنما الذي يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء أصل الحسنة والسيئة .

وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الاضلال وانما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعاً للاطماع الفارغة حيث

كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالشفاعة على أسلافهم الذين قلدوهم .

أخرج ابن عبد البر في التمهيد عن عائشة قالت : سألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : « هم من آبائهم » ثم سألته بعد ذلك فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت ﴿ولا تزر وازرة﴾ الآية فقال هم على الفطرة أو قال في الجنة » قال السيوطي وسنده ضعيف .

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له : يارسول الله إنا نصيب في البيات من ذراري المشركين قال « هم منهم » وفي ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل ، وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة في أطفال المشركين ثم نقل كلام أهل العلم في المسألة فليرجع اليه .

﴿وما كنا معذبين﴾ أحداً ﴿حتى نبعث رسولاً﴾ لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدي بهدايته والضال بضلالته وعدم مؤاخذة الانسان بجناية غيره ذكر انه لا يعذب عباده إلا بعد الاعذار اليهم بإرسال رسله وانزال كتبه فبيَّن سبحانه انه لم يتركهم سدى ولا اخذهم قبل إقامة الحجة عليهم ، والظاهر انه لا يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد الاعذار اليهم بإرسال الرسل ، وبه قالت طائفة من أهل العلم وذهب الجمهور الى أن المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة ؛ وفيه دليل على أن ما وجب إنما وجب بالسمع لا بالعقل .

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية﴾ اختلف المفسرون في معنى ﴿أمرنا مترفيها﴾ على قولين ( الأول ) أن المراد به الذي هو نقيض النهي ، وعلى هذا اختلفوا في المأمور به فالأكثر على أنه الطاعة والخير .

وقال في الكشاف معناه أمرناهم بالفسق ﴿ففسقوا فيها﴾ وأطال الكلام

(١) مسلم ١٧٤٥ ـ البخاري ١٤٣١ .

في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التفسير ، وما ذكره هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل : أمرته فعصاني ، فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شيء غير المعصية لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له .

فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المراد به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ويناقضه .

والقول الثاني أن معنى أمرنا مترفيها أكثرنا فساقها ، قال الواحدي : تقول العرب أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا كثرهم ، وقد قرىء أمرنا بتشديد الميم أي جعلناهم أمراء مسلطين ، وقرىء آمرنا بالمد والتخفيف أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها ، قاله الكسائي ، وقال أبو عبيدة : آمرته بالمد وأمرته لغتان بمعنى كثرته ومنه الحديث خير المال مهرة مأمورة أي كثيرة النتاج والنسل وكذا قال ابن عزير .

وقرىء أمرنا بالقصر وكسر الميم على معنى فعلنا ورويت هذه القراءة عن ابن عباس قال قتادة والحسن : المعنى أكثرنا وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيدة وأنكره الكسائي ، قال لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد ، قال في الصحاح وقال أبو الحسن أمر ماله بالكسر أي كثر ، وأمر القوم أي كثروا ، وقرأ الجمهور أمرنا من الأمر ومعناه ما قدمنا في القول الأول .

وقد قيل في تأويل أمرنا بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق وهو إدرار النعم عليهم ،وقيل المراد قرب اهلاك قرية وهو عدول عن الظاهر بدون ملجىء اليه .

والمراد بالمترفين المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش ، والمفسرون يقولون في تفسير المترفين أنهم الجبارون المتسلطون والملوك الجائرون ، قالوا وإنما خصوا بالذكر لأن من عداهم أتباع لهم ، وفي القاموس الترفه بالضم النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف تخص به صاحبك وترف

كفرح تنعم وأترفته النعمة أطغته أو نعمته كتَرَّفَتْه تَتْريفاً والمترف كمكرم المتروك يفعل ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه وتترف تنعم .

﴿ فحق عليها القول ﴾ أي ثبت وتحقق ووجب عليهم العذاب والعقاب بعد ظهور فسقهم وتمردهم في كفرهم ﴿ فدمرناها تدميراً ﴾ عظيماً لا يوقف على كنهه لشدته وعظيم موقعه وأهلكناها إهلاك إستئصال والدمار الهلاك والخراب .

ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية فقال ﴿ وكم أهلكنا من القرون ﴾ أي كثيراً ما اهلكنا منهم فكم مفعول أهلكنا أي أن من قوم كفروا ﴿ من بعد نوح ﴾ كعاد وثمود وغيرهم من الأمم الخالية فحل بهم البوار ونزل بهم سوط العذاب وفيه تخويف لكفار مكة ، وإنما قال ذلك لأنه أول من كذبه قومه ومن ثم لم يقل من بعد آدم، ومن الثانية لإبتداء الغاية والأولى للبيان فلذلك إتحد متعلقهما .

وقال الحوفي الثانية بدل من الأولى وليس كذلك لإختلاف معنييهما ، ثم خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بما هو ردع للناس كافة فقال ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ .

قال الفراء : إنما يجوز إدخال الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم كقولك كفاك به وأكرم به رجلاً وطاب بطعامك طعاماً ولا يقال قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك ؛ والمراد بكونه سبحانه خبيراً أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات لا تخفى عليه خافية من أحوال الخلق .

وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة وتخويف شديد لأهل المعصية لأن العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة يقتضي إيصال الجزاء الى مستحقه بحسب استحقاقه، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

﴿من كان يريد العاجلة﴾ هذا تأكيد لما سلف من جملة ﴿كل انسان ألزمناه طائره﴾ وجملة ﴿من اهتدى﴾ والمراد بالعاجلة المنفعة العاجلة او الدار العاجلة ، والمعنى من كان يريد بأعمال البر أو بأعمال الآخرة ذلك فيدخل تحته الكفرة والفسقة والمراؤون والمنافقون .

﴿عجلنا له﴾ أي لذلك المريد ﴿فيها﴾ أي في تلك العاجلة قيد المعجل والمعجل له بقيدين ؛ الأول قوله ﴿ما نشاء﴾ تعجيله له منها لا ما يشاؤه ذلك المريد ، ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا ما لا ينالون ويتمنون ما لا يصلون اليه ، والقيد الثاني قوله ﴿لمن نريد﴾ التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا . وقيل الآية في المنافقين كانوا يراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها .

وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة كقوله سبحانه ﴿من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ وقوله ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ .

وقيل قرىء ما يشاء بالتحتية والضمير على هذا لله سبحانه ، وفيه بعد لمخالفته لما قبله وهو عجلنا وما بعده وهو لمن نريد .

وقيل الضمير راجع الى ﴿من﴾ في قوله ﴿من كان يريد﴾ فيكون ذلك مقيداً بقوله لمن نريد ، أي عجلنا له ما يشاؤه لكن بحسب إرادتنا ، فلا

يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه إلا اذا أراد الله له ذلك ، ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التي لا تأثير لها الا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم ولهذا قال ﴿ثم جعلنا له جهنم﴾ أي بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة واخلاصه عن الشوائب جعلنا له عذاب جهنم على اختلاف أنواعه .

﴿يصلاها﴾ أي يدخل جهنم ﴿مذموماً﴾ ملوماً من الخلق ﴿مدحوراً﴾ أي مطروداً من رحمة الله مبعداً عنها ، وفي المختارة دحره يدحره من باب خضع طرده ، فهذه عقوبته في الآخرة أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره الله سبحانه فأين حال هذا الشقي من حال المؤمن النقي ، فإنه ينال من الدنيا ما قدره الله له وأراده بلا هلع منه ولا جزع مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقته بربه ، وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من الله سبحانه وهو الجنة ولهذا قال .

﴿ومن أراد﴾ بأعماله الدار ﴿الآخرة وسعى لها﴾ أي من أجلها ، وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص لأنها للاختصاص ﴿سعيها﴾ أي السعي الحقيقي بها اللائق بطالبها ، وهو الاتيان بما أمر به وترك ما نهى عنه خالصاً لله غير مشوب وكان الاتيان به على القانون الشرعي من دون ابتداع ولا هوى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم .

﴿وهو مؤمن﴾ بالله ايماناً صحيحاً ، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه الا اذا كان من المؤمنين ﴿انما يتقبل الله من المتقين﴾ والواو للحال ﴿فأولئك﴾ أي المريدون للآخرة الساعون لها سعيها ؛ وفيه مراعاة معنى من بعد مراعاة لفظها وهو مبتدأ وخبره ﴿كان سعيهم مشكوراً﴾ عند الله أي مقبولاً غير مردود؛ وقيل مضاعفاً الى أضعاف كثيرة .

فقد اعتبر سبحانه في كون السعي مشكوراً أموراً ثلاثة :

**الأول** : ارادة الآخرة .

**الثاني** : أن يسعى لها السعي الذي يحق لها .

**والثالث** : أن يكون مؤمناً وفي الخطيب قال بعض السلف الصالح ؛ من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب ، وتلا هذه الآية .

ثم بيَّن سبحانه كمال رأفته وشمول رحمته فقال ﴿كُلاًّ﴾ أي كل واحد من الفريقين ، من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة ﴿نمد﴾ أي نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع ﴿هؤلاء وهؤلاء﴾ بدل من المفعول وهو ﴿كُلاًّ﴾ فكأنه قيل نمد هؤلاء وهؤلاء الأول للأول والثاني للثاني فهو لف ونشر مرتب ، أي نرزق الكفار والمؤمنين وأهل المعصية وأهل الطاعة ، لا نؤثر معصية العاصي في قطع رزقه ، وما به الامداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا وما أنعم به في الأولى والاخرى على من يريد الآخرة .

وفي قوله ﴿من عطاء ربك﴾ اشارة الى أن ذلك بمحض التفضل ، وهو متعلق بنمد ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي ممنوعاً عن أحد ، قاله الضحاك . يقال حظره يحظره حظراً منعه ، وكل ما حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك، والمراد بالعطاء العطاء في الدنيا كالرزق والجاه إذ لا حظ للكافر في الآخرة .

قال الزجاج : علم الله سبحانه انه يعطي المسلم والكافر وأنه يرزقهم جميعاً . وقال الحسن : كل يرزقه الله في الدنيا البر والفاجر وقال ابن عباس : يرزق الله من أراد الدنيا ويرزق من أراد الآخرة .

﴿أنظر﴾ يامحمد صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون الخطاب لكل من له أهلية النظر والاعتبار . وهذه الجملة مقررة لما مر من الامداد وموضحة له ، والمعنى انظر ﴿كيف فضلنا﴾ في العطايا العاجلة ﴿بعضهم﴾ أي بعض العباد ﴿على بعض﴾ فمن غني وفقير ، وقوي وضعيف ، وصحيح ومريض ، وعاقل واحمق ، وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها .

﴿وللآخرة﴾ اللام لام ابتداء أو قسم ﴿أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ من

الدنيا وذلك لأن نسبة التفاضل في درجات الآخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا ، وليس للدنيا بالنسبة الى الآخرة مقدار ، فلهذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً . وقيل المراد أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار ، فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين .

وحاصل المعنى أن التفاضل في الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل في الدنيا ومراتب أهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما ، وثبت في الصحيحين « أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء »(١) .

ثم لما أجمل سبحانه أعمال البر في قوله وسعى لها سعيها وهو مؤمن أخذ في تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذي هو التوحيد فقال ﴿لا تجعل﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد به أمته تهييجاً وإلهاباً أو لكل مكلف متأهل له صالح لتوجيهه اليه .

وقيل التقدير قل لكل مكلف لا تجعل ﴿مع الله إلهاً آخر فتقعد﴾ النصب على جواب النهي ، أي لا يكن منك جعل فقعود ، ومعنى تقعد تصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ؛ واليه ذهب الفراء والزمخشري ، وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام .

وقيل هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات ، فإن السعي فيه إنما يتأتى بالقيام والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعداً عن الطلب .

وقيل إن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادماً مفكراً على ما فرط منه فالقعود على هذا حقيقة .

﴿مذموماً مخذولاً﴾ ونصبهما على خبرية تقعد أو على الحال ، اي من غير حمد وبغير ناصر فتصير جامعاً بين الأمرين : الذم لك من الله ومن ملائكته ومن صالحي عباده ، والخذلان لك منه سبحانه ، أو حال كونك جامعاً بينهما . وحاصل ما ذكر في هذه الآيات من أنواع التكاليف خمسة وعشرون نوعاً بعضها أصلي وبعضها

---

(١) مسلم ٢٨٣١ ـ البخاري ١٥٤٠ .

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا (٢٥) وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا (٢٧)﴾

فرعي ، وقد ابتدأ بالأصلي في قوله لا تجعل ، ثم ذكر عقيبه سائر الأعمال التي يكون من عمل بها ساعياً في الآخرة فقال :

﴿وقضى ربك﴾ أي أمر أمراً جزماً وحكماً قطعاً وحتماً مبرماً وعن ابن عباس أنه قرأ ووصى ربك مكان وقضى ، وقال التزقت الواو والصاد وأنتم تقرأونها وقضى ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد ، وبه قرأ الضحاك أيضاً أقول إنما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر ، وهو وإن كان أحد معاني مطلق القضاء كما في قوله ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وقوله ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ وقوله ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ ولكنه ههنا بمعنى الأمر وهو أحد معاني القضاء والأمر لا يستلزم ذلك ، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده ، وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين .

ومن معاني مطلق القضاء معان أخر غير هذين المعنيين كالقضاء بمعنى الخلق ومنه ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ وبمعنى الارادة كقوله ﴿إذا قضى أمراً﴾ وبمعنى العهد كقوله ﴿إذ قضينا الى موسى الأمر﴾ وقد روى عنه أيضاً أنه قال قضى أمر، وقيل أوجب ربك؛ وعن مجاهد قال: عهد ربك.

قال الرازي : هذا القول ـ أي قول ابن عباس ـ بعيد جداً لأنه يفتح باب

أن التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ؛ ولو جوَّزنا ذلك لارتفع الامان على القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ، ولا شك أنه طعن عظيم في الدين .

﴿أن لا﴾ أي بأن ﴿لا تعبدوا إلا إياه﴾ قاله السيوطي ، وقال في الجمل قوله هذا غير سديد حيث أثبت النون بين الهمزة ولا النافية ، بقلم الحمرة فيقتضي انها من رسم القرآن مع انه ليس كذلك ، وقد نص في شرح الجزرية أن ما عدا المواضع العشرة يكتب موصولاً أي لا تثبت فيه النون ، وقيل أن مفسرة ولا تعبدوا نهي وفيه وجوب عبادة الله والمنع من عبادة غيره ؛ وهذا هو الحق .

ثم اردفه بالأمر بين الوالدين فقال ﴿وبالوالدين﴾ أي وقضى بأن تحسنوا بهما أو واحسنوا بهما ﴿إحساناً﴾ وتبروهما قيل وجه ذكر الإحسان الى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه إنهما السبب الظاهر في وجود المتولد بينهما وفي جعل الإحسان الى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما مالا يخفى ؛ وهكذا جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره فقال ﴿أن أشكر لي ولوالديك﴾ .

ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر لكونها الى البر من الولد أحوج من غيرها فقال ﴿إما يبلغن﴾ إن شرطية وما زائدة والفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التأكيد الثقيلة ﴿عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ معنى عندك أن يكونا في كنفك وكفالتك وتوحيد الضمير في عندك ولا تقل وما بعدهما للاشعار بأن كل فرد من الأفراد منهى بما فيه النهي ومأمور بما فيه الأمر .

﴿فلا تقل لهما أف﴾ جواب الشرط قيل والتقييد بهذا الشرط خرج مخرج الغالب من أن الولد إنما يتهاون بوالديه عند الكبر وإلا فلا يختص بالكبيرين ، والمعنى لا تقل لواحد منهما في حالتي الاجتماع والانفراد ، وليس المراد حالة الاجتماع فقط .

عن الحسين بن عليّ مرفوعاً : لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أف لحرّمه .

وقال مجاهد : لا تقل لهما أف لما تميط عنهما من الأذى الخلاء والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميطان عنك من الخلاء والبول . وفي أف أربعون لغة قاله السمين ثم قال وقد قرىء من هذه اللغات بسبع ثلاث في المتواتر وأربع في الشواذ وقال الفراء : تقول العرب فلان يتأفف من ريح وجدها أي يقول أف أف ، وقال الأصمعي : الأف وسخ الأذن والثف وسخ الاظفار ، يقال ذلك عند استقذار الشيء ثم كثر حتى استعملوه في كل ما يتأذون به ، وعن ابن الأعرابي أن الأف للضجر وقال القتيبي : أصله أنه اذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله ؛ فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل أف . ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل اليهم ، وقال الزجاج معناه النتن . وقال أبو عمرو بن العلاء : الأف وسخ بين الاظفار والثف قلامتها .

والحاصل أنه اسم فعل ينبىء عن التضجر والاستثقال أو صوت ينبىء عن ذلك فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما وقيل أف مصدر بمعنى تباً وقبحاً وخسراناً والأول أرجح ، وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو مقرر في الأصول .

﴿ ولا تنهرهما﴾ أي لا تضجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك ، والنهي والنهر والنهم أخوات بمعنى الزجر والغلظة ، يقال نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره قال الزجاج : معناه لا تكلمهما ضجراً صائحاً في وجوههما .

﴿وقل لهما﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قولاً كريماً﴾ أي ليناً لطيفاً جميلاً سهلاً أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع حسن التأدب والحياء والاحتشام .

قال محمد بن زبير : يعني اذا دعواك فقل لبيكما وسعديكما . وقيل هو أن يقول يا أماه يا أبتاه ولا يدعوهما باسمائهما ولا يكنيهما .

﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ قال سعيد بن جبير : اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ ، ذكر القفال في معنى خفض الجناح وجهين :

**الأول** : ان الطائر اذا أراد ضم فراخه اليه للتربية خفض لها جناحه ، فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير ، فكأنه قال للولد اكفل لوالديك بأن تضمهما الى نفسك لكبرهما وافتقارهما اليوم اليك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك وكنت مفتقراً اليهما .

**والثاني** : ان الطائر اذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه واذا أراد النزول خفض جناحه ، فصار خفض الجناح كناية بليغة عن التواضع وترك الارتفاع ، وفي اضافة الجناح الى الذل وجهان .

**الأول** : انها كاضافة حاتم الى الجود في قولك حاتم الجود فالأصل فيه الجناح الذليل .

**والثاني** : سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحاً ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً والذل من ذل يذل ذلاً وذلة ومذلة فهو ذليل ، وقرىء بكسر الذال من قولهم دابة ذلول بينة الذل أي منقادة سهلة لا صعوبة فيها .

وقوله ﴿من الرحمة﴾ فيه معنى التعليل أي من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله اليهما بالأمس ، قال السمين وفي ﴿من﴾ ثلاثة أوجه :

**أحدها** : أنها للتعليل .

**والثاني** : انها ابتدائية ؛ قال ابن عطية : أي أن هذا الخفض يكون ناشئاً من الرحمة المستكنة في النفس .

**الثالث** : انها نصب على الحال من جناح ؛ ثم كأنه قال له سبحانه ولا تكتف برحمتك التي لا دوام لها ﴿و﴾ لكن ﴿قل رب ارحمهما﴾ أي وادع الله لهما ولو خمس مرات في اليوم والليلة أن يرحمهما برحمته الباقية الدائمة وأراد به إذا كانا مسلمين ﴿كما ربياني صغيراً﴾ أي رحمة مثل تربيتهما لي قدره الحوفي أو مثل رحمتهما اليّ ، قدره أبو البقاء وقيل ليس المراد رحمة مثل الرحمة بل الكاف لاقترانهما في الوجود أي فلتقع هذه كما وقعت تلك والتربية التنمية .

ويجوز ان تكون الكاف للتعليل أي لأجل تربيتهما لي كقوله ﴿واذكروه كما هداكم﴾ ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ثم شفعه بالإحسان اليهما ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتَضَجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الانسان معها وان يذل ويخضع لهما ، ثم ختمها بالأمر بالدعاء لهما والترحم عليهما ، وهذه خمسة أشياء كلف الانسان بها في حق الوالدين ، وقد ورد في بر الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما وهي معروفة في كتب الحديث .

﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾ أي بما في ضمائركم من الاخلاص وعدمه في كل الطاعات ومن التوبة من الذنب الذي فرط منكم أو الاصرار عليه ويتدرج تحت هذا العموم ما في النفس من البر والعقوق اندراجاً أولياً ، وقيل إن الآية خاصة بما يجب للوالدين من البر ويحرم على الأولاد من العقوق ، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده .

﴿إن تكونوا صالحين﴾ أي أبرار مطيعين قاصدين الصلاح والبر والتوبة من الذنب والاخلاص للطاعة ﴿فانه كان للأوابين﴾ أي الرجاعين عن الذنوب الى التوبة ومن السيئات الى الحسنات ومن العقوق الى البر ومن عدم الاخلاص الى محض الاخلاص ﴿غفوراً﴾ لما فرط منكم من قول أو فعل او اعتقاد فلا يضركم ما

وقع من الذنب الذي تبتم عنه ، فمن تاب تاب الله عليه ومن رجع الى الله رجع الله اليه .

وقال سعيد بن جبير : يعني البادرة من الولد الى الوالد أي إن تكن النية صادقة فانه كان غفوراً للبادرة التي بدرت منه كالفلتة والزلة تكون من الرجل الى أبويه أو أحدهما وهو لا يضمر عقوقاً ، ولا يريد بذلك بأساً ، قال سعيد بن المسيب هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب .

وقيل الأواب الذي اذا ذكر خطاياه استغفر منها ، وقال عبد بن عمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله ، وهذه الاقوال متقاربة ، قال ابن عباس الأوابين المطيعين المحسنين التوابين ، وقيل المسبحين وقيل المصلين قال عون العقيلي هم الذين يصلون صلاة الضحى ، وقيل من يصلي بين المغرب والعشاء ، والأول أولى .

ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال ﴿وآت ذا القربى حقه﴾ الخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم تهييجاً وإلهاباً لغيره من الأمة أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما في قوله وقضى ربك والأمر للوجوب عند ابي حنيفة فعنده يجب على الموسر مواساة أقاربه اذا كانوا محارم كالأخ والأخت وعند غيره للندب فلا يجب عند غيره إلا نفقة الأصول والفروع دون غيرهما من الأقارب .

أقول المراد بذوي القربى أولو القرابة وحقهم هو صلة الرحم التي أمر الله بها والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء ، وكرر الوصية فيها ، والخلاف بين أهل العلم في وجوب النفقة للقرابة لبعضهم كالوالدين على الأولاد والأولاد على الوالدين معروف ، والذي ينبغي الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ اليه القدرة وحسبما تقتضيه الحال .

قال ابن عباس : أمره بأحق الحقوق وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده وكيف يصنع اذا لم يكن عنده .

﴿و﴾ آت ﴿المسكين وابن السبيل﴾ حقهما من الزكاة وهذا دليل على أن المراد بما يؤتي ذوي القربى من الحق هو تعهدهم بالمال ، وعن سفيان في الآية قال : هو أن يصل ذا القرابة ويطعم المسكين ويحسن الى ابن السبيل ، وعن السدي قال : القربى قربى بني عبد المطلب وقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأقول ليس في السياق ما يفيد هذا التخصيص ولا دل عليه دليل ، ومعنى النظم القرآني واضح ان كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة لأن معناه أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقهم وهو الصلة التي أمر الله بها ؛ وإن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فان كان على وجه التعريض لأمته فالأمر فيه كالأول وإن كان خطاباً له من دون تعريض فأمته أسوته فالأمر له صلى الله عليه وسلم بإيتاء ذي القربى حقه أمر لكل فرد من أفراد أمته ، والظاهر أن هذا الخطاب ليس خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم بدليل ما قبل الآية وهي قوله : ﴿وقضى ربك﴾ وما بعدها وهي قوله :

﴿ولا تبذر تبذيراً﴾ هو تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه وهو الاسراف المذموم لمجاوزته للحد المستحسن شرعاً في الانفاق او هو الانفاق في غير الحق وان كان يسيراً .

قال الشافعي : التبذير انفاق المال في غير حقه ، ولا تبذير في عمل الخير ، قال القرطبي : وهذا قول الجمهور ، قال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه وهو الاسراف وهو حرام لقوله :

﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ فإن هذه الجملة تعليل للنهي عن

التبذير ، والمراد بالاخوة المماثلة التامة وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه اطلاق المماثلة ، والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به ، وهذا غاية المذمة لأنه لا شر من الشياطين ، والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو اخوهم .

قال ابن مسعود : التبذير انفاق المال في غير حقه ، وعنه كنا اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نتحدث ان التبذير النفقة في غير حقه ، وعن ابن عباس قال : هم الذين ينفقون المال في غير حقه ، وعن عليّ قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

وقيل هو انفاق المال في العمارة على وجه السرف ، وقيل لو أنفق الانسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق درهما أو مداً في باطل كان مبذرا ، قيل إن بعضهم أنفق نفقة في خير فأكثر ، فقال له صاحبه لا خير في السرف ، فقال لا سرف في الخير ، ولا مانع من حمل الآية على الجميع والعموم أولى .

﴿وكان الشيطان لربه﴾ أي لنعم ربه ﴿كفوراً﴾ أي كثير الكفران جحود النعمة ، عظيم التمرد عن الحق ، لأنه مع كفره لا يعمل إلا شراً ، ولا يأمر إلا بعمل الشر ، ولا يوسوس إلا بما خير فيه ، وفي هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين ، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور ، فاقتضى ذلك ان المبذر مماثل للشيطان ، وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان ، وكل شيطان كفور فالمبذر كذلك .

قال الكرخي : وكذلك من رزقه الله جاهاً أو مالاً فصرفه الى غير مرضاة الله كان كفوراً لنعمة الله لانه موافق للشيطان في الصفة والفعل .

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

﴿وإما تعرضن عنهم﴾ أي إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل لأمر اضطرك الى ذلك الاعراض ﴿ابتغاء رحمة﴾ أي لفقد رزق ﴿من ربك﴾ ولكنه اقام المسبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذي هو فقد الرزق ، لأن فقد الرزق مبتغ له ﴿ترجوها﴾ أي ترجو أن يفتح الله به عليك ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي قولاً سهلاً ليناً كالوعد الجميل أو الاعتذار المقبول قيل هو ان يقول رزقنا الله وإياكم من فضله . قال الكسائي : يسرت له القول أي ليَّنته وقال الفراء : معنى الآية ان تعرض عن السائل اضاقة واعساراً فعدهم عدة حسنة ، ويجوز ان يكون المعنى وان تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولاً ميسوراً ، وليس المراد هنا الاعراض بالوجه ، وفي هذه الآية تأديب من الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبما يردون ، ولقد احسن من قال :

ان لا يكن ورق يوماً أجود بها     للسائلين فإني لين العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقي     اما نوال واما حسن مردود

ولما ذكر الله سبحانه أدب المنع بعد النهي عن التبذير بيَّن أدب الانفاق فقال ﴿ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ هذا النهي يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تعرضاً لأمته وتعليماً لهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين ، والمراد النهي للانسان بأن يمسك امساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ، ولا يوسع في الانفاق توسيعاً لا حاجة اليه

بحيث يكون به مسرفاً ، فهو نهي عن جانبي الافراط والتفريط ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط ، وهو العدل الذي ندب الله اليه .

ولا تك فيها مفرطاً أو مفرطاً كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقد مثل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة الى عنقه مضمومة اليه مجموعة معه في الغل بحيث لا يستطيع التصرف بها ، ومثل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها مما يقبض الايدي عليه ولا يبقى شيئاً في كفه ، وفي هذا التصوير مبالغة عظيمة بليغة ثم بيّن سبحانه غاية الطرفين المنهى عنهما فقال ﴿فتقعد﴾ تصير ﴿ملوماً﴾ مذموماً عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح أو عند الله سبحانه لأن الشح غير مرضي لديه أو عند نفسك وأصحابك أو يلومك سائلوك اذا لم تعطهم .

﴿محسوراً﴾ بسبب ما فعلته من الاسراف ، أي منقطعاً عن المقاصد سبب الفقر والمحسور في الأصل المنقطع عن السير من حسره السفر إذا بلغ منه أي أثر فيه ؛ والبعير الحسير هو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به ، ومنه قوله تعالى ﴿ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي كليل منقطع ، وقيل معناه نادماً على ما سلف فجعله هذا القائل من الحسرة التي هي الندامة ، وفيه نظر لأن الفاعل من الحسرة حسران ولا يقال محسوراً إلا للملوم .

وفي المختار الحسرة شدة التلهف على الشيء الفائت ، تقول حسر على الشيء من باب طرب ، وحسره ايضاً فهو حسير ، وحسره غيره تحسيراً . وعن سيار ابي الحكم قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزّ من العراق وكان معطاء كريماً فقسمه بين الناس ، فبلغ ذلك قوماً من العرب فقالوا : إنا نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فوجدوه قد فرغ منه ، فأنزل الله ﴿ولا تجعل يدك﴾ الآية . أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر .

أقول ولا أدري كيف هذا فالآية مكية ولم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحمل اليه شيء من العراق ولا مما هو أقرب منه ، على

أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته صلى الله عليه وسلم .

ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذي يرهقهم من الإضافة ليس لهوانهم على الله سبحانه ولكن لمشيئة الخالق الرزاق فقال ﴿ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسعه على بعض ويضيقه على بعض لحكمة بالغة ، لا يكون من وسع له رزقه مكرماً عنده ومن ضيقه عليه هيناً لديه ، ويقدر ويقتر مترادفان . قيل ويجوز ان يراد أن البسط والقبض انما هما من أمر الله الذي لا تفنى خزائنه فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا .

وعن الحسن في الآية قال : ينظر له فإن كان الغنى خيراً له أغناه ، وان كان الفقر خيراً له أفقره .

ثم علَّل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله ﴿انه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي يعلم ما يسرون وما يعلنون لا تخفى عليه خافية من ذلك ، فهو الخبير بأحوالهم البصير بكيفية تدبيرهم في أرزاقهم ، وفي هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده فلذلك قال بعدها:

﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ خطاب للموسرين بدليل قوله ﴿ خشية إملاق ﴾ أي فاقة وفقر يقع بكم يقال أملق الرجل إذا لم يبق له إلا الملقات وهي الحجارة العظام الملس ، يقال أملق إذا افتقر وسلب الدهر ما بيده ، نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر ، وقد كانوا يفعلون ذلك؛ وقد تقدم في سورة الأنعام نهي المعسرين بقوله ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾.

وفي الكرخي حاصله أن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعي في تخريب العالم فالأول ضد التعظيم لأمر الله ، والثاني ضد الشفقة على خلق الله وكلاهما مذموم .

ثمّ بيّن أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له فإن الله سبحانه هو الرازق لعباده يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع ، ثم علل سبحانه النهي عن قتل الأولاد لذلك بقوله ﴿ إن قتلهم كان خطأً

كبيراً ﴾ قرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء ، وقرىء بفتح الخاء والطاء يقال خطىء في دينه خطأ إذا أثم وأخطأ إذا سلك سبيل خطأ عامداً أو غير عامد ، قال الأزهري خطىء يخطأ خطأً مثل أثم يأثم إثماً إذا تعمد الخطأ وأخطأ إذا لم يتعمد خطأً والخطأ الإثم يقوم مقام الأخطاء وفيه لغتان القصر وهو الجيد والمد وهو قليل .

وقرأ إبن كثير خطاء بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمزة ، قال النحاس ليس لهذه القراءة وجه وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً .

ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل ذكر النهي عن الزنا المفضى إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب فقال ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ قربت الأمر أقربه من باب تعب وفي لغة من باب قتل قرباناً بالكسر فعلته أو دانيته ومن الأول هذه الآية ، ومن الثاني لا تقرب الحمى أي لا تـدن منه ، وفي النهي عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كان حراماً كان المتوسل إليه حراماً بفحوى الخطاب ،والزنا فيه لغتان المد والقصر.

ثـم علل النهى عن الزنا بقوله﴿ إنه كان فاحشة ﴾أي قبيحاً متبالغاً في القبح مجاوزاً للحد شرعاً وعقلاً ﴿وساء سبيلاً﴾ أي بئس طريقاً طريقه وذلك لانه يؤدي الى النار ولا خلاف في كونه من كبائر الذنوب .

وقد ورد في تقبيحه والتنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم وهو يشتمل على أنواع من المفاسد منها المعصية وايجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الأنساب فلا يعرف الرجل ولد من هو ولا يقوم أحد بتربيته ، وذلك يوجب ضياع الأولاد وانقطاع النسل ، وذلك يوجب خراب العالم .

وعن السدي في الآية قال : يوم نزلت هذه لم تكن حدود فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور ، وعن أبيّ بن كعب قال : ساء سبيلاً إلا من تاب فإن الله كان غفوراً رحيماً فذكر لعمر فأتاه فسأله فقال : أخذتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس لك عمل إلا الصفق بالبقيع .

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)﴾

ولما فرغ سبحانه من ذكر النهي عن القتل لخصوص الأولاد وعن النهي عن الزنا الذى يفضي الى مايفضي اليه قتل الأولاد من اختلاط الانساب وعدم استقرارها نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله﴾ أي التي جعلها الله معصومة بعصمة الدين أو عصمة العهد، والأصل في القتل هو الحرمة الغليظة، وحل القتل إنما يثبت بسببٍ عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الأصل.

ثم استثنى الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهي الأسباب العارضة فقال ﴿إلا بالحق﴾ كالردة والزنا من المحصن وكالقصاص من القاتل عمداً عدواناً وما يلتحق بذلك والاستثناء مفرغ أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب متلبس بالحق أو إلا متلبسين بالحق ، وقد تقدم الكلام في هذا في الأنعام .

وعن الضحاك قال : نزل هذا بمكة ونبي الله صلى الله عليه وسلم بها وهو أول شيء نزل من القرآن في شأن القتل ، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله من قتلكم من المشركين فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أباً أو أخاً أو واحداً من عشيرته وان كانوا مشركين فلا تقتلوا إلا قاتلكم .

وهذا قبل ان تنزل براءة وقبل أن يؤمر بقتال المشركين فذلك قوله ﴿فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً﴾ يقول لا تقتل غير قاتلك وهي اليوم على ذلك الموضع من المسلمين لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم .

ثم بيَّن حكم بعض المقتولين بغير حق فقال ﴿ومن قتل مظلوماً﴾ أي لا بسبب من الأسباب المسوغة لقتله شرعاً وهو أحد ثلاث كفر بعد ايمان وَزِناً بعد احصان وقتل مؤمن معصوم عمداً كما في الحديث ﴿فقد جعلنا لوليه﴾ أي لمن يلي أمره من ورثته ان كانوا موجودين أو لمن له سلطان لم يكونوا موجودين ﴿سلطاناً﴾ أي تسلطاً على القاتل إن شاء قتل وان شاء عفا وان شاء أخذ الدية قال ابن عباس : سلطاناً بينة من الله أنزلها يطلبها ولي المقتول القود او العقل .

ثم لما بيَّن اباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول أو ما هو عوض عن القصاص نهاه عن مجاوزة الحد فقال ﴿فلا يسرف﴾ أي لا يجاوز الولي اباحة الله له ﴿في القتل﴾ فيقتل بالواحد الاثنين أو جماعة أو يمثل بالقاتل أو يعذبه وقرأ الجمهور بالتحتية وقرىء بالفوقية فهو خطاب للقاتل الأول ونهي له عن القتل أي فلا تسرف أيها القاتل المتعدي بالقتل بغير الحق فإن عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته .

وقال ابن جرير الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة من بعده أي لا تقتل يامحمد غير القاتل ولا تفعل ذلك الأئمة بعدك وفي قراءة أُبيّ لا تسرفوا قال مجاهد : معنى لا يسرف لا يكثر ولا يقاتل الا قاتل رحمه ، وعن زيد بن أسلم ان الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلاً لم يرضوا بقتل قاتله حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً واذا كان قتيلهم شريفاً لم يقتلوا قاتله وحده بل قتلوا معه غيره فوعظوا في ذلك بقول الله سبحانه فلا يسرف في القتل .

ثم علَّل النهي عن السرف فقال ﴿انه﴾ يعني ولي المقتول ﴿كان

منصوراً﴾ أي مؤيداً معاناً فإن الله سبحانه قد نصره بإثبات القصاص له او الدية بما أبرزه من الحجج وأوضحه من الأدلة وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه ، ويجوز أن يكون الضمير راجعاً الى المقتول ظلماً أي أن الله نصره بوليه يعني منصوراً في الدنيا بإيجاب القود على قاتله وفي الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله قيل وهذه الآية من أول ما نزل من القرآن في شأن القتل لأنها مكيّة كما تقدم .

ولما ذكر سبحانه النهي عن اتلاف النفوس أتبعه بالنهي عن اتلاف الأموال وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ الخطاب لأولياء اليتيم والنهي عن قربانه مبالغة في النهي عن المباشرة واتلافه ، قال قتادة : كانوا لا يخالطونهم في مال ولا مأكل ولا مركب حتى نزلت وإن تخالطوهم فإخوانكم .

ثم بيَّن سبحانه أن النهي عن قربانه ليس المراد منه النهي عن مباشرته فيما يصلحه ويفسده بل يجوز لولي اليتيم أن يفعل في مال اليتيم ما يصلحه وذلك يستلزم مباشرته فقال ﴿إلا بالتي﴾ أي إلا بالخصلة التي ﴿هي أحسن﴾ من جميع الخصال وهي حفظه وطلب الربح فيه والسعي فيما يزيد به والانفاق عليه بالمعروف ثم ذكر غاية النهي عن قربان مال اليتيم فقال ﴿حتى يبلغ﴾ أي لا تقربوه حتى يبلغ اليتيم ﴿أشده﴾ فاذا بلغ أشده كان لكم ان تدفعوه اليه او تتصرفوا فيه بإذنه لأن التصرف له حينئذ .

والأشد مفرد بمعنى القوة ، وقيل جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل جمع شدة بكسر الشين ، وقيل جمع شد كذلك ، وقيل جمع بفتحها وعلى كل فالمراد به القوة وكمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله وإلا لم ينفك عنه الحجر وان كان الأشد في الأصل عبارة عن بلوغ ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل هي ثماني عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة وقد تقدم الكلام على هـذا مستوفى في الأنعام .

﴿وأوفوا بالعهد﴾ قد تقدم الكلام فيه في غير موضع ، قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو منِ العهد فيدخل في ذلك ما بين العبد وربه وما بين العباد بعضهم لبعض والوفاء بالعهد هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي إلا إذا دلّ دليل خاص على جواز النقض .

﴿ان العهد كان مسؤولاً﴾ عنه فالمسؤول هنا هو صاحبه ، وقيل إن العهد يُسأل تبكيتاً لناقضه فيقال فيهم نقض كالموؤودة تُسأل فيم قتلت وان كان سؤال العهد تخييلاً وتمثيلاً وسؤال الموؤودة تحقيقاً ، قال سعيد بن جبير : ان الله يسأل ناقض العهد عن عهده ، وعن ابن جريج قال : يسأل عهده من أعطاه إياه .

﴿وأوفوا الكيل﴾ أي أتموه ولا تخسروه خطاب للبائعين ﴿إذا كلتم﴾ أي وقت كيلكم للناس ، وأخذ من هذا بعضهم أن أجرة الكيال على البائع لأنها من تمام التسليم وكذلك عليه اجرة النقاد للثمن وهو كذلك كما هو مقرر في الفروع .

﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ قال الزجاج : هو ميزان العدل ، أي ميزان كان صغيراً أو كبيراً من موازين الدراهم وغيرها ، وفيه لغتان : ضم القاف وكسرها وقيل هو القبان المسمى بالقرسطون ، قاله الضحاك ، وقيل هو العدل نفسه ، قاله مجاهد وهي لغة الروم قاله ابن جبير ، وقيل لغة سريانية ثم عُربت .

ولا يقدح ذلك في عربية القرآن لأن العجمي اذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم في الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربياً ، والأصح أنه عربي مأخوذ من القسط وهو العدل والتفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب الاحتراز عنه ، وإنما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعياً في إبقاء الأموال على أربابها .

﴿ذلك﴾ أي ايفاء الكيل والوزن بالميزان المستوي ﴿خير﴾ لكم عند الله وعند الناس يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس في معاملة من كان كذلك ﴿وأحسن تأويلاً﴾ أي عاقبة من آل إذا رجع .

ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب فقال ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ أي لا تتبع ما لا تعلم ، وهو مأخوذ من قولك قفوت فلاناً اذا اتبعت أثره ، ومنه قافية الشعر لانها تقفو كل بيت ، ومنه القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار أقدام الناس . وحكى ابن جرير عن فرقة انها قالت : قفى وقاف مثل عثى وعاث .

وقال منذر بن سعيد البلوطي : قفى وقاف مثل جذب وجبذ ، وقيل مجزوم بحذف الواو من بابي عدا وسما ، أي لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم .

ومعنى الآية النهي عن أن يقول الانسان ما لا يعلمه او يعمل بما لا علم له . وهذه قضية كلية وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور ، فقال ابن عباس : لا تذم أحداً بما ليس لك به علم . وقيل هي في شهادة الزور ، قاله محمد بن الحنفية وقيل هي في القذف .

وقال القتيبي : معنى الآية لا تتبع الحدس والظنون ، وهذا صواب فإن ماعدا ذلك هو العلم . وقيل المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعياً كان او ظنياً . قال ابو السعود في تفسيره : واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه .

وأقول أن هذه الآية دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم ، ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل بالعام وبخبر الواحد والعمل بالشهادة والاجتهاد في القبلة وفي جزاء الصيد ونحو ذلك فلا يخرج من عمومها ومن عموم أن الظن لا يغني من الحق شيئاً إلا ما قام دليل جواز العمل به .

فالعمل بالرأي في مسائل الشرع ان كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة فقد رخص فيه النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله لمعاذ لما بعثه قاضياً « بم تقضي ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فان لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي[1] ، وهو حديث صالح للاحتجاج به ، كما اوضح الشوكاني ذلك في بحث مفرد .

وأما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب او السنة ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولاً أولياً لأنه محض رأي في شرع الله ، وللناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم تدع اليه حاجة ، على أن الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به ، ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به وينزل منزلة مسائل الشرع .

وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء والعامل بها على شفا جرف هار ، فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم ، والمقلد المسكين العامل برأي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده ، ظلمات بعضها فوق بعض وقد قيل أن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلاً .

ثم علَّل سبحانه النهي عن العمل بما ليس بعلم بقوله ﴿ان السمع والبصر والفؤاد﴾ أي القلب ﴿كل اولئك﴾ أي كل واحد من الحواس الثلاثة وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها .

وقال الزجاج : ان العرب تعبر عما لا يعقل وعما يعقل بأولئك والضمير في ﴿كان﴾ يرجع الى كل وكذا الضمير في ﴿عنه﴾ وقيل الضمير في كان يعود الى القافي المدلول عليه بقوله لا تقف وقوله عنه في محل رفع لاسناد ﴿مسؤولاً﴾ اليه ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام

(١) الإمام أحمد ٥/٢٣٦ - /٢٤٢ .

الفاعل اذا كان جاراً ومجروراً .

قيل والأولى أن يقال انه فاعل مسؤول المحذوف والمذكور مفسر له ومعنى سؤال هذه الجوارح أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات والمستعمل لها هو الروح الانساني فان استعملها في الخير استحق الثواب وان استعملها في الشر استحق العقاب وهو اختيار الزمخشري ، وقيل ان الله سبحانه يُنطق الاعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها وعليه جرى القاضي فتسأل توبيخاً لاصحابها وهذا أبلغ مما قبله . وفي الآية دليل على ان العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية .

﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ قيل وهو شدة الفرح ، وقيل التكبر في المشي وقيل تجاوز الانسان قدره وقيل الخيلاء في المشي ، وقيل البطر والاشر ؛ وقيل النشاط والظاهر أن المراد به الخيلاء والفخر، قال الزجاج في تفسير الآية : لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً ، وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً وتقريراً ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وان كنت في عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمنع

والمرح مصدر وقع حالاً أي ذا مرح أي مارحاً متلبساً بالكبر والخيلاء وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد وقرىء مرحاً بفتح الراء ومرحاً بكسرها على انه اسم فاعل .

ثم علَّل سبحانه هذا النهي فقال ﴿انك لن تخرق الأرض﴾ يقال خرق الثوب أي شقه وخرق الأرض قطعها ، والخرق الواسع من الأرض ، والمعنى إنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً حتى تبلغ آخرها ، وفيه تهكم بالمختال المتكبر ، وقيل المراد بخرق الأرض نقبها لا قطعها بالمسافة ، وقال الأزهري : خرقها قطعها قال النحاس : وهذا بين كأنه مأخوذٌ من الخرق وهو الفتحة الواسعة ، ويقال فلان أخرق من فلان أي أكثر سفراً .

﴿ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ أي ولن تبلغ قدرتك الى ان تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشي عليها . ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال وتساويها بكبرك ، فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر وأصغر من كل واحد من الجمادين ، فكيف يليق بك الكبر .

﴿كل ذلك﴾ أي جميع ما تقدم ذكره من الأوامر والنواهي الخمس والعشرين أو ما نهى عنه فقط من قوله ولا تقف ولا تمش ﴿كان سيئه عند ربك﴾ على اضافة سيىء الى الضمير ، ويؤيد هذه القراءة قوله : ﴿مكروهاً﴾ فإن السبي هو المكروه ويؤيدها أيضاً قراءة أبيّ كان سيئآته .

وقرأ نافع وغيره سيئة على انها واحدة السيئآت وانتصابها على خبرية كان ومكروهاً خبر ثان لكان أو بدل من سيئه ، ورجح أبو علي الفارسي البدل ، وقد قيل في توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى ، قال الزجاج والاضافة أحسن لان ما تقدم من الآيات فيها سيىء وحسن فسيئه المكروه ويقوي ذلك التذكير في المكروه .

ومن قرأ بالتنوين جعل ﴿كل ذلك﴾ احاطة بالمنهى عنه دون الحسن ، والمعنى كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروهاً ، والمكروه على هذا بدل من السيئة وليس بنعت ، والمراد بالمكروه عند الله هو الذي يبغضه ولا يرضاه لا انه غير مراد مطلقاً لقيام الأدلة القاطعة على أن الأشياء واقعة بإرادته سبحانه .

وذكر مطلق الكراهة مع أن في الأشياء المتقدمة ما هو من الكبائر اشعاراً بأن مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع واجتنابه لذلك .

والحاصل أن في الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المأمور به ، وما هو مكروه وهو المنهيّ عنه ، فعلى قراءة الاضافة تكون الاشارة بقوله ﴿كل ذلك﴾ الى جميع الخصال ، حسنها ومكروهها ، ثم الاخبار بأن ما هو سيىء من هذه

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾

الأشياء هو المنهى عنه عند الله ، وعلى قراءة الافراد تكون الاشارة الى المنهيات ثم الاخبار عن هذه المنهيات بأنها سيئة مكروهة عند الله .

﴿ذلك﴾ اشارة الى ما تقدم ذكره من قوله لا تجعل مع الله الى هذه الغاية ﴿مما أوحى اليك ربك﴾ أي من جنسه او بعض منه ، وذكر هنا في ثمان عشرة آية أولها لا تجعل ، وذكر في التوراة في عشر آيات ﴿من الحكمة﴾ سمي حكمة لانه كلام محكم وهو ما علمه من الشرائع أو من الاحكام المحكمة التي لا يتطرق اليها النسخ والفساد ، وعند الحكماء ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به ، قاله البيضاوي فالتوحيد من القسم الأول وباقي التكاليف من القسم الثاني .

﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ كرر سبحانه النهي عن الشرك تأكيداً وتقريراً وتنبيهاً على أنه رأس خصال الدين وعمدته ومبدأ الأمر ومنتهاه ، وعلى انه ملاك الحكمة وأسها . قيل وقد راعى سبحانه في هذا التأكيد دقيقة فرتب على الأول كونه مذموماً مخذولاً ، وذلك اشارة الى حال الشرك في الدنيا ؛ ورتب على الثاني ما هو نتيجة في العقبى فقال ﴿فتلقى في جهنم ملوماً﴾ تلوم نفسك ﴿مدحوراً﴾ مبعداً من رحمة الله مطروداً وفي القعود هناك والالقاء هنا اشارة الى أن للانسان في الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة .

﴿أفأصفاكم﴾ أي خصكم ، قاله ابو عبيدة ، وقال الفضل : أخلصكم ﴿ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثاً﴾ أي بنات ، والخطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفيه توبيخ شديد وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالانعام بل هم أضل ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره مما قد كررناه .

﴿انكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ بالغاً في العظم والجرأة على الله الى مكان لا يقادر قدره بإضافة الأولاد اليه ، وهي خاصة بعض الأجسام لسرعة زوالها ، ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون ، ثم يجعل الملائكة الذين هم أشرف الخلق أدونهم .

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن﴾ أي بيّنا او كررنا ضروب القول فيه من الأمثال والعبر والحكم والحجج والمواعظ والقصص والأخبار والأوامر والنواهي وغيرها . وقيل في زائدة والتقدير ولقد صرفنا هذا القرآن ، والتصريف في الأصل صرف الشيء من جهة الى جهة والتشديد فيه للتكثير والتكرير ، وقيل معنى التصريف المغايرة ؛ أي غايرنا بين المواعظ .

ثم علّل سبحانه ذلك فقال ﴿ليذكروا﴾ أي ليتعظوا ويعتبروا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه ﴿و﴾ الحال أن هذا التصريف والتذكير ﴿ما يزيدهم إلا نفوراً﴾ أي تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر في الصواب لأنهم قد اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر وهم لا ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعهم إلى الهداية، وكان الثوري إذا قرأها يقول: زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

﴿قل﴾ لهم في شأن الاستدلال على إبطال التعدد الذي زعموه واثبات الوحدانية ﴿لو كان معه آلهة كما﴾ أي كوناً مشابهة لما ﴿يقولون﴾ والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة ، قرىء بالتحتية وبالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع الله آلهة أخرى ﴿اذاً﴾ قال الزمخشري : هي دالة على انما بعدها وهو ﴿لابتغوا﴾

جواب لمقالة المشركين وجزاء للو ﴿الى ذي العرش﴾ هو الله سبحانه ﴿سبيلاً﴾ طريقاً للمغالبة والمقاتلة والممانعة ليزيلوا ملكه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض من المقاتلة والمصاولة عند تعددهم .

وقيل معناه اذاً لابتغت الآلهة الى الله القربة والزلفة عنده لأنهم دونه والمشركون انما اعتقدوا أنها تقربهم الى الله ، والظاهر المعنى الاول ، ومثله معنى قوله تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ وحاصل الدليل انه قياس استثنائي يستثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدم ، وحذف منه كل من الاستثنائية والنتيجة والتقدير لكنهم لم يطلبوا طريقاً لقتاله فلم يكن هناك تعدد .

ثم نزه تعالى نفسه فقال ﴿سبحانه﴾ والتسبيح التنزيه وقد تقدم مراراً ﴿وتعالى﴾ أي تباعد ﴿عما يقولون﴾ من الأقوال الشنيعة والفرية العظيمة ﴿علواً﴾ أي تعالياً ولكنه وضع العلو موضع التعالي ، كقوله والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴿كبيراً﴾ وصف العلو بالكبير مبالغة في النزاهة وتنبيهاً على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين الغنى المطلق والفقير المطلق مباينة لا يعقل الزيادة عليها .

ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال : ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ قال فيهن بضمير العقلاء لإسناده اليها التسبيح الذي هو فعل العقلاء ، وقد أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنها تسبحه ، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة من الإنس والجن وغيرهم من الأشياء التي لا تعقل .

ففيه دلالة على أن الأكوان بأسرها دالة شاهدة بتلك النزاهة ، ولكن المشركين لا يفهمون تسبيحها ، فالقصد من هذا توبيخهم وتقريعهم على اتباعهم الشركاء لله مع أن كل شيء ممن عداهم ينزهه عن كل نقص .

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به الى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا بـه حتى بلغ السموات العلى ، فلما رجـع قال : سمعت تسبيحاً في السموات العُلى مع تسبيح كثير ، سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا سبحان العلي الاعلى سبحانه وتعالى».

وأخرج ابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هدة فقال : «أطت السماء ، ويحقها أن تئط ، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمد»[١].

ثم زاد ذلك تعمياً وتأكيداً فقال : ﴿وإن من شيء الا يسبح﴾ متلبساً ﴿بحمده﴾ فيشمل كل ما يسمى شيئاً كائناً ما كان حتى صرير الباب ونقيض السقف وتسبيحها سبحان الله وبحمده . وقيل انه يحمل قوله ومن فيهن على الملائكة والثقلين ويحمل قوله وإن من شيء على ما عدا ذلك من المخلوقات .

وقد اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ، فقالت طائفة ليس بمخصوص ، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة لان كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر .

وقالت طائفة هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره ، والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله هذا التسبيح الذي معناه التنزيه ، وان كان البشر لا يسمعون ذلك لكونهم محجوبين عن سماعه ولا يفهمونه لكونه بغير لغاتهم .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/٢٦٩ بهذا اللفظ وبسند ضعيف .

وهذا يقتضي أن تسبيح الجماد بلسان المقال وهو الذي اختاره الخازن واثبته بأحاديث متعددة ، قال في الجمل وهو قريب جداً ، ويؤيد هذا قوله سبحانه ﴿ولكن لا تفقهون﴾ بالتاء والياء ﴿تسبيحهم﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد .

وأجيب بأن المراد بقوله ﴿لا تفقهون﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار وقالت طائفة : هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات ، وقيل خاص بالاجسام النامية فيدخل النباتات ، كما روى هذا القول عن عكرمة والحسن وخص تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها .

وقد استدل لذلك بحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على قبرين وفيه « ثم دعا بعسيب رطب فشقه بإثنين وقال انه يخفف عنهما ما لم ييبسا »[1] ويؤيد حمل الآية على العموم قوله ﴿انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشيّ والاشراق﴾ وقوله ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ وقوله ﴿وتخر الجبال هداً﴾ ونحو ذلك من الآيات .

وثبت في الصحيح انهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] . وهكذا حديث حنين الجذع ، وحديث أن حجراً بمكة كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلها في الصحيح .

ومن ذلك تسبيح الحصا في كفه صلى الله عليه وسلم ، ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات ، ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده .

قال السدي : ما اصطيد حوت في البحر ولا طائر يطير إلا بما يضيع من تسبيح الله تعالى .

---

(١) مسلم ٢٩٢ البخاري ١٦٤ .

(٢) البخاري كتاب المناقب باب ٢٥ ـ الإمام أحمد ١ / ٤٦٠ .

﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ فمن حلمه الامهال لكم وعدم انزال عقوبته عليكم على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح ، ومن مغفرته لكم انه لا يؤاخذ من تاب منكم .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه أن نوحاً قال لابنه : يابني آمرك أن تقول سبحان الله فإنها صلاة الخلائق وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق » قال الله تعالى ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده﴾ .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله اليه من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح »[١] .

وأخرج النسائي وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر وقال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قتل الضفدع وقال « نقيقها تسبيح »[٢]
وأخرج أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس قال : الزرع يسبح واجره لصاحبه والثوب يسبح ويقول الوسخ ان كنت مؤمناً فاغسلني اذن ، وعنه قال : كل شيء يسبح إلا الكلب والحمار أخرجه أبو الشيخ .

وعن الحسن قال : هذه الآية في التوراة كقدر ألف آية وان من شيء إلا يسبح بحمده ، قال : في التوراة تسبح له الجبال وتسبح له الشجر ويسبح له كذا وكذا ، وفي الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها تصريح بتسبيح جميع المخلوقات .

---

(١) مسلم ٢٢٤١ ـ البخاري ١٤٣٤ .
(٢) صحيح الجامع الصغير ٦٨٤٨. بلفظ «نهى عن قتل الضفدع للدواء» ـ الروض النضير / ٢٦٥ .

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠)﴾

ولما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع في ذكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعيه فقال ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ وهم المنكرون للبعث ﴿حجاباً مستوراً﴾ يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به أي أنهم لاعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرون بك ولا يرونك ، ذكر معناه الزجاج وغيره ومعنى مستوراً ساتراً .

قال الأخفش : والفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول انك لمشؤوم وميمون وإنما هو شائم ويامن ، وقيل معناه ذا ستر كقولهم سيل مفعم أي ذو افعام ، وقيل هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها ، وقيل حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره ، وقيل المراد بالحجاب المستور الطبع والختم ؛ قال السيوطي : نزل فيمن أراد الفتك به صلى الله عليه وسلم انتهى . كأبي جهل وأم جميل زوجة أبي لهب .

والمراد بما في الآية مطلق القرآن أو ثلاث آيات مشهورات من النحل والكهف والجاثية وهي في سورة النحل ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم﴾ الآية وفي سورة الكهف ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ الآية وفي حم الجاثية ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ الآية

فكأن الله تعالى يحجبه ببركة هذه الآيات عن عيون المشركين . ذكره الخطيب .

وفي القرطبي ﴿قلت﴾ ويزاد الى هذه الآيات أول سورة يس الى قوله ﴿فهم لا يبصرون﴾ فان في السيرة في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ومقام عليّ في فراشه قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب في يده وأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هـذه الآيات مـن يس حتى فرغ ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ثم انصرف الى حيث أراد أن ينصرف .

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ جمع كنان وهي الاغطية وقد تقدم تفسيره في الأنعام وقيل هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴿ان يفقهوه﴾ أي كراهة أن يفقهوه أو لئلا يفقهوه أي يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني .

﴿وجعلنا في آذانهم وقراً﴾ أي صمماً وثقلاً كراهة ان يسمعوه او لئلا يسمعوه ومن قبائح المشركين انهم كانوا يحبون ان يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه فاذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس كما قـال تعالى :

﴿واذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ يقال وحد يحد وحداً وحدة نحو وعد يعد وعداً وعدة فهو مصدر سد مسد الحـال أصله يحد وحـده بمعنى واحداً، وقال يونس منصوب على الظرف .

﴿ولوا على أدبارهم نفوراً﴾ هو مصدر بمعنى التولية والتقدير هربوا نفوراً أو نفروا نفوراً ، وقيل جمع نافر كقاعد وقعود قاله البيضاوي والشهاب والأول أولى ، وقيل المصدر في موضع الحال والمعنى ولوا نافرين ، قال ابن عباس : ولوا نفور الشياطين .

﴿نحن أعلم بما﴾ أي بالحال الذي ﴿يستمعون﴾ القرآن ﴿به﴾ اي متلبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن ، وقيل الباء للسببية أو

بمعنى اللام وعبارة الكواشي بما يستمعون به هازئين ، وقال الزمخشري : يستمعون بالهزء ﴿اذ يستمعون اليك﴾ ظرف لأعلم وفيه تأكيد للوعيد .

﴿وإذ هم نجوى﴾ أي ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء ﴿إذ﴾ بدل من إذ قبله ﴿يقول الظالمون﴾ أي الوليد بن المغيرة واصحابه ﴿ان تتبعون﴾ أي يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم ما تتبعون ﴿إلا رجلاً مسحوراً﴾ أي سحر به فاختلط عقله وزال عن حد الاعتدال .

قال ابن الأعرابي : المسحور الذاهب العقل الذي افسد من قولهم طعام مسحور اذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها وقيل هو المخدوع لأن السحر الحيلة والخديعة وذلك لأنهم زعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يتعلم من بعض الناس وكانوا يخدعونه بذلك التعليم .

وقال أبو عبيدة : معنى مسحوراً أن له سحراً أي رئة فهو لا يستغني عن الطعام والشراب فهو مثلكم وتقول العرب للجبان قد انتفخ سحره وكل من كان يأكل من آدمي أو غيره مسحور ، قال ابن قتيبة : لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة .

﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ أي قالوا تارة انك كاهن وتارة ساحر وتارة شاعر وتارة مجنون ﴿فضلوا﴾ عن طريق الصواب في جميع ذلك وحادوا ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ الى الهدى أو الحق أو الطعن الذي تقبله العقول السليمة ويقع التصديق له لا أصل الطعن فقد فعلوا منه ما قدروا عليه وقيل لا يستطيعون مخرجاً لتناقض كلامهم كقولهم ساحر كاهن مجنون شاعر .

ولما فرغ سبحانه من حكاية شبهة القوم في النبوات حكى شبهتهم في أمر المعاد فقال ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ الاستفهام للاستنكار والاستبعاد لما بين رطوبة الحي ويبوسة الرميم من المباعدة والمنافاة وتقرير الشبهة أن الانسان

إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ثم عود الحياة الى ذلك المجموع .

فأجاب سبحانه عنهم كما سيأتي بأن اعادة بدن الميت الى حال الحياة أمر ممكن ولو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد فهو كقول القائل أتطمع فيَّ وأنا ابن فلان فيقول كن ابن السلطان أو ابن من شئت فسأطلب منك حقي .

والرفات ما تكسر وبلى من كل شيء كالفتاة والحطام والرضاض قاله أبو عبيدة والكسائي والفراء والأخفش يقول منه رفت الشيء رفتاً أي حطم فهو مرفوت وقيل الرفات الغبار قاله ابن عباس وقيل التراب ، قال مجاهد ويؤيده انه تكرر في القرآن تراباً وعظاماً ، وقيل الرفات هو ما بولغ في دقه وتفتيته وهو اسم لأجزاء ذلك الشيء المفتت أي أجزاء متفتتة .

﴿أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد تأكيداً وتقريراً ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ قال ابن جرير : معناه ان عجبتم من انشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة في الشدة أو حديداً في القوة إن قدرتم على ذلك .

وقال علي بن عيسى : معناه انكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم إلا أنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ من الالزام .

وقيل معناه لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم قال النحاس : وهذا قول حسن لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديداً وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شئتم فلو كنتم حجارة أو حديداً لبعثتم كما خلقتم أول مرة فليس المراد الأمر وإنما عبر فيه بمادة الكون لتعبيرهم بها في سؤالهم ، قلت وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا .

أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾ أي يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فانكم لمبعوثون لا محالة وقيل المراد به السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس ، وقال جماعة من الصحابة والتابعين : المراد به الموت لأنه ليس شيء اكبر في نفس ابن آدم منه .

والمعنى لو كنتم الموت لأماتكم الله ثم بعثكم ولا يخفى ما في هذا من البعد لأن معنى الآية الترقي من الحجارة الى الحديد ثم من الحديد الى ما هو أكبر في صدور القوم منه والموت نفسه ليس بشيء يعقل ويحس حتى يقع الترقي من الحديد اليه .

﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ الى الحياة إذا كنا عظاماً ورفاتاً أو حجارة أو حديداً مع ما بين الحالتين من التفاوت ﴿قل﴾ يعيدكم ﴿الذي فطركم﴾ خلقكم واخترعكم ﴿أول مرة﴾ أي عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدمة فمن قدر على البدء والانشاء قدر على الاعادة بل هي أهون .

﴿فسينغضون اليك رؤوسهم﴾ أي يحركونها استهزاء ، يقال نغض رأسه ينغض نغضاً ونغوضاً اذا تحرك وانغض رأسه حركه كالمتعجب من الشيء ﴿ويقولون﴾ استهزاء وسخرية ﴿متى هو﴾ أي البعث والاعادة ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي هو قريب لأن عسى في كلام الله واجب الوقوع ومثله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً وكل ما هو آت قريب .

﴿يوم يدعوكم﴾ الظرف منتصب بفعل مضمر أي أذكر أو بدل من قريباً أو التقدير يوم يدعوكم كان ما كان والدعاء النداء الى المحشر بكلام يسمعه الخلائق وقيل هي الصيحة التي يسمعونها فتكون داعية لهم الى الاجتماع في أرض المحشر وقيل أن المنادي جبريل وإن النافخ اسرافيل وصورة الدعاء والنداء أن يقول أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . قاله الجلال المحلى في سورة قٓ .

﴿فتستجيبون بحمده﴾ منقادين له حامدين لما فعله بكم وقيل المعنى فتستجيبون والحمد لله أو له الحمد ، وقد روي أن الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك . قاله سعيد بن جبير .

وقيل المراد بالدعاء هنا البعث وبالاستجابة انهم يبعثون ، فالمعنى يوم نبعثكم فتبعثون منقادين ، والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا اليه وهي الاجابة إلا أن الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي أوكد من الإجابة . وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فانهم يبعثون حامدين . قال ابن عباس : معنى بحمده بأمره . وقال قتادة بمعرفته وطاعته .

﴿وتظنون﴾ عند البعث ﴿ان لبثتم﴾ ان نافية وهي معلقة للظن عن العمل وقل من يذكر ان النافية في أدوات تعليق هذا الباب أي ما لبثتم في الدنيا أو في قبوركم ﴿إلا﴾ زمناً ﴿قليلاً﴾ وقيل بين النفختين وذلك ان العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين وذلك اربعون عاماً ينامون فيها ، فلذلك قالوا بعثنا من مرقدنا ؛ وقيل إن الدنيا تحقرت في أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة ، لهول ما يرون فقالوا هذه المقالة . قاله قتادة .

﴿وقل﴾ يامحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لعبادي﴾ المؤمنين ﴿يقولوا﴾ عند محاورتهم للمشركين الكلمة ﴿التي هي أحسن﴾ من غيرها من الكلام الخشن كأن يقولوا لهم إنكم من أهل النار فإنه يهيجهم الى الشر مع أن

عاقبتهم مغيبة عنا وهذا كقوله سبحانه ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ وقوله ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الاجابة أو تؤدي الى ما قال سبحانه ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ وهذا كان قبل نزول آية السيف .

وقيل المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه ، وقيل هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة والأول أولى كما يشهد له السبب . قال ابن سيرين : يعني لا إله إلا الله . وعن ابن جريج في الآية قال : يعفون عن السيئة وعن الحسن قال : يقول له يرحمك الله ، يغفر الله لك .

﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ بالفساد وإلقاء العداوة والاغـراء ، فلعل المخاشنة معهم تفضي الى العناد وازدياد الفساد ، قال اليزيدي : نزغ بيننا أي أفسد . وقال غيره : النزغ الاغراء ، قال قتادة : نزغ الشيطان تحريشه ، وفي القاموس نزغه كمنعه طعن فيه واغتابه وبينهم أفسد وأغوى ووسوس .

﴿إن الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً﴾ أي متظاهراً بالعداوة ومكاشفاً بها وهو تعليل لما قبله ، وقد تقدم مثل هذا في البقرة .

﴿ربكم أعلم بكم﴾ أي بعاقبة أمركم كما يدل عليه قوله ﴿إن يشأ يرحمكم أو إن يشـأ يعذبكم﴾ قيل هذا خطاب للمشركين ، والمعنى إن يشأ يوفقكم للاسلام فيرحمكم أو يميتكم على الشرك فيعذبكم ، وقيل هو خطاب للمؤمنين ، أي إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من الكفار أو يرحمكم بالتوبة والايمان ، وان يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم ، وقيل ان هذا تفسير للكلمة التي هي أحسن .

﴿ومـا أرسلناك عليهم وكيـلاً﴾ أي ما وكلنـاك في منعهم من الكفر وقسرهم على الايمان ، وقيل ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم ، قيل نسختها آية القتال .

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

﴿وربك أعلم بمن في السموات والأرض﴾ ذاتاً وحالاً واستحقاقاً فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبياً ، وأن يكون العراة الجوع أصحابه ، قاله البيضاوي .

أقول عبر بهذه العبارة حكاية عن الكفار ، وإلا فلا يجوز اطلاقها على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه أفتى بعض المالكية بقتل قائلها كما في الشفاء فكان ينبغي له تركها ، وفي هذه الباء قولان أشهرهما انها تتعلق بأعلم ، ولا يلزم من ذلك تخصيص علمه بما فيهما فقط ، والثاني انها متعلقة بيعلم مقدراً ، قاله الفارسي محتجاً بأنه يلزم من ذلك تخصيص علمه بما فيهما ، وهو وهم لأنه لا يلزم من ذكر الشيء نفي الحكم عما عداه .

وهذا هو الذي يقول الأصوليون أنه مفهوم اللقب ، ولم يقل به إلا أبو بكر الدقاق في طائفة قليلة والأصح خلافه ، فالجمهور على أن اللقب لا يحتج به ، قاله الكرخي وتمام هذا البحث في كتابنا حصول المأمول من علم الأصول فراجعه ، وهذه الآية أعم من قوله ﴿ربكم أعلم بكم﴾ لأن هذا يشمل كل ما في السموات والأرض من مخلوقاته ، وذلك خاص ببني آدم او ببعضهم .

وهذا كالتوطئة لقوله ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ أي أن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن هو دونه وبمن هو يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله ، أي فيخصهم بما شاء على قدر أحوالهم ، قيل يعني بالفضائل النفسانية والتبري عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الأموال والاتباع حتى داود عليه السلام فإن شرفه بما أوحى إليه من الكتاب كما يأتي لا بما أوتيه من الملك .

وقيل هو إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم هذا في البقرة ، وقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً وموسى كليماً وجعل عيسى كلمته وروحه ؛ وجعل سليمان على نبينا وعليهم الصلوات والتسليمات ملكاًعظيماً ، وغفر لمحمد صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر وجعله سيد ولد آدم . وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله ( ﷺ ) من ارتفاع درجته عند ربه عز وجل .

ثم ذكر ما فضل به داود فقال ( وآتينا داود زبوراً ) أي كتاباً مزبوراً . قال الزجاج أي فلا تنكروا تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم واعطاءه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً ، وفيه دلالة على وجه تفضيله وأنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم لأن ذلك مكتوب في الزبور . قال تعالى ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته وإنما خصّ كتاب داود بالذكر لأن اليهود زعمت أنه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله هذا .

وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى ، إما لأنه في الأصل فعول بمعنى المفعول أو مصدر بمعناه كالقبول ، وإما لأن المراد إيتاء داود زبوراً من الزبر فيه ذكره صلى الله عليه وسلم .

قال قتادة : كنا نحدث أن الزبور دعاء علمه داود وتحميد وتمجيد لله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا أحكام .

وعن الربيع بن أنس قال : الزبور على الله ودعاء وتسبيح .

قلت الأمر كما قاله قتادة والربيع ، فإنا وقفنا على الزبور فوجدناه خطباً يخطبها داود عليه السلام ويخاطب بها ربه عند دخوله الكنيسة وجملته مائة وخمسون خطبة كل خطبة تسمى مزموراً بفتح الميم الأولى وسكون الزاي وضم الميم الثانية وآخره راء ، ففي بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من اعدائه ويستنصره عليهم ، وفي بعضها يحمد الله ويمجده ويثني عليه بسبب ما وقع له من النصر عليهم والغلبة لهم وكان عند الخطبة يضرب بالقيثارة وهي آلة من آلات الملاهي .

وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ههنا روايات عن جماعة من السلف يذكرون الفاظاً وقفوا عليها في الزبور ليس لها كثير فائدة فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر .

﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه﴾ هذا رد على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على انها صور الملائكة وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله .

وقيل اراد بالذين زعمتم نفراً من الجن عبدهم ناس من العرب وإنما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله الآتي يبتغون الى ربهم الوسيلة فإن هذا لا يليق بالجمادات روي معنى ذلك عن ابن مسعود ، وقال ابن عباس : كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً والشمس والقمر .

﴿فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ أي لا يستطيعون ذلك والمعبود الحق هو الذي يقدر على كشف الضر وعلى تحويله من حال الى حال ومن مكان الى مكان فوجب القطع بأن هذه التي تزعمونها آلهة ليست بآلهة .

ثم انه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم الى الله في جلب المصالح ودفع المضار فقال ﴿أولئك الذين يدعون﴾ قرىء بالتحتية على الخبر

وقرأ ابن مسعود بالفوقية على الخطاب ولا خلاف في ﴿يبتغون﴾ انه بالتحتية والضمير في ﴿إلى ربهم﴾ يعود الى العابدين او المعبودين ﴿الوسيلة﴾ هي القربة بالطاعة والعبادة أي يتضرعون الى الله في طلب ما يقربهم الى ربهم .

أخرج الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لي الوسيلة ، قالوا : وما الوسيلة ؟ قال : القرب من الله ثم قرأ هذه الآية »[1] .

﴿أيهم أقرب﴾ بالوسيلة الى الله قاله الزجاج أي يتقرب اليه بالعمل الصالح أو يبتغي من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه ، وقيل ان يبتغون مضمن معنى يحرصون أي يحرصون أيهم أقرب اليه سبحانه بالطاعة والعبادة .

﴿ويرجون رحمته﴾ كما يرجوها غيرهم ﴿ويخافون عذابه﴾ كما يخافه غيرهم فكيف يزعمون أنهم آلهة لأن الإلـه يكون غنياً بالغنى المطلق ﴿ان عذاب ربك كان محذوراً﴾ تعليل لقوله يخافون أي أن عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرعم .

ثم بيَّن سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال ﴿وإن﴾ نافية للاستغراق ﴿من﴾ أي ما من ﴿قرية﴾ أي قرية كانت من قرى الكفار ﴿إلا نحن مهلكوها﴾ قال الزجاج : أي ما من أهل قرية إلا سيهلكون اما بموت أو خراب واما بعذاب يستأصلهم وإنما قال ﴿قبل يوم القيامة﴾ لأن اهلاك يوم القيامة ليس بمختص بالقرى الكافرة بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا ﴿أو معذبوها عذاباً شديداً﴾ بالقتل وأنواع العقاب إذا كفروا وعصوا .

وقيل الاهلاك للصالحة والتعذيب للطالحة والأول أولى لقوله تعالى ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا واهلها ظالمون﴾ قال ابن مسعود : إذا ظهر الزنا والربا

(١) الترمذي كشاب المناقب باب ١ ـ الإمام أحمد ٢/٢٦٥ .

في قرية أذن الله في هلاكها وقد ذكر في المدارك عن مقاتل في تفسير هذه الآية عن كتب الضحاك خراب كل قرية خاصة وبلدة معينة بنوع خاص من العذاب وقسم مخصوص من الهلاك وليس بمرفوع حتى يعتمد عليه او يصار اليه .

﴿كان ذلك﴾ المذكور من الاهلاك والتعذيب ﴿في الكتاب﴾ أي اللوح المحفوظ قاله ابراهيم التيمي ﴿مسطوراً﴾ أي مكتوباً والسطر الخط وهو في الأصل مصدر والسطر بالتحريك مثله وجمع السطر اسطاراً وجمع السطر بالسكون أسطر عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال : ما اكتب؟ قال : اكتب القدر وما هو كائن الى يوم القيامة الى الأبد » اخرجه الترمذي .[1]

﴿وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ قال المفسرون : إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهباً وان ينحي عنهم جبال مكة فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان ما سأله قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا وان شئت استأنيت بهم فأنزل الله هذه الآية روى معنى هذا أحمد والنسائي وغيرهما عن ابن عباس .

واخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم فإن عصيتم هلكتم فقالوا : لا نريدها » والمعنى وما منعنا من ارسال الآية التي سألوها إلا تكذيب الأولين فان أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه في عباده فالمنع مستعار للترك والاستثناء مفرغ من أعم

(١) الترمذي، كتاب القدر، باب ١٧ ـ تفسير سورة ٦٨.

الأشياء أي ما تركنا إرسالها لشيء من الأشياء إلا تكذيب الأولين فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها اولئك لحل بهم ما حل بهم لاشتراكهم في الكفر والعناد .

والحاصل ان المانع من إرسال الآية التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي وهو الاستئصال وقد عزمنا على ان نؤخر أمر من بعث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وقيل معنى الآية أن هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لآبائهم فلا يؤمنون البتة كما لم يؤمن اولئك فيكون ارسال الآيات ضائعاً .

ثم انه سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته فإنهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التي قد بينت في محل آخر واعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب وانما خص قوم صالح بالاستشهاد لأن آثار اهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال : ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾ آية ﴿مبصرة﴾ أي ذات ابصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله وجعلنا آية النهار مبصرة أو اسند اليها حال من يشاهدها مجازاً أو انها جعلتهم ذوي ابصار من أبصره إذا جعله بصيراً ﴿فظلموا بها﴾ أي بتكذيبها أو فجحدوا بها أو كفروا بها[1] ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد فعاجلناهم بالعقوبة ﴿وما نرسل بالآيات﴾ المقترحة ﴿إلا تخويفاً﴾ من نزول العذاب المستأصل فإن لم يخافوا أنزل او بغير المقترحة كالمعجزات وآيات القرآن إلا تخويفاً بعذاب الآخرة فإن أمر من بعثت اليهم مؤخر الى يوم القيامة .

اختلف في تفسير الآيات على وجوه : **الاول** : ان المراد بها العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الانذار تخويفاً للمكذبين . **الثاني** : انها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي . **الثالث** : تقلب الأحوال من صغر الى شباب ثم الى تكهل ثم الى شيب ليعتبر الانسان بتقلب احواله فيخاف عاقبة أمره . **الرابع** : آيات القرآن . **الخامس** : الموت الذريع والمناسب للمقام تفسير الآيات المذكورة بالآيات المقترحة كما تقدم .

---

(١) هذا على تقدير تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا أ هـ .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾

ولما ذكر سبحانه الامتناع من ارسال الآيات المقترحة على رسوله صلى الله عليه وسلم للصارف المذكور قوى قلبه بوعد النصر والغلبة فقال ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ يعني انهم في قبضته وتحت قدرته فلا سبيل لهم الى الخروج مما يريده بهم لاحاطته بهم بعلمه وقدرته وقيل المراد بالناس أهل مكة واحاطته بهم اهلاكه إياهم أي أن الله سيهلكهم وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه وذلك كما وقع في يوم بدر ويوم الفتح .

وقيل المراد انه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه .

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ لما بيَّن سبحانه ان انزال الآيات يتضمن التخويف ضم اليه ذكر آية الاسراء وهي المذكورة في صدر السورة وسماها رؤيا لأنها وقعت بالليل أو لأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا وقد قدمنا في صدر السورة وجهاً آخر في تفسير هذه الرؤيا وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا اسلموا حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه أسري به .

وقيل كانت رؤيا نوم وان النبي صلى الله عليه وسلم رأى أنه يدخل مكة هو واصحابه وهو يومئذ بالمدينة فسار الى مكة قبل الأجل فرده المشركون فقال

ناس : قد ورد وقد كان حدثنا انه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم فافتتن المسلمون لذلك فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ .

وقد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة ، وأجيب بأنه لا يبعد أنه صلى الله عليه وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان حقيقة بالمدينة وفيه تكلف .

وقال الخفاجي : بعيد لقلة جدواه ، قيل إن هذه الرؤيا هي أنه رأى بني مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فقيل إنما هو هي الدنيا اعطوها فسرى عنه وفيه ضعف جداً فإنه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا إلا ان يراد بالناس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ويراد بالفتنة ما حصل من الاساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو يحمل على انه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا .

وقيل إن الله سبحانه أراه في المنام مصارع قريش حتى قال : والله لكأني أنظر الى مصارع القوم وهو يومىء الى الأرض ويقول هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فلما سمع ذلك قريش جعلوا رؤياه سخرية .

وقد تعارضت هذه الأسباب ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير الى الترجيح والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الاسراء فتعين ذلك ، قال ابن عباس : رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج وهي ليلة أسرى به الى بيت المقدس ، أخرجه البخاري ، وبه قال سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم ، وقد حكى ابن كثير اجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك في الرؤيا وفي تفسير الشجرة الآتية وانها شجرة الزقوم فلا اعتبار بغيرهم معهم .

﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ عطف على الرؤيا قيل والتقدير وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس قال جمهور المفسرين : هي شجرة الزقوم ، وكذا أخرجه أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس والمراد بلعنها لعن آكلها كما قال سبحانه ﴿ان شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ قال الزجاج : ان العرب تقول لكل طعام مكروه ملعون ولأن اللعن هو الابعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة .

ومعنى الفتنة فيها أن أبا جهل وغيره قالوا : زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر ثم يقول تنبت فيه الشجر فأنزل الله هذه الآية ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ اذ قالوا ذلك فانه لا يمتنع ان يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار ، فوبر السمندر وهو دويبة بلاد الترك تتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار ، وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها ، وخلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها وروي أن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه : تزقموا .

وقال ابن الزبعرى : كثر الله من الزقوم في داركم فإنه التمر والزبد بلغة اليمن ، وقيل هي التي تلتوي على الشجرة فتقتلها وهي شجرة الكشوث ، وقيل هي الشيطان ، وقيل هي اليهود ، وقيل بنو أمية .

وعن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك إنكم الشجرة الملعونة في القرآن ، وفي هذا نكارة .

﴿ونخوّفهم﴾ بالآيات وبنظائرها ، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على

التجدد والاستمرار ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿ألا طغياناً﴾ متجاوزاً للحد متمادياً غاية التمادي ﴿كبيراً﴾ فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر ؛ فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار وهو عذاب الاستئصال ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة .

ولما ذكر سبحانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة أراد أن يبيِّن أن جميع الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام كانوا كذلك حتى إن هذه عادة قديمة سنها إبليس اللعين مع أول الأنبياء ، وايضاً لما ذكر أن الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ذكر ههنا ما يحقق ذلك فقال :

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه في سبعة مواضع : في البقرة والأعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص وقد تقدم تفسيرها مبسوطاً .

﴿فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ نصب بنزع الخافض ، أي من طين كما صرح به في الآية الأخرى ﴿وخلقته من طين﴾ وذلك أن آدم خلق من تراب الأرض ؛ من عذبها وملحها ، فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقي .

وقال الزجاج : منصوب على الحال او التمييز وتبعه فيه ابن عطية ، ولا يظهر ذلك اذ لم يتقدم إبهام ذات ولا نسبة .

قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

﴿قال أرأيتك﴾ أي اخبرني عن ﴿هذا الذي كرمت﴾ أي فضلته ﴿عليَّ﴾ بأمري بالسجود له لم كرمته عليَّ وقد خلقتني من نار ، ولم يجبه عن هذا السؤال إهمالاً له وتحقيراً حيث اعترض على مولاه وسأله بلم ﴿لئن اخرتن الى يوم القيامة﴾ كلام مبتدأ او اللام موطئة للقسم ، وجوابه ﴿لأحتنكن ذريته﴾ أي لأستولين عليهم بالاغواء والاضلال قال الواحدي : أصله من احتناك الجراد الزرع وهو ان تستأصله بإحناكها وتفسده ، وهذا هـو الأصل ؛ ثم سمى الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكاً .

وقيل معناه لأسوقنهم واقودنهم حيث أردت من حنك الدابة إذا جعل الرسن في حنكها ، وفي المختار حنك الفرس جعل في فيه الرسن وبابه نصر وضرب والحنك المنقار ، يقال أسود مثل حنك الغراب واسود حانك مثل حالك والحنك ما تحت الذقن من الانسان ، والمعنى الأول انسب بمعنى هذه الآية .

وقال مجاهد : المعنى لأحتوينهم . وعن ابن زيد قال : لأضلنهم ، وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ما ذكره لعلم قد سبق اليه من سمع استرقه أو انه استنبط ذلك من قول الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ، وقيل علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات أو ظن ذلك لأنه وسوس لآدم فقبل منه ذلك ولم يجد له عزماً ، كما روي عن الحسن أو قاله

لما ظنه من قوة نفوذ كيده في بني آدم ، وانه يجري منهم في مجاري الدم ، وانهم بحيث يروج عندهم كيده وينفق لديهم وسوسته ، إلا من عصم الله كالأنبياء وصلحاء هذه الأمة وهم المرادون بقوله :

﴿إلا قليلاً﴾ قيل من كل الف واحد ، وفي معنى هذا الاستثناء قوله تعالى سبحانه ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ويؤيده ما ذكرناه قوله تعالى ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا إعتماداً على الظن .

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿اذهب﴾ ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء ، وإنما معناه امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخلية بينه وبين ما سوّلته نفسه ، أمره بأوامر خمسة القصد بها التهديد والاستدراج لا التكليف ، لأنها كلها معاص والله لا يأمر بها ؛ والمعنى اذهب منظراً الى وقت النفخة الأولى مع أن غرضه الامهال والانظار الى النفخة الثانية ، وغرضه بذلك طلب أن لا يموت أصلاً لانه يعلم انه لا موت بعد النفخة الثانية .

ثم عقب الذهاب بذكر ما جره سوء اختياره فقال ﴿فمن تبعك﴾ وأطاعك ﴿منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ أي إبليس ومن أطاعه ، والخطاب للتغليب لأنه تقدم غائب ومخاطب في قوله ﴿فمن تبعك منهم﴾ فغلب المخاطب أو يكون الخطاب مراداً به من خاصة ويكون ذلك على سبيل الالتفات ﴿جزاء موفوراً﴾ أي وافراً مكملاً ، يقال وفرته أفره وفراً ، ووفر المال بنفسه يفر وفوراً فهو وافر فهو مصدر .

ثم كرر سبحانه الامهال لإبليس اللعين فقال : ﴿واستفزز﴾ أي استزعج واستعجل واستزل واستخف ﴿من استطعت﴾ ان تستفزه ﴿منهم﴾ أي من بني آدم ، يقال أفزه واستفزه أي ازعجه واستخفه والمعنى استخفهم ﴿بصوتك﴾ داعياً لهم الى معصية الله ، وقيل هو الوسوسة والغناء واللهو واللعب والمزامير ﴿وأجلب﴾ قال الفراء وابو عبيدة : من الجلبة والصياح أي صح ﴿عليهم﴾

وقال الزجاج : أي اجمع عليهم مـا تقدر عليه من مكايدك وحبائلك وأحثهم على الاغواء فالاجلاب الجمع .

وقال ابن السكيت : الإجلاب الإعانة ، أي استعن عليهم وتصرف فيهم بكل ما تقدر ، والأمر للتهديد كما يقال اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك ﴿بخيلك﴾ أي بركبان جندك ؛ والخيل يقع على الفرسان كقوله صلى الله عليه وسلم « ياخيل الله اركبي » ويقع على الافراس ، قاله ابن السكيت ، قيل الباء للملابسة أي صح وصوّت عليهم حال كونك متلبساً ومصحـوباً بجنودك .

قلت كون الباء للملابسة بعيد من حيث المعنى المراد كما تدل عليه عبارة اللغويين واللائق بها أن تكون زائدة ، وقد نص الشهاب على زيادتها ، وفي المختار جلب على فرسه يجلب جلباً صاح به من خلفه واستحثه للسبق وكذا اجلب عليه ، وهذا يقتضي زيادة الباء ، والمعنى حث وأسرع عليهم جندك خيلاً ومشاة لتدركهم وتتمكن منهم فليتأمل ﴿ورجلك﴾ أي مشاتك ؛ يقال أن له خيلاً ورجلاً من الجن والأنس ، فكل من ركب أو مشى في معصية الله فهو من جند إبليس ، والرجل بسكون الجيم جمع راجل ، كتاجر وتجر وصاحب وصحب .

وقال أبو زيد : يقال رجل ورجل بمعنى راجل ، وقيل اسم لراجل بمعنى الماشي ، وقرىء في السبعة بكسر الجيم وهو مفرد بمعنى الجمع فهـو بمعنى المشاة ، فالخيل والرجل كناية عن جميع مكايد الشيطان أو المراد ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الأمر جئتنا بخيلك ورجلك والحمل على الظاهر أولى .

﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ أما المشاركـة في الأموال فهي كـل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذاً من غير حق أو وضعاً في غير حق كالغصب والسرقة والربا ، ومن ذلك تبتيك آذان الأنعام وجعلها بحيرة وسائبة ، والمشاركة في الأولاد دعوى الولد بغير سبب شرعي وتحصيله بالزنا

وتسميتهم بعبد اللات والعزى والاساءة في تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر وأفعال السوء .

ويدخل فيه ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق ووأد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التي هم عليها من الأديان الزائغة والحرف الذميمة والأفعال القبيحة ومن ذلك مشاركة الشيطان للمجامع اذا لم يسم . وعن ابن عباس انه سأله رجل فقال : إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار ، قال ذلك من وطء الجن .

ثم قال ﴿وعدهم﴾ بأنهم لا يبعثون قاله الزجاج : وقال الفراء : أي قل لهم لا جنة ولا نار ، وقيل وعدهم المواعيد الكاذبة الباطلة من النصرة على من خالفهم وشفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة والاتكال على كرامة الله وتأخير التوبة لطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك ، وهذا على طريق التهديد كقوله ﴿إعملوا ما شئتم﴾ .

﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ أي باطلاً إعتراض لبيان مواعيده فإنه وقع بين الجمل التي خاطب الله بها الشيطان وفيه إظهار في مقام الإضمار والإلتفات عن الخطاب الى الغيبة وكان مقتضى الظاهر أن يقال وما تعدهم إلا غروراً ، وأصل الغرور تزيين الخطأ بما يوهم الصواب .

﴿ان عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ يعني عباده المؤمنين كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد اليه يراد بها المؤمنون لما في الإضافة من التشريف وقيل المراد الأنبياء وأهل الصلاح والفضل لأنه لا يقدر على إغوائهم وقيل المراد جميع العباد بدليل الإستثناء بقوله في غير هذا الموضع إلا من اتبعك من الغاوين والمراد بالسلطان التسلط .

﴿وكفى بربك﴾ الباء زائدة في الفاعل ﴿وكيلاً﴾ يتوكلون عليه فهو الذي يدفع عنهم كيدك ويعصمهم من إغوائك ولهذا قال المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بقوته .

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

﴿ربكم الذي يزجي﴾ الإزجاء السوق والدفع والاجراء والتسيير ومنه قوله تعالى ألم تر أن الله يزجي سحاباً وهذا تعليل لكفايته وبيان لقدرته على عصمة من توكل عليه في أموره وشروع في تذكير بعض النعم عليهم حملاً لهم على الإيمان حتى لا يعبدوا غيره ولا يشركون به أحداً .

والمعنى أن الله سبحانه يسير ﴿لكم الفلك في البحر﴾ بالريح والفلك هنا جمع بمعنى السفائن وقد تقدم والبحر هو الماء الكثير عذباً كان أو مالحاً وقد غلب هذا الاسم على المشهور ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي من رزقه الذي تفضل به على عباده أو من الربح بالتجارة أو أنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم ومن زائدة او للتبعيض .

﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ تعليل ثان لما تقدم أي فهداكم إلى مصالح دنياكم ﴿وإذا مسَّكم الضرُّ﴾ يعني خوف الغرق ﴿في البحر ضل من تدعون﴾ من الآلهة وذهب عن خواطركم ولم يوجد لإغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم أو جن أو ملك أو بشر أو حجر في حوادثكم ﴿إلا إياه﴾ وحده فإنكم تعقدون رجاءكم برحمته واغاثته والاستثناء متصل إن كان المراد بمن جميع الآلهة ومنقطع ان كان المراد بها غيره تعالى .

ومعنى الآية أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها

نافعة لهم في غير هذه الحالة ، فأما في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها .

﴿فلما نجاكم﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿الى البر أعرضتم﴾ عن الاخلاص لله وتوحيده ورجعتم الى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها ﴿وكان الانسان كفوراً﴾ أي كثير الكفران لنعمة الله وهو تعليل لقوله ﴿أعرضتم﴾ والمعنى أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله وفي الرخاء يعرضون عنه وترك فيه خطابهم تلطفاً بهم بحيث لم يقل وكنتم كفاراً.

ثم أنكر عليهم سبحانه سوء معاملتهم قائلاً ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والتقريع والفاء عاطفة على مقدر والتقدير أنجوتم من الغرق فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض فبيَّن لهم أنه قادر على إهلاكهم في البر وان سلموا من البحر لأن الجهات كلها له وفي قدرته براً كان أو بحراً يعني إن كان الغرق في البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لأنه يغيب تحت الثرى كما أن الغرق يغيب تحت الماء .

وأصل الخسف أن تنهار الأرض بالشيء يقال : بئر خسيف إذا إنهدم أصلها وعين خاسفة ، أي غائرة حدقتها في الرأس وخسفت عين الماء إذا غار ماؤها وخسفت الشمس إذا غابت عن الأرض وجانب البر ناحية الأرض وسماه جانباً لانه يصير بعد الخسف جانباً وايضاً فإن البحر جانب من الأرض والبر جانب .

وقيل إنهم كانوا على ساحل البحر وساحله جانب البر فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر وقال السمين : المعنى جانب البر الذى أنتم فيه فيلزم من خسفه هلاككم ولولا هذا التقدير لم يكن في التوعد به فائدة انتهى وجملة هذه الافعال خمسة وكلها

تقرأ بالياء ولا التفات حينئذ وبالنون التفاتاً عن الغيبة الى التكلم والقراءتان سبعيتان .

﴿أو يرسل عليكم حاصباً﴾ قال أبو عبيدة والقتيبي الحصب الرمي أي ريحاً شديدة حاصبة وهي التي ترمي بالحصباء الصغار ؛ وقال الزجاج : الحاصب التراب الذي فيه حصباء ، فالحاصب هو ذو الحصباء كاللابن والتامر ، وقيل الحاصب حجارة من السماء ، قاله قتادة تحصبهم كما فعل بقوم لوط ، ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد حاصب .

﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾ أي حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله ﴿أم﴾ متصلة أي أيّ الأمرين كائن أو منقطعة أي بل ﴿أمنتم أن يعيدكم فيه﴾ أي في البحر بأن يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم الى ركوبه وجاء بفي ولم يقل الى البحر للدلالة على استقرارهم فيه ﴿تارة﴾ أي مرة ﴿أخرى﴾ وهو مصدر ويجمع على تيرة وتارات وألفها واو أو ياء .

﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾ القاصف الريح الشديدة التي تكسر بشدة من قصف الشيء يقصفه من باب ضرب أي كسره بشدة والقصف الكسر أو هو الريح التي لها قصف أي صوت شديد من قولهم رعد قاصف أي شديد الصوت ، وقال ابن عباس : الريح التي تغرق ؛ وقال ابن عمرو : القاصف والعاصف في البحر .

﴿فيغرقكم﴾ وقرىء بالفوقية على أن فاعله الريح ﴿بما كفرتم﴾ أي بسبب كفركم أو بالسبب الذي كفرتم به وما مصدرية أو بمعنى الذي ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ أي نصيراً قاله ابن عباس أو ثائراً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً لكم قال الزجاج : لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم قال النحاس : وهو من الثأر وكذا يقال لكل من طلب بثأر أو غيره تبيع وتابع .

۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

﴿ولقد كرمنا﴾ هذا إجمال لذكر النعمة التي أنعم الله على ﴿بني آدم﴾ أي كرمناهم جميعاً وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة المعتدلة والطهارة بعد الموت وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله .

وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم وسائر الحيوانات تأكل بالفم وكذا حكاه النحاس ، وقيل ميَّزهم بالنطق والعقل والتمييز وقيل باعتدال القامة وامتدادها ، وقيل بحسن التقويم والتصوير ، وقيل أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب .

وقال ابن جرير : أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم وقيل بالكلام والخط والفهم وقيل بحسن تدبيرهم في أمر المعاش والمعاد وقيل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس .

ولا مانع من حمل التكريم على جميع هـذه الأشياء وأعـظم خصال التكريم العقل فإنه به تسلطوا على جميع الحيوانات وميزوا بين الحسن والقبيح وتوسعوا في المطاعم والمشارب وكسبوا الأموال التي تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها سائر الحيوان ، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التي تمنعهم مما يخافون ،

وعلى تحصيل الأكسية التي تقيهم الحر والبرد.

وقيل تكريمهم هو أن جعل محمداً صلى الله عليه وسلم منهم. وأخرج الطبراني والبيهقي في الشعب والخطيب في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم، قيل يا رسول الله ولا الملائكة قال: ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر.

وأخرج الطبراني عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ان الملائكة قالت يا رب أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت كن فكان.

﴿ وحملناهم ﴾ هذا تخصيص وتأكيد لبعض أنواع التكريم حملهم سبحانه ﴿ في البر ﴾ على الدواب كالإبل والخيل والبغال والحمير ﴿ و ﴾ في ﴿ البحر ﴾ على السفن، وقيل حملناهم فيهما حيث لم تخسف بهم ولم نغرقهم والمعنى جعلناهم قارين فيهما بواسطة أو دونها كما في السباحة في الماء ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به.

وقيل المراد الزبد والتمر والحلوى وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى، وقيل إن جميع الأغذية إما نباتية كالثمار والحبوب وإما حيوانية كاللحم والسمن واللبن ولا يتغذى الإنسان إلا بأطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الإنسان.

﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ والأقرب في الفرق بين التكريم والتفضيل إن يقال أن الله كرم الإنسان على سائر الحيوان بأمور خلقية طبعية ذاتية مثل العقل ثم عرفه بواسطته اكتساب العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل.

أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك ان بني آدم فضلهم الله سبحانه على كثير من مخلوقاته لا على الكل ، وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن اليه حاجة ولا تتعلق به فائدة وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء والأنبياء على الملائكة ، ومن جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء عليهم السلام على الملائكة هذه الآية ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من اجمال الكثير وعدم تبيينه ، والتعصب في هذه المسألة هو الذي حمل بعض الاشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة وهو تعسف لا حاجة اليه .

وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء ولا دلالة لها على ذلك فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد انه أفضل من بني آدم بل غاية ما فيه انه لم يكن الإنسان مفضلاً عليه فيحتمل أن يكون مساوياً للانسان ، ويحتمل أن يكون أفضل منه ومع الإحتمال لا يتم الإستدلال ، والتأكيد بقوله ﴿تفضيلاً﴾ يدل على عظم هذا التفضيل وانه بمكان مكين فعلى بني آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه .

﴿يوم﴾ أي أذكر يوم ﴿ندعو كل أناس بإمامهم﴾ قال الزجاج : يعني يوم القيامة وقرىء يدعو بالتحتية ، ويدعى على المجهول ، والاناس فعال بضم الفاء ويجوز حذف الهمزة تخففاً على غير قياس فيبقى ناس ووزنه عال والباء للإلصاق كما تقول أدعوك باسمك .

ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال والتقدير ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم أي يدعون وامامهم فيهم نحو ركب الأمير بجنوده والأول أولى ، والإمام في اللغة كل ما يؤتم به من نبي أو مقدم في الدين أو الكتاب .

وقد اختلف المفسرون في تعيين الإمام الذي يدعى كل أناس به فقال

ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : انه كتاب كل انسان الذي فيه عمله أي يدعى كل انسان بكتاب عمله ، ويؤيد هذا قوله ﴿فأما من أوتي كتابه﴾ الآية .

وقال ابن زيد : الإمام هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة وأهل الانجيل بالانجيل وأهل القرآن بالقرآن ، فيقال : يا أهل التوراة يا أهل الانجيل يا أهل القرآن .

وقال مجاهد وقتادة : إمامهم نبيهم . وعن أنس مثله فيقال : هاتوا متبعي ابراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وبه قال الزجاج ، وروي عن أبي هريرة مرفوعاً ايضاً فلينظر في سنده .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : المراد بالإمام إمام عصرهم فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذي كانوا يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه . وقال الحسن وأبو هريرة وأبو العالية : المراد بإمامهم أعمالهم ؛ فيقال مثلاً : أين المجاهدون أين الصابرون أين الصائمون أين المصلون ونحو ذلك .

وقال أبو عبيدة : المراد إمامهم صاحب مذهبهم ، فيقال مثلاً : أين التابعون للعالم فلان بن فلان ، وهذا من البعد بمكان ، وأبعد منه ما قال محمد ابن كعب : بإمامهم بأمهاتهم ، على أن إماماً جمع أم كخف وخفاف .

وأيضا في هذا القول نظر فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة رفع لكل غادر لواء ، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان » أخرجه البخاري ومسلم[1] .

---

(١) مسلم ١٧٣٥ ـ البخاري ١٥٠٥ .

وهذا دليل على أن الناس يدعون بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ويرد على من قال إنما يدعون بأسماء آبائهم وبأسماء أمهاتهم لأن في ذلك ستراً على آبائهم ، ولذا قال الزمخشري : ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم وأنهم يدعون بأمهاتهم دون آبائهم ، وان الحكمة فيه رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وان لا يفتضح أولاد الزنا .

قال القرطبي : قيل بمذاهبهم فيدعون بما كانوا يأتمون به في الدنيا ويقلدونه ، فيقال ياحنفي ، يا شافعي ، يامعتزلي ، يا قدري ، ونحو ذلك . وهذا كالأول بل أبعد منه ، وقيل كل خلق حسن يظهر من الانسان كالعلم والكرم والشجاعة أو قبيح كأضدادها ، فالداعي الى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام ، ذكره الرازي في تفسيره . وعن ابن عباس قال : بإمامهم إمام هدى وإمام ضلالة ، وعنه ايضاً بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم وقيل بمعبودهم . واخرج الترمذي وحسنه البزار وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أنه قال « يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين ذراعاً ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق الى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول ابشروا لكل رجل منكم مثل هذا .

وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له جسمه ستين ذراعاً على صورة آدم ويلبس تاجاً من نار فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا . قال فيأتيهم فيقولون اللهم أخره ، فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا»[1] قال البزار بعد إخراجه لا يروى إلا من هذا الوجه .

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٢٤٣ .

﴿فمن أوتي كتابه بيمينـه﴾ من أولئك المـدعوين وهم السعـداء أولو البصائر وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير ﴿فأولئك﴾ اشارة الى من باعتبار معناه . قيل وجه الجمع الإشارة الى أنهم مجتمعون على شأن جليل أو الإشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الإجتماع لا على وجه الإنفراد ﴿يقرأون كتابهم﴾ الذي أوتوه ﴿ولا يظلمون فتيـلاً﴾ أي لا ينقصون من اجورهم قدر فتيل وهو القشرة التي في شق النواة أو هو عبارة عن أقل شيء ، وفي النواة أمور ثلاثة : فتيل وهو الخيط الذي في الحز الكائن فيها طولاً ، والقطمير وهو قشرة النواة ، والنقير وهو الخيط الذي في النقرة التي في ظهرها .

ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحاً ولكنه ذكر سبحانه ما يدل على حالهم القبيح فقال ﴿ومن كان﴾ من المدعوين ﴿في هذه﴾ الدنيا ﴿أعمى﴾ أي فاقد البصيرة وهو الذي يعطي كتابه بشماله بدلالة حال ما سبق من الفريق المقابل له ، ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان مع أنه الذي يستـدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع في سورة الحاقة وسورة الانشقاق للإيذان بالعلة الموجبة له كما في قوله تعالى ﴿وأما ان كان من المكذبين الضالين﴾ الخ بعد قوله ﴿وأما ان كان من أصحاب اليمين﴾ وللرمز الى علة حال الفريق الأول ، وقد ذكر في أحد الجانبين المسبب وفي الآخر السبب ، ودل بالمذكور في كل منهما على المتروك في الآخر تعويلاً على شهادة العقل كما في قوله ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله﴾ ذكره أبو السعود . قال النيسابوري : لا خلاف أن المراد بهذا العمى ، عمى القلب لا عمى البصر .

وأما قوله ﴿فهو في الآخرة﴾ التي لم تعاين ولم تر ﴿أعمى﴾ فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾ وفي هذه زيادة العقوبة ، ويحتمل ان يراد عمى القلب ، وقيل المراد بالآخرة عمل الآخرة فهو في عمل الآخرة أو في أمرها

أعمى ؛ وقيل المراد من عمى عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى .

وقيل من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى .

وقيل من كان في الدنيا عن حجج الله أعمى فهو في الآخرة أعمى ، وقد قيل إن قوله فهو في الآخرة أعمى أفعل تفضيل أي أشد عمى ، وهذا مبني على أنه من عمى القلب إذ لا يقال ذلك في عمى العين .

قال الخليلي وسيبويه : لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل فلا يقال ما أعماه كما لا يقال ما أيداه .

وقال الأخفش : لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من ثلاثة أحرف ، وقد حكى الفراء عن بعض العرب إنه سمعه يقول ما أسود شعره والبحث مستوفى في النحو ﴿وأضل سبيلاً﴾ من الأعمى لكونه لا يجد طريقاً الى الهداية بخلاف الأعمى فإنه قد يهتدي في بعض الأحوال .

قال ابن عباس : من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه ذلك فهو عما وصفت له في الآخرة ولم يره أعمى وأبعد حجة .

ثم لما عدد سبحانه في الآية المتقدمة أقسام النعم على بني آدم أردفه بما يجري مجرى التحذير من الاغترار بوساوس الاشقياء فقال ﴿وان كادوا ليفتنونك﴾المعنى إن الشأن انهم قد قاربوا أن يخدعوك فاتنين ، وأصل الفتنة الاختبار ، ومنه فتن الصائغ الذهب ثم استعمل في كل من أزال الشيء عن حده وجهته ﴿عن الذى أوحينا اليك﴾ من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد

﴿لتفتري علينا غيره﴾ أي لتتقوّل وتكذب علينا غير الذي أوحينا اليك مما اقترحه علينا كفار قريش ولم نقله .

وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك . وعن ابن عباس قال : ان أمية ابن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالاً من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تعال فتمسح آلهتنا وندخل معك في دينك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرقّ لهم ، فأنزل الله هذه الآية ، وعن جابر بن عبدالله مثله .

وعن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر فقالوا : لا ندعك تستلمه حتى تستلم بآلهتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما عليَّ لو فعلت والله يعلم مني خلافه » فأنزل الله ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ الآية وعن ابن شهاب نحوه .

وعن جبير بن نفير أن قريشاً أتو النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ان كنت أرسلت الينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك فركن اليهم ، فأوحى الله اليه هذه الآية . وقال الجلال السيوطي وغيره ان ثقيفاً سألوه صلى الله عليه وسلم أن يحرم واديهم والحوا عليه فنزلت هذه الآية :

﴿واذن لاتخذوك خليلاً﴾ أي لو اتبعت أهواءهم لوالوك ووافوك وصافوك مأخوذ من الخلة بفتح الخاء .

﴿ولولا أن ثبتناك﴾ على الحق وعصمناك من موافقتهم ﴿لقد كدت تركن اليهم﴾ أي لقاربت أن تميل اليهم أدنى ميل والركون هو الميل اليسير ، ولهذا

قال ﴿شيئاً قليلاً﴾ لكن أدركته صلى الله عليه وسلم العصمة فمنعته من أن يقرب من أدنى مراتب الركون اليهم فضلاً عن نفس الركون ، وهذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم ما همّ بإجابتهم ، ذكر معناه القشيري وغيره والنظم صريح في انه لم يركن أي باللازم ولا قارب أي بمنطوق التركيب .

وذلك لأن لولا حرف امتناع لوجود فالترتيب يدل على امتناع القرب من الركون واذا امتنع القرب منه امتنع هو بالضرورة ؛ وقيل المعنى وان كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت الى قولهم فنسب فعلهم اليه مجازاً واتساعاً كما تقول للرجل كدت تقتل نفسك أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ، ذكر معناه المهدوي ، ثم توعده سبحانه في ذلك أشد الوعيد فقال :

﴿اذن﴾ أي لو قاربت ان تركن اليهم ﴿لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أي مثلي ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل في الدارين والمعنى عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات أي مضاعفاً ثم حذف الموصوف واقيمت الصفة مقامه واضيفت وذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه ﴿يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ وضعف الشيء مثلاه ؛ وقد يكون الضعف النصيب كقوله لكل ضعف أي نصيب .

وقال الرازي : حاصل الكلام انك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة ولصار عذابك مِثْلَي عذاب المشرك في الدنيا وَمِثْلَيْ عذابه في الآخرة ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ ينصرك فيدفع عنك ويمنع منك هذا العذاب .

قال النيسابوري : إعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها فلا يلزم من الآية طعن في العصمة .

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

﴿وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ الكلام في هذا كالكلام في أن كادوا ليفتنونك أي وان الشأن أنهم قاربوا أن يزعجوك بعداوتهم ومكرهم من أرض مكة لتخرج عنها ولكنه لم يقع ذلك منهم بل منعهم الله عنه حتى هاجر بأمر ربه بعد أن هموا به والإستفزاز الإزعاج وقيل إنه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجوزاً ، قال سعيد بن جبير قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كانت الأنبياء تسكن الشام فما لك وللمدينة فهم أن يشخص ، فأنزل الله وان كادوا الآية .

﴿واذن لا يلبثون خلافك﴾ أي لا يبقون بعد اخراجك ﴿إلا﴾ لبثاً او زمناً ﴿قليلاً﴾ حتى يهلكوا ثم يعاقبون عقوبة تستأصلهم جميعاً .

قال ابن عباس : يعني بالقليل يوم أخذهم ببدر فكان ذلك هو القليل الذي لبثوا بعده ، قال ابن الأنباري خلافك بمعنى مخالفتك .

وقال قتادة همَّ أهل مكة باخراج النبي صلى الله عليه وسلم منها وقد فعلوا بعد ذلك فأهلكهم الله يوم بدر ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً وكذلك كانت سنة الله في الرسل إذ فعل بهم قومهم مثل ذلك .

﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ أي سن الله سنة ، قال الفراء : أي يعذبون كسنة من قد أرسلنا ، وقيل المعنى سنتنا سنة من قد أرسلنا ، وقيل اتبع أنت سنة من ، وقال الزجاج : يقول أن سنتنا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك اليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه أن ينزل العذاب بهم ﴿ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ أي ما أجرى الله به العادة لم يتمكن من تحويله ولا يقدر على تغييره .

ولما ذكر سبحانه الإلهيات والمعاد والجزاء اردفها بذكر أشرف الطاعات وهي الصلاة فقال ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ أجمع المفسرون على أن المراد بها الصلوات المفروضة ، وقد اختلف العلماء في الدلوك على قولين :

**أحدهما** : انه زوال الشمس عن كبد السماء قاله عمر وابنه وابو هريرة وابن عباس وجابر والحسن والشعبي وعطاء ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو جعفر الباقر وأكثر التابعين واختاره ابن جرير .

**والقول الثاني** : انه غروب الشمس قاله عليّ وابن مسعود وأبي بن كعب ، وروي عن ابن عباس ؛ وبه قال النخعي ومقاتل والسدي ، قال الفراء : دلوك الشمس من لدن زوالها الى غروبها ، قال الازهري : معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار دالكة وقيل لها اذا أفلت دالكة لأنها في الحالتين زائلة قال : والقول عندي انه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس .

وأصل هذه المادة أي ما تركب من الدال واللام والكاف يدل على التحول والانتقال ومنه الدلك فإن الدلاك لا تستقر يده ومنه دلوك الشمس ففي الزوال انتقال من وسط السماء الى ما يليه وكذا كل ما تركب من الدال واللام بقطع النظر عن آخره يدل على ذلك كدلج بالجيم من الدلجة وهي سير الليل والانتقال فيه من مكان الى مكان آخر ودلح بالحاء المهملة إذا مشى مشياً

متثاقلاً ودلع بالعين المهملة إذا أخرج لسانه ودلف بالفاء إذا مشى مشي المقيد أو بالقاف لاخراج الماء من مقره ودله إذا ذهب عقله ففيه انتقال معنوي .

وقال أبو عبيد : دلوكها غروبها ودلكت براح أي غابت وبراح اسم من اسماء الشمس على وزن حذام وقطام وعن ابن عمر قال : دلوك الشمس زياغها بعد نصف النهار ، وعن ابن عباس قال : إذا فاء الفيء ، وعن عقبة ابن عمرو مرفوعاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر » الحديث أخرجه ابن جرير وعن أبي برزة الأسلمي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر إذا زالت الشمس ثم تلا ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ .

والحاصل أن اللفظ يجمعها لأن أصل الدلوك الميل والشمس تميل إذا زالت وإذا غربت والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به ، واذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها كما ذكروا وعلى الثاني يخرج الظهر والعصر وفي هذه اللام وجهان :

**أحدهما** : انها بمعنى بعد ومثله قولهم كتبته لثلاث خلون .

**والثاني** : انها على بابها أي لأجل دلوك ، قال الواحدي : لأنها إنما تجب بزوال الشمس وفيه ثلاثة أقوال **اشهرها** انه الزوال وهو نصف النهار ، **والثاني** انه من الزوال الى الغروب ، **والثالث** انه الغروب .

﴿الى غسق الليل﴾ أي اجتماع الظلمة قاله ابن عباس ، وقال الفراء والزجاج : يقال غسق الليل وأغسق إذا أقبل بظلامه ، وقيل مغيب الشفق وهذا يتناول المغرب والعشاء والجاري متعلق بأقم لانتهاء غاية الإقامة أو أقمها

ممدودة اليه قاله ابو البقاء وفيه نظر من حيث انه قدر المتعلق كوناً مقيداً إلا أن يريد تفسير المعنى لا الإعراب .

والغسق دخول أول الليل قاله ابن شميل وقيل هو سواد الليل وظلمته وأصله من السيلان يقال غسقت العين أي سال دمعها فكأن الظلمة تنصب على العالم وتسيل عليهم ويقال غسق الجرح امتلأ دماً فكأن الظلمة ملأت الوجود ، والمراد في قوله من شر غاسق القمر اذا كسف واسود .

وقيل الليل والغساق بالتخفيف والتشديد ما يسيل من صديد أهل النار ويقال غسق الليل واغسق وظلم وأظلم ودجا وأدجى وغبش واغبش نقله الفراء قاله السمين وقد استدل بهذه الغاية من قال ان صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال الى الغروب روى ذلك عن الاوزاعي وأبي حنيفة وجوزه مالك والشافعي في حال الضرورة .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعيين أوقات الصلوات فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك ، ومعنى الآية أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس الى غسق الليل فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل وهما العشآن .

ثم قال ﴿وقرآن الفجر﴾ عطف على الصلاة أي أقمه قاله الفراء ، وقال الأخفش وتبعه أبو البقاء وعليك قرآن الفجر وأصول البصريين تأبى هذا لأن أسماء الأفعال لا تعمل مضمرة ، وقيل الزم قرآن الفجر ، قال المفسرون : المراد به صلاة الصبح عبر عنها ببعض أركانها .

قال الزجاج : وفي هذه فائدة عظيمة تدل عليه أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآنا وهو حجة على الأصم حيث زعم ان القراءة ليست بركن وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه لا صلاة إلا بفاتحة

الكتاب ، وفي بعض الأحاديث الخارجة من مخرج حسن وقرآن معها وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كل ركعة أو سميت صلاة الصبح قرآنا لطول قراءتها ، وقد حرره الشوكاني في مؤلفاته تحريراً مجوداً .

ثم علَّل سبحانه ذلك بقوله ﴿ان قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ أي تشهده وتحضره ملائكة الليل وملائكة النهار ، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح الآتي وبذلك قال جمهور المفسرين فينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار .

وقال الشهاب · أي الكاتبون والحفظة أو يشهده الكثير من المصلين في العادة والأول أولى .

وقد أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها »[1] وهو في الصحيحين عنه مرفوعاً بلفظ يجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر[2] ثم يقول أبو هريرة إقرأوا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهوداً ، وفي الباب أحاديث .

قال الرازي : وهذا دليل قاطع قوي على ان التغليس أفضل من التنوير لأن الانسان إذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت ظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم إذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار أما إذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت الأسفار فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور في الآية ، فثبت أن قوله يعني هذه الآية دليل على أن الصلاة في أول وقتها أفضل انتهى .

---

(١) الترمذي تفسير سورة ١٧/٥ ـ الإمام أحمد ٢/٤٧٤ .

(٢) مسلم ٦٣٢ ـ البخاري ٣٥٩ .

﴿ومن الليل فتهجد به﴾ في ﴿من﴾ وجهان **أحدهما** : انها متعلقة بتهجد أي تهجد بالقرآن بعض الليل . **والثاني** : انها متعلقة بمحذوف أي قم بعد نومك نومة من الليل أو اسهر من الليل ذكرهما الخوفي ومن للتبعيض أي قم بعض الليل والضمير المجرور راجع الى القرآن من حيث هو لا يقيد إضافته الى الفجر ففي الكلام استخدام ، وقيل التقدير بذلك الوقت والباء بمعنى في ، قاله السمين ولو قال من بمعنى في لكان أوضح وما قيل من أنه منتصب على الإغراء والتقدير وعليك بعض الليل فبعيد جداً .

والتهجد مأخوذ من الهجود ، وقال أبو عبيدة وابن الأعرابي : هو من الأضداد لأنه يقال هجد الرجل إذا نام وهجد إذا سهر ؛ وقال الأزهري : الهجود في الأصل هو النوم بالليل ولكن التفعل فيه لأجل التجنب ومنه تأثم وتحرج أي تجنب الإثم والحرج فالمتهجد من تجنب الهجود فقام بالليل ، وروي عنه أيضا المتهجد القائم الى الصلاة من الليل هكذا حكى عنه الواحدي فقيد التهجد بالقيام من النوم وهكذا قال مجاهد وعلقمة والأسود فقالوا : التهجد بعد النوم ، قال الليث : يقال تهجد إذا استيقظ للصلاة .

﴿نافلة لك﴾ معناها في اللغة الزيادة على الأصل ، فالمعنى إنها للنبي صلى الله عليه وسلم نافلة زائدة على الفرائض ، والامر بالتهجد وان كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر .

وقيل المراد بالنافلة هنا إنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه صلى الله عليه وسلم ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة ، وقيل كانت صلاة الليل فريضة في حقه صلى الله عليه وسلم ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً وعلى هذا يحمل ما ورد في الحديث أنها عليه فريضة ولأمته تطوع .

قال الواحدي : إن صلاة الليل كانت زيادة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة لرفع الدرجات لا للكفارات ، لأنه قد غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر ،

وليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا إنما نعمل لكفارتها . قال : وهو قول جميع المفسرين .

والحاصل أن الخطاب في هذه الآية وان كان خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم في قوله أقم الصلاة فالأمر له أمر لأمته ، فهو شرع عام ، ومن ذلك الترغيب في صلاة الليل فإنه يعم جميع الأمة والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب ، فالتهجد من الليل مندوب اليه ومشروع لكل مكلف .

وأخرج البيهقي في سننه والطبراني في الأوسط عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث هن عليَّ فرائض وهن لكم سنة : الوتر والسواك وقيام الليل » .

ثم وعد سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم على اقامة الفرائض والنوافل فقال ﴿عسى أن يبعثك ربك﴾ قد ذكرنا في مواضع أن عسى من الكريم اطماع واجب الوقوع ﴿مقاماً محموداً﴾ نصب على الظرفية أي يبعثك فيقيمك في الآخرة مقاماً محموداً ، ويجوز أن يكون حالاً بتقدير مضاف أي ذا مقام محمود ، ومعنى كون المقام محموداً أنه يحمده كل من علم به .

وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال :

**الأول** : انه المقام الذي يقومه النبي صلى الله عليه وسلم للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه وهذا القول هو الذي دلت عليه الأدلة الصحيحة في تفسير الآية ، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل . قال الواحدي : واجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة في فصل القضاء .

**القول الثاني** : إن المقام المحمود اعطاء للنبي صلى الله عليه وسلم لواء

الحمد يوم القيامة ، ويمكن أن يقال أن هذا لا ينافي القول الأول إذ لا منافاة بين كونه قائماً مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد .

**الثالث** : إن المقام المحمود هو أن الله سبحانه يجلس محمداً صلى الله عليه وسلم معه على كرسيه ، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد ، وقد ورد في ذلك حديث وحكى النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم ، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث .

قال ابن عبد البر : مجاهد وان كان أحد الائمة بالتأويل فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم : **أحدهما** : هذا **والثاني** : في تأويل وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة قال معناه ينتظر الثواب وليس من النظر . انتهى .

وعلى كل حال فهذا القول غير مناف للقول الأول لإمكان أن يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة .

وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجلسني معه على السرير » وينبغي الكشف عن اسناد هذا الحديث . وقال ابن مسعود يقعده على العرش ، رواه أبو وائل . وعن عبدالله بن سلام قال : يقعد على الكرسي ، والأحاديث في الشفاعة كثيرة وأول من أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة .

**الرابع** : انه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات ذكره صاحب الكشاف ، والمقتدون به في التفسير ، ويجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة فالمصير اليها متعين ، وليس في الآية عموم في اللفظ حتى يقال الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومعنى قوله مطلق في كل ما يجلب الحمد انه عام في كل ما هو كذلك ، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق كما ذكره في ذبح البقرة ، ولهذا قال هنا .

وقيل المراد الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله ، يعني لفظ المقام . والفرق بين العموم البدلي والعموم الشمولي معروف فلا نطيل بذكره .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسئل عنه ، يعني المقام ، فقال « هو المقام المحمود الذي أشفع فيه لأمتي » .[١]

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول فذلك المقام المحمود »[٢] والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً ثابتة في الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها ، ومن رام الاستيفاء نظر في أحاديث الشفاعة في الأمهات وغيرها .

﴿وقل ربي أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ قرىء بضم الميمين وبفتحهما وهما مصدران بمعنى الإدخال والإخراج فهما كالمجرى والمرسى والإضافة الى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجواد ، أي إدخالاً يستأهل أن يسمى إدخالاً ولا يرى فيه ما يكره . وقال الواحدي : اضافتهما الى الصدق مدح لهما وكل شيء أضفته الى الصدق فهو مدح .

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية ، فقيل نزلت حين أمر صلى الله عليه وسلم بالهجرة يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة ، واختاره ابن جرير ، وهذا يقتضي أن الآية مكيّة مع أنها آخر الثمان المدنيات ، لكن البيضاوي مشى على أن السورة كلها مكيّة . وحكى الاستثناء الذي ذكره الجلال بقيل ، وعليه فلا إشكال ومن المعلوم أن إدخاله المدينة بعد إخراجه من مكة وإنما قدمه عليه إهتماماً بشأنه ولأنه هو المقصود .

---

(١) الإمام أحمد ٢/٤٤١ - ٢/٥٢٨ .

(٢) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٦٣ .

وقيل المعنى أمتني إماتة صدق وابعثني يوم القيامة مبعث صدق ، وقيل المعنى أدخلني فيما أمرتني به واخرجني مما نهيتني عنه . وقيل إدخاله موضع الأمن واخراجه من بين المشركين ، وهو كالقول الأول ، وقيل المراد إدخال عز واخراج نصر .

وقيل أدخلني في الأمر الذي كرّمتني بـه من النبوة مـدخل صـدق وأخرجني منـه إذا أمتني مخرج صدق ؛ وقيل أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق ، وقيل أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق واخرجني بالصدق ، وقيل الآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور فهي دعاء ومعناها رب أصلح لي وردي في كل الأمور وصدي عنها .

﴿واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ أي حجة ظاهرة قاهرة تنصرني بها على جميع ما خالفني ، وقيل اجعل لي من لدنك ملكاً وعزاً قوياً أقيم به دينك وكأنه صلى الله عليه وآله وسلم علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً ، وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير .

وقال ابن كثير : هو الأرجح لأنه لا بدّ مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ولهذا يقول تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ .

وفي الأثر أن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيراً من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الشديد والتهديد الأكيد وهذا هو الواقع انتهى .

وقيل وعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له وأجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس ؛ وقال : ليظهره على الدين كله ، وقال : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض . الآية وقد كان كما وعد ولله الحمد .

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

﴿وقل﴾ عند، دخولك مكة يوم الفتح ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾ المراد بالحق الإسلام ، وقيل القرآن ، وقيل الجهاد ، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائناً ما كان والمراد بالباطل الشرك وقيل الشيطان ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل ، ومعنى زهق بطل واضمحل ومنه زهوق النفس وهو بطلانها وخروجها ، ومنه قوله تعالى ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ .

قال الشاعر :

ألمت فحيَّت ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهق

﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ أي مضمحلاً زائلاً يعني أن هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت ، والحق ثابت دائماً ، وذلك أن الباطل وان كان له دولة وصولة في وقت من الأوقات فهو سريع الذهاب والزوال .

واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً وجاء الحق وما

يبدىء الباطل وما يعيد حتى سقطت .[1] وفي الباب أحاديث .

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء﴾ من لابتداء الغاية قاله أبو حيان ويصح أن تكون لبيان الجنس ، قاله الزمخشري وابن عطية وأبو البقاء فإن جميع القرآن شفاء وقدم على المبين للاهتمام وأبو حيان ينكر جوازه لأن التي للبيان لا بدّ أن يتقدمها ما تبينه لا أن تتقدم هي عليه فالمختار هو الأول ، وقيل للتبعيض وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه ورده ابن عطية بأن المبعض هو انزاله .

واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على قولين : **الاول** : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه . **الثاني** : انه شفاء عن الأمراض الظاهرة بالرقي والتعوذ ونحو ذلك والتبرك بقراءته يدفع كثيراً من الادواء والأسقام يدل عليه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في فاتحة الكتاب وما يدريك انها رقية ، ولا مانع من حمل الشفاء على معنيين من باب عموم المجاز أو من باب حمل المشترك على معنييه .

﴿ورحمة للمؤمنين﴾ لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدنيا والدين ، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذي يكون سبباً لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾ .

والحاصل أن القرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق وإبطال المذاهب الفاسدة فهو شفاء لأمراض القلوب وتكفير للذنوب وتفريج للكروب وتطهير للعيوب ، وفي الحديث « من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله » .

ثم لما ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن

---

(١) مسلم ١٧٨١ ـ البخاري ١٢٢٢ .

عداهم من المضرة عليهم فقال ﴿ولا يزيد﴾ القرآن كله أو كل بعض منه ﴿الظالمين﴾ الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان ﴿إلا خساراً﴾ أي هلاكاً لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم الى زيادة إرتكاب القبائح تمرداً وعناداً ، فعند ذلك يهلكون ، وقيل الخسار النقص كقوله ﴿فزادتهم رجساً الى رجسهم﴾ قال قتادة : لم يجالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان .

ثم نبَّه سبحانه على قبح بعض ما جبل عليه الانسان من الطبائع المذمومة فقال ﴿وإذا أنعمنا على﴾ جنس ﴿الانسان﴾ بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والسعة والغنى والفراغ ﴿أعرض﴾ عن الشكر لله والذكر له ﴿ونأى بجانبه﴾ أي ثنى عطفه متبختراً والنأي البعد والباء للتعدية أو للمصاحبة وهو تأكيد للإعراض لأن الإعراض عن الشيء هو أن يوليه عرض وجهه أي ناحية والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره .

ولا يبعد أن يراد بالإعراض هنا الإعراض عن الدعاء والابتهال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به ويراد بالنأي بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم وقرىء ناء مثل باع على القلب قال مجاهد نأى تباعد .

﴿واذا مسه الشر﴾ من شدة أو مرض أو فقر أو نازلة من النوازل ﴿كان يؤوساً﴾شديد اليأس قنوطاً من رحمة الله ، هذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة ، والمعنى أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود نسي المعبود ،وان فاته شيء من ذلك وتأخرت الإجابة استولى عليه الأسف وغلب عليه القنوط ويئس وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة .

ولا ينافي ما في هذه الآية قوله تعالى ﴿وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ ونظائره فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور في هذه الآية ، ولا يبعد

أن يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يـأسـه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه .

﴿قل كل﴾ أي كل أحد ﴿يعمل على شاكلته﴾ التي جبل عليها قال الفراء : الشاكلة الطريقة وقيل الناحية قاله ابن عباس ، وقيل الطبيعة وقيل الدين وقيل النية ، قاله الحسن وبه فسرها البخاري في كتاب التفسير ، وقيل الجبلة ، وأحسن ما قيل فيها ما قاله الزمخشري انها مذهبه الذي يشاكل حاله في الهدى والضلالة من قولهم طريق ذو شواكل ، وهي الطرق التي تشعبت منه وهي مأخوذة من الشكل وهو المثل والنظير : يقال لست على شكلي ولا على شاكلتي .

وأما الشكل بالكسر فهو الهيئة يقال جارية حسنة الشكل او الشاكلة الروح والمعنى أن كل انسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التي ألفها أو على حسب جوهر نفسه ، فإن كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه أفعال جميلة وأخلاق زكية ، وان كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة رديئة وهذا ذمّ للكافر ومدح للمؤمن .

﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى﴾ لأنه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينتم فيه من الطرائق فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة وبين الكافر الذي شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم وأهدى من اهتدى على حذف الزوائد أو من هدى المتعدي أو من هدى القاصر بمعنى اهتدى و﴿سبيلاً﴾ تمييز أي أوضح طريقاً وأحسن مذهباً وأشد اتباعاً للحق .

ثم لماانجر الكلام الى ذكر الانسان وما جبل عليه ، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح فقال﴿ويسألونك عن الروح﴾ قد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه ، فقيل هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته وبهذا قال أكثر المفسرين .

قال الفراء : الروح الذي يعيش به الانسان لم يخبر الله به سبحانه أحداً من خلقه ولم يعط علمه أحداً من عباده .

وقيل الروح المسؤول عنه جبريل ، وقيل عيسى وقيل القرآن وقيل ملك من الملائكة عظيم الخلق وقيل خلق كخلق بني آدم ، وقال بعضهم هو الدم ، ألا ترى الانسان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم ، وقال قوم : هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس ، وقال قوم : هو عرض ، وقال قوم : هو جسم لطيف يحيا به الانسان ، وقيل الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلوّ والبقاء ، والظاهر هو القول الأول .

وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية وبيان السائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح ، ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله .

ثم أمره سبحانه أن يجيب عن السائلين له عن الروح فقال ﴿قل الروح﴾ أظهر في مقام الإضمار إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه ﴿من أمر ربي﴾ من بيانية والأمر بمعنى الشأن والإضافة للإختصاص العلمي لا الإيجادي لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى كما في الإضافة الثانية من تشريف المضاف اليه اي هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده .

وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة ايضاً ، وقيل المعنى من وحيه وكلامه لا من كلام البشر ، وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته وايضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتسع له المقام وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا .

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت الى ثمانية

عشر مائة قول ، فانظر الى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ، ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث على حقيقته فضلاً عن أممهم المقتدين بهم .

فيالله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول والقانعين بالمعقول من المنقول الى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه ولم يستأثر بعلمه ، وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته بعد انفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه .

والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن ادراك خالقه أعجز ، ولذا رد ما قيل في حده قديماً وحديثاً .

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ الخطاب عام لجميع الخلق ومن جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل هو خطاب لليهود خاصة ، والأول أولى ، ويدخل فيه اليهود دخولاً أولياً .

والمعنى إن علمكم الذي علمكم الله ليس إلا المقدار القليل بالنسبة الى علم الخالق سبحانه وان أوتيتم حظاً من العلم وافراً ، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة الى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام .

وعبارة الخازن أن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة ، فوصف الشيء بالقلة بالنسبة الى ما فوقه وبالكثرة الى ما تحته . أ هـ .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكىء على عسيب فمر بقوم من اليهود

فقال بعضهم لبعض : اسألوه عن الروح ، فقال بعضهم : لا تسألوه ، فقالوا : يامحمد ما الروح ؟ فما زال متكئاً على العسيب فظننت انه يوحى اليه فقال ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ الآية .[1]

وأخرج أحمد والترمذي وصححه النسائي وابن المنذر وابن حبان في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، قالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت هذه الآية ، قالوا : أوتينا علماً كثيراً وأوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً ، فأنزل الله ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ الآية ، وفي الباب أحاديث وآثار .

ولما بيَّن سبحانه ما آتاهم من العلم إلا قليلا بيَّن انه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال ﴿ولئن﴾ اللام هي الموطئة الدالة على القسم المقدر ، أي والله لئن ﴿شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك﴾ وبقيت كما كنتما تدري ماالكتاب وهذا جواب القسم وجواب الشرط محذوف ، أي ذهبنا به على القاعدة في اجتماع الشرط والقسم من حذف جواب المتأخر استغناء عنه بجواب المتقدم . قال الزجاج : أي لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر ، انتهى . وعبر عن القرآن بالموصول تفخيماً لشأنه ﴿ثم لا تجد لك به﴾ بالقرآن ﴿علينا وكيلاً﴾ أي من يتوكل علينا في رد شيء منه بعد ان ذهبنا به ويتعهد ويلتزم استرداده بعد رفعه كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه .

---

(١) مسلم ٢٧٩٤ ـ البخاري ١٠٦ .

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾

﴿ألا رحمة من ربك﴾ الإستثناء فيه قولان :

**أحدهما** : انه متصل لأن الرحمة تندرج في قوله وكيلا ، يعني إلا رحمة فإنها ان نالتك فلعلها تسترده عليك .

**والثاني** : انه منقطع فمعناه لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك أو لكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به ، أو لكن أبقيناه الى قرب قيام الساعة فعند ذلك يرفع ، ويقدر إلا بـ ﴿لكن﴾ عند البصريين وبل عند الكوفيين .

وقد أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه والطبراني والبيهقي وغيرهم عن ابن مسعود قال : ان هذا القرآن سيرفع ، قيل كيف يرفع ، وقد أثبته الله في قلوبنا وأثبتناه في المصاحف ، قال : يسري عليه في ليلة واحدة فلا تترك منه آية في قلب ولا مصحف إلا رفعت فتصبحون وليس فيكم منه شيء ، ثم قرأ هذه الآية وقد روي هذا عنه ، وعن جمع من الصحابة موقوفاً ومرفوعاً .

﴿إن فضله كان عليك كبيراً﴾ حيث جعلك رسولاً وأنزل عليك الكتاب وألقى عليك القرآن والعلم وصيرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم الله به عليك .

ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال ﴿قل لئن﴾ اللام لام

قسم وفيه ما تقدم ﴿اجتمعت الانس والجن﴾ وكذا الملائكة ، وانما لم يذكروا لأن التحدي ليس معهم والتصدي لمعارضته لا يليق بشأنهم .

﴿على أن يأتوا بمثل هذا القرآن﴾ المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال الفصاحة ونهاية البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ ﴿لا يأتون بمثله﴾ أظهر في مقام الاضمار ولم يكتف بأن يقول لا يأتون به ؛ على أن الضمير راجع الى المثل المذكور لدفع توهم أن يكون له مثل معين ، وللاشعار بأن المراد نفي المثل على أي صفة كان ، وهو جواب قسم محذوف أو جواب للشرط واعتذروا عن رفعه بأن الشرط ماض والأول أظهر .

ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدي لها أحدهم على الإنفراد أو كان المتصدي لها المجموع بالمظاهرة فقال ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي عوناً ونصيراً في تحقيق ما يتوخونه من الإتيان بمثله ، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ، ولو في هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلاً عن غيرها ، وفيه حسم لأطماعهم الفارغة في روم تبديل بعض آياته ببعض وقد تقدم وجه الاعجاز في اوائل سورة البقرة .

وفي هذه الآية رد لما قاله الكفار ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وإكذاب لهم .
عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمود بن شحان ونعيمان ابن آصي وبحري بن عمرو وسلام بن مشكم ، فقالوا : أخبرنا يامحمد بهذا الذي جئت به أحق من عند الله ، فإنا لا نراه متناسقاً كما تناسق التوراة ، فقال لهم « والله إنكم لتعرفونه انه من عند الله ، قالوا : إنا نجيئك بمثل ما تأتي به ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

فالقرآن كلام الله في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة لا يشبه كلام الخلق وهو

غير مخلوق ، ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله ، وهو معجز في النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب .

ثم بيَّن سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال ﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي رددنا القول فيه بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان ، وكررنا بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي ، وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة ، وقيل من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه ووقوعه موقعاً في الأنفس والأول أولى .

﴿فأبى أكثر الناس﴾ يعني من أهل مكة ﴿إلا كفورا﴾ فإنهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم واقترحوا من الآيات ما ليس لهم وأظهر في مقام الإضمار حيث قال فأبى أكثر الناس تأكيداً وتوضيحاً ولما كان أبى ومـؤلاً بالنفي أي ما قبل أو لم يرض صح الاستثناء منه .

﴿وقالوا﴾ أي قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحرث قول المبهوت المحجوج المتحير ، ولما تبيَّن إعجاز القرآن وانضمت اليه معجزات أخر وبيِّنات ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعلَّلون باقتراح الآيات وقالوا ﴿لن نؤمن لك﴾ ثم علقوا نفي ايمانهم بغاية طلبوها فقالوا ﴿حتى تفجر لنا من الأرض﴾ أي مكة ﴿ينبوعاً﴾ عيناً غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء ، قرىء تفجر مخففاً ومشدداً وهما سبعيتان ، ولم يختلفوا في فتفجر الأنهار أنها مشدّدة باتفاق السبعة .

ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد والثانية بعدها الأنهار وهي جمع ، وأجيب عنه بأن الينبوع وان كان واحداً في اللفظ فالمراد به الجمع ، فأن الينبوع العيون التي لا ينضب ماؤها ويرد بأن الينبوع عين الماء والجمع ينابيع ، وإنما يقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع وهو يفعول

من نبع الماء والياء زائدة كيعبوب من عب الماء . قال مجاهد : ينبوعاً عيوناً ، وعن السدي الينبوع هو النهر الذي يجري من العين .

﴿أو تكون لك جنة﴾ أي بستان تستر أشجاره أرضه . وقال ابن عباس : جنة ضيعة ، والمعنى هب انك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة ﴿من نخيل وعنب فتفجر الأنهار﴾ أي تجريها بقوة ﴿خلالها﴾ أي وسط الجنة ﴿تفجيراً﴾ كثيراً وتشقيقاً .

﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ أي قطعاً قاله ابن عباس ، قرأ مجاهد أو تسقط مسند الى السماء ، وقرأ من عداه أو تسقط على الخطاب أي أو تسقط أنت يامحمد السماء ، والكسف بفتح السين جمع كسفة ، والكسفة القطعة من الشيء ، قاله الجوهري ، يقال أعطني كسفة من ثوبك والجمع كسف وكسف ، أي أسقاطاً مماثلة كما زعمت ، يعنون بذلك قول الله سبحانه ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ .

قال أبو علي : الكسف بالسكون الشيء المقطوع كالطحن للمطحون واشتقاقه على ما قال من كسفت الثوب كسفاً إذا قطعته ، وقال الزجاج : من كسفت الشيء إذا غطيته كأنه قيل أو تسقطها طبقاً طبقاً علينا ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ أي حال كونهما مقابلين بفتح الباء ومرئيين لنا فالقبيل بمعنى المقابل كالعشير بمعنى المعاشر .

اختلف المفسرون في معنى ﴿قبيلاً﴾ فقيل معناه معاينة قاله قتادة وابن جريج واختاره أبو علي الفارسي فقال : إذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدراً كالنكير والنذير وقيل معناه كفيلاً بما تدعيه قاله الضحاك ، وقيل شهيداً قاله مقاتل وقيل هو جمع القبيلة أي تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة قاله مجاهد وعطاء .

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ أي من ذهب قاله ابن عباس وبه قرأ ابن مسعود وأصله الزينة والمزخرف المزين وزخارف الماء طرائقه وقال الزجاج: هو الزينة فرجع الى أصل معنى الزخرف وهو بعيد لأنه يصير المعنى أو يكون لك بيت من زينة.

﴿أو ترقى في السماء﴾ أي حتى تصعد في معارجها والرقي الصعود يقال: رقيت في السلم إذا صعدت من باب تعب وارتقيت مثله ويقال رقي بكسر القاف يرقى بالفتح رقياً على فعول والأصل رقوى وبالكسر في المحسوسات كما هنا وأما في المعاني فهو من باب سعى يقال رقى في الخير والشر، يرقى في الماضي والمضارع، وأما رقى المريض بمعنى عوّذه فهو من باب رمى يقال رقاه يرقيه إذا عوذه وتلا عليه شيئاً من القرآن.

﴿ولن نؤمن لرقيك﴾ أي لأجل رقيك أو به فاللام للتعليل أو بمعنى الباء وهو مصدر نحو مضى يمضي مضياً وهوى يهوي هوياً ﴿حتى تنزل علينا كتاباً﴾ يصدقك ويدل على نبوتك ﴿نقرؤه﴾ جميعاً أو يقرؤه كل واحد منا، وقيل معناه كتاباً من الله الى كل واحد منا كما في قوله ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾.

قال مجاهد: يعنون كتاباً من رب العالمين الى فلان بن فلان تصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها فأمر سبحانه رسوله صلى الله

عليه وآله وسلم أن يأتي بما يفيد التعجب من قولهم والتنزيه للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال :

﴿قل﴾ وفي قراءة سبعية قال ﴿سبحان ربي﴾ تعجب عما تقدم أو عن أن يتحكم عليه او يشاركه أحد في القدرة ﴿هل كنت إلا بشراً﴾ من البشر لا ملكاً حتى أصعد السماء ﴿رسولاً﴾ كسائر الرسل مـأموراً من الله سبحـانه بإبلاغكم ، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشراً قدر على شيء منها ، وان أردتم اني أطلب ذلك من الله سبحانه حتى يظهرها على يدي فالرسول اذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك لأن بها يتبين صدقه ولا ضرورة الى طلب الزيادة وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على ربي بما ليس بضروري ولا دعت اليه حاجة ، ولو لزمتني الإجابة لكل متعنت لاقترح كل معاند في كل وقت اقتراحات وطلب لنفسه اظهار آيات فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وتنزه عن تعنتاتهم وتقدس عن اقتراحاتهم .

وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها وليست بدون ما اقترحوه ، بل أعظم منه ولكن لم يكن قصدهم طلب الدليل بل كانوا متعنتين ثم حكى سبحانه شبهة أخرى قد تكرر في الكتاب العزيز التعرض لإيرادها وردها في غير موضع فقال :

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا﴾ المراد الناس على العموم ، وقيل أهل مكة على الخصوص أي ما منعهم الإيمان بالقرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إذ جاءهم الهدى﴾ أي الوحي من الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم وبيَّن ذلك لهم وارشدهم إليه أي ما منعهم وقت مجيء الهدى أن يؤمنوا بالقرآن والنبوة ﴿إلا أن قالوا﴾ أي ما منعهم إلا قولهم ﴿أبعث الله بشراً رسولاً﴾ الهمزة للإنكار منهم ان يكون الرسول من جنس البشر .

والمعنى أن هذا الاعتقاد الشـامل لهم هـو الذي منعهم عن الإيمـان

بالكتاب وبالرسول وعبر عنه بالقول للإشعار بأنه ليس إلا مجرد قول قالوه بأفواههم .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن شبهتهم هذه فقال ﴿قل لو كان﴾ أي لو وجد وثبت ﴿في الأرض﴾ بدل من فيها من البشر ﴿ملائكة يمشون﴾ على الأقدام كما يمشي الأنس ﴿مطمئنين﴾ مستقرين فيها ساكنين بها ، قال الزجاج مستوطنين في الأرض أي لا يظعنون عنها الى السماء ومعنى الطمأنينة السكون فالمراد ههنا المقام والاستيطان فإنه يقال سكن البلد فلان إذا أقام فيها وان كان ماشياً متقلباً في حاجاته .

﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ حتى يكون من جنسهم ويمكنهم مخاطبته والفهم عنه ، وفيه اعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغي أن يكونوا من جنس المرسل اليهم فكأنه اعتبر في تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين :

**الأول** : كون سكان الأرض ملائكة .

**والثاني** : كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم الى السماء إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا اليها وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا تكون في بعثة الملائكة اليهم فائدة .

ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد فقال ﴿قل﴾ لهم يامحمد من جهتك ﴿كفى بالله﴾ وحده ﴿شهيداً﴾ على ابلاغي اليكم ما أمرني به من أمور الرسالة وقال ﴿بيني وبينكم﴾ ولم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة الكلية ، وقيل إن اظهار المعجزة على وفق دعوى النبي شهادة من الله له على الصدق ثم علّل كونه سبحانه شهيداً كافياً بقوله ﴿انه كان بعباده خبيراً﴾ أي عالماً بجميع أحوالهم محيطاً بظواهرها وبواطنها ﴿بصيراً﴾ بما كان منها وما يكون وفيه تهديد لهم وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

ثم بيَّن سبحانه ان الاقرار والإنكار مستندان الى مشيئته فقال ﴿ومن يهد الله﴾ أي من يرد الله هدايته ﴿فهو المهتد﴾ الى الحق أو الى كل مطلوب وافرد الضمير حملاً على لفظ من ﴿ومن يضلل﴾ أي يرد اضلاله ﴿فلن تجد﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له ﴿لهم﴾ جمع الضمير حملاً على معنى من ﴿أولياء﴾ ينصرونهم ويهدونهم الى الحق الذي أضلهم الله عنه أو الى طريق النجاة ﴿من دونه﴾ أي من دون الله سبحانه .

﴿ونحشرهم يوم القيامة﴾ ماشين ﴿على وجوههم﴾ هذا الحشر فيه وجهان للمفسرين :

**الأول** : انه عبارة عن الاسراع بهم الى جهنم من قول العرب قد مر القوم على وجوههم إذا اسرعوا .

**الثاني** : انهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في اهانته وتعذيبه ، وهذا هو الصحيح لقوله تعالى ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ .

ولما صح في السنة فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال :

قيل يارسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم قال : « الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم»[١] .

وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف مشاة وصنف ركباناً وصنف على وجوههم ، قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم ، قال : « ان الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما أنهم يتقون بوجوهم كل حدب وشوك »[٢] والحدب ما ارتفع من الأرض وفي الباب أحاديث .

﴿عمياً وبكماً وصماً﴾ النصب على الحال والأبكم الذي لا ينطق ، والأصم الذي لا يسمع أي لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون ، وهذه هيئة يبعثون عليها في أقبح صورة وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم ، وقد اثبت الله تعالى لهم الرؤية والكلام والسمع في قوله ﴿ورأى المجرمون النار﴾ وقوله ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ وقوله ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ .

فالمعنى هنا عمياً لا يبصرون ما يسرهم بُكماً لا ينطقون بحجة صماً لا يسمعون ما يلذ مسامعهم وقيل هذا حين يقال لهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون وقيل يحشرون على ما وصفهم الله ثم تعاد اليهم هذه الأشياء بعد ذلك ثم من وراء ذلك ﴿مأواهم﴾ أي المكان الذي يأوون اليه ﴿جهنم﴾ مستأنفة أو حال من الضمير ، قال ابن عباس : يعني انهم وقودها .

﴿كلما خبت﴾ أي سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، يقال خبت النار تخبو خبواً إذا خمدت وسكن لهبها زاد السمين فإذا ضعف جمرها خمدت

---

(١) مسلم ٢٨٠٦ بلفظ: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا ، قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة البخاري ٢٠٢٨ .

(٢) الترمذي تفسير سورة ٣/١٧ ـ الإمام أحمد ٢/٣٥٤.

فإذا طفئت بالجملة قيل همدت ، وكلاهما من باب قعد ، قال ابن قتيبة : معنى ﴿زدناهم سعيراً﴾ تسعراً وهو التلهب والتوقد أي فتعود ملتهبة ومتسعرة فانهم لما كذبوا بالإعادة بعد الافناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء .

وقد قيل أن في خبو النار تخفيفاً لعذاب اهلها ، فكيف يجمع بينه وبين قوله ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ وأجيب بأن المراد بعدم التخفيف انه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبو والتسعر ، وقيل ضعفت وهدأت من غير أن يوجد نقصان في ايلامهم ، لأن الله تعالى قال ﴿لا يفتر عنهم﴾ وقيل معناه أرادت أن تخبو ، وقيل معناه كلما نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا الى ما كانوا عليه وزيد في سعير النار لتحرقهم .

﴿ذلك﴾ العذاب المذكور ﴿جزاؤهم﴾ الذي أوجبه الله لهم واستحقوه عنده ﴿بأنهم كفروا بآياتنا﴾ أي بسبب كفرهم بها فلم يصدقوا بالآيات التنزيلية ولا تفكروا في الآيات التكوينية ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ الهمزة للإنكار وقد تقدم تفسير هذه الآية في هذه السورة ﴿أئنا لمبعوثون﴾ أي مخلوقون ﴿خلقاً جديداً﴾ مصدر من غير لفظة أو حال أي مخلوقين مستأنفين فجاء سبحانه بحجة تدفعهم عن الإنكار وتردهم عن الجحود فقال :

﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي من هو قادر على خلقها في عظمها وشدتها فهو على إعادة ما هو أدون منه في الصغر والضعف أقدر ، وقيل المراد أنه قادر على افنائهم وإيجاد غيرهم من الأنس قال الكرخي : أراد بمثلهم إياهم فعبر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين الإعادة مثل الابتداء وذلك أن مثل الشيء مساوٍ له في حاله فجاز أن يعبر عن الشيء نفسه .

يقال مثلك لا يفعل كذا أي أنت لا تفعله ، أو أنه تعالى قادر على أن

يخلق عبيداً يوحدون ويقرون بكمال حكمته وقدرته ، ويتركون هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله ﴿يأت بخلق﴾ ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ وعلى القول الأول يكون الخلق بمعنى الإعادة وعلى هذا القول هو على حقيقته ، والمعنى قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منها كما قال أأنتم أشد خلقاً أم السماء . قال الواحدي : والأول أشبه .

﴿وجعل لهم﴾ أي لبعثهم ﴿أجلاً﴾ أي وقتاً محققاً لعذابهم ﴿لا ريب﴾ أي غير مرتاب ﴿فيه﴾ وهو الموت او القيامة ، ويحتمل أن يكون الواو للاستئناف . وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، أي أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم ﴿فأبى الظالمون إلا كفروا﴾ أي أبى المشركون إلا جحوداً للأجل وعناداً مع وضوح الدليل .

وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد ، ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب اجراء العيون والأنهار في أراضيهم لتتسع معايشهم بيَّن الله سبحانه انهم لا يقنعون بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال :

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

﴿قل﴾ لهم شرحاً لحالهم التي يدعون خلافها ﴿لو أنتم تملكون﴾ تقديره لو تملكون أنتم لأن ﴿لو﴾ تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بد من فعل بعدها ؛ وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب ، وأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن في حذف الفعل الذي ارتفع به أنتم وإبراز الكلام في صورة المبتدأ والخبر دلالة على انهم هم المختصون بالشح المتبالغ فلا ينافي قوله تعالى ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ الآية . لأن ذلك في الآخرة .

﴿خزائن رحمة ربي﴾ هي خزائن الأرزاق ﴿إذاً لأمسكتم﴾ أي لبخلتم وحبستم في دار الدنيا .

قال الزجاج : أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق والنعم لأمسكوا شحاً وبخلاً ﴿خشية الإنفاق﴾ أي خشية أن ينفقوا فيفتقروا . قال أهل اللغة : أنفق وأصرم وأعدم وأقتر بمعنى قل ماله ، فيكون المعنى لأمسكتم خشية قلة المال وخوف نفاده وذهابه بالإنفاق ﴿وكان الانسان قتوراً﴾ أي بخيلاً ممسكاً مضيقاً عليه ، يقال قتر على عياله يقتر قتراً وقتوراً ضيق عليهم من النفقة .

وقيل معنى قتوراً قليل المال ؛ والظاهر أن المراد المبالغة في وصفه بالشح

لأن الانسان ليس بقليل المال على العموم بل بعضهم كثير المال إلا أن يراد أن جميع النوع الانساني قليل المال بالنسبة الى خزائن الله وما عنده ، وقد اختلف في هذه الآية على قولين : **أحدهما** : انها نزلت في المشركين خاصة وبه قال الحسن . **والثاني** : إنها عامة ، وهو قول الجمهور وحكاه الماوردي .

﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بيِّنات﴾ أي علامات واضحات دالة على نبوته ، قيل ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كأنها مساوية لتلك الأمور التي اقترحها كفار قريش بل أقوى منها فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات إلا لعدم المصلحة في استئصالهم إن لم يؤمنوا بها .

قال أكثر المفسرين : الآيات التسع هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصار واليد والسنين ونقص الثمرات ، وجعل الحسن مكان السنين ونقص الثمرات البحر والجبل .

وقال محمد بن كعب القرظي : هي الخمس التي في الأعراف والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم ، وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى .

وعن ابن عباس : في تسع آيات مثل ما ذكرناه عن أكثر المفسرين ، وعنه قال : يده وعصاه ولسانه والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

وعن صفوان بن عسال : أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه انطلق بنا الى هذا النبي نسأله ، فأتياه فسألاه عن هذه الآية فقال : « لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء الى السلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا

محصنة ، أو قال : لا تفروا من الزحف . شك شعبة وعليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا في السبت ، فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد إنك نبي الله . قال فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : إن داود دعا الله أن لايزال في ذريته نبي ، وانا نخاف ان أسلمنا تقتلنا اليهود »[١] أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة والطبراني وابن قانع والبيهقي وغيرهم .

وعلى هذا المراد بالآيات الأحكام العامة الثابتة في كل الشرائع ، سميت بذلك لأنها تدل على حال من يتعاطى متعلقاتها في الآخرة من السعادة والشقاوة ، وقوله عليكم يا يهود الخ كلام مستأنف زائد على الجواب ، ولذلك غير فيه سياق الكلام ﴿فاسأل﴾ يامحمد صلى الله عليه وسلم ﴿بني اسرائيل إذ جاءهم﴾ أي حين جاءهم موسى ، وقرىء فسأل أي سأل موسى فرعون أن يخلي بني اسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه ، وعلى الأول السؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والايقان لأن الأدلة إذا تظافرت كان ذلك أقوى ، والمسؤولون مؤمنو بني اسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه .

﴿فقال له فرعون﴾ الفاء هي الفصيحة أي فأظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البيِّنات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون ﴿إني لأظنك ياموسى مسحوراً﴾ المسحور هو الذي سحر فخولط عقله . وقيل هو المخدوع ، وقيل هو المطبوب . وقال أبو عبيدة والفراء : هو بمعنى الساحر فوضع المفعول موضع الفاعل ﴿قال﴾ موسى ﴿لقد علمت﴾ يافرعون ﴿ما أنزل﴾ أي أوجد ﴿هؤلاء﴾ يعني الآيات التسع التي أظهرها ؛ وقرىء علمت بضم التاء أيضاً على انها لموسى ، ووجه الأولى أن فرعون كان عالماً بذلك كما قال سبحانه وتعالى ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ .

قال أبو عبيدة : المأخوذ به عندنا فتح التاء وهو الأصح للمعنى ، لأن

---

(١) النسائي كتاب التحريم باب ١٨ ـ الترمذي تفسير سورة ١٥/١٧ . الإمام أحمد ٢٤٠/٤ .

موسى لا يقول علمت أنا وهو الداعي . وروي نحو هذا عن الزجاج ، ووجه الثانية أن فرعون لم يعلم ذلك وإنما علمه موسى .

﴿إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ أي بيِّنات يبصر بها ودلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته ﴿واني لأظنك يافرعون مثبوراً﴾ الظن هنا بمعنى اليقين والثبور الهلاك والخسران أي مخسوراً ؛ وقيل مسحوراً وقيل مطبوعاً على الشر وقيل المثبور الملعون ؛ وقيل ناقص العقل ، وقيل هو الممنوع المصروف من الخير يقال ما ثبرك عن كذا أي ما منعك منه . حكاه أهل اللغة .

﴿فأراد﴾ فرعون ﴿أن يستفزهم من الأرض﴾ أي يخرج بني اسرائيل وموسى ويزعجهم من أرض مصر بإبعادهم عنها . وقيل أراد أن يقتلهم ويستأصلهم وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض ، وفي القاموس فز عنى عدل ، وفز فلاناً عن موضعه أزعجه واستفزه استخفه وأخرجه من داره وافززته أفزعته ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾ أي فعكسنا عليه فكره فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق ولم يبق منهم أحد ونجى موسى وقومه .

﴿وقلنا من بعده﴾ أي من بعد أغراقه ومن معه جميعاً ﴿لبني اسرائيل اسكنوا الأرض﴾ أي أرض الشام ومصر التي أراد أن يستفزهم منها ﴿فإذا جاء وعد﴾ الدار ﴿الآخرة﴾ هي القيامة أو الكرّة الآخرة أو الساعة الآخرة وهي النفخة الثانية الموعود بها ، وقيل أراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء ﴿جئنا بكم لفيفاً﴾ أي جميعاً الى موقف القيامة .

قال الجوهري : اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى ، يقال جاء القوم بلفهم ولفيفهم ، أي بأخلاطهم ، فالمراد هنا جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع قد اختلط المؤمن بالكافر والسعيد بالشقي ، قال الأصمعي : اللفيف جمع وليس له واحد وهو مثل الجمع .

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نـزل﴾ الضمير يـرجع الى القـرآن ، والمعنى وأوحيناه متلبساً بالحق وانه نزل وفيه الحق ، وقيل المعنى ومع الحق أنزلناه ، كقولهم ركب الأمير بسيفه أي مع سيفه ؛ وبالحق نزل أي بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ كما تقول نزلت بزيد . وقال أبو علي الفارسي : الباء في الموضعين بمعنى مع .

وقيل المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل ، أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم إلا محفوظاً من تخليط الشياطين والتقديم في الموضعين للتخصيص . وفي الشهاب الحق فيهما ضد الباطل ، لكن المراد بالأول الحكمة الإلٰهية المقتضية لإنزاله وبالثاني ما يشتمل عليه من العقائد والأحكام ونحوها .

﴿وما أرسلناك إلا مبشراً﴾ لمن أطاع بالجنة ﴿ونذيراً﴾ مخوفاً لمن عصى بالنار والقصر إضافي أي لا هادياً فإن الهدى هدى الله .

﴿وقرآناً﴾ منصوب بفعل مقدر أي وآتيناك قرآناً ، وقيل نصب بفعل مضمر يفسره قـوله ﴿فـرقناه﴾ بـالتخفيف على قـراءة الجمهور ، أي بينـاه وأوضحناه أو فرقنا فيه بين الحق والباطل .

وقال الزجاج : فرقه الله في التنزيل ليفهمه الناس . قال أبو عبيدة : التخفيف أعجب اليّ لأن تفسيره بيّناه ، وليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقاً ، ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابي انه قال : فرقت مخففاً بين الكلام وفرقت مشدداً بين الأجسام .

وعن ابن عباس فرقناه مثقلاً وقال : نزل القرآن الى السماء في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً ففرقه الله في ثلاث وعشرين سنة . وقد روى نحو هذا عنه بطرق ، وعن فرقناه فصلناه على مكث بأمد . قال : في الجمل وبالتشديد قرأ علي وجماعة من الصحابة وغيرهم وفيه وجهان : **أحدهما** : ان التضعيف للتكثير ، أي فرقنا آياته بين أمر ونهي وحكم وأحكام ومواعظ وأمثال وقصص واخبار ماضية ومستقبلة . **والثاني** : انه دال على التفريق والتنجيم . انتهى .

ثم ذكر سبحانه العلة لقوله فرقناه فقال ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾ أي على تطاول في المدة شيئاً بعد شيء على القراءة الثانية أو أنزلناه آية آية وسورة سورة ،ومعناه على القراءة الاولى على ترسل وتمهل وتؤدة في التلاوة ؛ فإن ذلك أقرب الى الفهم وأسهل للحفظ ، وقد اتفق القراء على ضم الميم في مكث إلا ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم .

﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ التأكيد بالمصدر للمبالغة والمعنى انزلناه منجماً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة على حسب الحوادث لما في ذلك من المصلحة ، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا .

﴿قل﴾ يامحمد للكافرين المقترحين للآيات ﴿آمنوا به﴾ أي بالقرآن ﴿أو لا تؤمنوا﴾ فسواء ايمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيده ذلك كمالاً ولا ينقصه نقصاناً ، وفي هذا وعيد شديد لأمره صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم واحتقارهم ، ثم علّل ذلك بقوله ﴿ان الذين أوتوا العلم من قبله﴾ أي أن العلماء الذين قرأوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي

وامارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين المحق والمبطل ورأوا نعتك وصفة ما أنزل اليك في تلك الكتب كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وأبي ذر .

وقيل الضمير في قوله من قبله راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم والأولى ما ذكرناه من رجوعه الى القرآن لدلالة السياق على ذلك .

﴿إذ يتلى عليهم﴾ القرآن ﴿يخرون للاذقان سجداً﴾ أي يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه ، وإنما قيد الخرور وهو السقوط بكونه للاذقان أي عليها لأن الذقن وهو مجتمع اللحيين أول ما يحاذي الأرض ، قال الزجاج : لأن الذقن مجتمع اللحيين ، وكما يبتدىء الانسان بالخرور للسجود فأول ما يحاذي الأرض به من وجهه الذقن .

وقيل المراد تعفير اللحية بالتراب فإن ذلك غاية الخضوع وإيثار اللام في للاذقان على ﴿على﴾ للدلالة على الاختصاص فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور .

وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصلها انه ان لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه فلا تبال بذلك فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا له عند تلاوته عليهم خضوعاً ظهر أثره البالغ بكونهم يخرون على اذقانهم سجداً لله .

﴿ويقولون﴾ في سجودهم ﴿سبحان ربنا﴾ أي تنزيهاً لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب أو تنزيهاً له عن خلف وعده ﴿ان كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ ان هذه هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة ﴿ويخرون للاذقان يبكون﴾ كرر ذلك الخرور للاذقان لاختلاف السبب فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه وللسجود والثاني للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم ولهذا قال ﴿ويزيدهم﴾ أي سماع القرآن أو القرآن بسماعهم له أو البكاء أو السجود أو المتلو لدلالة قوله إذا يتلى ﴿خشوعاً﴾ أي لين قلب ورطوبة عين فالبكاء مستحب عند قراءة القرآن .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم » أخرجه الترمذي والنسائي(١) .

وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله » أخرجه الترمذي(٢) .

ثم أراد سبحانه ان يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ ومعناه أنهما مستويان في جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما ولهذا قال ﴿أياً ما تدعوا﴾ أصل الكلام أيا ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ للمبالغة وللدلالة على أنه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان ، ومعنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال والإكرام ذكر معنى هذا النيسابوري وتبعه أبو السعود .

قال الزجاج : أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان الى قول واحد وسيأتي ذكر سبب نزول الآية وبه يتضح المراد منها ، والحسنى مؤنث الأحسن الذي هو أفعل تفضيل لا مؤنث أحسن المقابل لامرأة حسناء كما في القاموس ، عن ابن عباس قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ذات يوم فقال في دعائه : يا الله يارحمن فقال المشركون : انظروا الى هذا الصابىء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية .

وعن ابراهيم النخعي قال : ان اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرحمن وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن فنزلت الآية وهو مرسل وعن مكحول أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بمكة ذات ليلة

---

(١) الترمذي كتاب فضائل الجهاد باب ٨ ـ النسائي كتاب الجهاد باب ٨ .
(٢) الترمذي كتاب فضائل الجهاد باب ١٢ .

يقول في سجوده : يارحمن يارحيم فسمعه رجل من المشركين فلما أصبح قال لأصحابه : إن ابن أبي كبشة يدعو الرحمن الذي باليمن وكان رجل باليمن يقال له رحمن فنزلت .

ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ أي بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت لا من نعوت أفعال الصلاة فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء يقال خفت صوته خفوتاً إذا انقطع كلامه وضعف وسكن وخفت الزرع إذا ذبل وخافت الرجل بقراءته إذا لم يرفع بها صوته .

وقيل معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها والأول أولى ؛ أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : نزلت يعني هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار فكان اذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوا عنك الحديث[1] .

وعن محمد بن سيرين قال : نبئت أن ابا بكر كان إذا قرأ خفض وكان عمر إذا قرأ جهر فقيل لأبي بكر لَمَ تصنع هذا فقال : أنا أناجي ربي وقد عرف حاجتي وقيل لعمر لَمَ تصنع هذا قال : أطرد الشيطان واوقظ الوسنان فلما نزل ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت﴾ قيل لأبي بكر ارفع شيئاً ، وقيل لعمر اخفض شيئاً ، وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت : إنما نزلت هذه الآية في الدعاء وعنها أنها نزلت في التشهد .

﴿وابتغ بين ذلك﴾ أي الجهر والمخافتة المدلول عليهما بالفعلين ﴿سبيلاً﴾

---

(١) مسلم ٤٤٦ ـ البخاري ٢٠٢٠ .

أي طريقاً متوسطاً بين الأمرين فلا تكن مجاهراً ولا مخافتاً بها وعلى التفسير الثاني يكون معنى ذلك النهي عن الجهر بقراءة الصلوات كلها والنهي عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها والأمر بجعل بعض منها مجهوراً به وهو صلاة الليل والمخافتة بصلاة النهار وذهب قوم الى أن هذه الآية منسوخة بقوله ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ .

ولما أمر أن لا يذكر ولا ينادي إلا بالأسماء الحسنى نبه على كيفية الحمد فقال ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ كما يقوله اليهود والنصارى ومن قال من المشركين أن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ أي مشارك له في ملكه وألوهيته وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾ أي لم يحتج الى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير .

قال الزجاج : أي لم يحتج ان ينتصر بغيره وفي التعرض في اثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بإن المستحق للحمد من له هذه الصفات لأنه القادر على الايجاد وافاضة النعم لكون الولد مجبنة مبخلة ، ولأنه ايضا يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه والمحدث غير قادر على كمال الأنعام .

والشركة في الملك إنما يتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلاً عن تمام ما هو فضلاً عن نظام ما هو عليه وايضاً الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين وقد يمنعه الشريك من افاضة الخير الى اوليائه ويؤديه الى الفساد كما قال تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ والمحتاج الى ولي يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغنٍ بنفسه .

﴿وكبره تكبيراً﴾ أي وعظمه تعظيماً تاماً وصفه بأنه أعظم من كل شيء

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم أهله هذه الآية الحمد لله الخ الصغير من أهله والكبير أخرجه ابن جرير ، وأخرج عبدالرزاق في المصنف عن عبدالكريم بن أبي أمية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرات الحمد لله الى آخر السورة وروى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول آية العز الحمد لله الذي الخ .




تم بعون الله سبحانه وتعالى الجزء السابع من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء الثامن وأوله تفسير سورة الكهف:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ (١)

# فهرس الجزء السابع


: ( سورة الرعد ) والأقوال في كونها مكية أو مدنية .... ٧

قوله عز وجل : الله الذي رفع السموات بغير عمد ............ ٩

قوله عز وجل : وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً .... ١٣

قوله عز وجل : وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع صنوان وغير صنوان ................ ١٥

قوله عز وجل : تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل .. ١٦

قوله عز وجل : ( ائذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ) ........... ١٨

قوله عز وجل : الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام ...... ٢٣

قوله عز وجل : عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ............ ٢٥

قوله عز وجل : له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ٢٧

قوله عز وجل : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ...... ٢٨

قوله عز وجل : هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده ............... ٣٠

قوله عز وجل : وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال .......... ٣٢

قوله عز وجل : له دعوة الحق والذين يدعون لا يستجيبون لهم بشيء .. ٣٤

قوله عز وجل : ولله يسجد من في السموات والأرض وظلالهم بالغدو والآصال ........................ ٣٥

قوله عز وجل : قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من

دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . قل هل يستوي الأعمى والبصير . . أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . . . . . . . . . . . . . . . ٣٧
قوله عز وجل : أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٤٠
قوله عز وجل : فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٤٢
قوله عز وجل : للذين استجابوا لربهم الحسنى وللآخرين العكس . . . . ٤٤
قوله عز وجل : والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم و . . و . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٤٥
قوله عز وجل : ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . . . . . . . . . . . . . ٤٩
قوله عز وجل : كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم . . . . . . ٥٥
قوله عز وجل : ولو أن قرآناً سيرت به الجبال . . . . . . . . . . . . . . ٥٨
قوله عز وجل : أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٥٩
قوله عز وجل : ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٦٠
قوله عز وجل : وجعلوا لله شركاء قل سموهم . . . . . . . . . . . . . ٦١
قوله عز وجل : مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها . . الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك . . . . . . . . . . ٦٤
قوله عز وجل : ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ٦٧
قوله عز وجل : يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . . . . . . . . ٦٩
قوله عز وجل : وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً . . . . . . . . ٧٢

قوله عز وجل : يعلم ما تكسب كل نفس . . ويقول الذين كفروا لست مرسلاً . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٧٥
قوله عز وجل : ( سورة ابراهيم ) كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٧٩
قوله عز وجل : ويل للكفار الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة . . ٨١
قوله عز وجل : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . . . . . ٨٣
قوله عز وجل : ارسال موسى إلى قومه ليخرجهم من الظلمات الى النور وتذكيرهم بنعم الله عليهم . . . . . . . . . . . . . . ٨٤
: أقوام الرسل قالوا لرسلهم ما أنتم الا بشر وتأييد الرسل لبشريتهم . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٨٥
: تهديد الكفار لرسلهم بإخراجهم من بلادههم فوقع العكس . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٨٧
قوله عز وجل : واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . . . . . . . . . . . . ٩٤
قوله عز وجل : مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد . . . . . . . . . . ٩٨
: مشهد مؤلم في القيامة بين الأتباع والمتبوعين . . . . . . . . ١٠٢
قوله عز وجل : وقال الشيطان لما قضي الأمر . . . . . . . . . . . . . ١٠٤
: مثل كلمة طيبة وكلمة خبيثة . . . . . . . . . . . . . . . ١٠٨
قوله عز وجل : يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة . . . . ١١١
قوله عز وجل : ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً . . . . . . . . . . ١١١
قوله عز وجل : وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله . . . . . . . . . . . ١١٥
قوله عز وجل : قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة و . . . . . . . . . . ١١٦
قوله عز وجل : وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها . . . . . . . . . . . . . ١١٩
قوله عز وجل : واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واسكانه أهله بواد غير ذي زرع . . . . . . . . . . . . . . . . . . ١٢١
قوله عز وجل : فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم . . . . . . . ١٢٥
قوله عز وجل : الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق ١٢٧

قوله عز وجل : ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون .. مهطعين مقنعي رؤوسهم ........................ ١٣١

: موقف موجع للظالمين يوم القيامة .............. ١٣٣

قوله عز وجل : فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله .............. ١٣٥

قوله عز وجل : يوم تبدل الأرض غير الأرض .............. ١٣٥

قوله عز وجل : هذا بلاغ للناس ولينذروا به .............. ١٣٦

قوله عز وجل : ( سورة الحجر ) ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ١٤٣

قوله عز وجل : ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل .............. ١٤٤

: طغيان الكفار بطلب إنزال الملائكة .............. ١٤٥

قوله عز وجل : إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .............. ١٤٩

قوله عز وجل : كذلك نسلكه في قلوب المجرمين .............. ١٥٠

قوله عز وجل : إصرار الكفار على تكذيب الرسل ولو رأوا الآيات ... ١٥٢

قوله عز وجل : وحفظنا السماء من كل شيطان رجيم .............. ١٥٤

قوله عز وجل : وأنبتنا في الأرض من كل شيء .............. ١٥٧

قوله عز وجل : وأرسلنا الرياح لواقح .............. ١٥٨

قوله عز وجل : ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون .... ١٦٢

قوله عز وجل : والجان خلقناه من قبل من نار السموم . قصة خلق آدم وامتناع إبليس من السجود له .............. ١٦٥

قوله عز وجل : قال رب بما أغويتني لأزينن لهم .............. ١٦٧

قوله عز وجل : إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . عاقبة المتقين ... ١٧١

قوله عز وجل : ونبئهم عن ضيف إبراهيم .. قال انا منكم وجلون قالوا لا توجل وبشارتهم له .............. ١٧٢

: إخبارهم له انهم مرسلون الى قوم لوط لإهلاكهم .... ١٧٩

: إرشاد الملائكة للوط كيف ينجو . مجيء قوم لوط الى ضيفه فضاق بهم لوط وعرض عليهم بناته .......... ١٨٢

قوله عز وجل : لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون فأخذتهم الصيحة .. ١٨٥

قوله عز وجل : وان كان أصحاب الأيكة لظالمين . ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين .................. ١٨٧
قوله عز وجل : ولقد أتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ........ ١٩٢
قوله عز وجل : كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين فاصدع بما تؤمر .................. ١٩٩
قوله عز وجل : واعبد ربك حتى يأتيك اليقين .............. ٢٠١
قوله عز وجل : ( سورة النحل ) أتى **أمر الله فلا تستعجلوه** .......... ٢٠٥
قوله عز وجل : ينزل الملائكة بالروح من أمره . خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم .................. ٢٠٥
: تعداد ما في خلق الأنعام من نعم ............ ٢١١
قوله عز وجل : وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ............ ٢١٤
قوله عز وجل : لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون .......... ٢١٦
: تسخير الله الكون وما فيه للإنسان ........... ٢١٧
قوله عز وجل : أفمن يخلق كمن لا يخلق .............. ٢٢٢
قوله عز وجل : والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون . أموات غير أحياء ............... ٢٢٥
قوله عز وجل : لا جرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين ..................... ٢٢٧
قوله عز وجل : واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ... ٢٢٩
قوله عز وجل : ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي ......... ٢٣٣
قوله عز وجل : الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سؤ ..................... ٢٣٤
قوله عز وجل : هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة ............ ٢٣٦
قوله عز وجل : وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ....................... ٢٣٩
قوله عز وجل : والذين هاجروا في الله من بعدما ظُلموا ......... ٢٤٣

قوله عز وجل : وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ................ ٢٤٤
قوله عز وجل : ابطال الاحتجاج بهذه الآية على جواز التقليد ....... ٢٤٥
قوله عز وجل : وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ....... ٢٤٩
قوله عز وجل : أفأمن الذين مكروا السيئآت أن يخسف الله بهم الأرض
قوله عز وجل : أو يأخذهم على تخوف ................ ٢٥٠
قوله عز وجل : أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله والملائكة . يخافون ربهم من فوقهم ........... ٢٥٢
قوله عز وجل : وله الدين واصباً . . وما بكم من نعمة فمن الله .... ٢٥٤
قوله عز وجل : ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم . . ويجعلون لله البنات سبحانه ...................... ٢٥٩
قوله عز وجل : واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً ......... ٢٦٠
قوله عز وجل : ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة .. ٢٦٣
قوله عز وجل : وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى ........... ٢٦٦
قوله عز وجل : وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ٦٦٧
: تعداد نعم الله في الأنعام والزروع .......... ٢٦٨
قوله عز وجل : وأوحى ربك الى النحل . . فيه شفاء للناس ........ ٢٧١
قوله عز وجل : لكيلا يعلم بعد علمه شيئاً ............... ٢٧٧
قوله عز وجل : والله فضل بعضكم على بعض في الرزق .......... ٢٧٩
قوله عز وجل : ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً ......... ٢٨٣
قوله عز وجل : ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ....... ٢٨٤
قوله عز وجل : وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم ............ ٢٨٦
قوله عز وجل : والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ودلائل أخرى على كمال قدرته ............... ٢٨٨
قوله عز وجل : وجعل سرابيل تقيكم الحر وسرابيل ............ ٢٩١
قوله عز وجل : فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ......... ٢٩٤

قوله عز وجل : ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون .................. ٢٩٧

: تكذيب المعبودين لعابديهم أنهم كانوا يعبدونهم ...... ٢٩٨

قوله عز وجل : وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ...................... ٢٩٩

قوله عز وجل : ان الله يأمر بالعدل والاحسان ............. ٣٠٢

قوله عز وجل : وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ............. ٣٠٥

قوله عز وجل ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم .............. ٣٠٧

قوله عز وجل : ما عندكم ينفد وما عند الله باق .............. ٣١٠

قوله عز وجل : من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ........ ٣١٢

قوله عز وجل : فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله .............. ٣١٣

قوله عز وجل : الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا .......... ٣١٥

قوله عز وجل : واذا بدلنا آية مكان آية ، وهي حجة على وقوع النسخ ٣١٦

قوله عز وجل : ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشر ......... ٣١٨

قوله عز وجل : من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أكره ............. ٣١٩

قوله عز وجل : وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله .......... ٣٢٤

قوله عز وجل : انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به ، ومعنى الإهلال ورجوع المؤلف عما فسره به في الآيات السابقة .................. ٣٢٨

قوله عز وجل : ان ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ........ ٣٣٤

قوله عز وجل : ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم ........... ٣٣٧

قوله عز وجل : إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ......... ٣٣٨

قوله عز وجل : ادع الى سبيل ربك بالحكمة .............. ٣٣٨

قوله عز وجل : وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به .......... ٣٤٠

قوله عز وجل : واصبر وما صبرك الا بالله . . . . . . . . . . . . . . . ٣٤١
قوله عز وجل : إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . . . . . . . ٣٤٢
قوله عز وجل : ( سورة بني اسرائيل ) سبحان الذي أسرى بعبده . . . . ٣٤٧
: بحث في الاسراء وتفاصيله . . . . . . . . . . . . . . . ٣٤٩
قوله عز وجل : وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل . . . . . ٣٥٣
قوله عز وجل : وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض
قوله عز وجل : ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها . . . . . . . ٣٥٥
قوله عز وجل : ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم . ولو يعجل الله
للناس الشر استعجالهم بالخير . وجعلنا الليل والنهار
آيتين فمحونا آية الليل . . . . . . . . . . . . . . . ٣٥٩
قوله عز وجل : وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة
كتاباً . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٣٦٤
قوله عز وجل : حال أولاد المشركين في الآخرة . . وما كنا معذبين حتى
نبعث رسولاً . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٣٦٧
قوله عز وجل : واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . . . ٣٦٩
قوله عز وجل : من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد . ٣٧٠
ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن . . . . . . . ٣٧١
قوله عز وجل : لا تجعل مع الله الهاً فتقعد مذموماً مخذولاً . . . . . . . . ٣٧٢
قوله عز وجل : وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً . . ٣٧٤
قوله عز وجل : ربكم أعلم بما في نفوسكم . . . . . . . . . . . . . . ٣٧٤
قوله عز وجل : وآت ذا القربى حقه . ولا تبذر تبذيراً . . . . . . . . . . ٣٧٩
قوله عز وجل : ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ٣٨٢
قوله عز وجل : ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق . . ولا تقربوا الزنا .
ومن قتل مظلوماً فقل جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في
القتل . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٣٨٤
قوله عز وجل : ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن . وأوفوا الكيل

اذا كلتم وزنوا بالقسطاس ، ولا تقف ما ليس لك به
علم ........................ ٣٨٦
قوله عز وجل : ولا تمش في الأرض مرحاً ............... ٣٩٢
قوله عز وجل : ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا . . قل لو كان معه
آلهة كما يقولون اذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً . واذا
قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة
حجاباً مستوراً ........................ ٣٩٤
قوله عز وجل : واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم
نفوراً ........................ ٣٩٨
: شبهة لمنكري البعث وجوابها ........................ ٤٠٢
قوله عز وجل : وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ............... ٤٠٥
قوله عز وجل : قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر
عنكم ولا تحويلاً ، أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم
الوسيلة ........................ ٤٠٧
قوله عز وجل : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس ........ ٤١٣
قوله عز وجل : والشجرة الملعونة في القرآن . قصة السجود لآدم وامتناع
ابليس منه وتهديده ........................ ٤١٤
قوله عز وجل : وشاركهم في الأموال والأولاد . ان عبادي ليس لك
عليهم سلطان . . ربكم الذي يزجي لكم الفلك في
البحر ........................ ٤١٧
قوله عز وجل : ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر . يوم ندعو
كل أناس بإمامهم ........................ ٤٣٤
قوله عز وجل : ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى . وان
كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك . ولو أن ثبتناك
لقد كدت تركن اليهم . اذاً لأذقناك ضعف الحياة
وضعف الممات . أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق

الليل .......................... ٤٣٠
قوله عز وجل : عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً وما هو .......... ٤٣٣
قوله عز وجل : وننزل من القرآن ما هو شفاء . واذا أنعمنا على الانسان
أعرض ونأى .......................... ٤٤٣
قوله عز وجل : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ......... ٤٤٧
قوله عز وجل : ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ........... ٤٤٩
قوله عز وجل : قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا
القرآن .......................... ٤٥٠
: تعنت المشركين في طلب المعجزات والرد عليهم ...... ٤٥١
قوله عز وجل : جعلوا كون الرسل من البشر حجة على الكفر بهم والرد
عليهم .......................... ٤٥٣
قوله عز وجل : من يهد الله فهو المهتد ................ ٤٥٥
قوله عز وجل : ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ............ ٤٥٧
قوله عز وجل : قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي اذاً لأمسكتم خشية
الانفاق .......................... ٤٦١
قوله عز وجل : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات . وما أرسلناك إلا
مبشراً ونذيراً ، وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على
مكث . إن الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم
يخرون للأذقان سجداً . قل ادعوا الله أو ادعوا
الرحمن . . ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ....... ٤٦٣